سجين الخليفة

إثنا عشر عاماً أسيراً بأم درمان

تأليف

شارلس نيوفلد (١٨٩٩)

ترجمه للعربية بتقديم

محجوب التجانى محمود

PRISONER OF THE KHALEEFA
Twelve Years Captive at Omdurman
by
CHARLES NEUFELD
New York : G. P. Putnam's Sons
London : Chapman & Hall, ld., 1899
Printed by Wiliam Clowes and Sons, Limited
London and Beccles

تصميم الغلاف : الفنان محمد سعيد
الإخراج الفنى : الفنان جميل مدبولى

رقم الإيداع
٢٠٠٦/١١٧٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاةُ والسلامُ على سَيدنا محمدٍ وَعلى آلهِ وصَحبهِ والتابعين

مُؤَلَفٌ حَيٌ لأكثرِ من مِائةِ عَام

ندرة مراجع المهدية وتقويمها

الإعتماد على مراجع الأسرى السياسيين أمر صعب فى مجال الدراسات الموثّقة على وجه العموم . فالأسير يكون مدفوعاً بكراهية السلطة التى تأمر بأسره ، وقد تذيقه العذاب ، فيزداد كُرهاً لها ؛ ومن ثم ، لربما يناله قسط من التحيز وتعدى حدود الوقائع الفعلية فى حديثه عنها . وما من وسيلةٍ سهلةٍ لمراجعة شهادة الأسرى حول الأنظمة السياسية ، سيما تلك التى عفا عليها الزمان ، وانطوت صفحاتها مع التاريخ .

ولئن كان ذلك الحال معاشاً فى الأوقات المعاصرة ، برغم ما حَظيت به من تدوين وتوثيق مرئى بالتقنية الحديثة ، فالظروف لا شك أنها أشد عُسراً فى العهود السابقة ، وفى البلدان التى لم تتوفر بها الوسائل التقنية المعاصرة ، بل كان التدوين بها محدوداً أو نادراً . فكثير من أحوال الأسرى فى ظل الأنظمة السياسية المختلفة فى القرن العشرين لا تزال غامضة ، وقد ماتت مع وفاة أصحابها وشهودها فى حالات عديدة . وبقيت على جدران السجون وشواهد القبور بعضاً من خفاياها ، دون كشفٍ أو دليل عن إجرام السلطة ، أو مغالاة الأسير .

مثل تلك الندرة حول المراجع التاريخية الموثقة توجد بالتأكيد فى حالة الثورة المهدية السودانية ، ودولتها ، وحروبها ، ونظم إدارتها ، ومؤسساتها ، ومعاملتها للأسرى . فبالرغم من المؤلفات التى خَطّها أرباب الإستعمار وعناصره الأجنبية عن الثورة ودولتها وإدارتها ، لم تنعم المكتبة السودانية بمؤلفات معاصرة كافية لها بأقلام سودانية . وظلت منشورات المهدية وحدها ، الى حدٍ كبير ، أصلاً مرجعياً لا بديل له فى تلك الناحية ، إضافةً إلى وثائق الحكم العثمانى المصرى أو ما تعارف عليه السودانيون بالتركية السابقة التى لم يُكشف النقاب عن قدرٍ مُعّين من وقائعها وأسرار إدارتها إلى اليوم ، وما توافر عليه أساتذة التاريخ ومحققوه، سودانيين كانوا أم غير سودانيين ، من تحقيقٍ علمى ، لتمكين القُراء من الإلمام بأكبر قدرٍ موّثق عن الثورة وحقائقها .

حقاً، إن ثورة السودانيين على الإستعمار الأجنبى ومظالمه ومساوئه الرهيبة بحق الإنسان والأرض والثروة الوطنية، يظل أمراً مُرّوعاً. فلقد أعادت أحداث تلك الثورة على مدى الأيام صفات حميدة ومتوارثة للشعب السودانى، منذ عُرف أيام ما قبل التاريخ : شعباً عريقاً ، كريماً ، حُرّاً ، مُعَلِماً .

والواقع أن مؤلفات الأسرى الذين وقعوا فى قبضة الثوار منذ إندلاع المهدية وإلى ما بعدها، لم تتنكر تماماً لتلك الصفات . فقد ذكر الأب أوهرولدر النمساوى ، وإبراهيم باشا فوزى نائب غوردون حاكم عام السودان فى آخر سنين الحكم التركى حين قامت الثورة ، وسلاطين باشا الذى كان حاكماً للخديوية المصرية على دارفور ، وغيرهم ، قصصاً عن صفات القادة « الأمراء » وجنودهم من أهل السودان ، تماثل صفات شعبهم الذى ينتمون إليه . غير أن مؤلفات الأسرى حفلت بتناقضاتٍ عديدة حول أشخاص القيادة : ما يعطى أسيرٌ إنطباعاً طيباً عن الإمام المهدى ، حتى يُقّوضه آخر ؛ وهكذا حالهم بالنسبة للخليفة عبدالله ، وأمراء الدولة ، وقادة مؤسساتها وسائر أعمالها . يتركنا ذلك التناقض الجارى بين كتابات الأسرى ، في حاجةٍ للبحث والإستقصاء ، علّنا نجد رداً شافياً تطمئن إليه النفوس حول ما يقولون .

لقد حاولنا فى مؤلفنا **العقاب ومعاملة الجانحين فى دولة المهدية** (مطبعة الثقافة والإعلام، أم درمان ، ١٩٨٤) ، وهو بحث تاريخى إجتماعى ، أن نضع شيئا من التقويم لمؤلفات أسرى المهدية . ومما ذكرناه أنها لأشدّ ما تتضارب أقوالها حين الحديث عن مفاهيم العدل والإحسان ، ومعايير القرار المناسب وفق مقتضيات الحال بالنسبة لقادة المهدية فى نطاق الظروف السياسية والإدارية التي أحاطت بهم ، وبدولتهم فى تلك الفترة ، مع وضع طبيعة الدولة نفسها كتنظيم رئاسى عقائدى أحادى، وتركيبة المجتمع السودانى كمجتمع فلاحى رعوى ، وما خَلّفه الحكم التركى المصرى من إرثٍ معاكسٍ لأغلبية السكان ، مفسدٍ، وقائم على الإستغلال والإستعباد ، فى المبدأ والأساسى . فما فائدة أَميالٍ من رصف الطرق ، اذا كان الهدف نقل الرقيق ؟ وأى خير تَجنَى من حكمٍ بالسياط والتعذيب الدموى ، أقوات الفقراء ؟! لكم يتمشدق الإستعمار ، قديمه أو حديثه ، بتحديث الشعوب وتطويرها : وما يفعل إلا خساراً لقّيمها وحقوق إنسانها !

ثورة شعبية ودولة فلاحية

يقول شارلس نيوفلد مؤلف هذا الكتاب ، الذى طبعه عقب فك إساره من سجن المهدية على أيدى القوات الأنجلو - مصرية الغازية (١٨٩٩): " الدين هنا يشغل محل

السياسة فى أوروبا ، وعندما يثور العرب ضد القوى الكائنة ، فإنهم يُدْعَمون بمسألة «دينية» لأن قوانينهم قائمةً بمطلقها على القرآن ". وما أصدقه قول ! فالعرب المسلمون الذين اضطلعوا بثورة المهدية فى وضع طبقى ، وضع غير العرب فى قاع المجتمع ، وإن أسهموا بالأنفس والممتلكات فى بنائه والزود عنه ، ما لمصلحةٍ مباشرةٍ، وإنما ثمناً لحياة العبودية والإضطهاد ، وهم وقد قاد ثورتهم نُوبى مستعربة أصلاً من جزيرةٍ فى النوبة السودانية هو الإمام محمد أحمد المهدى ، كانوا وما يزالون أهلٌ للقرآن، وحديث خير الأنام النبى المختار ، محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام . فهل طُبِّق القرآن؟ وهل أُجرى الحديث على أهل السودان من دولة المهدية على عرب السودان وأفارقته ، دون تمييزٍ ، على حُسن تطبيقٍ ومآل ؟

إرث أتراك الخديوية بحكمهم الإستبدادى ، إمتزج بإستبداد زَعامة البدويين والفلاحين ، ليجعل من تطبيقات الدولة المهدية مسرحاً لممارسة السلطة الطاغية ، والتحكم الطبقى ، والتخلف الإدارى – وهى مثالب ما انفك مجتمع السودان ضحيةً لحكوماته المتعاقبة الممارسة لها إلى يومنا هذا . " الدين هنا يشغل محل السياسة فى أوروبا " حقاً ! ولكن ، أى حُكمٍ ذلك الذى يَلصق بالقرآن الحكيم والحديث الشريف ، إستئثار حاكم بحق الحياة وعقوبة الموت الزؤام ؟ أى دينٍ ذلك الذى يُكّبل بأطنان الأغلال مَنْ يتجاسر بالرأى المعارض فى وجه الحكام ؟ وأى قارةٍ تلك التى تُحيل الإنسان الى جنسٍ آخر لا يحمل من البشر إلا اللحم والعظام ؟!

قامت دولة المهدية واستنارت ثورتها بالدين تأسيساً على " أيدولوجية إسلامية " ، فيما خلص إليه الدكتور المحقق محمد إبراهيم أبو سليم (أنظر مؤلفه **منشورات المهدية** (١٩٦٩)) ؛ وتكورت علاقاتها الإقتصادية وفق قواعدٍ متأثرة بالأيدولوجية الإسلامية ، وفقاً لتحليل الدكتور المؤرخ محمد سعيد القدال (راجع مؤلفاته العديدة فى شأن الثورة ومنجزاتها) . ومن ناحيتنا ، قدمنا ما يفيد عن قيام الدولة " على أساسٍ إسلامى " فى نظرتها للجريمة والعقاب ، مع التأكيد على وجود تجاوزات فى المعاملة والتطبيق . ووجدنا ما يدل على تمتع قادة المهدية ، وفى طليعتهم الإمام وخليفته ، بالمهارة الإدارية ، والحكمة فى معالجة كثير من الشئون الشائكة لدولتهم الوطنية فى خِضّم مُحيطٍ بالعداوات الخارجية ، والمناهضة الداخلية من أكثر من جهة (**العقاب ومعاملة الجانحين** ، مرجع سابق).

أما أن الدولة نفسها كانت نموذجاً للتطبيق الإسلامى ، فقفزٌ لا يستند على دليلٍ جامع . ولعل الأصح أن يقال إن ثورة المهدية ودولتها ، وما صدر عنها من أداء ، كانت إنتفاضة شعبية كاسحة فى وجه طغيان أجنبى غاشم ، وإنها استرشدت بأيدولوجية

إسلامية تمثلت فى كثير من شعاراتها ورموزها الحاكمة ، تحت ألوية قادة مؤمنين بها وبضرورة تثبيتها فى البلاد السودانية . ولكنها ، كدولةٍ فلاحيةٍ فى مجتمع بدوي ورعوى شامل ، أصابها ما يصيب سلطان القبائل المتنازعة من صراع قتالى حول الحكم ، ونزعةٍ جائشةٍ للتحرر من نفوذ المركز ، وقد ساعد فى مواصلة النزاع الدائم ظروف المجابهة الخارجية مع الإمبراطوريات المتربصة عبر الحدود برأسماليتها الهائجة ، وإشكالات القيادة الشائكة التى لم تسلم على إخلاصها لأيدولوجية الحكم من شهوة القرار ، وهاجس الغيرة ، ورفض المراجعة والإنتصاح .

ما يبدو لنا أن الأسير نيوفلد ، وقد عاش ثلاثة عشر عاماً فى سجن المهدية ، لا ينتقل من مبناه الرسمى « الساير » إلاّ ليجول فى قسم آخر منه ، سوقاً كان ، أم شارعاً عاماً ، ما كان له من أمره شيئاً سوى أن يجاهد ليبقى حياً ، كما جاهد فعلاً ، وأن يُبقى ما استطاع على ثقافته وتفكيره الخاص - أوروبياً مسيحياً - يقاوم ضغط السلطة القاهرة من فوقه ، وجُندها المحيطين به ، ليجعل من دينه وثقافته ومجمل تكوينه إنساناً آخراً بالقوة وجبروت الحكام . أفى كل هذا شيء من القرآن أو الحديث؟!

الأصح فى رأينا ، أن يقال إن ما تمخض عن الحكم العثمانى المصرى (١٨٢١ - ١٨٨٥) ، وما آل إليه من ثورةٍ سودانية أخرجت دولةً للمهدية - (١٨٨٥ - ١٨٩٨) ، وما أعقب كل ذلك من عَودٍ إلى سلطة الأجنبى (١٨٩٩ - ١٩٥٥) التى أزالها الحكم الوطنى (١٩٥٦) ثم ما جَدّ على الحكم الوطنى من فَشل مستديم دون إزالةٍ لممارسات السلطة الطاغية، والتحكم الطبقى ، والتخلف الإدارى هو " أزمة معاملة الحكم " فى السودان ، الأزمة التى لا تزال تنخر فى جَسد الأمة السودانية إلى اليوم ، لا يُضَع لها حدٌ إلا بإجماعٍ قوميٍ رشيد .

إنه لمفهوم أن الأسرى غير المسلمين ، ما كانوا على إلمامٍ دقيقٍ بمفاهيم العدل والإحسان الإسلامية السوية التي تحول دون إستبداد الحاكم بالرعية ، وتأمر " ألا سَمْعَ ولا طَاعَة " لمن يعصى ، حاكماً كان أم محكوماً ، تعاليم الدين الصحيحة . وإنه لأمر مثير ، مع ذلك ، أن نيوفلد أتى فى كتابه على كثيرٍ من ممارسات السودانيين السياسية والإدارية ونقد ما بها من أخذٍ بالثقافات المحلية ، وما اعترى تطبيق الشرع من تناقض أو تجاوز فى بعض الأحيان . وفى مقدمة هذه الجوانب ، قَبَلية الحكم، تحجر أيدولوجية الثورة ، مأساة الرق ، وما وصفه نيوفلد " بالغيرة من القوة وإستعلاء السلطة " . وما كانت كل تعليقاته سالبةً : أثبت لدولة المهدية قدراً من الإلمام بالإدارة والمالية مُشيداً بُقدرات أمين بيت المال إبراهيم عدلان وثقافته العالية ؛ وأَثبت لها صحوة مخابراتها وقوة متابعتها لأحوال العالم من حولها ، خاصة أخبار مصر - تجارة وعيوناً وصحافة - وحسن إلمامها

بفنون الدفاع والقتال وتصنيع بارود الحرب وما إليه مُشيداً بشخصيات معينةٍ منها من قام بحمايته ، أو إنهاض همته ، أو إحترام كرامته. وبهذه اللفتات ، يبين نيوفلد فى مواقفٍ حكاها تفصيلاً (مثال حمايته من التعذيب بتدخلٍ مباشر من أمير الفرقة التى قامت بأسره ، وإنقاذه من الموت جوعاً بما أسداه له السجناء من قادة المهدية ، وغضب الخليفة نفسه من تعذيب أمير السجن وجنوده لنيوفلد ومجازاتهم بشدةٍ) أن ثورة المهدية ودولتها، ما كانت خُلواً من العدل والإحسان ، وقُدرات الإدارة والأمن والدفاع - أسروه جاسوساً يتاجر بإبادتهم ، لم يؤذوه ؛ وانتزعت فضائلهم إعترافاً نادراً منه حين كتب يقول عنهم فى رهق الصحراء عقب أسره : " وقفنا فى الليل وتقاسمنا الماء ... "

ما من رَعْىٍ بنَواةِ بغىٍ

فى نفس السياق ، أنحى نيوفلد باللائمة على عَسّف السلطة واستبدادها بالرأى ، ودوسها على حق الناس فى المعارضة والمطالبة بالبدائل الأصلح ؛ وبتحديدٍ شديد ، صبّ نيوفلد جام سخطه على "غيرة الخليفة من القوة ، واستبداده بالسلطة ". ثم تصاعد نقده لأبعد الحدود فى طول كتابه وعرضه على مأساة الرق فى السودان ، نتيجةً مباشرة لسياسات الحكم العثمانى المصرى (١٨٢١ - ١٨٨٥) ، وإنه ما كان للمهدية وقد دمرت السلطة العثمانية المصرية - بديل سوى مواصلة الرق ، وإهدار إنسانيته بالرغم من أن نيوفلد يلاحظ فى آخر ما خطه يراعه : " كرقيقٍ، يتعين على سيده أن يكفل طعامه وكسوته، وأن يعيل زوجته وأطفاله مقابل خدماته ، ولأنه «ملكية» يعامل بعنايةٍ فائقة ؛ إنه ... عبد إسمياً ... " وما من رعيٍ بنواة بغيٍ ، مع ذلك ؛ يبقى الرق عاراً وقُبحاً مستديماً ، وقد مارس شارلس نيوفلد بنفسه إمتلاك الانسان كما فعل أعداؤه - ظلماً تفاقم بكل القارات مسيئاً للبشر ايما اساءة. ويظل في صفحة التاريخ قاعاً يُجّلل بالعار كُلَّ من يستعبد بالإنسان إنساناً.

كان نيوفلد يسجل آراءه وعواطفه كأسير أوروبى مسيحى ، فكان أكثر ما يؤلمه ذلك الأسر المرير فى عصرٍ سادت فيه أوروبا على قارات العالم تفوقاً عسكرياً وعلمياً باهراً ، إرتفعت به قامة أهلها ، واستطالت بعنجهية التفوق ونشوة القوة ، تلتهم فيما تلا عصرها من عهود ، ما بلغته دولها من مساحةٍ ، مبدلةً ما أدركته من ثقافاتها ما استطاعت . وفى ظل هذه الهيمنة والطاغوت الدولى ، تضاعفت أحزان نيوفلد وسائر الأسرى الأوروبيين مما حاق بهم من هوانٍ وإستصغارٍ ، على أيدى فلاحى السودان وقبائله البدوية . ما كان السودانيون أنداداً بأى معيارٍ منصفٍ لأعدائهم المسلحين بالتقنية الساحقة ، ناراً

وتواصلاً وإتفاقاً متبادلاً من أول قارتهم لأقصاها . ولكن السودانيين كانوا أكثر من أندادٍ لمن خاض حُرمة ديارهم من عثمانيين أتراك أو أوروبيين : وقفوا في وجه عدوانهم ؛ رفعوا راياتهم ، ودقوا طبولهم ، وقرعوا نحاسهم ؛ ثم توحدت صفوفهم ، فامتشقوا سيوفهم ، وأشهروا ما ملكته أيديهم من بنادقٍ عتيقة . وفوق كل ذلك ، وبينه ، قدموا قياداتهم الخاصة واستهدوا بشعاراتهم السامية ؛ ولم يكن لنيوفلد وأقرانه فى كل ذلك دوراً يلعبوه، ولا مجداً يَدّعوه . وبوضع تلك الصورة فى الإعتبار ، نفهم كثيراً من الدوافع النفسية والأدبية التي تجعل ممكناً للأسير نيوفلد إستخدام أقصى ما لديه من سخرية وإحتقار للتصغير من شأن المهدية ، عقيدةً ، ودولةً وأداءاً ، صموداً وإستبسالاً ، ونهاية . ما بوسعنا اليوم ، بعد مائة عام أو تزيد قليلاً ، أن نأخذ كل ما كُتب علي عواهنه دون نقدٍ وتمحيصٍ ومراجعةٍ ما توافرت المراجع ؛ وما علينا إن أبينا مَنْ يُجير علينا .

كتب ونستون تشرشل ، رئيس الوزراء البريطانى الأسبق ، وكان ضابطاً يافعاً فى **حرب النهر** (١٩٦٤) مؤلفه الذى سرد فيه ما جرى في معركة كررى الفاصلة ضمن أحداث أخرى ، فأفاض فى تمجيد أهله . ولكنه برغم ما انطوى عليه كتابه من نعوت وأوصاف إستعمارية خاطئةٍ عن جيوش المهدية نحو إعتبارهم "وحوشاً " و " برابرة " إلخ، لم يُنكر على المهدية جيشاً ورجالاً فروسيتها ، وعزمها على مجابهة " الإستعمار " ومقاتلته فى بأسٍ وعنف ، شهد له الملازم تشرشل فى تأكيد وصدق . ثُّم خلص فى كتابه إلى أن براعة فرسان المهدية ما كانت أقل بأى حالٍ من الأحوال من براعة المستعمرين فى ساحات الوغى . ولكنها ضمن أسباب أخرى ، هى تلك التقنية الحديثة التى حصدت بالآلاف فرسان المهدية فى كل المعارك ، وهى العامل الحربى الرئيس الذى أدى إلى هزيمة السودان واستمرار الإستعمار ، وهى التى جعلت لعبارة تشرشل "كانت كررى معركة الوداع لعصر الفروسية "مضموناً بليغاً وصادقاً ، وهى وما توصل إليه محارباً فى الميدان من إشادةٍ بصلابة عدوه وشجاعته المثلى ، فاصل بين ما بَيّن نيوفلد الأسير الساخر ، وتشرشل المنتصر المأسور .

شخصيات فى الأسر

تناول شارلس نيوفلد بالذكر شخصيات معدودة قاسمته مرارة الأسر ، ومنها إبراهيم باشا فوزى ، والأب أوهرولدر ، وسلاطين ، ومن السودانيين الأمير إدريس ود الساير ، وهو قائد حرس السجن ، والسجين شيبو الذى نال بإدعائه السحر أطباقاً من الطعام الفاخر مما عاد عليه وبالاً – فيما يذكر نيوفلد – من قبل أمير السجن والقاضى

اللذان كانا من أبرز ضحاياه ، فتلقى مئات السياط لفشله فى تحويل النحاس ذهباً !

كان إبراهيم فوزى رجلاً أميناً على خُلق وطيبة ، وقد تطابقت شمائله مع شارلس غوردون الذى نال مكانة مقدرةً فى أوساط عامة السودانيين ، وبخاصةٍ الأسرى المقهورين من تجار الرقاب البشرية الذين خَلّصهم غوردون من ذلة الرق ، وحَرّر إنسانيتهم من تجارة الأشرار . فَصَاحَب إبراهيم المصرى غوردون البريطانى حقباً من الزمان فى خدمة الخديوية بالسودان ؛ صارعا معاً فساد الحكم العثمانى المصرى ، والتزما التصدق والعطف على الفقراء والمساكين ، ومن ذلك خالطا عامة الناس واكتسبا إحترامهم وتقديرهم . ومن هؤلاء زاهدون كانوا يبشرون بالثورة . يقول نيوفلد إن إبراهيم قاد حملةً فى بحر الغزال لإصلاح إدارة الدولة فى وقت كان غوردون يقود فيه حملةً مماثلةً فى مديرية دارفور . وخلال مروره بالنيل الأبيض قافلاً إلى الخرطوم كان يمد محمد أحمد عبدالله ، العابد المعتكف فى أبا « بالمؤن والأغذية » . فلما وقع إبراهيم فى الأسر ، بايع العابد الفقير مَهّدياً للأمة ، بعد عتابٍ رقيق أكد فيه المهدى رضاءه عنه وتفهمه لإخلاص إبراهيم لمهامه ، وموقعه السابق كنائب للحاكم العام غوردون ، وقائداً لقواته المحاصرة قبل سقوط الخرطوم . إن إبراهيم باشا فوزى كان من أنصار أحمد عرابى المصرى الوطنى الشهير وقد دفع ثمناً لذلك طرده من الخدمة قبل أن يعيده غوردون للعمل معه في السودان . أما غوردون نفسه ، فقد " غضب المهدى لقتله " فيما يثبت نيوفلد في كتابه .

ذكر إبراهيم فوزى في مؤلفه **السودان بين يدي غردون وكتشنر ، ١٣١٩هـ** مواقف كريمة لقادة المهدية ، ومنها عطف الخليفة عبدالله على إبنه الصبي فوزى حيث عهد إلى الأمير بانقا برعايته ، وحمايةً له من الأسر بالسجن . ولم ينس إبراهيم الإشارة إلى ما تعرض له من عذابٍ مؤلم يُبكى الأشداء . ومن هنا فَارق فى أسلوب سرده ما توافر عليه نيوفلد من مبالغةٍ فى مواجهة مواقف الأسر الصعبة ، وتجنبه الإشارة الكافية في أكثر من مكان لما وجده من إحسان ، وإن قَلّ مداه . وفى حين تعامل فوزى مع السودانيين كأبناء عمومةٍ وأشقاء ، دون أن يجهل مقتضيات النقد الموضوعى لسلبيات الحكم والإدارة فى كلٍ من دولة الأتراك المصريين ودولة المهدية السودانية ، أمعن نيوفلد فى نعت القوم " بالتوحش " ؛ قال إنهم " وحوشاً كانوا " . ثم عاد فى آخر ملحقٍ بمؤلفه عن مستقبل السودان عقب إسقاط دولة المهدية يقول : إن " الوحشية " لا تقاس بلونٍ ، ولا يحكمها جنس - والرجوع إلى الحق فضيلة .

اللّٰه يشهد أن «الوحش» الحقيقى كان هو الحكم الأجنبى فى الأساس ، الأتراك العثمانيون الذين قادهم محمد على والى مصر بلغته التركية وطموحاته الإستعمارية ليجعل من السودان وأهله ملكاً مباحاً لأسرته ، ومن والاها من تجار الذهب وعملاء الرقيق . وها هُنا ، نسجل رأياً حسناً لنيوفلد إذ يوصى حكام السودان " أَن احكُموا بالعدل والإحسان " شعباً لا ينحنى لسلطان ولا يخضع لحاكم ، طال قهره أو إستطال عذابه" ، أو كما قال . وقد أضاف نيوفلد فى ذلك الملحق وصايا فنية تتعلق بثروات القطر ، وضرورة الإقتصاد فى غمرها بالصادرات ، مع الحاجة إلى منع السلع التفاخرية بعبارة إقتصادياتنا الحديثة، ومن أفضل ما لاحظه خصائص معدن الحديد فى ديار الدنكا، ولفت النظر إلى أرض الجنوب المعطاءة الخيرة. ومن أقوى ما أوصى به ، وضع حدٍ للترتيب الطبقى العنصرى بين السودانيين – جميعهم أفارقة أصلاً . ومع ذلك ، يبغى أسودٌ عربى على أسودٍ سودانى ، ويغرس الإثنان سنانهما على أسودٍ مُستَّرق – ما فى هذا الترتيب عَقْلٌ ولا خُلُقٌ. وهو على أرجح ما يُقالَ كِبَرٌ يُخْتَلَق.

يوثق نيوفلد تلك الصفحات الحالكة من عهد التركية السابقة : منذ بداية ما أسماه السودانيون بحكم التركية، إلى قيام عصيان ١٨٨٢ . لم يُحقق أى عمل لتنمية مصادر القطر الطبيعية – وإنما جرى العكس تماماً. إن التجارة الوحيدة التى عُنّى بها المسئولون هى الإتجار فى النفوس، المسحوبة بمختلف الوسائل من المناطق الزراعية المسالمة التى نَضبّ معينها من سكانها البالغين بحملات الرق، لمد أجنحة الحريم فى شبه الجزيرة العربية، والجزائر ، ومصر ، وتركيا بالخصيان والسرارى. ومن ثم، فقد تحول كل القطر إلى ضيعةٍ لتلبية حاجات الحكم اللا إنسانية، جَبياً لأثقل الضرائب، نهباً للبشر، وتنقيباً جشعاً للذهب.

والحق يقال، إن نيوفلد قد يُعّد من أوائل المستثمرين الأوروبيين الذين جذبتهم إلى السودان إمكاناته الإستثمارية الكبيرة تجارةً، زراعةً، ومعادن، وفوق كل شئ، موارده البشرية الغالية. وقد هتف صارخاً أن السودان "سلة للغذاء" – حقيقةً، ما جعل لها الحكم الثنائى مجالاً إذ انصرف همه إلى استنبات القطن، ولم يعطها وراثُه من الحكومات الوطنية ما تستحقه من إهتمام؛ إنصرف همهم إلى تركيز محاصيل "الكاش"، واستجداء المعونات لسد فجوة الغذاء جرياً وراء إقتصاديات الصادر وإغراق الأسواق بسلع الكماليات – وهو عين ما راءه نيوفلد بثاقب بصيرته التجارية، ولما تزل البلاد مساحات شاسعة، بلا مواصلات منذ قرنٍ مضى.

من الطريف أن مؤلف نيوفلد يثبت تصنيع المهدية للذخيرة الحربية - البارود، بالموارد السودانية، وخبراتها فى المجال، ومن ذلك تعدين المواد الكيماوية اللازمة؛ ويؤكد تصنيع الألغام بغرض صد الجيوش الغازية؛ ويُدّون صك العملة السودانية فى بيت المال، وتحويلها من غطاءٍ فضى إلى نحاس، وإلمام خبراء مالية الدولة بما سيُفضى إليه ذلك التحويل من آثارٍ سالبة فى سوق المعاملات. إن كتابة - نيوفلد - على غير ما عَنىّ بها أصلاً - تنفى عن المهدية شيئاً غير يسير مما يسدده الأسير الساخط، من حقدٍ وذمٍ وتجريح.

أسئلة مُشكِلة

كتب شارلس نيوفلد : " لو وُضعت قساوات عبد اللّه جنباً إلى جنب مع تلك التى ارتبطت بالثورات فى أقطارٍ أخرى، فسوف لا تكون قائمته هى الأطول ... لقد كان القهر بلا شك عظيماً، ولكنه كان مُركزاً فى مكانٍ واحد". ويقول فى مكانٍ آخر من مؤلفه : "لو عاش محمد أحمد، ما كان ليوجد شك فى أنه كان سينجح فى تأسيس نوع من الحكومة التى أطاح بها". ويكتب "وبموت المهدى وجد عبد اللّه نفسه مُناطاً بعهدٍ ما كان سيُمّكنه من الوفاء به، كما رأى لتوه، سوى طغيانٍ عسكرى شديد البأس، ومهدداً بالهجوم من كل نقاط البوصلة، كان مواجهاً كذلك بتمردات داخلية عليه أن يجابها، بلا هوادة."

الأرجح لدينا، أن العبارات السالفة، التى ضمنها نيوفلد خاتمة كتابه تعكس آراءاً مختلفة بالمقارنة مع ما تغص به فصول كتابه الأولى من تحاملٍ أعماه عن فهم تخلف النزاع بغرسه الخديوى. والواضح أن تحريره من الأسر وعودته إلى أهله وممارسته الحرية بأوسع أبوابها عوامل أعانته على تقدير عباراته، وما حملت من تعديلٍ - ما فى أصل قوله أو ما تفرع عنه مَحْمَلٌ على تزيين ظلم، أو تجميل عدوان، أو تبرئة جانى.

ومع ما أتيحت لنيوفلد من سانحةٍ لإعادة النظر فى مخطوطه قبل النشر، بغرض التصحيح والتدقيق، أخفق نيوفلد فى إبداء عاطفة المواساة الإنسانية لجرحى كررى، العاطفة التى أغَدقها على الأسرى الأوروبيين - مع أنهم بشكلٍ عام نالوا قدراً معلوماً من الرعاية، بل ولاقى سلاطين من الإكرام ما لم يحظ به كثيرٌ من أمراء الدولة.

قضى نيوفلد فى الأسر سنين طويلة شملت عهد الخليفة عبد الله، وغطت مساحةً واسعةً من الأحداث بما فى ذلك قصة أسره وهو ينتقل بقافلة تجارته، مصحوباً برسالة من الجنرال ستيفنسون وجيشه المتربص بالمهدية فى أسوان، وكوكبة من رجال الشيخ

صالح، الزعيم المناهض لحكم المهدية، تنقل سلاحاً وذخيرة. إن قصة الأسر بيانٌ على قوة مخابرات المهدية فى مواجهة جيوش الاستعمار، ويقظتها، وتوفر أدلةٍ حية على صفات أمرائها وجنودها، وما كانوا جُناةً إذ يصدون خرقاً صارخاً لحدود بلادهم وسيادة دولتهم – وما ذكر شيئاً من تلك الدوافع فى سرده، بالرغم من إعترافه الصريح أنه كان "يعقد صفقات فى شأن مصلحة المخابرات البريطانية فى مصر فيما يختص بالسودان" وكذلك "تجارة القوافل" عملاً مشروعاً فيما يبدو وستاراً أكيداً.

تتجاذب القارئ تلك الصورة المتناقضة عن تقويم نيوفلد لثورة السودانيين التى أدرك فى وضوحٍ أسبابها المتمثلة أساساً فى مساوئ التركية السابقة، وفساد حكامها، وانتشار إستلاب الرقاب، ونهب الممتلكات. ولقد كان الرجل من المستأمنين لحكم الثوار عقب أسره، بالرغم من مجاهدته الكبرى لإعطاء صورةٍ رافضة تماماً للتعاون مع المهدية. والواقع أنه استكان للواقع، على مرارته له، وتآلف معه، وتزوج إمرأة سودانية وأنجب منها، وأخرى من أهل المنطقة رُزق منها بإبنة؛ و وّظف مؤهلاته الكيماوية والطبية، ولو كان متظاهراً فيما أدّعى، فى خدمة الدولة. ومع اعتناقه دين الدولة، ما كان لأحدٍ أن يلومه عقب فك إساره لإسترجاع عقيدته، كما أن حمله على ترك دينه لا يسنده إسلامُ، ولكنه تقليد فَرضه التجبر، لا يقره حق ولا يقبله عدل، و "لا إكراه فى الدين." يُعّلم مُحكم التنزيل.

يعكس تقلب نيوفلد فى الولاء لأهله المستعمرين وأعدائه الآسرين موقفاً إنسانياً معقداً يثور به سؤال مُشكل : أكان الأسير خائناً للمهدية بعد إذ أعلن إسلامه فى خدمتها وظل، فيما كتب، يفعل فى الخفاء كل ما فى وسعه للقضاء على الدولة وقادتها؟ أم أنه كان شريفاً يتظاهر بالولاء لسجانيه، كيما يحافظ على عقيدته المسيحية وعلاقاته بوطنه وحلفائه تحت سلاسل الأسر؟ إن اعترافات نيوفلد بولائه المزدوج فى واقع الأمر، بالرغم من رسالة سيتفنسون وما بعث به من رسائل خطيرة إلى قوات كتشنر من وراء أسوار السجن فى أم درمان، لم تكن فيما يبدو شافيةً لعاصفة النقد الهوجاء التى عَصّفت بمقدمه إلى القاهرة، قُبيل سفره إلى بلاده الألمانية. فقد شّنت عليه الصحافة هجوماً عارماً، متهمةً له بالتعايش والرضاء بحياة الأسر، والتقاعس عن واجب الهروب، ومقاومة المهدية. ومن ثم، اجتهدت صفحات كتابه بغلواء العداء والكره عَلّه ينفى الإتهام. ولنا أن نسأل، أكان لنيوفلد حقاً قرار يملكه ليحدد ما يشتهيه لنفسه، تحت إسار الثوار؟ ولنا أن نتساءل، أما كان ذلك المجتمع نفسه إنسانياً حين سمح للأسير بالتعايش معه كأحد أفراده، يشاطره – رغم تظاهره المزعوم – أفراحه وأحزانه، متألماً لإنسانه الراسف فى أغلال الرق، متعاطفاً مع زعماء المعارضة السودانية فى الساير، ومُصاحباً لجمعه بيه وغيره من القادة المحسنين، وفقاً لما وثقه مؤلفه؟

أما كان مجتمع المهدية معطاءاً كريماً وهو يُصرّح لجاسوس ألمانى بريطانى المهام بالحياة والزواج والعمل فى دولة المهدية فى ظروف حربٍ مع جيرتها، وعداءٍ مصيرى لا فكاك منه ولا تصالح يُرجى وراءه؟ أما كان ذلك المجتمع نفسه متسامحا رؤوفا وهو يرعى ذلك الغريب كفيل الأَعداء، ويقاسمه القليل الذى لم يترك له تجار الرقيق الأتراك وجماعاتهم فى الداخل والخارج فرصةً ليربيه؟ ثم أَىُ شئٍ من ذلك العطاء والسماح الصادر من أهل السودان على اختلاف مواقعهم كان أى واحدٍ من ذلك المجتمع سيجده، حال أسره أو سجنه فى أوروبا أو سجون الخديوية آنذاك؟!

لقد قام ما يُسمى "بجيش الفتح" وقوات "إستعادة السودان" وكأنما البلاد بضاعةً مُهملةً بلا شعبٍ يملكها، بإستخدام قنابل "الدُم دُم" التى تتناثر بها أشلاء الضحايا، وهى مُحّرمة دولياً، لإبادة جيوش المهدية، ومثّلت جيوشه بالقتلى، وحَرَمت الجرحى من حقوق الأسرى والمجروحين المكفولة فى القوانين الدولية. وعليه، فقد هاجت الصحافة البريطانية ناقدةً لتلك التجاوزات الصارخة، وبذلك "شهد شاهد من أهلها" على ظلم الإستعمار وتجرده من الإنسانية، فى سبيل توطيد سيطرته العسكرية، وهو سلوك عام عَبْرَ فصول الزمان. على أن هذه الحقائق التى لم يوفق نيوفلد، على معرفته بها، فى تسجيلها بالدقة التى عكف فيها على توثيق مساوئ المهدية، تبرهن على إمكانية البحث والإستقصاء والمقارنة لإيجاد ميزان موضوعى وعادل لتقويم ثورة الأجداد، ودولتهم، وأدائهم. وما نحسه، أن مجتمع الأجداد برغم ما شابه من "حداثة التركية السابقة" كان ذو فضلٍ وإستعداد لحداثةٍ أكرم دافعاً، وأفضل نتيجةً. فما كان أغناه عن تسلط الغرباء !

فليعاد تدوينها

وبعد ، سيجد القارئ الكريم فى مؤلف نيوفلد إفادات عديدة على ذلك الإستعداد والفضل، وإن جاءت غامضة، مجزأة، أو مفتأة. وإنها لأمنية عزيزة أن يعاد تدوين تاريخ المهدية بتفصيل دقيق، ثورة ودولة ومجتمعا. ولعل ما تهيأ من مؤلفات وأبحاث مؤخراً بأقلام كثير من المؤرخين والدارسين يجعل من مثل ذلك المشروع امراً ممكناً. فمن الخطورة بمكان أن يستقى السودانيون تاريخهم من كتابات مستعمريهم أو أسرى ثورتهم وحسب. ومن يدرى، فلعل المشروع يبدأ بمقارنة موثّقة لما كتبه الأسير، وما حفظه المستعمر، بمؤلفات الوطنيين، والمحققين غير السودانيين سواءاً بسواء، والإستفادة بنداءٍ وطنى عام من الإرث الذى ما يزال حياً فى ذاكرة الشعب السودانى المناضل، مما يتناقله جيلاً إثر جيل عن المهدية الباسلة، بكل ما يقال عنها من محاسن أو مساوئ.

نحو ذلك المشروع، لربما تعين هذه الترجمة لواحدٍ من أهم المراجع النادرة عن تلك الفترة الهامة من تاريخ شعبنا ووطننا. فسجين الخليفة من تأليف أسيرٍ عاصر الدولة وعاش معها وعمل تحت إمرتها لثلاثة عشر عاماً، واحداً منها. ومن يدرى، فلعل القرن الحادى والعشرين يحمل لمجتمعاتنا النامية ما تتعطش له من حقوق وحريات، ليوفر لها أجواء الفحص والمراجعة السديدة لما تعرضت له طوال قرون الإستعمار من إستغلالٍ وتزييف وتسوىء، وما انفك جاثماً فوقها من تخلفٍ واستبداد، بما يمكنها من "الفتح والإستعادة"؛ بيدى ما بيد عمر.

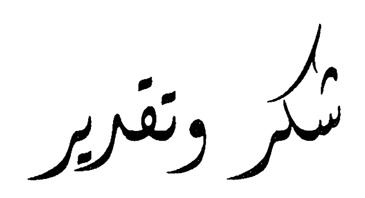
أعدنا ترتيب صور الكتاب النادرة بما يتسق مع سياق النص، حريصين ما استطعنا على ألا تخالف مخالفةً مُخلةً ترتيبها الأصلى، وألمحنا إلى هوامش المؤلف وشروح المترجم بعبارتى «هامش المؤلف» و«شرح المترجم».

وبالله التوفيق، هو وحده المولى

ونعم النصير،

م.أ.م.

١٩ أغسطس ٢٠٠٤ م



أعانتنى مكتبة جامعة ڤندربلت فى ناشفيل بولاية تنيسى كل العون على الإطلاع على مؤلف شارلس نيوفلد ، كمؤلفٍ نادر . فلها الشكر الجزيل على خدمتها الرائعة لطلاب المعرفة وهيئة التدريس .

ولإبنتى رشا تقدير خاص ، بادلتنى الرأى حول ما تُرجم من أقاصيص الكتاب الشيقة ، نُغالب جاهدين أياماً من اللجوء مريرة ، يعيننا عليها البحث والعمل ، ما استطعناه .

وللأسرة زينب وأنجى وناصر وكريم آيات الحب وباقات الوفاء ، أكملت بتشجيعهم الجميل عَناء الترجمة ، ومشاق التأليف .

م.أ.م

ناشفيل

٢٣ أغسطس ١٩٩٧

٢ يناير ٢٠٠٤

الإهداء العربي

إلى الأجداد...

الأمير محمد ود حمزه الكاسر و "الفُقرا" ، ود عربي

والقلوباوي ، والجدة خادم اللّه بت ود حمزه وعيالها

فاطمة و حمزة ، وحبيبها التجاني

ود أم حداقة بت الأمير علي أبو درق ، والجدة ساره أم

المحسنين: علّموا إطعام المسكين ، وإكرام الأسير ،

ونقلوا ما استطاعوا ذلك التراث النبيل ، للوالدِ

والحفيد...

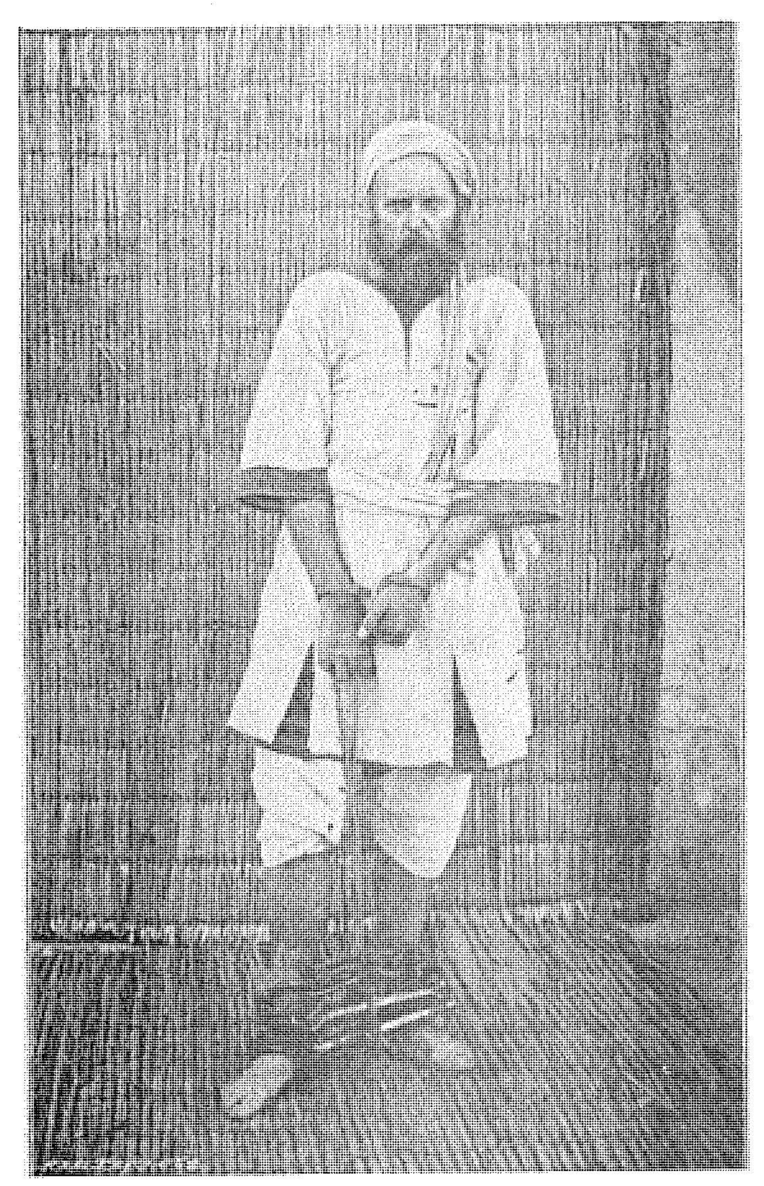
سجين الخليفة

إثنا عشر عاماً أسيراً بأم درمان

شارلس نيوفلد ١٨٩٩

* PRISONER OF THE KHALEEFA
Twelve Years Captive at Omdurman
by
CHARLES NEUFELD

New York : G. P. Putnam's Sons
London : Chapman & Hall, ld., 1899
Printed by Wiliam Clowes and Sons, Limited
London and Beccles



نيوفلد كما وجده السردار

إهداء

إلى الرأى العام

شارلس نيوفلد


المحتويات

إفتراءات النقاد - إمرأتى الرقيق - مقصد رحلتى الحقيقى - الترتيبات الأولية - رسالة الجنرال ستيفنسون.

الفصل الأول
تأهبى لكردفان

التعاقد مع المرشدين - إغفال التحذير - حُسنيه تلتحق بالفرقة - دراويش فى تقارير الطريق - عدم وصول حُجّل - مشاهدة الدراويش فى آبار سليمة.

الفصل الثانى
خيانة المرشدين

مسالك عديدة فى الصحراء - شجار بين المرشدين - إرسال الكشافة - إدانة حسن بالخطأ - تيه فى الصحراء - مجلس للحرب - مفاجأة من الدراويش - القتال - أُخذنا أسرى.

الفصل الثالث
فى أيدى الدراويش

لقاء بالأمير فرج والأمير حمزه - إستراحة ليلية - نهب الأمتعة من قبل الدراويش - الأمراء يصادرون كل المال لبيت المال - تحقيق فى رسائلى - إعتبارى جاسوساً للحكومة - تعذيب من حراسى الدراويش - حمزه ينقذنى ويُبقى علىّ لود النجومى.

الفصل الرابع
الوصول إلى دنقلا

عرض خيالة الدراويش - الجلد وسط الأنصار - تفتيش حُسنيه - إساءات الدهماء - إحضارى أمام ود النجومى - إعلانى عن نفسى كتاجر - شهادة فتاة مسيحية أسلمت ضدى - إعدام أربعة عشر إعرابياً بالفرقة - إعادة التحقيق معى وإرسالى للخليفة.

الفصل الخامس
التأريخ الحقيقى للأسر

قُصاصات من الصحف والتقارير الرسمية - خليفة الدليل جابو - معارضة فى قبيلة الكبابيش - مشاريع جابو لجانبه الخاص - دور حسن فى الأمر - جابو يُفضى بالمؤامرة للنجومى ويضع حُجّل ضمن جماعته - الأمراء يستعدون لمواجهتى - القبض على القافلة - خديعة حُجّل ومبرراتها.

الفصل السادس

من دنقلا إلى أم درمان

الفصل السابع

عقابى بالسجن

الفصل الثامن

حياة السجن

الفصل التاسع

سانحتى الأولى للهروب

الفصل العاشر

العدالة السجنية

الفصل الحادى عشر

ورطة خطيرة

المطالبة بأبوة الطفل - إدريس يعارض الإدعاء - هيئة من الحاضنات تقرر لصالحى - ميلاد "مكيه" - تهانئ الخليفة - جُسبى، الخبّاز الألمانى .

الفصل الثانى عشر
إبراهيم ود عدلان

صداقة مع ود عدلان - إدارته لبيت المال - غيرة الخليفة - رمى عدلان فى السجن - مزايا التجارة - إعادة عدلان - تصميمى لقبة المهدى - رسائل إلى منقريوس إفندى - الدليل موسى داؤود القَنْجَه - تقارير من مصر - هروب جُسبى - خيانة الجواسيس - إهانة عدلان وموته .

الفصل الثالث عشر
التأريخ الحقيقى لمحاولتى الهروب

رسائل القنصل الألمانى ومدير أعمالى لمنقريوس - زيارة قنجه لمصر - يستلم رسالة إلى سلاطين - يُقبض عليه في بربر ويعود - رسالة إلى وزارة الحربية إلى زوجتى - ردى على الإفتراءات.

الفصل الرابع عشر
سجين لآخر مدى

الإعتقاد فى الأرواح الشريرة - شيبو صانع الإكسير - جلده على آلامه - إخطارى بصنع مواد البارود - فك إسارى - مصنع البارود فى الحلفاية - موت مكيه - نقلى إلى الخرطوم - فشل مقصود لبارودنا - زيارات إلى الأب أوهرولدر - أخبار هروبه .

الفصل الخامس عشر
مطلق ومزوج

إستعدادات حُسنيه للسرقة - إجبارى على تطليقها - الخليفة يجد لى زوجة - إعاقتى أداء دواوينه - أم الشول - الطلاق الإسلامى وإعادة الزواج - ورطة مُستَجدة - وفاة الطفل الثانى - إستحالة إعادة حُسنيه .

الفصل السادس عشر
الأمل واليأس

عودة أول مبعوث من منقريوس - وصول مبعوث آخر - عبدالله، دليل رُسُجنولى - طريقة مرسومة للهروب - معاملة عبدالله لرُسُجنولى - هروب سلاطين - مضاعفة قيودى - غضبة الخليفة - سمعة سلاطين بين المهديين - قراءة رسالته للمسالمة - مصادرة زوجاته وملكيته - عودة رسولى - فى السابر مرة ثانية .

الفصل السابع عشر
إشتغال جديد

ناحوم أُباجى يعهد إلىّ بعمل - خزانة فارغة - حالة غير مُرضية للعملة - نقلى إلى الترسانة - أُصمم قوالب لصك العملة - نجرى تخريباً عظيماً - كنز الخليفة المدفون .

الفصل الثامن عشر
سجنى للمرة الثانية

إدريس شخصية إستقام أمرها - يؤكد معاملتى الطيبة - أول ليلةٍ لفوزى فى السجن - أسر القاضى أحمد - موته تجويعا - موت ود زهره - رسائل من أوروبا - إجاباتى - أفكارى فى السجن.

الفصل التاسع عشر
إشاعات الإفراج

الخرطوم ثانيةً - أفكارى غوردون - فى العمل بالترسانة - إستخراج معادن ثمينة - تجارب كيمائية - تقدم القوات - إختراعى طاحونة لسحق المادة - عيوبها العديدة - أُسَوف لكسب الوقت - تدمير المادة بالجملة - إصلاح باخرة - رسالتى إلى أونور - متعطشاً للأخبار .

الفصل العشرون
الإستعدادات لإستقبال الزوارق الحربية

فى الساير كزائر - إرسالى مخابرات للإنجليز - قلق فى دائرتى - سفارة من الحبشة - إجابة الخليفة - محمود يعصى الأوامر - هزيمة عثمان ومحمود فى عطبره - تصنيع الطوربيد - رفضى المعاونة - مضاعفة قيودى - إنفجار الطوربيد - أصير مركزاً لمؤيدى الحكومة - إحباط الألغام .

الفصل الحادى والعشرين
الإقتراب من النهاية

إشاعات مضطربة - لجوء إلى التنبؤ - أقترح هجوماً ليلياً - أبعث مزيداً من المعلومات للجيش - صراع جنوبى مع حارس - مفاوضات مع إدريس - إندفاع الخليفة لصد الهجوم - الزوارق الحربية تفتح النار - يجن جنونى - وصول الهاربين - الحصان الجامح - يأس الخليفة .

الفصل الثانى والعشرين
وأخيراً

تهديدات المسجونين - هروب الجيش المطارد - كتيبه ماكدونالد - شرح الراتب - برود السودانيين - صَد شيخ الدين - هجوم على ماكدونالد - تدمير يعقوب - هروب الخليفة - هروبه القصير من السردار - السردار يدخل السجن - نتقابل - فوضى الرئاسة - السيد بنيت بيرلى - لسانى الألمانى يتخلى عنى .

الفصل الثالث والعشرين
السردار وحرب وحشية

نهب أم درمان - مسيرة السودانيين للإنقاذ - عرض سلمى للخيالة - مقالة مراسل حربى - السردار يخطئ بمنح الرحمة للجرحى - قانون القصاص - شراسة الدراويش الجرحى - الرحمة غير مطلوبة - تحدياً للمراسلين .

الفصل الرابع والعشرين
رجوعاً إلى الحضارة

آمال عالية - التحرر من الأوهام - مسلك وزارة الحربية - إضطرارى للدفاع عن نفسى - إفتراءات الصحف - ممثل وكالة الأنباء - السامرى الطيب - السير جورج نونس .

الفصل الخامس والعشرين
كيف مات غوردون

روايات متضاربة - موت بطل - أمل مؤجل - ليلة غوردون الأخيرة - قيمة شهادتى - شهادة الأب أوهرولدر - نقد "عشر سنوات فى الأسر" - مبررات غوردون - التاجر مبشراً - تكريماً لغوردون .

ملاحق

الملحق (١) حسن بيه حسنين

الملحق (٢) أورفالى

الملحق (٣) رسالة أملاها الخليفة إلى الجنرال ستيفنسون

الملحق (٤) إبراهيم باشا فوزى - ضابط غوردون المُفضّل

الملحق (٥) أحمد يوسف قنديل

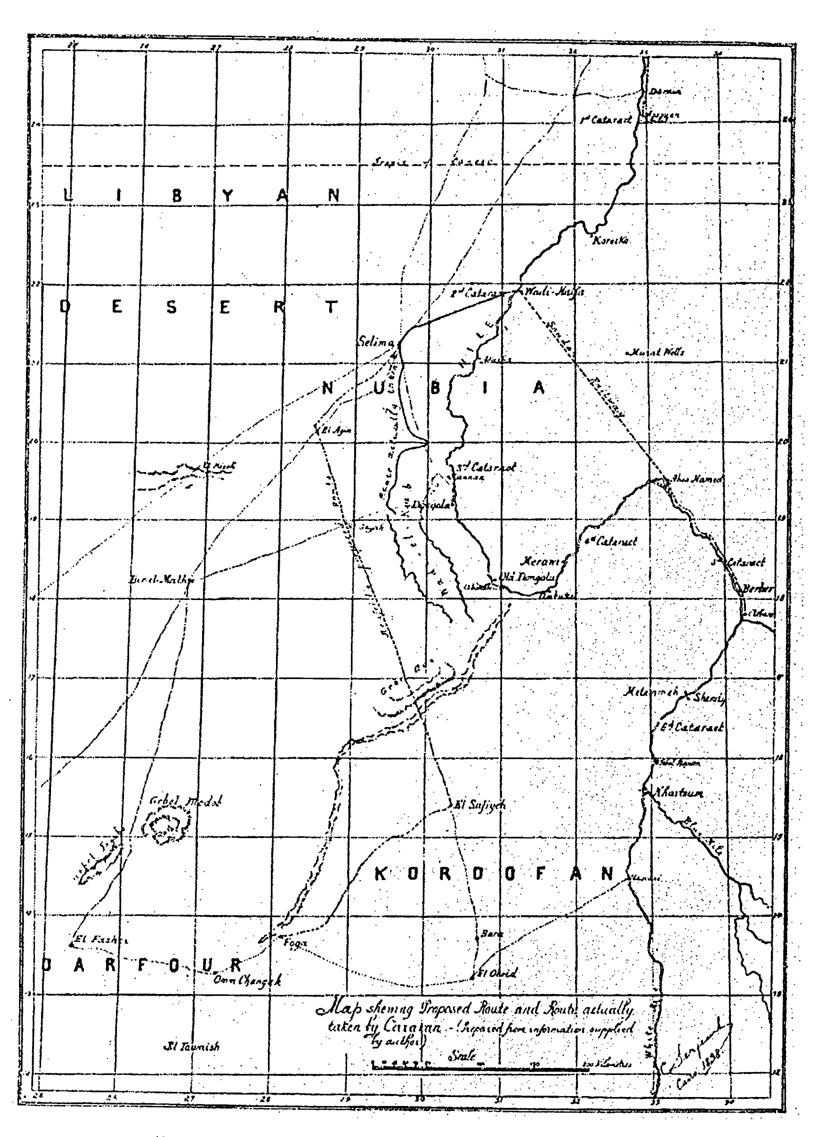
الملحق (٦) السودان : ماضيه، حاضره، ومستقبله

هوامش ومذكرات

قائمة الإيضاحات

١- نيوفلد كما وجده السردار
٢- إعرابى دليل
٣- خصيان الخليفة
٤- أحد خصيان شيخ الدين فى جبة عرس سيده
٥- الكتابة بمشقة
٦- جماعة من السجناء
٧- تعلم راتب المهدى
٨- إدريس ودالساير
٩- كاترينا
١٠- الجلد بأمر الخليفة
١١- وجبة طعام فى الساير
١٢- موسى داؤود القنجه
١٣- منقريوس أفندى مع المرشدين
١٤-أم الشول وطفليها
١٥- سعيد بك جمعة
١٦- فوزى باشا فى لباس درويش
١٧- كوخ نيوفلد فى الساير، والسندان الشهير
١٨- أونور عيسى
١٩- نيوفلد بقيدٍ مزدوج
٢٠- آلات صنع البارود
٢١- وليمة العيد، ١٨٩٩
٢٢- شريف، "المدعى بالخليفة الرابع"
٢٣- عَلَم الخليفة شريف
٢٤- غنائم من أم درمان
٢٥- حسن بيه حسنين
٢٦- خليل أغا أورفالى
٢٧- فوزى باشا بالبزّة العسكرية
٢٨- أحمد يوسف قنديل

- خريطة تبين الطريق المقترح ومسيرة القافلة
- رسم يوضح أسر نيوفلد
- رسم لقصر الخرطوم ومقتل غوردون



خريطة الطريق المقترح ومسيرة القافلة

سجين الخليفة
مقدمة

خلال إثنين وسبعين ساعة من وصولي القاهرة من السودان، شرعت في إملاء تجاربي لهذا المجلّد، وقد أمليتهم منذ الوقت الذي غادرت فيه مصر، عام ١٨٨٧، حتى بلغتُ الأحداث المرتبطة بوصولي أم درمان أسيراً للخليفة، عندما صرت هدفاً لسهام حقيقية من قُصاصات الصحافة، والمقالات، والرسائل خاصة أو رسمية، جديدة أو قديمة، وقد تواصل جمعها لدى وصول زوجتي مصر، في ١٣ أكتوبر.

إن أول ما إنتابني من أحاسيس بعد قراءتي لمعظمها، وبعد أن وهن إحساسي قليلاً بالسير حيثما شئت، حراً بلا قيود، هو إنني هربت من البربرية المتوحشة في السودان لأضحى فريسة لقسوة الحضارة المصطفاه. ولحسن الحظ، ربما، إستجلب التغيير السريع من السلاسل والجوع إلى الحرية وحياة الترف، التي قد أسمح لنفسي بالإنغماس فيها، نتيجته المحتومة - ردة الفعل، فالإنهيار. وبيّنا أنا طريح الفراش مريضاً، كان بإمكاني، عندما بارحتني هُذاءات الحمى، ولم أعد مناضلا لأتنفس وأجد موطأ لقدمي في تلك الحفرة السوداء بأم درمان، الساير، وجدت قلبي مسامحاً لنقادي، وقلت "لعلّني كنت أقول فيهم ما أشاعوا عني، لو كانوا مكاني وكنت مكانهم." ولكن عدم الدقة التي كُتب بها ما نشر حول جنسيتي وسيرتي، وفوق كل شئ، المبالغات المنشورة فيما يتصل بأسري والظروف المتعلقة به، أوجبت منحى كلمات قليلة لقرآئي من باب التقديم؛ ولكنني سأكون موجزاً ودقيقا ما أمكنني الأمر.

لقد تم لومي، مباشرة وبطريق غير مباشر، أو إتهامي، بضياع السلاح، والذخيرة، والأموال التي أرسلتها الحكومة لشيخ الكبابيش المخلص، صالح بيه ود سالم. وذهب البعض إلى حد إتهامي بخيانة المجموعة التي صاحبتها، ووضعها في يد الدراويش؛ خيانةً أدت في نهاية المطاف إلى التهلكة التامة للقبيلة وموت زعيمها الشجاع. إن خيانة القافلة التي اصطحبتها قاد بالفعل إلى هذه النتيجة؛ وقد قادتني هذه النتيجة نفسها إلى السلاسل والعبودية.

وطبقاً لإحدى التقارير، وصلت أم درمان في اليوم الأول أو السابع من مارس (وكلا التاريخين ذُكرا في نفس الكتاب) من عام ١٨٨٧؛ ومع ذلك، في هذا الوقت، وبأفضل ما يتاح لي تذكره، كان الجنرال الآمر لجيش الإحتلال في مصر، الجنرال ستيفنسون، يحاول في القاهرة حثّي على ترك رحلتي المزمعة لكردفان. وفي مطبوع حديث للغاية، في المقدمة التي يرجو فيها المؤلفون القرآء الإشارة إلى أي حاجة للتدقيق، جادوا علي بالوصول إلى أم درمان أسيراً في عام ١٨٨٥، في حين كنت ملحقاً إبان هذا الزمن كمترجم لحملة إنقاذ غوردون، وكنت على بعد ياردات معدودة من الجنرال إيرل في معركة كربكان عندما قتل. ومن المحتمل أنني كنت آخر رجل تحدث معه إلى الأبد.

إن الدليل الجاسوس الذي بَلّغ عن أسري وموتي في ١٣ أو ١٤ أبريل، ١٨٨٧، ما بَلّغ إلا ما اعتقد أنه قد حدث حقيقة، كنتيجة ممكنة للترتيبات التي كان قد إتخذها؛ بينما أن اللاجئ وقيع إدريس، الذي بَلّغ في أغسطس ١٨٩٠ إنني كنت أدير مؤسسة كبيرة للثياب والأقمشة في أم درمان، لابد إنه كان سودانياً فكهاً، ودون أدنى شك، متسلياً لأقصى حد بحكايته التي تم تصديقها في مجرى الحملة التي شنها المهدي والخليفة ضد الملابس الفاخرة والأمتعة الباذخة (بالرغم من أن المبادئ لربما أنها يقصر وصولها دون المداخل إلى أجنحة حريمهم)، وعندما يكون كل أحد، من الأعلى إلى الأدنى، ملزماً بلبس أخشن المواد المغزولة وأعمّها.

إن مؤسسة لمباع الثياب والأقمشة ترتبط عادة باللبس الراقى، والحرير، والمطرّزات، والوشائح؛ ولو أُفتتحت مثل هذه المؤسسة فى أم درمان فسوف تطعم النيران، أو بيت المال، ويحال مالكها إلى الساير (السجن).

ومع ذلك، مُجدداً، عندما أُقيّد بالأغلال الثقيلة، ويتعدى سجانى حدوده بإختراع الأعذار لجّلدى حتى يثبت مقته للكافر الذى عهدت إليه حراسته، يتم الإبلاغ أننى كنت حراً، وأن إطلاق صراحى ضُمِّن من ممثلين لأمير خيالى، أجراه على أساس أننى دبرت آنفا خيانةً بحق قافلة الشيخ صالح.

هنالك موضوع واحد لابد لى من ملامسته، وهو موضوع جعل من حياة زوجتى جحيما على الأرض خلال أسرّى، بمثلما كانت الحياة بالنسبة لى؛ وهو موضوع سَبّب أقصى حزن وألم لأقاربى الأقربين. إننى أشير إلى خادمتى الحبشية حُسنيه. إن الحقيقة الجرداء المتعلقة بإصطحابها القافلة فتحت فجوة يطل منها الغامزون؛ وقد أطلوا لإثنى عشر عاماً، وما من حاجة للإسترسال فى هذا الموضوع هنا؛ يكفى أن يقال أنه، عندما يكون نُقّادى قد طالعوا روايتى الواضحة، يتوفر لديهم الضمير الصاحى بالقدر الذى يقرون فيه لأنفسهم أنهم قاموا بإيذاء إمرأة بأكثر مما فعلوا للأسير العاجز، وفى هذه الحالة، الجاهل، الذى عاد إلى الحياة لمواجهتهم، وعندما يحاولون فى المستقبل أن يصيروا محسنين لبنى جلدتهم الذين تجرى فى عروقهم نفس دمائهم، بنحو ما أبداه بعض المتعصبين غير المتحضرين من إحسان نحوى فى السودان، فلسوف أستريح قانعاً بذلك.

إن روايتى، التى أود أن أقول هنا إنها مقدمة بمثلما أمليتها من قبل – وبصرف النظر عن أننى وُجهت، كما قيل لى، "بتناقضات" قائمة على السجلات والتقارير الرسمية وشبه الرسمية – قد يعتمد على صحة سجلها بقدر ما يتوقع للذاكرة من حفظٍ لأحداث حياتى لإثنى عشر عاماً خلت، بدءاً بيوم الغفلة الشاملة عام ١٨٨٧ عندما ركب بعيداً عن الحياة والحضارة، بالرغم من كل التحذيرات، إلى البربرية والعبودية.

مطلع عام ١٨٨٧ جاءنى حُجّل دفع الله، شقيق إلياس باشا وهو حاكم سابق لكردفان، فى أسوان واقترح لى مرافقته لكردفان حيث تترامى كميات ضخمة من الصمغ فى إنتظار فرصة طيبة لجمعها، وإنه يملك ألف قنطار منها. إن مُلاك الصمغ كانوا يخشون من عرضه فى الحدود المصرية، لإعتقادهم أن الحكومة ستصادره. وكان حُجّل يعتقد أننى إذا رافقته، فسوف نستطيع أن نغرى الناس بتنظيم سلسلة من القوافل لنقل الصمغ، وأن نوّقع العقود لشرائها لدى وصولها وادى حلفا، وضمان عدم مصادرتها من الملاك من ناحية الحكومة. فالخطاب والرسائل، فيما قال، لا جدوى منها؛ ولسوف يظن الناس أنها فخاخ تنصب لهم من الحكومة، وما من حاجة لنا لنحاول أخذ الأموال الطائلة اللازمة لشراء الصمغ فى موقعه. ولأننى يُنظر إلىّ كرجل إنجليزى، ومن ثم تعتبر كلمة الإنجليزى فى مثل الثقة فى عهوده، كان حُجّل واثقاً من نجاح الرحلة؛ وهكذا تمت الموافقة فى آخر الأمر على أن نكّون – حُجّل وأنا – قافلة صغيرة، ونبدأ رحلتنا بأسرع ما يمكن. وفى هذا الوقت، فبراير ١٨٨٧، كان الشيخ المخلص، صالح بيه ود سالم، زعيم قبيلة الكبابيش، ثابتاً على عدائه للمهديين، وقد نجح فى الإبقاء على طرق القوافل مفتوحة فى غرب السودان.

جئنا، حُجّل وأنا، إلى القاهرة لإجراء تدابير متنوعة للعمل، وبينما نحن هنا دعوت الجنرال ستيفنسون والكولونل أرداج، وطلبت الإذن للمضى فى الرحلة. وقد حاولا إقناعى بالتخلى عما ظهر لهما بعثة شديدة الخطر؛ ولكن بإفادتى لهما إننى عاقد العزم على القيام بها، بتصريح أم بغيره، سُئلت إن كان فى وسعى تسليم بعض الرسائل للشيخ صالح إذ أن زيارته ضرورية للحصول على المرشدين فى المراحل الأخيرة من الرحلة. وكان علىّ أن أخطره شفاهة أن طلبه السلاح والذخيرة قد صُدّق عليه؛ وإن عليه أن يبعث رجالاً فى الحال لوادى حلفا للإستلام؛ وإن عدداً من الرسائل قد بُعثت له آنفاً فى ذلك الشأن. وفيما هو واضح، فقد أعطى الجنرال ستيفنسون المسألة إعتباراً أبعد مدى،

لأنه، عندما طلب الرسائل ما كانت مُعدة بعد. فقال إنه سيكتب لى فى أسوان؛ ولكنه واصل قوله أنه سوف يكون مسروراً إذا قمت أنا بتشجيع صالح، أو أياً من الشيوخ المخلصين الذين التقى بهم، ليواصلوا مضايقة الدراويش، وأن أحصل منهم على أى معلومات أجدها فى طريق عودتى فيما يختص بالبلاد والسكان.

إن الأحوال الدقيقة التى تسلمت خلالها رسالته لمما لا أذكره، ولكن المدير السابق لأعمالى يفيدنى أنه، فى مساء من أمسيات أسوان، وجد مظروفاً رسمياً مُلقى على المكتب، بلا عنوان، وقد فتحه، وكان لا يزال يقرأ الرسالة التى احتواها عندما دخلت أنا المكتب، وأبديت ضيقاً شديداً من مشاهدته لها. كانت تلك الرسالة من الجنرال ستيفنسون لى، وهى ما أشار إليه سلاطين والأب أوهرولدر. وإننى أذكرها كنوع من المراسلة الشخصية، وليست إتصالاً رسمياً بأى حال؛ وإننى أعتقد أن الأوان لم يحن بعد لإصدار هذا الحكم، لأنه استقر ضدى أن هنالك إنطباع فى بعض الدوائر أنه، نظراً للإشارات القوية التى ألمح بها الأب أوهرولدر وسلاطين باشا فى مؤلفيهما عنها، لربما أرفع مطالبةً ما بحق الحكومة البريطانية، وإننى أرى من النصيح أن أعلن تواً أن فكرةً من ذلك ما جالت أبداً فى ذهنى.

بعد إكمالنا الإستعدادات فى القاهرة، إتجهنا حُجّل وأنا جنوباً، سار حُجّل إلى دَرَاو لشراء الجمال للرحلة إلى كردفان، وذهبت أنا إلى أسوان ووادى حلفا لإعداد التجهيزات النهائية والطعام اللازم لرحلة الصحراء.



إعرابى دليل

الفصل الأول

تأهبى لكردفان

قُبيل مغادرتى أسوان إلى القاهرة، كنت قد عقدت إتفاقا مع حسيب الجابو، من فرع دار حمد التابع لقبيلة الكبابيش، وعلى الأمين، من وادى الكاب، لكى يعملا مرشدّين لنا حتى جبل عين، حيث كنا نأمل فى ملاقاة الشيخ صالح. وكان جابو يعمل فى خدمة السلطات العسكرية جاسوساً، ويتلقى مكافأة أو راتباً شهرياً. وكان كلاهما، هو وعلى الأمين، سيأخذان ثلاثمائة دولار نظير الرحلة، مائة وخمسين دولارا تدفع لكل واحد منهما مقدماً، ويُدفع الباقى فى نهاية الرحلة. ولدى الوصول إلى جبل عين، كان عليهما أن يدبرا لنا المرشدين من بين رجال صالح. إن الطريق الذى رأينا إختياره مبينٌ فى الخريطة المرفقة، وقد أُخذت من خارطة نشرها كوفمان، ولدّى نسخة منها، ونسخة أخرى كنت محظوظاً إذ عثرت عليها منذ رجوعى.

عند وصولى دراو، بدأ حُجّل فوراً فى شراء الجمال. وكانت فرقتنا تتكون من حُجّل، حسيب الجابو، على الأمين، كاتبى العربى إلياس، خادمتى حُسنيه، أنا، وأربعة رجال كان على حُجّل أن يوظفهم ليصل عدد فرقتنا إلى عشرة رجال، حتى نصير على إستعداد لمنازلة أى جماعة صغيرة من الدراويش الناهبة. ومن واجبات حُجّل أن يشترى الجمال من العبابدة الذين يملكون، وربما لا يزالوا كذلك، أفضل إبلٍ لأغراض الرحلة التى نعتزم القيام بها. وكان ملزماً بأخذها إلى الصحراء ليختبر قوتها على التحملُ لأنه يحتمل قطعها خمسة عشر يوماً بدون ماء عبر الطريق المختار للسير. وكان مطلوباً منه كذلك أن يشترى إبلا إضافية لتحمل الماء، إذ أنه فى حالة الضرورة، نتمكن من السير غرباً متوغلين فى الصحراء بأكثر مما هو مخطط له، بعيداً عن الآبار لثلاثين يوماً. وكان علينا أن نأخذ معنا الأمتعة اللازمة للرحلة وحسب؛ الغذاء، السلاح والذخيرة، ثلاثمائة دولار نقداً، والهدايا من شاكلة الساعات، والحرائر، والمجوهرات، والغلايين، والأوشحة للشيوخ الذين نجتمع بهم.

وتأتى على حُجّل أن يغادر دراو فى أو حوالى العشرين من مارس، وبإحضاره الجمال عبر الصحراء غرب النيل، كان عليه من ثمّ أن يحدد الوقت المطلوب للمرحلة الأخيرة المتمثلة فى بلوغ وادى حلفا مغيب السادس عشر أو السابع عشر من الشهر. واقتضى الأمر من المرشدين، وكاتبى، والخادمة، ونفسى العبور بالقارب حيث يكون على قافلتنا أن تركب ناحية الغرب فى الحال. وكان على رحيلنا أن يظل فى طى الكتمان ما أمكن ذلك.

لما وصلنا الشلال بعد أن تركنا حُجّل فى دراو، أدركنى صديق قديم، محمد عبد القادر قماريه، الذى أسّر إليه حُجّل فى ثقة بالسبب الذى من أجله اشترى الإبل، أسرع ورائى ليحّذرنى من توظيف جابو كدليل، لأنه يعلم أن الرجل لا يجب أن يوثق به. وقد أفادنى أن جابو كان يتجسس على الصديق والعدو، ويأخذ من الإثنين أجراً، ولكننى لم أتقبل تلك النصيحة وقتها. لقد ضحكت من مخاوف الرجل، وأنهيت إليه أنه طالما أن حُجّل سيقود القافلة بمشاركتى، وأن جابو سيصحبنا دليلاً، فليست لدّى نية للتخلى عن الرحلة، التى ينتظرنى فى نهايتها شيئاً من الحظ. وكنت أعلم كل العلم أنه ما من أحدٍ يمكن أن يولى الثقة دون أن يُراقب نظراً وسمعاً، ولكن لعدم وجود سبب يمنع معاملة جابو على هذا الأساس، ما كان هناك بنفس القدر سبب للمخاوف. أضف إلي ذلك، أننى كنت مقتنعا بما فيه الكفاية أنه، نتيجة لرحلتى، فربما أُسلم تقريراً للسلطات العسكرية ذا فائدة، وكانت هالة الرومانسية التى لا تزال حائمة فوق أى شئ سودانى، فى نفسها ذات جاذبية عظيمة.

وصلت وادى حلفا حوالى ٢٣ مارس، وشرعت فى العمل من أجل اللمسات الأخيرة للرحلة، فى هدوء. وقد إختارت حُسنيه أن تصحبنا، وكان ذلك إقتراحاً من حُجّل، وأسبابه، أولاً، أن مرافقة إمرأة للقافلة ستستبين بها المقاصد السلمية لقافلتنا الصغيرة؛ ثانياً، إن حُسنيه عندما كانت رقيقاً لسيدها

السابق من عرب العليقات، قامت في مناسبات عديدة بالرحلة ما بين الأبيض، ودنقلا، ودراو، وسوف يكون لها نفع عظيم لنا في شأن الحريم بنفس الطريقة التي تستطيع بها سيدة في البلدان المتمدنة، بمدخلها في الصوالين، أن تدفع إهتمامات أقاربها أو أصدقائها الذكور من مناسبة لأخرى؛ وفي الشرق، فلكل النساء مدخل للحريم.

صباح يوم وصولنا وادي حلفا سمعت أن أربعين من رجال الشيخ صالح، يقودهم إسماعيل، أحد أرقائه، كانوا قد وصلوا آنفا لإستلام السلاح والذخيرة. وقد جاءني جابو في نفس اليوم، واقترح أن نترك المهمة المزمعة، لأنه يخشى من سماع الدراويش بمجئ رجال صالح، ومن إرسالهم المغاورة ليقاطعوا القافلة في طريق عودتها، وإنه لربما نقع في أيدي إحدى تلك المجموعات. ولإعتقادي أن جابو كان ببساطة يحاول إستمالتي لأزيد من مستحقاته بسبب المخاطر المضافة، أخبرته أنني أتمسك بإتفاقه معي. وبعد يوم أو يومين، وبعد أن رأى عزمي عليّ القيام بالرحلة، عرض علي أننا، للسلامة، يجب أن نرافق رجال صالح، وقد إعترضت على ذلك. إن الكبابيش كانوا يقاتلون الدراويش، ولا يتركون سانحة دون أن ينقّضوا على أي مجموعة صغيرة، وليس لديّ أي رغبة معينة في البحث عن مغامرات أخرى أكثر من تلك التي يحتمل أن تتضمنها بعثتي نفسها. كذلك يقف أمامنا عنصر الزمن؛ فجمال الشيخ صالح بحمولتها سوف لا تتحرك بمعدل يتخطى نحو الميل في الساعة، بينما إبلنا تغطي ميلين ونصف إلى ثلاثة أميال بسهولة في الساعة.

في ٢٤ مارس، تلقيت برقية بالتلغراف من حُجّل، من أسوان حيث كان، يبين وصوله هناك بالجُمال، ونيته في الحضور في الحال، حتى يكون في إمكانه بلوغ وادي حلفا يوم ٢٨ أو ٢٩ من الشهر. إن جابو يُبدي الآن قلقاً من نوع غريب أنه لابد أن نلحق بجماعة صالح، وأخذ على نفسه أن يتخذ معهم إتفاقاً. ولدى معارضتي له الرأي، قال إن الدراويش إذا وُجدوا على الطريق، فإن الإلتقاء بهم يتم قطعاً بين وادي حلفا وآبار سليمة، أو، ربما، في الآبار نفسها، وأن ذلك هو الجزء الوحيد من طريقنا الذي يُحتمل فيه أن نحتك بهم، لأن الدرب الذي نسلكه، بعد سليمة، موغل ناحية الغرب. "والآن" قال لي، "إذا سارت قافلة صالح مسيرتها، وكان الدراويش على الطريق من غير قوة كافية لمهاجمتها، فلسوف يسمحون للقافلة بالمرور، ولكنهم سينتظرون على الطريق إما بأمل وصول تعزيزات في الوقت الملائم للهجوم، أو بأمل مهاجمة أي جماعات أصغر". وقد إعتقد أن الدراويش ربما يذهبون إلى الآبار، ويعسكرون بها، حتى نقع في كل حالة في كمائنهم. وكان رأي جابو أن قافلة الشيخ صالح من القوة بحيث أنها تبيد مجموعات الدراويش، التي يقول الآن إنه سمع أنها بالفعل تجوب الطريق. صُعقت من ذلك القول. وسألته لما لم يخبرني به من قبل. فقال إنه نسي أن يطلعني عليه !

مرت الأيام، ٢٨ و٢٩ و٣٠ والحادي والثلاثين من الشهر، ولا يزال حُجّل والجمال غائبين. وضاق إسماعيل ذرعاً بالبقاء، واقترح جابو أنه من أجل أن تظل جُمالي قيد النظر، فإن حُسنيه، وإلياس، والأمين وأنا يجب أن نبدأ الرحلة مع قافلة صالح، وأن يلحق هو بنا متى وصلت إبلنا. ولما كانت جُمالي في حالة جيدة، وغير مُحّملة، فلسوف تلحق، كما قال، بالقافلة في بضع ساعات، وكان متلهفاً للغاية ليختبرهم ويقدر سرعتهم للحاق بنا. وانضم لنا في وادي حلفا حوالي عشرين إعرابياً من قبائل مختلفة، حتى أصبحت قافلتنا مكونة من أربعة وستين رجلاً ومائة وستين جملاً. وأعطانا جابو دليلا من سليمة، رجلاً يسمى حسن، أيضاً من دار حمد. قاطعين ضفة النيل الغربية بكيرة اليوم الأول من أبريل ١٨٨٧، كنا في العاشرة قد حملنا أثقالنا وبدأنا تلك الرحلة إلى السودان، التي ستأخذ مني إثني عشر سنة طويلة لإكمالها.

ولما قطعنا يومين على الطريق، بدأت أحس شعوراً غير مريح نحو عدم ظهور جمالنا؛ ولكنني مفكراً أن جابو ربما أنه عمداً تأخر في السير حتى يعّرضها لإختبار قاس في الركض، أرحت نفسي بتلك الخاطرة، بالرغم من أنه يوماً بعد يوم أضحى قلقي أمراً حقا. وفي ليلةً السابع من أبريل، إرتأينا

أننا ولابد قد إقتربنا من آبار سليمة، وأرسلنا كشافة للإستطلاع؛ وصل هؤلاء الآبار، ورجعوا قائلين إنهم لم يجدوا أثراً لأى أحد كان هنالك لوقت ما. وبلغت قافلتنا الآبار ما بين الساعة التاسعة والعاشرة صباحاً، وحوالى منتصف النهار، بينما كنا مستغرقين فى سقاية الإبل وإعداد الطعام، سمعنا طلقاً نارياً من ناحية الجنوب الشرقى، وبعده بوقت قصير جاء أحد كشافتنا وقال إنه شوهد من مجموعة قوامها عشرين رجلاً، أو يكادون، على ظهور الجمال؛ وقد أطلق أحد الرجال النار عليه من مسافة طويلة، وبالتالى أسرعت تلك المجموعة بالسير جنوباً.

عُقد مؤتمر سريع؛ وكان الرأى العام مركّزاً على أن تلك المجموعة لابد أنها كشافة لجماعة أكبر، وإنها أسرعت بغرض إفادة كيانها الأساسى بالخبر. قرر إسماعيل أن نندفع راحلين فى الحال. وما كان لدينا وقت يكفى بالنسبة لى لأقدر ما أفعله؛ فرجوعنا إلى وادى حلفا خارج عن الإحتمال، لأن إسماعيل لم يكن فى مقدوره أن يستغنى عن أى واحد من رجاله كحارس شخصى؛ وما كان ممكناً التفكير فى الإنتظار فى الآبار، فالبديل الوحيد هو السير مع القافلة. وقد طلبت من إلياس أن يكتب ملاحظات قصيرة لحُجّل وجابو، قصدت أن أتركها فى موقع الآبار؛ ولكن نحو ما أشار إسماعيل، يتوجب على أن أتركها فى مكان واضح العلامة بشكل يثير الإنتباه، وإنه، إذا وصل الدراويش إلى الآبار أولاً، أو إذا عاد أولئك الذين علمنا أمرهم مع الآخرين، فسوف يحصلون عليها قبل أى إنسان آخر، ولسوف يُعّرض ذلك الأمر قافلتنا للخطر، والمجموعة المصغرة التى كنت أتوقعها بكل قلق. ما كان أمامها سوى المضى فى الطريق آملةً فى الأفضل. وإذا وقع الأسوأ، فمعناه الوحيد أن بعثة شرائى الصمغ ستؤجل مؤقتاً، وإنه من بعد وصولىّ الشيخ صالح، سيكون لزاماً علىّ أن أغتنم أول فرصة تتاح لى للتوجه شمالاً .

الفصل الثانى
خيانة المرشدين

هنالك خمسة طرق للقوافل تنطلق من آبار سليمة – الأبعد ناحية الغرب يقود إلى الكيا، والثانى إلى العجيا، والطريق الذى ينتصف الآخرين يؤدى إلى النيل بالقرب من حنك، وله فرع يجرى إلى وادى الكاب. ولما هدفنا لأن نقابل الشيخ صالح فى جبل عين، كان الواجب أن نتخذ الطريق المؤدى إلى العجيا، وقد إخترنا ذلك الطريق، وذلك لأنه وهو يقع فى باطن الصحراء، ما كان هنالك إحتمالاً ما لمصادفتنا أى جماعات حائمة من الدراويش الناهبة. وبوجودنا على الطريق لساعات قليلة، طرحت الرأى أننا اتبّعنا درباً غير صحيح، ودُعّى إلى وقفة فحصت أثناءها الخريطة التى كانت بحوزتى، وتيقنت من الفحص إننا نسير فى الإتجاه الخاطئ. وكان الدليل حسن متأكداً من أننا نسير على طريق العجيا ونتجت عن ذلك مناقشة، إنتهت بإخطار من حسن يرمى إلى السخرية، "إننى لم أقطع درباً على الورق" (يقصد الخريطة)؛ "لقد سرت دائماً فى الصحراء. إننى أنا الدليل، وإننى مسئول. وإن الطريق الذى تريد منا السير فيه يقود إلى العطرون (مقاطعة النترون)، على بعد ستين وحدة من السير؛ وإذا ركبنا عليه ومتّنا كلنا من العطش فى الصحراء، فسوف أصبح مسؤلاً عن ضياع الأرواح، ولن تنطق ورقتك لتدافع عنى". إن وصف حسن الدرامى لمنظر أخذه باللائمة من النبى لتضييعه هذه الأرواح الغالية إذا وضع ثقته فى "ورقة"، كان يتعلق بأمر تأييده فى رأيه أكثر من الإلتزام الصافى بمسألة سيرنا على الطريق الصحيح أم لا. ومن العجيا، كما قال رجال الشيخ صالح، فإنهم يعرفون كل حجر فى الصحراء، ولكنهم فى هذا الجانب لا يملكون سوى الثقة فى حسن .

وخلال اليوم الأول هذا بكامله، حُملنا على الإبل التى على ظهورها الأمتعة لتسرع بأقصى طاقتها، متجهة وفقاً لبوصلتى فى إتجاه جنوبى وإلى الجنوب الشرقى. إن التدابير التى كنت قد أجريتها مع جابو لقافلتى الخاصة، والتى كان إسماعيل قد وافق عليها عندما اقترح جابو سفرنا معهم، تمثلت فى أننا نيمم قليلاً شطر الغرب من آثار سير الإبل للعجيا على أن نسير فى خط موازٍ لها. وعندما توقفنا فى تلك الليلة تحدثت مع إسماعيل فى هذا الأمر، وسألته إتباع هذا الجانب من الإتفاقية – أى أن نسافر على درب يقابل الأثر ولا يسير عليه. وقد إعترض حسن، لأن ذلك السير يبطئ ترحالنا. وبعد فترة قصيرة من الراحة إستأنفنا سيرنا، وقلب حسن القافلة فوق أرضٍ حجرية بهدف إزالة آثارنا لأن قافلتنا التى تضم حوالى ١٦٠ جملاً كان قص أثرها عملاً سهلاً.

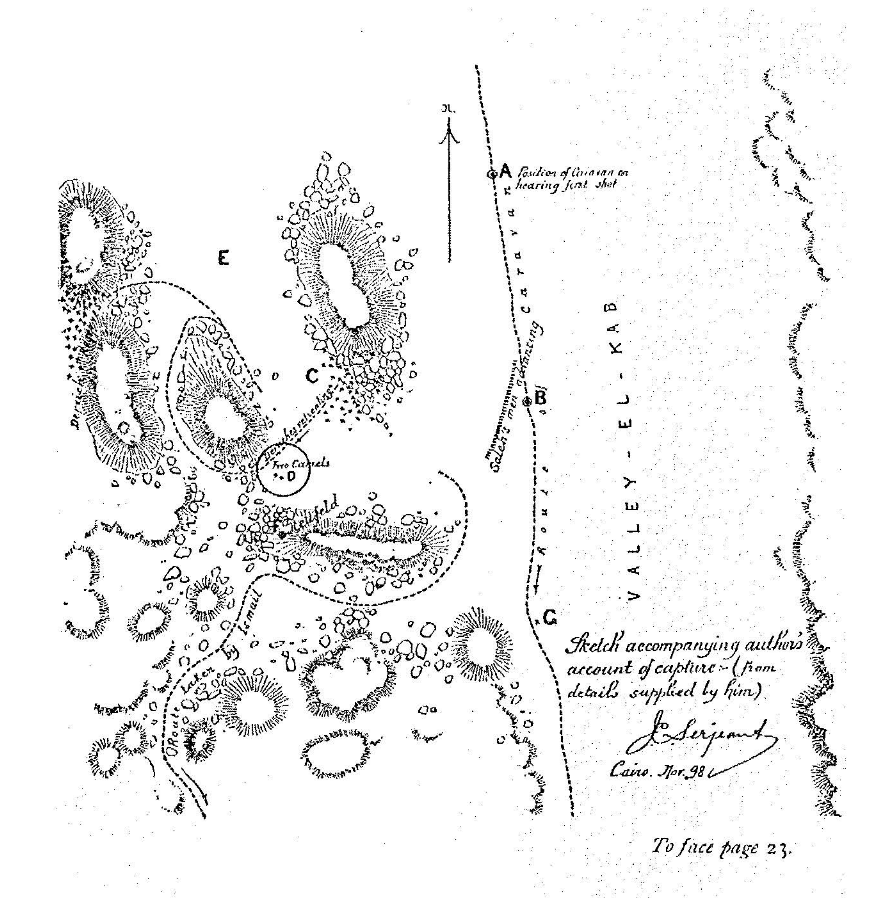
ركبنا سريعاً حتى منتصف يوم ١٠، عندما اضطرتنا الحرارة العالية للتوقف للراحة. وكنا فى أرض قاحلة لا فائدة منها؛ فلا توجد بها أقل علامة تدل على وجود نبات أو أى شئ حى خلافنا. ومرة ثانية عند المغيب، سافرنا الليل بطوله، وكان مؤشر بوصلتى فى الليل يشير إلى أننا، بأى حال، كنا نسير ناحية الشرق، فى حين كان علينا أن نتجه قطعاً نحو الجنوب الغربى. ولدى وقفتنا التالية، تحدثت مع إسماعيل مرة ثانية، ولكن حسن أقنعه بأنه لا يخطئ دروب الصحراء. وفى صباح اليوم التالى، الحادى عشر من الشهر، ما كان هناك مجال لإخفاء حقيقة توجهنا: فالمرشدون المدركون يسافرون بالنجوم فى المساء، ولكنهم يسخرون من التدقيقات المرسومة ما بين النقاط المرقّمة مثلما سخر حسن منى عندما حاولت أن أجعله يؤمن بالرسم التخطيطى الذى طرحته على الرمال، رامياً بذلك أن أثبت له أن الإنحراف يشتد كلما بعدت المسافة عن نقطة الإبتداء. لقد إنضم الأمين الآن إلىّ بقوله إنه يعتقد أننا على الطريق غير الصحيح، ولكن حسن كان له بالمرصاد. فقد قال لنا إنه طوال الليل دخل بنا إلى الصحراء حتى يطمس آثارنا، وإنه الآن يقودنا إلى الطريق المعهود. أجابه الأمين أن رأيه هو إن حسن ضل الطريق فى الليل، وإنه كان يحاول الآن إيجاده. أدى ذلك إلى مناقشة حية وتبادلاً فى التقديرات، كادت أن تنتهى إلى صدام ردئ، حيث أيد البعض حسن ووقف آخرون مع الأمين.

وإعمالاً لنصحيتى، أُرسل الرجال شرقاً وغرباً لإلتقاط طريق القوافل المعهود. وأعلن حسن أن فرعاً من الطريق المنتظم سيعثر عليه إلى الشرق، وأعلن أمين معى إنه سيكون نحو الغرب. أخذ حسن رجلين شرقاً، وذهب أمين، ويصحبته رجلان غرباً. وبعد ساعة عقب مغيب الشمس عاد الجميع. وصل الأمين أولاً، وبلّغ أنهم فشلوا فى العثور على أى أثر للطريق. وجاء حسن بعد مدة قصيرة بعده، وبسماعه قبل أن يبلغ إسماعيل عن فشل الآخرين، هُرع إلينا متهللاً ومنتصراً، لأن طريقاً إلتقط فى مكان قال إنه يعلمه. إنهم لم يجدوا الطريق وحسب، ولكنهم وجدوا مكان الراحة لقافلة من خمسة عشر إلى عشرين جملاً، وهى لا تبعد عنا بأكثر من بضع ساعات، فالأحطاب الباقية فى أماكن نيران القافلة لا تزال ساخنة. وقد قدّرت أن من الأحسن لنا إلتزام الصمت حيال موضوع الطريق الآن، بالرغم من أن أمين، وقد ناله ما ناله من تقريع حسن المنتصر وإستهزائه به، كان جهيراً فى إعلانه أننا نتخذ الطريق الخاطئ، وإن حسن ضَلّ طريقه؛ إن هذه التصريحات أدت تقريباً إلى القلاقل ثانيةً بينه والرجلين اللذين رافقا حسن، لأنهما إعتبرا ذلك من قبيل الشك فى حديثهما.

سافرنا شرقا فى الليل، وقطعنا الطريق الذى كان حسن، أثناء النهار، قد إلتقطه. ولكن شعوراً بعدم اليقين وعدم الراحة ساد القافلة. واحداً تلو الآخر طلبوا منى مراجعة السير، وما كان لدىّ ما أقوله سوى أننى لا زلت مقتنعاً بأن " ورقتى" صحيحة وأن حسن مخطئ. أما الأمين، وهو يتحين لجرحه الفرص، فقد أشاع بين القافلة رأيه أن حسن لم يضل طريقه وحسب، وإنما كان يقودنا عمداً فى الإتجاه الخاطئ. وعندما توقفنا يوم ١٢، قرر إسماعيل، وهو يلاحظ الإشاعات المتداولة، ومسلك رجاله، أن يرسل بعض الكشافة لينظروا إمكانية العثور على أى شئ يدل على علامة بالطريق. وانضم الأمين إلى الكشافة، وقد كانوا غائبين طوال اليوم. ثم إنهم عادوا فى الليل بأخبار مؤداها أننا أقرب إلى النهر منا إلى آبار العجيا، وإنه ونحن نبعد بمسيرة يوم رابع من سليمة، كان واجباً أن نكون قريبين من العجيا. إن هذا التقرير، الذى ما صدر عن الأمين وحده، وإنما من قوم صالح أنفسهم الذين يعرفون المنطقة، خلق رعباً منبثاً. وللمرة الثانية، دعى النظر إلى "الورقة"، وفى هذه المناسبة أخطر حسن بأن الورقة تعلم أكثر مما يعرف.

إن مشهد تلك الليلة لرجال تمت خيانتهم، يائسين، مستيقنين من الموت عطشاً أو بسيوف الدراويش، الأجدر تخيله من مجرد وصفه. ما كان هناك إقتصاد فى ماء الشرب، وكاد أن ينفذ؛ وفى تعجلهم مغادرة سليمة لم يعبأ الكثيرون بملء قربهم بالمآء. وما كان هناك شك الآن أننا، مثلما قلت منذ البداية، نسير على الطريق لوادى الكاب، على أرض العدو. ولكن حسن، مهدداً على النحو الذى صار إليه، كان لا يزال فى يده كرت للعب. لقد إعترف أنه ضل طريقه، ولكنه ذكر أن الأمر برمته ليس خطأه؛ فإننا، فيما قال، كنا نسافر بشدة، وإنه لثقته أنه كان على الدرب الصحيح، كان مهملاً، أو أنه أغفل النظر لتحديد النقاط المعتادة، وأن هذا التصرف تم لأن أمين وأنا تسببنا فى مضايقته منذ بداية المسيرة، بشأن الطريق. وهو يقول الآن إننا كنا لدرجة بعيدة نسير شرق الكاب، وإنه فى حدوده القصوى حيث يختفى الوادى فى الصحراء يمكن إيجاد المآء، وإنه فى مثل ذلك البعد نحو الغرب، كان من غير المحتمل أبداً أننا نجد أى دراويش. وعقد مجلس آخر. وكان رأى حسن أن نواصل السير فى إتجاه شرقى؛ وقد إقترحت الغرب وأنا أؤمن بأن الوادى سيوجد ناحية الغرب، بينما تخّير إسماعيل، بنصح من أمين، السير فى إتجاه الجنوب. وأخيراً تم الإتفاق على أن يركب إسماعيل، وحسن، وبعض الرِّجال بسرعة فى إتجاه الجنوب الغربى، بأمل إلتقاط درب فرعى للقوافل يقود إلى العجيا. أما باقى القافلة، بمن فيهم أنا وأمين، فكان عليهم السفر بتؤدة فى إتجاه جنوبى لخمس ساعات، ثم يتوقفوا وينتظروا عودة إسماعيل إلينا.

توقفنا بين ثلاث وأربع ساعات فى الظهيرة، ولكن ما إن فعلنا ذلك حتى اجتاحتنا عاصفة رملية ثقيلة. إن هناك أنواع مختلفة من العواصف الرملية مثلما أن هناك تنوعاً وإختلافاً فى معظم الأشياء



To face page 23.

رسم يوضح أســر نيوفلد

الأخرى، ولكن تلك كانت من أسوأ الأنواع. لقد صار الهواء كثيفاً بأدق الذرات، التى تمنح المرء فكرة أكثر عن الضباب الأصفر فى الشمال بأكثر من أى شئ آخر أظن أنه يماثله. لقد كنا ملزَمين أن نغطى رؤوسنا ورؤوس الإبل بالثياب والبطاطين لنحمى أنفسنا، إن لم يكن من الإختناق، فمن شئ آخر يقاربه. إستمرت العاصفة حتى ما بعد المغيب، ولأنها بلا شك قد أزالت كل أثر لقافلتنا، بعثنا الكشافة ليروا إسماعيل. ما كانت له علامة تنبئ عنه حتى منتصف الليل. وبإقتطاع ما أمكن مما نستغنى عنه فى سروج الجمال، أوقدنا ناراً لنثير تنبهه نحو موقعنا، وبما أن النيران كانت منخفضة، أطلقنا الرصاص على إستراحات، كل خمسة دقائق مرة. وبعد أن أطلقنا عشر طلقات أو إثنى عشرة طلقة، أوصيتهم بإطلاق مجموعات خمساً كل مرة على نفس الفترات، وعندما اعتقدت أن ستاً أُطلقت مجموعات، سمعنا إسماعيل ينادى علينا فى الظلام. لقد صادفته العاصفة الرملية، ولكنه فيما هو واضح قضى وقتاً أسوأ مما لاقيناه. سمع طلقاتنا المجمّعة ورد علينا بطلقات مفردة، ولم نكن قد سمعناها.

بوصوله القافلة، أمر إسماعيل بإطفاء النيران، وبتحميل الجمال فى الحال وأن تراقب سيور تثبيتها بعناية. ونظفت البنادق مما علق بها من رمال، ودار إسماعيل حول المكان يفتش كل شئ بنفسه. وقد دعوته جانباً وسألته ماذا كشف من نقاب. فهمس بكلمة واحدة "الخيانة"، وعاد إلى تفتيشه الجارى حول الحيوانات. وعندما رضيت نفسه عن تجهيز السلاح، وتثبيت الأحمال بحيث أنه لو ركضت الإبل فلن تستطيع رمى أثقالها بسهولة، أمر القافلة بالسير. وبتجاهله حسن تجاهلاً تاماً، قادنا نحو الغرب، مرسلاً درب الصافى، والأمين ودليلى كشافةً على جمال سريعة؛ ولكنهما عند مشرق الشمس عادا إلينا قائلين، إنه ما من أثر لدرب أمكن إيجاده.

إننى لا أستطيع أن أضجر قرائى بسجل يومى لتقلبنا فى الصحراء - فى يوم يقودنا حسن كدليل فى المقدمة، وفى يوم آخر الأمين، ومذاك لا أستطيع التظاهر بأننى أتذكر اليوم المحدد الذى وقعت فيه أحداث معينة. لقد كانت هنالك وقائعاً عديدة للغاية تتعدى محاولة تسجيلها فى سجل كامل، ولو بالإستعانة بيومية، لو كنت محتفظاً بها.

كان الأمين قد أسّر لى وإسماعيل إعتقاده الجازم أن حسن كان يفعل كل فعائله عمداً، وإنه يعلم على وجه الدقة مكاننا، لأنه كان قد لاحظ إنه يقوم ببعض الحسابات، ويرسم خطوطا بعصا جمله على الرمال.

لعله بسبب أننى لم أرغب فى ذلك، إننى لم أقّدر الخيانة المتضمنة حق قدرها. إن حسن وجابو ينتميان لقبيلة الكبابيش، وبما أن البنادق والذخيرة التى كنا نحملها كانت ستعين الشيخ صالح على مقاتلة العدو المشترك، فأى عنصر يمكن أن يكون حاضراً فى أمر خياننتا؟ إن رجال صالح سيقاتلون حتماً حتى الموت؛ فكل من الخائنين والذين تمت خيانتهم يواجهان مخاطر متساوية من القتل - والحق يقال إن الخائن لربما يجرى قتله فى الحال بواسطة أولئك الذين كان يقودهم. ولذلك فقد صرفت عن ذهنى الفكرة، واستيقنت أن الرجل بالفعل ضلّ طريقه، وأحجمت عن أخذ إقتراح الأمين القاضى "بتوزيع" القافلة، والسير نحو النيل، ونختبر فرصتنا فى أن نجتاز طريقنا بصفاء كتجار متى قابلنا أى قوم فى الطريق.

وفى يومنا السادس من سليمة، حسبما أعتقد، عبرنا درباً للقوافل بقطع الشرق والغرب، وبرجوعى لخريطتى، ما كان عندى تردد فى إخطار إسماعيل أن ذلك الدرب لابد أنه طريق القوافل ما بين الكاب والعجيا، ولكننى لم أستطع أن أتخيل أى جزء من الطريق كنا عليه. وكنت أود أن أحاول السفر على طول هذا الدرب، ولكن حسن أعلن إنه يؤدى إلى الكيا. إن كوننا الآن لابد أننا قريبين من وادى الكاب حقيقة يعلمها الجميع. وقد عقد "مجلس للحرب"، وتقرر فيه المخاطرة بالمضى قدما،

لأننا لابد أننا نسافر نحو الآبار على الحافة الأبعد من الوادى. كان علينا أن نحاول ونبلغ الآبار، نسقى الجمال، نملأ قربنا، ثم نضرب فى إتجاه الغرب مباشرة ونعسكر فى الليل، فلا نبقى بالقرب من الآبار. وبينا نحن نناقش الموقف، كان بعض الرجال قد أُرسلوا على طول الطريق ليحاولوا إكتشاف أى شئ فى الطريق، علامات أو آثاراً تعطى فكرة عن موقعنا بالضبط، وقد بلَّغوا أنه ما من شك أن ذلك كان طريق الكيا، وأن الكيا قد تقع على مسافة ستة أيام. وقد صُعّقنا من هذه الأخبار. فقد كانت مئونتنا من المآء قد نفذت. وكان معنى مسيرتنا ستة أيام على تلك الصحراء تحت هذه الظروف الهلاك عطشاً، وكانت هناك أيضاً، مرة ثانية، حالة عدم اليقين ما إن كنا، بعد كل هذا، على الطريق إلى الكيا أم إلى العطرون.

كان أحد الجمال سقيماً، فتقرر قتله، والسماح للرجال بتناول وجبة طيبة من اللحم. وفى باكورة اليوم التالى، ولعله الثامن أو التاسع من سليمة، أُرسل إعرابى من عرب العليقات ليستطلع الطريق على الغرب؛ ولم يعد أبداً. توقفنا لعودته حسبماً خُطط، وأضعنا سفر الليل بالتالى. وفى اليوم الذى أعقبه، إلتقطنا علامات على الأرض لا تخطئها عين، تثبت أننا لا نبعد مسافةً سوى ساعات قلائل عن وادى الكاب، وكان الإعتقاد أننا سنصل الآبار عند المغيب. وبحط الأحمال عن الجمال، وتعيين أربعة رجال لرعاية الأمتعة، سرنا نحو الآبار، متوقعين عودتنا منها فى نفس الليلة. سافرنا دون ما يعكر صفونا حتى حوالى الساعة الثانية ظهراً، عندما وصلنا الأرض المشققة التى تمتد على حافة الوادى نفسه. إن أمين، دليلى، ورجلين كانوا قد تم إرسالهم رأساً للإستطلاع. ويتخلل المكان كثبان رملية وتلال صغيرة إرتفاعها من خمسين إلى مائة قدم، وعندما اقتربنا من التل الأول، بالتقريب فى النقطة " A" [على الرسم التخطيطى]، سمعنا طلقاً نارياً. فى ذلك الوقت، كان الأمين ورفقاؤه قد وصلوا النقطة "G" على الرسم المرفق؛ إعتقدنا أن الطلق علامة تدل على أنهم وجدوا المآء، وتابعنا سيرنا حتى بلغنا النقطة "B"، عندما توالى الطلق النارى طلقةً وراء أخرى، والطلقات تئز فوق رؤوسنا. فى هذه اللحظة رأينا أمين ورفقاؤه يسرعون نحونا. بعد ذلك إنطلقت مجموعات متقطعة، ولكن كل الطلقات كانت عالية. وإلى هذه اللحظة لم نكن قد شاهدنا مهاجمينا، ولكن الدخان المنبعث من البنادق كشف الآن عن مواقعها – التل المعلم بحرف "C".

كنت إلى حد خفيف فى مقدمة الكيان الرئيس للقافلة، ومعى حسن، الدليل، ياردات قليلة عن يمينى. ولما كنت أركب على جمل أبيض كبير، حسن الزينة، وألبس كوفية حرير لامعة على رأسى، فقد مثلت معلماً ممتازاً، وتتابعت الطلقات بصفيرها من فوقى. وكنت أدير جملى لأسرع به قافلاً نحو الكيان الرئيس عندما رأيت حسن يسقط على الأرض. وبمناداتى كاتبى إلياس، الذى كان قريباً منه، ليساعده على إعتلاء جمله، أو إناخة الجمل لتغطيته، حاولت أن أُنيخ جملى حتى أتمكن من النزول من ظهره، ولكن الحيوان الكبير كان مأخوذاً مهتاجاً. وصاح إلياس أن حسن "ميت خلاص". وكان رجالنا الآن قد ترجلوا سريعاً وهم يحشون بنادقهم. طلقة وراء طلقة، ومجموعة وراء أخرى، ولم يكن أحد قد أصيب سوى حسن. وبإناخة الجمال، كإحتياط ضد هروبهم، تقدمنا فى فضاء مفتوح نحو التل الذى تنطلق منه الطلقات النارية، أنا فى أقصى الشمال، وإسماعيل فى الوسط، ودرب الصافى على اليمين. وبإحاطتنا بالتل "C"، أصابت أعيننا أول لمحة عن العدو، حوالى خمسين من الأشداء، وتراجعنا سراعا. قمنا بإطلاق مجموعة عليهم، فردوا عليها بالمثل، وبعد ذلك شغل المقاتلون دقائق قليلة بتبادل النيران الحامية من الجانبين. وقد رأيت إثنين من رجالى يسقطان، وحوالى ثمانية إلى عشرة من الدراويش. وبأخذهم موتاهم أو جرحاهم، أسرعوا مبتعدين، تاركين ورآءهم جملين. وكان درب الصافى، الذى يقود من اليمين، وهو يتقدم الآن علينا، حثيثا، أول من وصل الجملين، واكتشف أنهما محملان بقِّرب مملوءة بالمآء. صارخاً "مويه للعطشان؛ الله كريم!" بدأ فى فك الرباط عن إحدى

حقائب المآء. ووقع إندفاع عنيف نحو المآء؛ وألقى السلاح على الأرض، وجاهد الرجال حول الإبل للشرب. وقد حاولت لثوانى، عند وصولى لهم، أن أنتهج نهجاً معتدلاً، لأننى أعرف أثر الجفاف الشديد فى مثل الظروف والحالة التى كانوا عليها. وكان بعض الرجال يعانى العطش لثلاثة أيام بدون مآء، ولم يخفف لحم الجمل الذى أتوا عليه من معاناتهم شيئاً.

وبينما كانت المجاهدة على أشدها، ركضت حُسنيه، التى كانت قد لحقت بنا مع إلياس، قائلة إن الدراويش يعودون، وبالنظر إلى الإتجاه "E" شاهدت نحو مائة وخمسين من الرجال يتقدمون بخطى سريعة. رفعت صوتى بالتحذير، ونادى إسماعيل بحمل السلاح؛ ولكن قلة سمعت صوته فى الجَلَبة. هولاء القلة أطلقوا شيئاً من النيران ولكن الأمر قضى الآن؛ وفى لحظة إنقض الدراويش علينا، ملتحمين صديقا وعدواً فى جمع محتدم. ومن فوق الضجة أمكن سماع صوت قائد الدراويش يذكر رجاله ببعض الأوامر التى كان قد تلقاها "وأن تؤمنوا على حياة رجالهم". حتى فى تلك اللحظة خطرت الفكرة فى نفسى أننا قد تم إقتيادنا إلى كمين، وإلا فلما الإشارة إلى "أوامر سيدنا" التى صرفها لهم قائدهم؟ أسرعنا إلياس، وحُسنيه، وأنا نحو "F" للتغطية؛ ما كانت هناك فائدة تُرجى من بندقية الصيد التى كنت أحملها فى مثل ذلك الجمع المحتدم، إذ كان محتملاً أن أصيب بها الصديق والعدو. وحال وصولنا قاعدة التل قُبض على إلياس، وشُغل الدراويش الخمسة أو الستة الذين جدوا فى أثرنا بفحص محتويات الحقيبة التى كان يحملها – الثلاثمائة دولار خاصتى، المجوهرات، إلخ. رمقونى بنظرة سريعة ليس أكثر، ثم ابتعدوا.

بدفع بعض الأحجار نحو بعضها البعض، طرحت عبوات ذخيراتى، وأعدت تعبئة مسدساتى، واستعديت للموت مقاتلاً. واستطاع إسماعيل، قائد قافلتنا، بوسلية ما أن يفلت من الكتلة المتصارعة، وبوصوله جملى، ركبه، وانطلق فى جهد بالغ يمنة النقطة "F" وبرؤيته حُسنيه وشخصى، دعانا لنحاول بلوغ الإبل ومتابعته. إلى ذلك ركضت حُسنيه من فوق التل إلى الأسفل؛ ولم ألحظ غيابها من المساحة المباشرة للتل لأننى كنت فى شُغل شاغل أبنى فى سرعة زريبة صغيرة للغاية من الحجارة. وبنظرة سريعة نحو الخارج من وراء الحجارة، لاحقاً، دهشت لمشاهدتى لها وهى تمشى فى مقدمة الدراويش الذين كانوا قد أسروا إلياس، وهم يسيرون فى صف على النسق الهندى. ونادت حُسنيه بأننى منحت عفواً، وعلىّ أن أقف بلا سلاح. رفضت أن أفعل ذلك، وفى حين تواصل تقدمهم، ظللت مصوبا بندقيتى نحوهم من بين فتحات الحجارة. نادت حُسنيه ثانية، قائلة إن لديهم أوامراً ألا يؤذوننى، وكدليل على ذلك فأنهم أطلقوا نيرانهم فى الهواء ثم طرحوها على الرمال.

فى هذا الوقت أمكننى أن أرى رجالنا مقيدين، جماعة فى الساحة؛ تركت ترس غطائى، إنحدرت من التل، وتقدمت نحو الدراويش، عندما حُييت بالصريخ والهتاف "الكافر، الكافر". وتحرك واحد، ربما أنه أشد تعصباً من الآخرين، بعد أن شجبنى، كأنما يود أن يضرب على رأسى بسيفه. وبتصويب نظرى على عينيه، سألته "هل هذه كلمة الشرف (أى العفو) من نبيك وسيدك؛ أيها الكاذب، يا ابن الكلب؟ اضرب، أيها الشئ المتسخ!"، وبينما، فيما يتوقع، كنت فى هذه اللحظة أرتجف من الخوف والإثارة، فقد عشت طويلاً فى الشرق لأنسى أن المواجهة الجريئة والمسلك المقدام يجلبان الإحترام، إن لم يكن الخوف. إن كلماتى ومسلكى جاءا بالأثر المرغوب، ومنه إنه متوجهاً نحو قاتلى القادم، سأل واحد "ماذا أنت فاعل؟ هل نسيت أوامر سيدنا؟" كانت هذه هى المرة الثانية التى يذكر فيها شىء عن "الأوامر". طرحت أسئلة قليلة لمن قاموا بأسرى، ولكنهم إمتنعوا عن الإجابة عليها، قائلين إنه بإمكانى أن أتحدث مع الأمير حمزه والأمير فَرّاج، وأسرعوا بى نحوهما. إن الأمير الذى علمت مؤخراً إنه فَرّاج، سألنى عن إسمى، وماذا أُريد ببلده؛ ثم، متجهاً نحو أتباعه دون أن ينتظر إجابة، نادى "هذا هو الباشا الذى أرسلنا سيدنا ود النجومى لأسره؛ شكراً لله أننا قبضنا عليه بلا

أذى". وكانت الملاحظة الأخيرة التى أبديت، لوماً للرجل الذى هددنى بالضرب، إذ أن الحادث أُبلغ عنه، وكذلك إنذاراً للآخرين.

وبأخذى جانباً عن الآخرين، واصل حديثه، "أرى إنك عطشان؛" وبمناداة واحد من رجاله، أمره أن يصب بعض الماء على بعض الخبز الجاف، وبتقديمه لى، قال مبتسماً، "كُلْ - ليس خيراً لك أن تشرب". لقد إكتشفت مغزى حديثه. فلو أن رجالنا لم يندفعوا ذلك الإندفاع الجنونى نحو الماء، لكانت لدينا قصة مختلفة للغاية، ومن يدرى، لو أننا كنا ظافرين فى ذلك اليوم ووصلنا للشيخ صالح، فربما أن تأريخ السودان للإثنى عشر عاماً السابقة كان سيُقرأ قراءة مختلفة؟ إن تأريخى أنا كان إلى ذلك يصير.

الفصل الثالث
فى أيدى الدراويش

سُلِّمت إلى رجلين، أُوكلت لهما مسئولية رعايتى؛ ووضعت حُسنيه ومعها إلياس معا فى ذمة آخرين، وأُمرنا أن نجلس على مسافة قريبة. وكان للدراويش خيام عسكرية لابد أنها أَخذت من الخرطوم، ونُصبت إحداها فى الحال. وهنا عقد الأمراء والرجال المسئولين إجتماعا للتشاور وتحقيق الأمور. وعُرض درب الصافى وآخرين عليهم واحداً تلو الآخر، وكان السؤال المُلقى عليهم مباشرة، "أين البنادق والذخائر؟" حيث أنه لم نحضر معنا، بالطبع، شيئاً منها للآبار. أنكروا أى معرفة بها؛ ثم رد عليهم فَرّاج، "لسوف نجدها لكم، ونبين لكم كيف تستعمل". وجاء دورى، وفى إجابة على السؤال المعتاد، قلت إننى لا أعلم أى شئ عنها بالمرة؛ ومع استمرار السؤال، عنها، إعترفت إننى رأيت عدداً من الصناديق، ولكننى لا أستطيع الإدعاء بمعرفة ما بداخلها. ولما سُئلت أين كانت، قلت إننى لا أستطيع إخطارهم بمكانها - فهى فى الصحراء فى مكان ما؛ فقد أُلقى بها بعيداً، لأن الإبل منهكة وعطشى لم تتمكن من نقلها لمدة أطول. ولا أزال مستجوباً، قلت إن الدليل الذى جاء بنا إلى هذا المكان كان أول من قُتل فى عمليات تبادل النيران، وإننى لا أعتقد أن أى واحد آخر فى قافلتنا يستطيع أن يرجع إلى الموقع الذى تُركت به الصناديق.

بسماعهم هذه الأقوال، تبادل المجلس نظرات سريعة نحو بعضهم البعض. وبإستفسارى عن تأكدى من مقتله، ما وجدت سوى إفادتهم أن كاتبى نقل لى الخبر، وإننى شاهدته يسقط، وأشرت لهم على نقطة سقوطه. بعث فَرّاج رجلاً فى ذاك الإتجاه بعد أن همس له ببعض التعليمات، وأثناء الدقائق القليلة التى غاب فيها، ساد الخيمة صمت مطبق عدا طرقعة السبَح وبعودته، همس بإجابته لفَرّاج. ثم جئ بإثنين من عرب العليقات الذين كانوا قد إنضموا إلينا فى وادى حلفا وجرى سؤالهم؛ ولم يردوا بإجابات مباشرة فأُخذوا جانباً، ولكن ليس إلى مسافة من البعد بحيث تحول دونى ودون تصنتى جزءاً مما دار بينهم. وقد خمنت نتيجةً للوعود والوعيد أنهم تعهدوا بقيادة الدراويش إلى الموقع الذى تركت فيه الصناديق فى الصحراء. إنه لمحتم من الأسئلة التى طرحها الدراويش أنهم كانوا يجهلون الموقع المحدد الذى أودعت فيه الصناديق، وبمعيار ما أثبتت هذه الحقيقة موت حسن؛ ولكنى دائما ما انتابنى الشك أن الرجل تظاهر بالموت ولاذ بالهرب، لكى يقدم نفسه فيما بعد للنجومى. ولعله امتزج بالدراويش ولم نراه.

الشمس الآن تغيب؛ إنتهى المؤتمر، وصرفت الأوامر من فَرّاج إلى الجميع للسير قافلين على نفس الدرب الذى كنا فيه، وقادنا عرب العليقات، وأمين ينتصف جمعهم، سرنا لساعة أو تكاد لأن جمالنا، بما عليها من رهق ولأنها لم تُسقَ، إضطرب سيرها. توقفنا فى الليل، وتقاسمنا الماَء التى كانت فى معية الدراويش، إلى حدٍ ما. وبمشرق الشمس فى صبيحة اليوم التالى تابعنا السير ثانيةً، وخمسة وعشرون رجلاً، أرسلوا فى المقدمة مع الدليل، يركبون على إقتدار. أما رجال صالح، جرحى أو أصحاء، فقد أُجبروا على المشى بالأقدام، وركب الدراويش وجرحاهم الجمال.

وفى الضُحى وصلنا النقطة التى كنا قد عيّنا عليها الرجال الأربعة لحراسة المتاع، لنجدهم موثوقى الأيدى وراء ظهورهم. إن مجموعة المقدمة كانت قد أدركتهم حوالى العاشرة صباحاً، وقد ألفتهم دون شك نومى، فلم تطلق أى نيران. وما من لائمةٍ تُنحى على الرجال على أى حال، ولا يعنى كثيراً ما إذا كانوا نائمين أو يقظى عندما أُخذوا أسرى، وسوء الطالع يلازمهم. وقد كنت عند بداية سيرى نحو الآبار تركت فيهم الماء القليل الذى وفرته مسبقاً؛ ولولاه ما استطاعوا النوم.

بنفس الكيفية، كان رجال صالح قد عجزوا عن تذكر كل شئ فى ذلك الإندفاع المجنون للماَء؛ وكمثلهم إنفلت زمام الدراويش، فنسوا كل شيء عن سجنائهم واندفعوا نحو كومة الصناديق.

وسرعان ما انتشرت على الأرض البنادق، وعبوات الذخيرة والسكر، والثياب، والطعام، والمائة زائداً واحد من الأشياء التى توجد فى قافلة تجارية، فالصناديق والحُزم خاصة العرب الذين التحقوا بنا فى وادى حلفا لا تحوى سوى البضائع. لقد أجمعت رائى فى الحال؛ وبركضى تجاه السجناء الآخرين بسكين صيدى، فكرت إنه وفى كل الحالات قد أحل وثاق البعض وبالوصول إلى الجمال والتفرق أيدى سبأ، ربما يفلت البعض. كانت فكرة جنونية، ولكنها تساوى شيئا . وقبل أن تجد أياً من خطتى الفطيرة تنفيذاً، إنقض الحراس علينا. وجئ بى إلى الأمير سيد ود فرّاج، ولكنى قدمت العذر لنفسى، قائلاً، لكونى رجل طبى، إننى كنت ذاهباً لأرى ما إذا كان بإستطاعتى رعاية أى واحد من الجرحى. وبثنائه على لفكرتى نحو الآخرين، أوصانى أن أكثرت لنفسى، أخذ لنفسه السكين التى وجدها الحراس معى، وأخبرنى أنه سيفيدنى متى أستعملها، محذراً لى فى نفس الوقت ألا أحاول التحادث مع أى أحد من السجناء الآخرين.

وعندما هدأت الإثارة نحو الغنيمة قليلاً، ذبح جمل إبتهاجا بالمناسبة، وأُمرت خادمتى حُسنيه لإعداد بعض الطباق. ودُعيت لتناول الطعام مع الأمراء. وكان طبقنا الأول كبدة الجمل بلا طهى، وعليها الملح والشطة – نوعاً من الفلفل الأحمر. لقد شاهدت مثل ذلك الطبق يؤكل، ولكننى لم أتناول منه شيئا لنفسى من قبل أبداً. والآن أواجه سببين لأكله: الأول، إننى كنت جوعانا عَطِشَاً؛ والثانى، إن أوائل الدلائل على الخوف تشمل الإحجام، أو ربما أقول عدم القدرة على بلع الطعام، وكان الخوف ممن أسرنى هو آخر شئ أفكر فى إظهاره. وبعد الوجبة، أُخذت ملابسى منى، لأنهم يعّيرونها كلباس للكافر، وأخلى سبيلى فى هواء الليل وعلى جسدى صديرية، ولباسى الداخلى، وجوارب على أنها طاقم ثيابى. أما عمامتى والكوفية البغدادية فقد أخذا منى كذلك، فصرت حاسر الرأس فى الصفقة.

ولما أنهى الدراويش تناولهم للطعام، وقبل أن ينطرحوا لليلة، أرسل الأمير فَرّاج لجمع كل الغنيمة وإحضارها أمام خيمته، حيث سيجرى توزيعها لاحقاً، طبقاً لقواعد بيت المال (الخزانة). إن هذه المؤسسة ونظامها سوف نصفه فيما بعد. وما جُمع من الغنيمة سوى القليل لأن الرجال، من واقع خبراتهم، وهم يعلمون الطريقة الشاذة التى «تنكمش» بها الغنيمة حجماً ورقماً عندما تبلغ أيدى الأمراء لتقسم طبقاً للأحكام، أخفوا فى الرمال أو تحت الجبب ما أمكنهم إخفائه. أما الغلايين والتبغ الذى عثروا عليه فى الأمتعة، فقد حرقوه، لأن إستخدامه مُجّرم من المهدى. وبين الأشياء خاصتى وجدت محفظة رسائلى، وهذه قدمت إلى الأمراء، الذين فيما بعد بعثوا فى طلبى وطلبوا الإلمام بما فى الرسائل من محتويات. أجبتهم أنها وثائق أعمال وحسب، إيصالات بالبضائع، وما إلى ذلك، ولكن إذا أعيدت لى المحفظة فسوف أترجم كل وثيقة. وبرضائه عن تلك الإجابة، إحتفظ فَرّاج بالمحفظة. وقد أذن لى، لشكوتى من مصادرة ملابسى، لأستعيد قميصى المصنوع من الصوف الخفيف، وأعطانى قطعة من الملابس الممزقة كغطاءٍ لرأسى. وفى هذه الهيئة، رقدت على الرمال مسهداً مستيقظاً طوال الليل، واعياً بدون وعى، أحداث الأيام الثمانية عشر الأخيرة تطارد تداعياتها دماغى.

كان المعسكر كالمرجل يغلى، طويلاً قبل مشرق الشمس، وعند الشروق تحركنا شرقاً تجاه الكاب، التى بلغناها حوالى الثالثة صباحاً فى الظهر. إن "الآبار" فى الجهة التى وصلنا إليها، تقع على أرض مرتفعة؛ ولكن إطلاق إسم "بئر" عليها كُنية لا تعكس حقيقتها. إنها حيضان منخفضة تغترف بالأيدى أو أى أداة تؤدى الغرض، فالماء تجرى تحتها حوالى ثلاثة أقدام تحت السطح، وتدل بعض الشجيرات على مكان الغرف. سقيت الإبل وأطلقت لترعى على المرعى بما يكفى. وذبح جمل آخر للإحتفال بأسر القافلة، ومرة أخرى دعيت لتناول الطعام مع الأمراء. ولقد سئلت أكثر الأسئلة عمومية وحسب، على أننى لم أتلقّ إجابةً على الأسئلة التى طرحتها بدورى، عدا أن عبد الرحمن النجومى سوف يفيدنى بكل ما أرغب فى معرفته. وبينما كنت لا أزال مع الأمراء، دعا فَرّاج أتباعه ثانية، وبعد أن هنأهم على أسر "الباشا الإنجليزى" والقافلة (بالرغم من أن الأمير يعلم جيداً من أكون

من أيام خوالىّ فى كورتى)، خطب فيهم بشأن توخى الرشاد بطاعة رسالة المهدى وتعاليمه التى نقلها للخليفةً ومن الخليفة إليه هو، وختم خطبته بالوعيد عقوبة وسجنا لأى من الأنصار الذين ينهبون بيت المال وبعد ذلك أمر بأن يفتش كل فرد للمرة الثانية. وقد توفرت لى فرصًا عديدة لاحقاً لأرى الشواهد على أكثر ما يعتمد الأمراء عليه، فيما يختص بالحصول على الغنائم - حض الأتباع، ومخاطبة واعزهم الديني - أو التهديد بالعقاب والسجن. إن الإثنين يسيران معا، ويداران على النحو الذى سردته، ونادراً ما تأتى مناسبة لا يعقب البحث فيها حثهم على الأمانة، ولا توقع فيها العقوبة بعد البحث عن الغنائم المخبأة.

صرفنى ود فَرّاج تلك الليلة، ولكننى ما إن رقدت بالكاد حتى انسرق نحوى إثنان من الدراويش، ووجها لى سؤالاً لوصف كل المتاع الذى كنت أملكه. قلت لهم إن قائمةً يمكن العثور عليها فى محفظتى، وإنهما إذا قاما بإحضارها لى فسوف تمكننى من إعطائهم المعلومات المطلوبة. ذهب أحدهم، فيما أعتقد، ليسأل الأمير عن المحفظة، ثم عاد بعد قليل قائلاً إن علىّ أن أتذكر، وإن القائمة التى سأذكرها لهم ستقارن بالقائمة التى فى المحفظة. ما كانت هنالك قائمة فى المحفظة، ولكن كان بها رسالة أو رسالتان كنت أرغب فى إخراجها منها. لقد فكرت مذاك إننى لو أبديت لهفة أقل للحصول على المحفظة نفسها، فلربما كنت قد أغريتهم على تسليمى تلك الرسائل بذريعةٍ أو أخرى. وسرعان ما اكتشفت من أسئلتهم أن الدراويش كانوا يتجسسون على أنفسهم، لأنهم سألونى مباشرة عن محتويات الحقيبة التى أخذت من إلياس كاتبى. إن المعلومات منحت هؤلاء الرجال رضاءاً عظيماً فيما هو واضح، ويأخذهم حُسنيه معهم أرسلوها لى ومعها أدوات الطهى وغذاءاً وحطباً للوقود، وأمروها لتعد لى الطعام. وبعد أن تناولت الغذاء مع الأمير ومن قبل ذلك الوقت، كنت فى حيرة لأفهم معنى كل هذا، ولكننى علمت فيما بعد أن السبب منع أى أحد آخر من التقدم لها لإستحصال المعلومات. وبصرف النظر عما إذا كان هذان الرجلان، كما قالا، مسئولان عن بيت المال، أو إنهما لرؤيتهما المال أو الجواهر أرادا أن يحصلا على نصيبهما منه، فإننى لا أستطيع تحديداً لذلك، ولكننى فى ضوء أحداث لاحقة يجب علىّ أن أصدق الإحتمال الأخير.

وبعد أن تم إعداد الطعام، دعيت حراسى لأكله. وكنت أمل أن وجبة دسمة، سيما وقد كان إرهاقهم ظاهراً للعيان، سوف تدفعهم للنوم، وبتظاهرى الإغماء، تحركت ياردات قليلة، واحتفرت حوضاً رملياً. لقد كنت مستعداً للقيام بأى مخاطره في سبيل الحرية؛ وكنا آنذاك في جيرة الآبار، وربما نرحل أياماً دون أن نفقد مصادر المياه. وبشرحى خططى لحُسنيه أخطرتها أنها بدعوى جمع الحطب للوقود، عليها أن تحاول الوصول إلى أمين وإلياس، فتقطع وثاقيهما بالسكين الكبيرة التى قطعنا بها اللحم للطعام، وتخبرهما بالزحف نحو شجيرة صغيرة كنت قد لاحظت وجودها فى ضوء النهار، وينتظرانى بجانبها. إن بعض الإبل ترعى هنالك وأقدامها محجلة بالحبال، وكنت أعتقد أننا ربما نفلت دون أن يرانا أحد، ونكسب بعض الساعات. ولكن حراس السجين ما كانوا نائمين؛ لقد كانوا متيقظين تماماً، يفتشون الأسرى بحثاً عن أى شئ ثمين، وهى عملية قام بها كل حرس توكل له الحراسة، وهكذا أشرقت الشمس ولا نزال فى قبضة الدراويش.

ومن بعد الشروق مباشرة تحركنا ثانية؛ إن حارسى لابد إنه أُخطر بأهميتى، لأنه قام بإعداد السرج على الجمل لشخصى بنفسه، وأحضر لى قرعة من لبن النياق. وأثناء رحلة هذا اليوم، ركب نحوى مستفسراً عن صحتى - وهى التحية المعتادة - الأمير محمد حمزه، من قبيلة الجعليين، الذى كان يأمر قسماً من الدراويش. وقد أخبرنى ألا أخاف من الإصابة بضُر، وسار بعيداً عنى. فى ذلك المساء وصلنا إلى معسكر صغير للدراويش يقرب من بعض الآبار، عندما ذهبوا بى إلى أمير آخر أُعلمت أنه مكين النور وقد كان من الإحترام المضفى عليه من الآخرين دون شك الرئيس. وهو بدوره سألنى بضعة أسئلة من نفس النوع المعتاد مثل الآخرين، ورفع يده نحوى إشارة للإنصراف. وعند

طلبهم مثولى للمرة الثانية، أُتهمت بأننى جاسوس للحكومة، وسئلت ماذا أملك أن أقول عن نفسى. أجبت، "لقد قلت لكم الحقيقة؛ ماذا تودون منى القيام به الآن؟ أكذب عليكم، وأقول إننى جاسوس؟ إذا فعلت ذلك فسوف تقتلوننى على ذلك القول، ولو ذكرت لكم مراراً إننى لست كذلك، فلن تصدقوننى، وستقتلوننى على حدٍ سواء. إننى لست خائفاً منكم؛ فافعلوا ما شئتم". وعندما سألنى مرة أخرى، قلت، "إننى أرفض الإجابة على أى سؤال آخر." إن أسلوبى فى الكلام معهم أثار دهشة غير محدودة، فقد كان بلا شك مختلفا عما كانوا يتوقعون، وما خبروه آنفا من الأسرى.

نادوا درويشاً يافعاً، وأُمر بإقتيادى إلى موضع لا يوجد فيه مسجون غيرى. وبينا نسير معا، قال لى الشاب، "إن اللّه عدل؛ وهو كريم؛ إننى أسألك ربى أن تسر أعيننا غداً برؤية كافر أبيض يشده إلى شعبةٍ، أسود". أما الشعبة فهى فرع منقسم الرأس من الشجرة؛ وتضغط مقدمته على العنق على الحنجرة، ومن ثم يبرز الساق أمام الشخص؛ ثم يربط رسغ السيد اليمنى بإحكام إلى الساق بسيور من الجلد المدبوغ حديثا وبجفافه سريعاً "يلسع" الجلد، وتُجذب حواف الشعبة إلى أقرب درجة ممكنة، وتثبت بقطعة رابطة. إنها أداة قاسية للتعذيب لأن اليد لابد أن تمتد حتى النهاية وتظل كذلك ممدودة؛ وإذا حاول الشخص تخفيف العذاب فمعنى ذلك الضغط على الحنجرة؛ وإذا شد وثاق رجل إلى آخر فسيلقى كل منهما بالضغط الذى يعانية على الآخر. إن لكزة فى الضلوع تحت ذراع أى من الضحيتين، بسيف أو بندقية، تمنح تسلية لا حد لها لجلاديهما على ما يبديانه فى وجهيهما من تأوهٍ وآلام وهما يلهثان للتنفس؛ على أن أقداح السعادة تمتلئ لآسريهما عندما تُسقط وخزة قوية أحد الرجلين على الأرض، ويعان التعيسان على الوقوف على قدميهما ثانيةً وهما يشارفان الإختناق .

مُثاراً بما لا يمكن إحتماله بحركات الشاب وإستهزائه، وبأمل وضع نهاية لكل شئ فى الحال، رميت بكل وزنى وقوتى فى لكمة واحدة - وكنت وقتها رجلاً قوياً - فرمت به فاقداً للوعى. وبأخذى بندقيته، أسرعت الخُطى رجوعاً إلى الخيمة، أكاد أزّبد من الغضب، ودخلت؛ إن عينى لابد أنهما كانا كالشرر؛ صوبتهما على الرجال واحداً وراء الآخر، وبى حيرة هل أطلق الطلقة اليتيمة وبعدها أبدأ "الضرب" حتى أمزق. كان حمزه أول من تحدث، وبقفزةٍ واقفاً، رفع يده للأعلى، قائلاً "إستّنا (إنتظر)". لقد إسترجعت فى سرعة ما كان من أمر، وقلت ما أعتزم القيام به. وجاء لى حمزه ، وهو يقول، "لا، لا، لا، لابد أن هناك خطأ. إنك سوف لا توثق فى شعبة؛ إن أوامرنا أن نسلمك حياً وطيباً". ثم، متجهاً نحو الآخرين، واصل حديثه، "سلموا لى هذا الرجل؛ لسوف أسلمه حياً وطيباً لود النجومى؛ إننى أعّد نفسى مسؤلاً عنه". وسرى بعض الإعتراض عندما قمت بخفض البندقية، واضعاً مسندها تجاه الأرض وذقنى على حافة الماسورة، ثم مخاطباً نفسى لهم جميعاً قلت إنه ما لم أودع رَهْن حمزه فلسوف أضغط على الزناد - الذى كان إصبعى الكبير مستريحاً عليه. إن حمزة أكد ثانيةً نقطته، وقال، "إذا لم توافقوا، وقام هذا الرجل بإيذاء نفسه، فإننى أعلن نفسى حراً من اللوم والمسئولية. لقد سمعت عنه؛ لسوف يفعل ما يقول". كان للكلمات وقع السحر". خذه بعيداً - إحفظه؛ أفعل به ما تشاء؛ لا تدعه يجئ ناحيتنا - أبداً - مرة ثانية. لا تدعه ينظر لنا بعينيه". (*)

قال حمزه، وهو يتجه نحوى، "يجب أن تعلم الآن أن سيدنا، ود النجومى، يعلم بحضورك، وقد أرسلنا لنأخذك إليه. إن أوامره قضت بأن تعامل معاملة حسنة؛ وهو يرغب فى التحدث معك. ولسوف أعطيك الأمان حتى دنقلا، حيث ينتظرك. إننى لا أعلم ماذا سيفعل بك؛ لربما يقتلك - لا أستطيع أن أقول؛ ولكن، عن نفسى، أعدك أن تصل دنقلا حياً. وإذا حدث لك شئ، فسوف يقتلنى الأمير ود النجومى. فهل تعدنى أن تترك نفسك فى يدىّ، وألا تحاول قتل نفسك، أو تحاول الهروب؟" وعدته، وعلى ذلك قال حمزه، "دعوا ذلك الرجل لى".

إن المحادثة التى وقعت بيننا أخذت وقتاً طويلاً مما يبدو فى السرد السابق، ولكننى لا أستطيع التباهى بأننى أتذكر كل ما قيل من بعد فترةٍ مقدارها إثنى عشر عاماً؛ إن السرد المذكور هو خلاصة

لها. وقد سلمت حمزه البندقية، وهو، بأخذه لى من اليد على الطريقة البدوية، قادنى خارج الخيمة، نحو القسم التابع له من الدراويش. وفى الطريق، فى همسات قليلة عجلى، أعطانى الإنطباع إنه حقاً لا يزال صديقاً للحكومة، وإننى بإمكانى أن أثق به ضمنا. ولدى بلوغه قومه، دعا أربعة من الرجال للعناية بى، ومرسلاً لحُسنيه أخطرها أن تعد من الطعام ما كنت أنا معتاداً عليه. جاءت حُسنيه فى ثياب ممزقة؛ فملابسها، مثل ملابسى، أُخذت منها. أمر بإعادة أحد ملابسها لها، وعندما بيّنت له كيف أن جلدى إحترق فى ظهرى وأكتافى بالشمس، أمر كذلك أن أُزّود بمزيدٍ من الثياب.

الفصل الرابع
الوصول إلى دنقلا

بدلاً من إنطلاقنا صباح اليوم التالى عند الشروق، عُقد نوع من الإنطلاق الإحتفالى "فانتازيا". أُقيم ذلك من رجال يركبون جيئة وذهابا فى المعسكر ومباراة هزلية يقلد فيها الأفراد بعضهم - شيئاً من عروض السيرك. وضُربت علىّ رقابة أشد صرامة، وحُذّر حراسى من السماح لى بالتحدث مع أى أحد. وعند المغيب تابعنا السير ثانية، وتوقفنا فى اليوم التالى فى الصحراء، الأُوردا (دنقلا العُرضى)، فقد كانت على بعد ساعات قليلة، كما أُخطرت. إسترحنا ربما بضع ساعات، وسرنا حتى المساء. ولكن لم نشاهد دنقلا بعد. وأُجرى تفتيش أخير على الغنائم المخبأة، وجُلد أحد الرجال لأن قطعة من حقيبتى الجلدية إكتشفت معه، ولرغبته فى الإعتراف أقر أنه كان قد عثر عليها فارغة على الأرض. وقد فتشوا ملابسه، وملابس من كان معه فى القسم، ووجدوا كناتج لإستقصائهم سبعة عشر من دولاراتى التركية؛ وتمخض عن تطبيق المزيد من الكرباج إكتشاف الباقى من الثلاثمائة دولار، وبمزيد من الجلد إيجاد القدر الأعظم من المجوهرات. لقد تأخرت مسيرتنا بالجلد والبحث وبدلاً عن السفر فى تلك الليلة، تمكّنا من الرحيل فى الصباح، وبلغنا مشارف دنقلا فى الظهر، عندما أُرسل الرجال ليبلغوا عن وصولنا.

وأثناء إنتظارنا عودة المرسلين، خُففت إجراءات النظام - أى ما كان منه موجوداً - واستسلم المعسكر للإبتهاجات. إن النوايا التى أُبديت نحوى ما كانت مما يدعو للسرور؛ بالكلمات والأفعال معاً حُملت على إدراك ما كان الرجال يأملون ويتوقعون لمصيرى. ومُنح تأجيل للتطبيق، لما أُحضر لى الرجل الذى تلقى ضربات الجلد حتى أشهد بأن كل الأشياء التى اكتشفت معه ومع زملائه كانت قد أُخذت من حقيبتى، وأن كل المواد تم إكتشافها. وفيما ظهر، ما كان فى أسوأ حالة جزاءاً على تجاربه، وقد شرح لى الأمر. فإن الأنصار إذا جُلدوا، فى مهمة تناط بهم، على السرقة، التى فيما يعلم الأمراء يرتكبها كل واحد منهم، تُصرف الأوامر لضربهم جلدات عديدة؛ وهذه تُوّقع بالكرباج (جلد فرس البحر المدبوغ) على الجزء الملحم من الظهر، وفوق الملابس .

لقد سامحنى، ووضع اللائمة على السُكر لما اكتشف من أمره. إن كُتَل السكر، التى كانت جزءاً من البضائع التى جاء بها العرب الملتحقين بالقافلة فى وادى حلفاء، كُسرت وتم توزيعها. وفى الآبار تلاحظ أن بعض الرجال يغمسون قطعاً فى المآء ويقضمونها، ولما كان شيئاً من السكر لم يتم تسليمه عندما جُمعت الغنيمة، أُقيم أول بحث ونتج عنه إكتشاف غنائم مخبأة أخرى. إننى لا أعلم «أب السكر»، ولكننى أثق أن الشتائم واللعنات التى إستمطرت على رأسه من صديقى الدرويش ربما لا تبلغ مسامعه.

أُحضرت حُسنيه للتفتيش، وعُرّيت من ملابسها؛ وقد ألقت فى ذكاء بخَتمى فى الرمال، وضغطت عليه بقدمها. وكنت قد طلبت منها أن تحصل على هذا الختم من إلياس، لأنه إذا وقع فى يدهم، فإن الدراويش ربما يكتبون، بواسطة كاتبى، أى رسائل يرغبون فيها، ويختمونها بختمى، لتبدو موّثقة. وقد سئلت حُسنيه ثانيةً عن هويتى، وتمسكت بقولها إننى تاجر وليس موظفاً حكومياً، وبينما هى تحت التهديد بالكرباج، والذى كان فى هذه الحالة سيطبق مثل حكايات القطة ذات الأذناب التسعة فى وطننا، تقدم الأمير حمزه كشاهد فى صفى. إن حمزه هو آخراً، مع صداقته للحكومة، دُفع فى مراتب الدراويش. وبعد البحث الأخير بُدئ فى التحرك نحو دنقلا، ووصلنا قُبالة مدينتها بين الساعة الثانية والثالثة فى الظهر. وأمام المدينة رصدت أعيننا موكباً هائلاً من القوات، وعندما توقفنا دقت فرقة معزوفاتها؛ ومن الصوت الذى وصلنا، لابد أن الفرقة كانت مُكَوّنة من أبواق وطبول من كل الأشكال، والأحجام، والإيقاع، تماماً كما تتنوع مجموعة من الطبول. وفى الهرج الذى كانوا يلعبونه يمكن

خطفات من نشيد الخديوية.

بعد أن إصطف السجناء بطريقة تجعل عرضهم أكثر فعالية، ووُضعت أنا، السجين صاحب الشأن، فى منتصف الأمراء، أُعطيت إشارة، بموجبها هبط نحونا خيالة الجيش المستعرض فى عرضهم الذى يدعوهم لكثير الثناء والمبالغة. يحتوى هذا العرض على هجوم فردى وجماعى على صفوف المشاهدين مباشرة، وجذب مفاجئ للجواد يدفع به للوقوف على مؤخرة ظهره وقائمتيه، وهز لا معنى له للسيوف والحراب على رأس الفرد، والجنوح يمنة أو يسرى، بالتحكم فى الإتجاه بالفك شبه المكسور بسبب الجذب المفاجئ والحركة الوحشية التى تركب بها (؟) الخيول؛ ومهاجمة أخرى، وهكذا حتى يصيب الراكب التعب أو يجنح الفرس. هذا هو البرنامج المعتاد، ولكنه يتفاوت من مناسبة لأخرى بسبب حوادث الخيول والركاب والمشاهدين، ومثال ذلك ما حدث بشأن الخليفة على ودحلو، الذى قدم، قبل معركة أم درمان بأيام قلائل، عرضاً للأنصار أمام قبة المهدى لرفع الروح المعنوى، لكى يعلمهم كيف يهاجمون الصفوف البريطانية، وأُفسد الحفل كله بسقوطه، وكسر معصمه، وتكسيح الحصان، وكاد أن يقتل ستة من أشد معجبيه الغيورين الذين كانوا فى الصف الأول.

أستمر الموكب والعرض المصاحب له، ويدعى العَرْضَه، إبتهاجا بأسرنا، لأكثر من ساعة، عندما صدرت الحركة نحو دنقلا، ولدى وصولنا المدينة قادنى ود حمزه وود فَرّاج إلى بوابة إقامة النجومى. أُبقى علينا فى المدخل لبعض الوقت، وهو يماثل ما يمكن لحراسى أن يبذلوه لحمايتى من الحشد؛ وكان الناس فى أشد الحالات تهييجا، ولم يكن موقعى لمما يمنحنى كثيراً من الراحة لمعرفتى باللغة. فلقد وُخزت بالحراب والسيوف، ربما لربع ساعة – ولعله لأكثر من ذلك، أو أقل – وعُرِّضت لإختبار قاس من الصبر مما يتعرض له الرجال، أبداً. إن كثيراً من الموجودين فى الحشد يعرفوننى منذ ما قبل أيام التخلى، ولكن السائلين الوضيعين بالأمس هم الآن أشد أعدائى وجلادىّ مرارة. إن الشتائم واللعنات مصطحبات عادية للخصومة العادية فى الشرق – خصومة حول أكثر الأمور تفاهة – وهذا الجديد على قلته يمكن أن يجرح أذنى فى قطر يصح أن يسمع فيه طفل لا يزال يتعلم النطق، ببرآءة الأطفال، يلثغ لأمه "إلعن أبوك"، أو تعبيراً أسفل بكثير، لا أستطيع أن أستعمله هنا بسبب العدد الكبير من الناس الذين يفهمون الآن العربية، ولكن كلا التعبيرين يستعملان دائما. إنها الأفعال الموحية – بعضها حَز الرأس، وبعضها تمثيل بالجسد، وبعضها ذات وصف لا أستطيع حتى أن ألمح إليه، هى التى كادت أن تدفع بى إلى الحنق؛ وقد أدت إلى ذلك بالفعل، ولكننى تسيطرت على نفسى، ولم أسمح لغضبى بالظهور بأى شكل، كلمة أم عملاً.

لدى دخولنا المكان المحاط، دلونى على غرفة صغيرة، على أرضيتها ثلاثة رجال قُعود؛ نهض أحدهم، وبأخذه يدى، قال، "الحمد لله"، "بسلامتك". وأخطرت بالجلوس. تفّحصنى الثلاثة، ورديت عليهم تطلعهم. ولبعض اللحظات لم يُنبس بشئ، وكنت مصمما ألا أكون أول من يكسر الصمت. وفى الحاضر أُحضر الطعام، وطلب منى المشاركة. وعلى غرار الوجبة الأولى مع الأمراء، شرعت فى نية، وواصلت الأكل حتى بعد أن فرغ الآخرون من تناوله، دون أن أُعير أى إنتباه للمضيفين. لقد كنت أتصرف من ناحية، وأنا أقر بذلك، لأنه بالرغم من ظهورى كإنسان غير مكترث لكل من كان حولى، كنت فى نفس الآن "كلى أعين وآذان".

وبفراغى من الأكل، "قدّم" الأول الذى كان قد تحدث معى فى البداية، والذى خَمّنت أنه النجومى، نفسه لى. وابتعد حديثه بتقديم قبل سلسلة الأسئلة التى طرحها للرد عليها، كالآتى، "لا تخف؛ إننى آمل أن السعادة تكون حليفة لىَّ بإستقبالك فى الدين الحقيقى، ولسوف نكون أصدقاء". وأكد لى النجومى إننى عما قريب سأعتاد على حياتى الجديدة، وسأباركه فى النهاية لأنه خلصنى. ثم أخبرنى إنه يعلم جيداً من أكون ولأننى لست "رجلاً للحكومة"، فإن حياتى سليمة فى يديه، ولكن ممتلكاتى لابد

أن تُصادر لأنها وُجدت فى قافلة العدو. ولم أتابع ما ساق من أسباب، ولم يُسمح لى بذلك، لأنه أرسلنى إلى منزل أمين بيت المال بتعليمات تقضى بحسن رعايتى. وأُرسلت حُسنيه إلى الحريم بنفس الدار.

وفى الصباح الباكر أَرسل النجومى فى طلبى، ولدى وصولى محله، رأيت أنه كان يفحص عدداً من رجال الشيخ صالح. وعلمت مؤخرا أن بعضهم إعترف بأننى كنت فى خدمة الحكومة سابقا، وحاربت المهدى، ولكنى الآن تاجر وحسب. وكان هناك بالطبع عدد من السكان فى المدينة يذكروننى فى ذكرهم للحملة، ولكيما يتملقوا، ما كانوا غير منتهين عن الإشادة بشجاعتى وشدة مراسى وهو فيما لو صدقته السلطات البريطانية منسوباً إلى، لكان وضعنى على قاعدة لتمثال ما سعيت له حقا. وفى هذه اللحظة، كانوا على علاقة بالأمر بأمل أن أُطرح على "العنقريب" الشهير، والذى خلال ثوانٍ قليلة سيُسحب بعيداً، ويتركنى معلقاً من العنق. وعندما جاء دورى للإستجواب، قدمت محفظةً رسائلى إلى النجومى؛ وقد كان تفّحص المحتويات، دونما شك فى الليلة الماضية. وكان سؤاله الأول هو، "ما هى أوراق الحكومة؟" فأعلنت إنه لا توجد مثل تلك الأوراق، فكل الأوراق تتعلق بالأعمال التجارية. ثم سأل، "أليست هنالك أوراق من أصدقاء الحكومة؟" – وعليه أجبت "لربما؛ فأنا تاجر؛ أشترى الصمغ، والجلود – أى شئ من السودان، وأبيعهم ثانية لأى إنسان آخر يشتريها منى. إن الأمر "كله زى بعضه" (الأمر سواء) بالنسبة لى، مَنْ يكون الناس – أصدقاء أو أعداء للحكومة – شريطة أن يدفعوا لى. ولقد أعطيت مالاً كثيراً لما اشتريت، وأريد مالاً طيباً على ما بعت". بعد ذلك أخبرنى النجومى إنه كان قد حصل على ترجمة للرسائل بواسطة صبية تعلمت فى كنيسة الخرطوم. وترجمت رسالة الجنرال ستيفنسون على أنها "فرمان" يعيننى «باشا» على غرب السودان، بأوامر لشن الحرب على الدراويش، ولذلك الغرض تم تزويدى بالمال، والبنادق والذخيرة، وحوالى أربعين أو خمسين رجلاً كحرسٍ خاص.

بدايةً جمدت أوصالى؛ ثم برغم جدية موقفى، لم أستطع منع نفسى من الإنفجار ضاحكا. وإعترضت بأن الترجمة باطلة، وطلبت أن تعرض علىّ الوثيقة. ولم تعرض علىّ. ومتجهاً بالحديث نحو رجل ظننت أنه القاضى، قلت "إذا كانت الرسالة "فرمان"، فلابد أن تكتب بالعربية، لأن السودانيين لا يقرأون ولا يفهمون الإنجليزية". شفعت لى هذه العبارة لدى نجومى، الذى ذكر إنه لا يؤمن بالترجمة شخصياً، لأنها مختلفة جداً عن الأخبار التى كان قد تسلمها من حسيب الجابو. لقد أجريت تحريات عن الفتاة السوداء التى تحولت عن المسيحية، وعلمت أنها لا تعرف كلمة واحدة بالإنجليزية، وإنما كلمات قليلة بالإيطالية، وأنها مثل بقية أمثالها من الصابئين فيما يُدعى، ذهبت إلى الكنيسة فتجد ما يمكنها إيجاده. لقد نسيت إسمها، ولكننى آمل أن أذكره قبل أن أستكمل مذكراتى، ويحين موعد تسليمها. فلسوف يكون مثيراً للإهتمام أن يُعلم مبلغ المال المسيحى الذى بُدد على تعليم مثل هذه الصابئة، إفتراضاً، التى كانت قد تزوجت دنقلاويا، فأصبحت كالضوء الساطع بين أكثر النساء المتعصبات اللائى بأغنياتهن ورقصهن، يُلهبن نار التعصب فى الرجال.

أُحضر المزيد من رجال صالح للمساءلة – وسألت بعضهم. وفى النهاية، إعترفت أن رسالة الجنرال ستيفنسون طلبت منى، لو مريت بمنطقة الشيخ صالح، أن أفيده أن الأسلحة والذخيرة فى إنتظاره فى وادى حلفا؛ ولكننى ليس لى يد فى موضوع مباعهم، وإن وصولى من بعد تسلمهم، والأوراق تثبت إننى لم أتولى بيعهم له، ولم أكن لأجمع مالاً لهم، كما اعتقدوا. إن بقية ما جرى فى ذلك الإجتماع لا أرى منه الآن سوى الضباب، ولكننى أتذكر إنه مؤخراً فى ذلك اليوم أُخطرت أن النجومى، بعد أن ضغط عليه الأمراء الآخرون، من أجل أن يستحصل الحقيقة عن طريق تخويف الآخرين، أمر بإعدام أربعة عشر إعرابياً من العرب الذين انضموا لنا فى وادى حلفا، إن دليلى، أمين لسبب أو آخر مما لم أكتشفه إلى الآن، أُمر بإعدامه فى نفس الوقت، وكان الأول ممن قطعت رؤوسهم. إن تخميناتى

عن هذا الحادث يستحسن أن تؤجل لفصلى القادم.

فى الصباح التالى، أمرنى أمين بيت المال بالإستعداد لحضور حفل "فانتازى" نظمه ود النجومى، وفيه أمرنى بالمثول؛ ولكننى، كسجين له، يجب أن أمثل وعلى عنقى حلقة خفيفة وسلسل، وسلسل خفيف مثبت إلى كعبّى رجلىّ، لذلك المعنى. بوصولى محل النجومى، وجدت القاضى وهو يحاول حث درب الصافى وحوالى إثنى عشر أو ثلاثة عشر من رجال صالح ليصيروا مهديين. وكان درب الصافى يتحدث بإسمهم. قالوا إنهم يحتقرون إستمالات القاضى، وأنهالوا على رأسه بكل إهانة عنت لهم. وكان النجومى حاضراً، وإليه توجه درب الصافى مخاطباً، "إننا نركب خلف سيدنا، الشيخ صالح، وإننا نرفض أن نسير خلفك بالأقدام، عبيداً؛ وقد جئنا هنا لنموت - فدعنا نموت". ولما أخطروهم بأنهم إذا تواصل عنادهم فسيقتلون، ردد درب الصافى فى كلامه، "لقد جئنا لنموت - فدعنا نموت". ثم أُبعدت أنا إلى كوخ طينى صغير، وأمرت بالجلوس، وهنا جاء مئات من السكان لرؤيتى، وهم يوجهون نحوى كل الإساءة التى توفرها لهم لغتهم الغنية، وهم يناضلون بعضهم للإمعان فى العداوة. وسير بدرب الصافى والآخرين مسافة قصيرة، وبدئ فى حفر خندق ضحل؛ ولما تم حفره، أُمروا بالركوع على حافته، وأيديهم موثوقة إلى ظهورهم؛ إن هذا الفعل هو عملياً إعلان الحكم بالإعدام. وطلب درب الصافى أن يقطع رأسه فى الآخر، لأنه يريد أن يرى كيف سيموت رجاله. إن واحداً منهم فقط قفز على قدميه عندما تدحرجت بعض الرؤوس إلى داخل الخندق، وعندئذ نادى الصافى، "إركع. ألا ترى هؤلاء الجبناء ينظرون إلينا؟" كانت هذه هى الحفلة "الفانتازيا" المفترض أنى أُعين عليها، ولكن، بسبب بعض الخلط فى الفهم، أُغنيت عن المشاهدة المرعبة.

بإنتهاء الإعدامات، أُزيلت القيود عنى، وأُخذت ثانيةً أمام النجومى، وسئلت عن ممتلكاتى فى القافلة، وإن كنت أملك أى عبيد. قلت إننى قد لا أملك عبيداً، ولكن لدىّ خادمان - الأمين، كاتبى، وحُسنيه، التى كانت رقيقاً مُحرراً، وهى الآن خادمتى. أُعيد إستجواب إلياس، ولكنه، كما هو واضح، ناقض أقواله مرة إثر مرة لخوفه. قال فى البداية إنه كان كاتبى، ثم قال إنه خادم لواحد يدعى على أبو قوردى من قبيلة العليقات، متاجراً فى السودان. وصرح لى النجومى بأن حكاية إلياس الأخيرة إذا كانت صادقة، فلا يمكن إعادته لى لأنه لابد أنه عدو. لقد بذلت ما فى وسعى بشأن إلياس، مفيداً النجومى أنه كان كاتباً جيداً ويحسن الكتابة، وإنه قد يصير ذا نفع عظيم له فى تحرير الرسائل. أما حُسنية فأحضرت لى واعترضت بأنها كانت رقيقاً لى، وليست خادمتى؛ وإننى أحضرتها ولكن، لأن الرقيق ما كان مسموحاً به من الحكومة، فقد كنت ملزما بأن أعطيها شهادة بأنها محررة. قرر النجومى تقديمها هدية لأحد رجاله الحاضرين، وهنا جثت حُسنيه على الأرض ورفضت أن تتحرك. وصرخت للنجومى أنه إذا رغب فى ذلك، فليتزوجها لنفسه، ولكنها قالت إنه أيا ما يكون زوجها فلسوف يموت فى نفس الليلة، لأنها تعلم كيف تسمم الناس سراً. وما كانت حُسنيه عالمة بأى شئ عن السموم، ولكن هذه العبارة يحتمل أنها كانت السبب لإرسالها للخليفة، لعلها تكون نافعة. أُرسلت بإعتبارها "ملكية" لبيت المال.

لم يكن تعذيبى قد إنتهى بعد؛ جاء زعماء آخرون، وتطور الإجتماع المفتتح بسرعة إلى مناقشةٍ فجدلٍ حامى الوطيس، إن لم يكن عنيفاً. ولقد كنت لا ألم باللهجة السودانية بما فيه الكفاية لأتابع كل ما قيل، أضف إلى ذلك أن ثلاثة أو أربعة كانوا يتحدثون سريعاً فى نفس الوقت؛ على أننى جمعت أن النجومى كان يود إبقائى إلى جانبه، لأنه كان يعتقد أنه يمكن أن أستخدم فى توقيع الرسائل التى يكون على كاتبى أن يقوم بتحريرها. أما الآخرين، الذين اعتقدوا أن ترجمة الفتاة للرسالة، صادقة، فقد كان رأيهم يتمثل فى إرسالى إلى الدار الآخرة، وإرسال رأسى كهدية تقذف الرعب فى قلب القائد فى وادى حلفا، مصحوباً "بالفرمان" المزعوم. إنها ليست تجربة سعيدة أن تجلس وتنصت لمناقشة تحدد مصيرك، واعياً أن الحكم سيطبق فى الحال. وما من مجرم أبداً إستطاع التمعن فى وجوه

المحلفين لدى عودته للمحكمة مثلما فعلت أنا نحو الوحوش التى أقع فى إسارها، فكل أذنى مشدوتان لإلتقاط أى كلمة معتادة السماع؛ ومع صعوبة الإدلاء بتحليل حقيقى كمحاولة بعد كل هذه السنين لأحاسيس الفرد عندها، أستطيع أن أتذكر الفكرة الوسواسة أنه إذا كانت العقوبة هى الإعدام فلسوف أنقض على رقبة أول أمير أبلغه، وأغرس أظافرى وأمزق اللحم، حتى تقضى عليها بضربة، وبذلك أحول دون تمتع الحشد المتعصب الجاثم بالخارج بالنظر إلى "تركى" بغيض يعدم علناً. إن كون التذكر ليس خيالياً، يجوز تخمينه من الحقيقة التى مؤداها إننى حينما سألت عن "صحة" جابو فى أسوان بعد إطلاق صراحى، قفزت إلى مخيلتى جزئية من ذلك المنظر الملعون، والذى كان بلا شك سيتم تحقيقه لو كان جابو حياً.

إنتصر النجومى، إنتصاراً غير كامل، فى مسعاه - فقد تقرر إرسالى للخليفة. أرسل سبعة رجال فى طلبى، ووُضعت وحُسنيه تحت مسئوليتهم. أعطانى النجومى بعض الثياب، ومعها مائة دولار من الثلاثمائة التى كانت قد إنتزعت متى، وصُرفنا فى تلك الليلة.

الفصل الخامس
التأريخ الحقيقى للأسر
(مقتطفات)

"إنه (النجومى) أسر فى واحة سليمة جزءا كبيراً، إن لم يكن كل البنادق. ويُعزى هذا فى الأساس إلى إستهتار تاجر ألمانى مغامر يدعى شارلس نيوفلد، كان يرافق فرقة الإستطلاع، وبسبب رغبته فى الحصول على مئونة من الماء، مال نحو الواحة، حيث قبضة العدو".

"... قُتل معظمهم، وأُخذت قلة، من بينها نيوفلد، أسرى لدنقلا؛ وهناك قُطعت رؤوسهم، عدا نيوفلد، الذى أُرسل إلى أم درمان، فبلغها فى ١ مارس ١٨٨٧".

٢١ مارس، ١٨٨٧. - " وصل ستون من الكبابيش، الذين أرسلهم زعيمهم لأخذ الأسلحة والمال".

١٥ مارس، ١٨٨٧. - " بُلغ أن السيد نيوفلد إنحرف من قافلة كبابيش تسير إلى الشيخ صالح إلى آبار بكا، وأنه أُخذ سجيناً من الدراويش، ومعه خطابات قليلة تخص الكبابيش، إن شيئاً من هذا المكتب لم يعهد إليه به" (الكتاب الأزرق، رقم ٢، ١٨٨٨ - المذكرات ٥٠ و٩٠).

"نيوفلد حر الآن. ويرجع إطلاق سبيله إلى واحد من الأمراء نقل لعبدالله خليفة (*) الخدمة العظيمة التى أداها نيوفلد للتمكين من نزع الأسلحة والذخيرة من الكبابيش فى أثناء أسر نيوفلد" (رسالة إلى السيدة نيوفلد من وزارة الحربية. القاهرة، ٩٠/٣/١٠).

يلزم فى الحال تقديم التأريخ الحقيقى لأسرى فيما يتعلق بالظروف والتدابير التى أُجريت بشأنه. لقد تسلمت التفاصيل أولاً من أحمد نور الدين الذى، أشهراً ما بعد أسرى، جاء إلى أم درمان بمبادرة شخصية منه ليحاول تحقيق هروبى. لقد تأيدت روايته وزادت حجما بمساهمة رفيقى المخطوب حجل، الذى سقط ثانية فى قبضة الدراويش عام ١٨٩٧، وسُجن معى حتى أطلق صراحنا أخيراً قبل أشهر قليلة مضت.

إن خيانة جابو تأيدت كذلك من موسى داؤود قنجه، الذى وصل لتوه من السودان ليقابلنى، بعد أن سمع عن إطلاق سراحى ووصولى القاهرة. وكان موسى واحداً من تجار السودان الذين كانت لى معهم صفقات فى الأيام الخوالى، ولإعتقاده أنه يمكنه أن يفعل شيئا نحو تنفيذ هروبى، فقد نجح أخيراً فى ذلك فى سبتمبر ١٨٨٩ بعد أن أجرى محاولات كثيرة ليصلنى.

وبدلاً من إقلاق راحة قرائى بمختطفات من حكاية لأخرى، سأحاول بجمع الكل قَصّ رواية واحدة صافية ومتصلة الأحداث، بعد أن حذفت من الفصل الأخير ملاحظات وأسئلة كان النجومى قد وضعها لى فى دنقلا، وبذلك حتى أقدمها هنا فى هذا الفصل.

إن الدليل الذى تعاقدت معه للرحلة، حسيب الجابو، ينتمى إلى قسم دار حمد من قبيلة الكبابيش التى استقرت فى دنقلا وحولها. وقد أُستخدم جابو جاسوسا من قبل السلطات العسكرية فى الحدود، ولكن لا يوجد أقل شك إنه فى نفس الآن كان مدفوعاً له من ود النجومى. لقد كان يعمل مع الطرفين بما يكفى لجعله فى حالة طيبة وأجر مستديم، ولفشله فى إستحصال معلومات موثقة بأى وصف كانت، إعتمد على معرفته المحلية اللصيقة، وصفقاته المزدوجة، وإلمامه بالناس واللغة، وإنسياب فى الميل لتصديق الأخبار التى لا تقوى على البقاء لأكثر من خمسة دقائق فى الوقت الحاضر.

وما بين قسم دار حمد، والقسم الآخر الذى يسلم برئاسة صالح بيه ود سالم كانت هنالك

مشاحنات قديمة وعديدة لم تعالج بعد؛ ولا أستطيع أن أحدد علاما كانت تلك القضية، ولكن إحدى مصادرها الرئيسة كانت تدور حول الأقرباء بالرئاسة على القبيلة، الشيخ صالح أم شيخ دار حمد. ولعل الواجب يقضى ألا ينسى أولئك الذين أُولوا شئون السودان إهتمامهم أن وجود هذه المشاحنات والنزاعات القبلية بين قبائل منقسمة إنتفع منه لأبعد الحدود المهدى والخليفة، بما يشابه كثيراً الطريقة التى يدير بها عنصر سياسى جناحاً من الحزب ضد جناح آخر، ويكتسب لوجهة نظره، على حساب الآخرين وراحتهم، الذين يلعبون بلا وعى لصالحه. كانت جماعة الشيخ صالح حقيقةً بدو الصحراء الأصليين، وكانت لذلك آدعى للوثوق بها من جماعة دار حمد الذين كانت تلصق بهم مفسدة ساكن المدينة "البلدى" أو وصمتها.

كانت خطة جابو الأولى، طبقاً لما سطع فى ذهنه، أن يلتزم الوفاء للقسم الذى يتبع له فى القبيلة، ومن ثم أن يدّبر الأمر بحيث تؤول الأسلحة التى يقصد إرسالها لخصومه، قسم الشيخ صالح، إلى آيدى قومه؛ وبتوجيه هذه الأسلحة لضرب الدراويش فلربما يرى جناحه فى المقدمة سنداً للحكومة، وربما ممتلكاً لقب بيه المحسود ونيشان، إذا نجحت خططه. إننى لا يساورنى شك، أنه إذا كانت خطته قد كتب لها النجاح، فإنه كان سيكون مستعداً بقصة تدعو للتصديق، وإنه إذا كان قد أحرز أى تقدم على الدراويش فربما عَدّل ذلك من إخفاقاته. أما خطته بصورتها الأصلية فتضمنت الآتى:- أولاً، كتب لشيخه معطياً له تفاصيل كاملة عن الأسلحة والذخيرة التى تنتظر قافلة الشيخ صالح، وتقف كل الأسباب دليلاً على أن الرسائل التى أرسلها الجنرال ستيفنسون إلى الشيخ صالح للوهلة الأولى، قام جابو بتأخيرها حتى تكتمل خططه. إن الدليل حسن، الذى أعتقد أنه تم التعاقد معه فى إخر لحظة، كان تعاقده سابقاً لذلك التأريخ، وملماً بالتعليمات الكاملة بما سيتولاه فى اللغبة من دور. ووعد جابو قومه بأنه بعد أن تغادر قافلة الشيخ صالح آبار سليمة، فسيتم إقتيادهم نحو وادى الكاب بدلاً من آبار العجيا، وبالتالى فإننا حتى لو كنا قد ملأنا قربنا بالمآء كما نشتهى فى سليمة، ما كنا سنزود بأكثر مما يكفى لأربعة أيام، بدلاً عن ثمانية أيام، وقضاء يومين فى الصحراء بلا مآء يسّبب ضيقاً كبيراً. وعندما يسافر بدوى ليومين أو ثلاثة أيام بلا مآء ودون أن يتذمر، فالأفضل تخيل ما يعنيه الأمر بأكثر من وصفه بالنسبة لما وعده جابو من تسليمنا "عطشى" ؛ إن وعده يعنى بالضبط ما حدث بالفعل – تملك جنون العطش – وتصمغ الشفاه، تورم اللسان وتهدله من المحاولات اللاهثة لإستثارة اللعاب – تتقلص عضلات الحنجرة، وتتحجر اللوز، تمتلىء فتحات الأنف بالرمال الدقيقة، وتحمر العيون وتشخص نظراتها، وتتهيأ جفونها للسقوط فى أى لحظة. إن الأشخاص الذين إختبروا ما تعرضنا له نحن، وحدهم، خلال الأيام الآخيرة من رحلتنا إلى وادى الكاب، يمكنهم أن يكملوا التفاصيل الناقصة فى تأريخ آيسو(*) وهو يبيع ميزات حياته التى اكتسبها بالميلاد نظير دفقة من الحساء.

تحضّر القوم فى دار حمد، لدى سماعهم أنباء جابو؛ وما دفنوا من سلاح فى الثرى إخفاءاً له عن الدراويش أُخرج من الأرض، ولكن نشاط القوم البادى آثار شكوك ود النجومى. وإعتقاداً منه أن عصياناً يجرى تحضيره، إستعد لمقابلته، ولكن، بما له من جواسيس فى الأنحاء، تسربت الحقيقة شيئاً فشيئاً. ووُضع جابو فى الإختبار؛ أرسلت له خطابات مكتوبة، أو رُسُل، من النجومى يسألونه عن قافلة صالح والأغراض التى من آجلها ذهبت ألى وادى حلفا. وعندما رأى جابو أن خطته الأولى أُجهضت، فَضّل، عوضاً عن سقوط القافلة فى آيدى خصومه، أن يُفضى للنجوى بالمؤامرة التى كان قد خطط لها لصالح قومه. لقد كان بناءاً على هذا الحساب إنه حاول، كما ذكرت إنفاً، فى وقت من الأوقات أن يثنينى عن عزمى على القيام بالرحلة المقترحة؛ وفيما يمكن إدراكه، كانت هناك أسباب كثيرة لإبتعاثه الكلمة للنجومى أننى سأصطحب القافلة. إن تعطيله إسماعيل، قائد القافلة، يوماً إثر يوم، ما كان إلا بهدف التمكن من توصيل رسالاته إلى النجومى فى وقت يسمح له بالإعداد الكامل لقطع الطريق علينا.

وصل حُجّل وادى حلفا فى نفس مساء رحيلنا، وبعث رسالته. قابله جابو ووضع فيه ثقته. أخبر حُجّل عن الوسائل التى لجأ إليها فى محاولة حملى على ترك الرحلة، ولكنه لم يجرؤ على الإدلاء لى بالأسباب الحقيقية، لأنه يعلم أننى كنت سأبلغ الأمر، وسيكون رأسه فى خطر؛ لقد عمل مافى وسعه لإخطار النجومى من أكون وما يحيط بى من معلومات. ولا يزل لاعباً بمهارة، وليضمن هدوء حُجّل، قال إنه يعلم أن الإنجليز مغادرون؛ وإنهم بلا شك سوف لا يأخذونه معهم، لأنه هو وحُجّل تعود عوائلهما إلى السودان، وما لم يعمل مع النجومى فإن "كلمته البريرة" سوف تكون بلا جدوى لأهله وأصدقائه عندما يهب الدراويش لشغل المدن المهجورة.

إنى أثق أن قرآئى قد بدأوا الآن فى مطالعه النور من خلال هذه المؤامرة الظلماء، وإننى أقص الحكاية فى يسر وصفاء مُغنٍ دون أن ألتمس منكم الرجوع إلى الصفحات الماضية.

فكر جابو، وهو يلعب نفسه لعبة مزدوجة، ويرتاب بطبيعته فى كل إنسان بالتالى، أننى ربما كشفت الغطاء عن خيانته عندما لم تلحق بنا الإبل، ومن ثم فإننا ربما قمنا بتغيير الطريق؛ وقد أعرب للنجومى عن هذه الشكوك. ولو لم يكن قد فعل ذلك، لكنت سامحته - لأن كل فرد كان يسعى لمصلحته على تلك الأيام. وما كانت تستدعيه أى ضرورة لينذر النجومى أننا ربما نغير خط سيرنا إذا عرفنا أن الدليل كان يقودنا فى الإتجاه الخاطئ، لأنه إذا لم يجدنا رجال النجومى ما كان من لوم على جابو.

لدى إستلامه الأخبار، أرسل النجومى عدداً كبيراً من الدراويش تحت قيادة ود بصير إلى أم بليله، المقابلة لأبو قوصى، وتجريدة أخرى بقيادة عثمان أزرق إلى الكاب بمحاذاة الأوردا (دنقلا)، وسيد محمد ود فَرّاج، ومحمد حمزه، ومكين ود النور و ود عمر إلى الآبار المختلفة فى وادى الكاب، وأمر الأخير أن يضع دار حمد فى المراقبة. إننى أفصح عن هذه القائمة الآن، عن الأسماء التى اشتهرت الآن، من المعلومات التى جمعتها فى دنقلا وأم درمان، ليس بهدف إسباغ هالة من الرومانسية البربرية على حادث ما كان أكثر من قطعة من نهب قطاع الطرق بشكل أو آخر، ولكن الأكثر من ذلك الفكرة الهادفة إلى أنه إذا كان لا يزال أى واحدٍ من الذين أشرت إليهم حياً، ووقع فى يد الحكومة، فالواجب مساءلتهم عن هذا الحادث، وما يذكرونه عنه مقارناً بالفقرات المتناقضة التى تواترت فى مقدمة هذا الفصل.

بعث ود فَرّاج جماعة طارت على جناح السرعة إلى آبار سليمة، يقودها رقيق لود عيساوى، يسمى حسيب الله. وكان حسيب الله هو الذى أطلق العيار النارى الذى سمعناه يوم وصولنا سليمة. وعندما أُخذت للمثول أمام ود النجومى فى دنقلا، كان واحداً من الأسئلة التى طرحت علىّ، "هل شاهدت آحداً، أو سمعت طلقاً يوم وصولك سليمة؟" ورديت عليه "بنعم" فيما يختص بالجزء الأخير من السؤال، وبذا أضحيت صديقاً للأبد لحسيب الله، لأن جائزةً كانت قد رُصدت لمن يبصرنا أولاً ويسرع بالآخبار للكيان الرئيس؛ وقد أطلق هو النار، حتى يتأتى طرح السؤال. وحتى فى هذا السرد، يمكنك أن يمكنك أن تحدس مقدار الإيمان أو الثقة التى يضعها الأنصار فى كلمة أمرائهم، ومدى التصديق الذى يمكن للآوروبى أن يوليه لحكاياتهم عندما يكذبون ويخادعون أنفسهم بذلك الحياد الأخاذ.

وعقب إبتعاثه حسيب، قسم ود فَرّاج فرقته، مرسلاً واحدة إلى المنطقة الواقعة ما بين ود الكاب والنيل، والثانية، تحت إمرته المباشرة، قادها نحو الصحراء لتقاطعنا، إن الإعرابى من العليقات الذى آرسلناه كشافاً ليستطلع السير، والذى لم يعد لنا، لابد أنه أسره فَرّاج أو إنه كان مبعوثاً من حسن لود فَرّاج أو أى أحد آخر من الدراويش ليزودهم بالأخبار، لأن حسن لابد إنه كان عليماً بموقعنا ومدى قرب الدراويش منه. والعلامات التى التقطناها على الدرب، لما كانت أحطاب القافلة المتبقية لا تزال موقودة، كانت بقايا نيران رجال حسيب الذين واصلوا قربهم منا طوال الوقت، وما ضعنا عليهم

إلا فى اليوم التالى لإختفاء العليقات.

بوصولنا الأرض المتكسرة المؤدية إلى الكاب، كان مسموحاً لدليلى أمين والرجلين اللذين كانا فى رفقته بالمرور دون مضايقة عمداً، لأن الدراويش كانوا يخططون لشطر أنفسهم جماعات ثلاث، تنقض علينا من ثلاثة جوانب فى نفس اللحظة. وكان إطلاق النار علينا بادئ الأمر خروجاً بّيناً على الأوامر، ولكن يحتمل أنها عملية قام بها فرد ما لجنى الجائزة المخصصة لمن يرانا، وقد إنتهت، كما قصصنا آنفاً، تبادلاً عاماً للنيران. أما الجمال المثقلة بقِّرب الماء المملوءة فقد تُركت وراءنا قصداً، ولكن ذلك الترك كان فكرة تبعث على السعادة فى لحظة قدوم رجال فَرّاج. وعندما تراجعوا، ما كان ذلك إلا للإنضمام إلى الجماعة الأخرى التى كان مخططاً لها أن تندفع نحونا من جهة الشمال؛ ومطاردونا من الخلف كانوا بعيدين نوعاً ما فى الصحراء بأكثر مما أبرزته الخطة.

لم أرى قائدنا إسماعيل ولم أسمع عنه أبداً مرة ثانية؛ لربما نجح فى الهروب مرة واحدة، ليقتل عقب وقوع الإبادة الفعلية للقبيلة وسقوط الشيخ صالح، وهو يقف على فروته، مقاتلاً حتى النهاية.

هذا العرض لأسر القافلة، والإيضاحات المذكورة، بالرغم من أنها لا تتفق فى المسائل الحيوية مع العروض التى سُردت رسمياً، قد يجوز تقبلها بإعتبارها أقرب ما تكون إلى الدقة فى تفاصيلها بما يُتاح لذاكرةٍ إعطاءه، وقد كانت المناسبة واحدة من مناسبات الحياة التى لا تكفى معاناة إثنى عشر سنة لمحوها من الدماغ.

إننى أحس بعض الثقة القليلة فى منحى العالم نسختى من الأحوال التى رافقت مغادرتى من وادى حلفا إلى كردفان، التأريخ الذى غادرت فيه مصر حقاً - وهو تأريخ نكد بالنسبة لى مثلما هو كذلك لبعض من أتى على سيرتى فيما هو واضح،- فالظروف الحقيقية التى اكتنفت أسرى، أستحضرها فى المناسبات المختلفة التى تناولتها، ولا أعتقد أنه يكلف كثيراً لو التمست أن نفس القدر من المصداقية يسبغ على قصتى بمثل ما نالته حكايات الآخرين المذكورين فى مقدمتى، وفى المقتطفات الواردة فى صدر هذا الفصل.

بقى الآن، قبل إغلاق هذا الفصل، أن نتعرض لدفع الله حَجّل ودوره فى هذه القضية. فى خطابى الأول الصادر من أم درمان، وهى الرسالة التى كُتبت لى بإملاءٍ من الخليفة، أُجبرت على أن أقول إننى ألوم حَجّل على خداعه، وإننى أشكره فى نفس الوقت عليه، لأنه أدى بى إلى الخلوص. لقد كان ذلك إختراعاً ذكياً من الأمراء فى دنقلا، أو من الخليفة نفسه، ليزج بحُجّل فى المتاعب مع الحكومة، ويبعد الشبهة عن حسن وجابو. إستلم هذه الرسالة واحد من كتابى فى أسوان، وقد أبقى لحسن الطالع على نسخة منها قبل أن يبعثها للقاهرة؛ وسوف تقدم ترجمة لها فيما بعد.

إن حُجّل لا يجب أن يُلام على إنتصاحه الخاص بعد أن وضع جابو فيه الثقة. ما كان له ما يكتسب لو أخطر السلطات بالحقيقة، وكان سيخسر كل شيء لو فعل. إن عيون الخليفة كانت منبثةً فى كل مكان للحكومة، تماماً مثلما أن عيون الحكومة كانت تجول بين المهديين، وما كان هنالك شك أنهم كانوا يتلقون الأجر من الطرفين - فمن ذا يلومهم؟ وكانت روابط حُجّل العائلية وعلاقاتها كائنة فى السودان، ولم تكن هنالك فائدة تُرجى من إثارته الأسئلة عن رجل مات. وربما أملك شيئاً أقوله عن المرشدين والجواسيس فيما بعد، ولكنه لن يكون بهدف إستدعاء أى أحدٍ منهم للمثول أمام العدالة. فالعدالة الوحيدة التى يعرفونها هى المتضمنة هذه المقولة "الإمتلاك تسعة أعشار القانون" أو "إن القوة تهزم الحق"، وكان ملائماً لطباعهم ومسرتهم أنهم يلعبون دوراً مزدوجاً، جعله ميسوراً أنه يؤدى مع خليفة، يقرر سلفاً القيام بعمل معين، ويضعه نُصْب عينيه أبداً، ويعمل من أجل تحقيقه، بينما فى الطرف الآخر تقف حكومة هى فى رأيهم لايبدو أنها تعلم أى قرارٍ تتخذ من يوم لآخر فيما يجب عمله فى السودان ورعاياها الذين يقيمون به.

الفصل السادس

من دنقلا إلى أم درمان

أثناء الهزيع الأول من ليلة ٢٧ أبريل، أخبرنى أمين بيت المال أن أستعد لرحلتى إلى أم درمان، لأن ود النجومى كان قد بعث يطلبنى. كان أمامى تجهيز بسيط، بإستثناء إستجداء بعض زيت السمسم لأمسح به وجهى، وأكتافى، وظهرى، وأقدامى. إن القميص والثياب الصوفية التى أُذن لى بها ما كانت كافية لتقينى أشعة الشمس المحرقة، وكان الجلد ينحسر عن وجهى، وأكتافى وظهرى، بينما تشققت قدماى وتقطعت. وتمزقت جواربى بسيرى يوماً بخطاى المثقلة على الرمل. وبأخذى إلى محل النجومى، جلسنا النجومى وأنا نتحدث سويا لوقت معتبر. أفادنى إنه كان يرغب فى إبقائى بجانبه بهدف جمع الأخبار، ولكن الأمراء الآخرين أصرّوا على قتلى على الفور، أو أن أُرسل إلى الخليفة بالفرمان المفترض الذى عيننى "باشا على غرب السودان"، ليتولى أمره الخليفة فى أم درمان. وقال النجومى إنه كان قد كتب يسأل إرجاعى له. وطرح لى أسئلة كثيرة عن الحكومة، وتحصينات القاهرة والإسكندرية وأسوان، وكورسكو، ووادى حلفا، وعلى وجه التخصيص كان متشوقاً لمعرفة كل ما يمكن معرفته عن الجيش البريطانى و "إنجلترا". وقد أعطاه التقدم صعوداً على النيل لإنقاذ غوردون فيما هو جلى رأياً ضعيفاً للغاية عن وسائلنا فى النقل، على الأقل ما يتصل منها بسرعة الحركة، لأننى عندما أطلعته على المسافة بين الإسكندرية وإنجلترا، وأكدت له أن البواخر يمكنها أن تجلب فى ظرف أسبوع جيشاً كبيراً، إبتسم وقال، "لست طفلاً تقص على مثل هذه الحكاية". إنه لربما يكون قد ذهب، أو لم يذهب، إلى يقينه الجاد بأننى كنت أحلم، عندما وصفت له كيف تبدو الباخرة عابرة المحيط، وبذلت جهدى لأرسم له صورة عن الدهبية عابرة النيل ونسبتها بالمقارنة مع ماخرة تعبر المحيط للحرب.

تركته متأثراً بالفكرة، ولم يتضاعف هذا الإنطباع إلا بعد أشهر مضت عندما أمر جماعة من قادته بالرجوع إلى أم درمان وسجنوا معى، فإذاك ما كان لديه أحد يودعه ثقته، وبوضعه يده على الأمراء الذين أرسلهم الخليفة للتجسس عليه – حيث أنه كان وقتها محطاً للشك – لكان قد قاد جيشه "فى مسلك الأصدقاء" إلى وادى حلفا، ولكان قد طلب المساعدة لتمكينه من قلب الموائد على الخليفة. إن ما يقودنى بدرجة أعلى من ذلك للخلوص إلى مثل هذا الفرض الجرئ أو البيان المقدام أن الأمراء، أو قادة الناس، الذين أُشير لهم آنفا بعد أن قُذف بهم إلى السجن معى فى أم درمان، منحونى بداية مواساتهم، ثم أعقبوها بثقتهم المطلقة. علمت منهم مصير رجال قافلة صالح الذين تركتهم أحياء فى دنقلا. لقد قاموا بإعدامهم، فيما أخبرونى به، على دفعات بأعداد متفاوتة وأوقات إستغرقت أياماً مفصولة، وكان إلياس آخر من أعدم، وهو كاتبى، بعد مُضى شهرين من مغادرتى دنقلا. ولقد أبقى النجومى على حياته كآخر شخص يقتل، لأسباب سنذكرها حالاً، ثم إنه ولا شك فى ذلك صرف الأوامر بإعدامه، عندما تملكه اليأس من رجوعى له، مفسحاً المجال لضغوط الأمراء الآخرين المتعطشين لرؤية آخر رجل من رجال صالح مقتولاً.

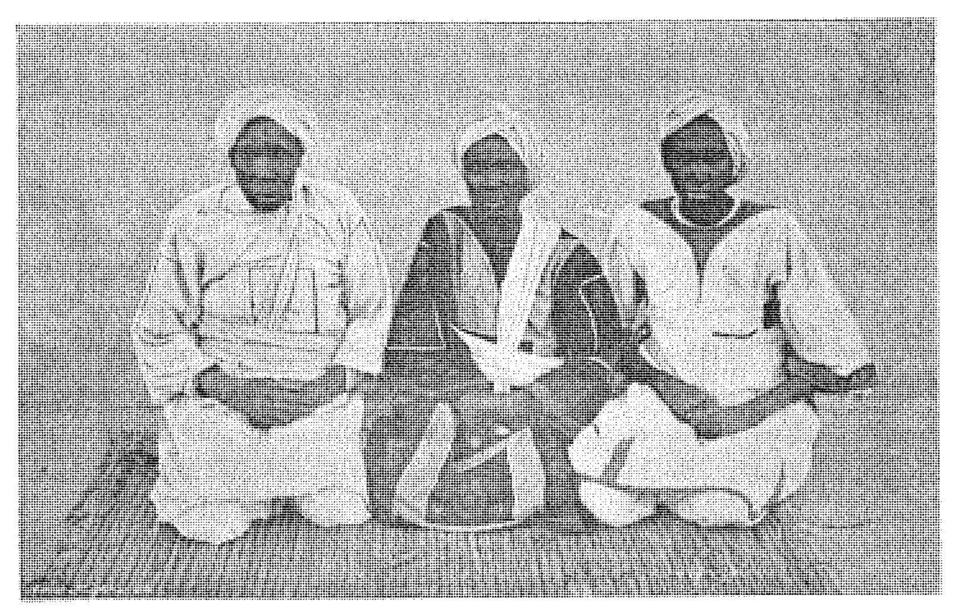
ومما أسرّوا به إلىّ، لا يمكن لأقل قدر من الريبة أن يوجد أن الإدانة لخداع خليفة المهدى كانت تتنامى وتنتشر فى أوساط المهديين؛ ولكن نظام التجسس الذى أسسه الخليفة كان يجتث أي ظهور لها فى مهدها. ولا يمكن أن يكون هناك أدنى شك أن هؤلاء الرجال موضع ثقة النجومى كانوا، بطريقة ما، يعّرضون أنفسهم للخطر عندما تحدثوا فى حضور بعض عملاء الخليفة، وإن النجومى نفسه ما كان قد أُمر نفسه بالرجوع معهم بسبب شعبيته وخوف الخليفة وغيرته منه. ولم يكن هناك أحد يمكن للنجومى، أو فى حقيقة الأمر أى إنسان آخر – ولو كان بإستثناء الخليفة نفسه، أن يثق فيه ضمنياً فى السودان. فالإنسان الذى توليه أسرارك الخاصة ربما يكون صديقاً أو عدواً، وبما أن الجميع

يغيرون وجوههم بالسرعة والدوام اللذين تمليهما الظروف، فالأسلم أن يقال إنه ما من أحد فى السودان يثق فى الآخر لحظة واحدة.

وأياً ما كانت قناعات النجومى عليه فى الأيام الأوائل للحركة المهدية، فالأمر القاطع هو أنها تعرضت لتغيير عظيم. والحقيقة إن تقدمه ضد الجيش المصرى فى توشكى، عندما قتل، كان فيما أطلعنى عليه بعض رجاله الذين سجنوا معى بعد عودتهم، إتخذ عندما ساقته إليه لائمة الخليفة، وإتهامه له بالجبن والخيانة، مصحوبة بتهديدات بإعادته لأم درمان - وكان النجومى عليما بما سيتضمنه ذلك.

لقد سجلت ملاحظة فى الفصل الأخير إننى سوف أقدم بعض التخمينات عن السبب الذى أُعدم به دليلى أمين أول من أُعدم فى دنقلا، ومن المستحسن أن نذكرها هنا ونحن نتحدث عن زملائى فى السجن من جيش النجومى. فبالرغم من أنهم ما كانوا قادرين على إثبات الأمر بإيجابية، كانوا على يقين من أن جولة أمين لمرة أو مرتين وهو يحمل سلاحا مع الدليل حسن ذُكرت للأمراء المؤتمرين فى دنقلا مباشرة بعد وصولنا، وكان أمين بالتالى مأموراً بإعدامه. إننى عبرت عن شكوكى بشأن الموت الفعلى لحسن فى الكاب، وفى مواجهة ما قيل لى، لا أملك سوى أن أؤمن أن سقوطه من الجمل كان مُدبّراً، وإنه جاء مع القافلة إلى دنقلا، وأدلى بشهادة بحق أمين. ومتابعة لهذا الشك أو الإفتراض، يحتمل جداً أنه صاحب الأصل فى قصة "الديك والثور" المنسوبة إلى السلطات العسكرية، التى فصّلت الأحداث المفترضة لأسر قافلة صالح وأسرى. ولا يمكن نسيان أن التقارير الرسمية وشبه الرسمية بلغت عن أسرى فى مكانين مختلفين بمسافة مائة وخمسين ميلاً عن بعضهما البعض، أو إنه، بعبارة أخرى، بمسافة خمسة أيام من السير، وفى تواريخ مختلفة، - وفى مناسبةٍ أُعلن وصولى أم درمان كأسيرٍ شهراً قبل أن تكون القافلة التى كان من المفترض أنى قمت بخيانتها - أو كنت السبب فى أسرها من خلال "الإستهتار" بها - قد شرعت حتى فى السفر من وادى حلفا.

فى صبيحة ٢٨ أبريل، أُخذنا أنا وحُسنيه خارج المدينة إلى حيثما كان الحرس والجمال فى إنتظارنا، وبإنطلاقنا فى رحلتنا سافرنا عبر حنك، والدبه، وأبو قوصى، وأم بكول. إن الأحداث الموصولة بظهورنا فى هذه الأماكن لا تحمل من الإهتمام ما يثير حتى أشد قرآئى إليها. ومن أم بكول ضربنا الصحراء، بالغين النيل فى جبل رويان، محتملين المتاعب والمشاق التى لا مناص من مواجهتها فى مثل تلك الرحلة. وبوصولنا القرية المجاورة لجبل الرويان، إمتلكنا ما اعتقدناه منزلاً مهجوراً، وبعد تناولنا طعاماً قليلاً إضّجعنا للنوم. وفى الليل زحفت إمرأة بائسة عجوز إلى غرفتى، وأصدرت ذلك البكاء الأليم الذى يعرفه من كان بالشرق. لقد كانت، فيما قالت "الأم خشم الموس" (أم خشم الموس - ولكن التعبير قد يؤخذ على أنه يعنى فقط أنها كانت واحدة من عائلة خشم الموس أو أقاربه)، الذين كان غوردون قد أرسلهم بالقوارب الحربية إلى المتمة ليصاحبوا السير شارلس ويلسن فى رحلته للخرطوم. إن أبناءها، كل أفراد أسرتها (أو قبيلتها)، قُتلوا بأمر الخليفة، وبمقدار علمها كانت هى الوحيدة التى بقيت منهم. ودون أن تفطن إلى وجود حراسى، الذين دخلوا علينا آنذاك، وقد جذبهم العويل والكلام، لعنت المهدى، وكل شئ وكل إنسان متصل به. إن مناحة المخلوقة المسكينة، وخدودها المنسلبة الغائرة، وعينيها المشعتين، وأصابعها الناحلة المقوسة، ولعناتها المحمومة على المهدى والخليفة، والوهج الشاحب من الفحم المحترق الذى ما كان له غرض سوى أن يظهر هيئة المرأة المسنة كشبح مخيف لمّا انتصبت واقفة وتنبأت بموتى، نزع عنى كل حول إذ أصابنى بالهول. ولو كانت فى حياتى ليلة واحدة أطلب فيها بضع ساعات من الراحة، لكانت هى تلك الليلة - الأخيرة، فيما أعلم، قبل دخولى أم درمان. ولكن النوم لم يُصب عينى فى تلك الليلة. وبعد أن ذهبت المرأة بلحظات، أخبرت أصوات لسقطات خافتة، وصرخة خوف، وأنين، ثم صمت مطبق عن قصتها. لقد عُذبت حتى الموت ضرباً واللعنات على المهدى فى شفاها.



خصـــيان الخليفـــة

كانت الليلة طويلة، مريعة، كابوساً حياً، ولكن كان كل شئ حقيقياً وليس تخيلاً من الدماغ. لكم كان شوقى للفجر! وكم إنتظرته بلا صبر! فللمرة الأولى ينتابنى الخوف لأسباب تتعلق بى. لقد كان الشعور الذى أحسسته كأنما تسرب رباط حول عقلى وشدّه فى قوة وبطء. ولكن يكفى ذلك؛ ما من الضرورى أن أخلط تجاربى بالأحاسيس العقلية المؤلمة، بالرغم من حقيقتها.

وبصعوبة غير عسيرة شقّيت طريقى إلى الإبل فى الصباح، لأركب وأسير بعيداً فى المرحلة الأخيرة من الرحلة إلى أم درمان. وصلنا المدينة ظهراً، يوم الثلاثاء، ٥ مايو، ومررنا نكاد لا يلحظنا أحد حتى بلغنا السوق، عندما انتشرت الأخبار كالنار اللاهبة، وأحاط بنا فى الحال آلاف الناس، وبصعوبة بالغة ناضلنا لنجد طريقاً نحو ساحة الصلاة الملتصقة بمقبرة المهدى. (فما كانت القبة مشيدة وقتها). وهنا وُضعت فى ظل راكوبه (وهى بناء خفيف من الأعمدة التى يقف فوقها سقف من حصيرة وأفرع النخيل، يأنس إليها الناس للراحة أثناء حرارة النهار). وذهب إثنان من حراسى لتسليم رسائل ود النجومى للخليفة، وأيضاً ليعلنا عن حضورى.

مدة قصيرة بعد ذلك، جاء النور عنقره، وسلاطين، ومحمد طاهر، وكبير القضاة مع أخرين لمساءلتى، خاطبنى سلاطين بكلمات قليلة بالإنجليزية، ولكننى لما لم أفهمه، سألته أن يحدثنى بالألمانية، وعند ذلك قال بصوت خفيض، "كن مؤدبا؛ قل لهم إنك جئت لتنضم إلى المهدية لكيما تعتنق دين المهدى؛ لا تخاطبنى". وسأل النور عنقره الذى طرح معظم الأسئلة، "لماذا جئت إلى أم درمان؟" وترددت هنيئة قبل الرد، ولكننى لم أتردد بما يكفى لجعل دمى الأوروبى بارداً ليرد "بأدب" على الأسود المتعجرف الذى يواجهنى. قلت له، "لأننى لم أستطع التحكم فى نفسى؛ فعندما فارقت وادى حلفا كان ذلك للتجارة، لا للقتال، ولكن قومك أخذونى سجيناً، وبعثونى هنا؛ فلماذا تسألنى ذلك السؤال؟" هنا تحرك سلاطين وراء الأمراء الآخرين وأعتقد أنه قام بمحاولة ما لجعلى أفهم إننى يجب أن أتحدث بطريقة مختلفة معهم. إن عجزى كان يضايقنى؛ فلم يكن هناك إنسان أستطيع، بما أعانيه من ضعف، أن أنتزع منه الحياة بالقوة المجردة.

لقد إستجوبت عن عدد القوات فى وادى حلفا والقاهرة، والتحصينات، إلخ، ولكن لن يدرك أى واحد منهما القلاع التى اخترعتها للمناسبة، وأعداد القوات التى أنشأتها لهما. وعندما أُخطرت أن الأنباء التى تسلمت من ود النجومى تقول إن القوات البريطانية كانت راحلة، إعترفت بحقيقة الأمر المطروح، ولكننى قلت إنها جميعاً يمكن إرجاعها إلى وادى حلفا فى أربعة أيام. إن كل الأسئلة، أو مايقرب من الكل، كانت متعلقة بالجيش وحركة القوات، وسيفهم هذا عندما يتذكر أنه كان البعض يعتقد إننى "باشا" وكان الباشوات فى السودان قادة عسكريين.

لقد أطلعونى على بيان أحدث أثراً من شأنه أن إستعدادى للحديث "خلق إنطباعاً سيئاً"، ولكن هذه الملاحظة لم تكن، فى الوقت الذى أجريت فيه الكتابة، مبيّنة بما فيه الكفاية – ومع ذلك فلربما كانت كذلك. إن أسرى آخرين تهالكوا تحت أقدام آسريهم؛ إننى لم أفعل ذلك، وعليه يحتمل أن يكون "الإنطباع السئ" قد خُلق بذلك؛ وفى حين أن العالم قد يلومنى إذ كنت غير متعقل فى معاملتى آسرِىّ الأقوياء بمثل هذه المجاملة العديمة، يصعب توقع أننى، حتى لو لم أكن قد إجتزت ست سنوات فى تعامل وثيق مع الجيش البريطانى فى ميدان القتال، وفى أوقات السلم النسبى أنسى فى لحظة فأفقد رجولتى، وأهوى بالقبلات على أيدى أسودٍ متوحش – وأحد قتلة غوردون إضافة إليه. إننى أحمد الله، وقد عدت الآن "للحياة"، أن ظهورى الأول، كأسير للخليفة "خلق إنطباعا سيئاً"، لأنه فى ذلك أختار أن أقبل بّينة على أننى لم أكن كمثل ما صُورت فى بعض اللحظات.

بعد مفارقة الأمراء والآخرين لى، تقدم بعض الدراويش، ونزعوا عنى الجبة وملابسى التى أعطانى لها النجومى، واستبدلوهم بلباس جندى من غزل قديم ولباس قطنى. ثم قُيدت رجلى، ووضعت حلقة، مربوطة بسلسل ثقيل وطويل حول عنقى. وخلال ذلك المساء – وفى الحقيقة طوال الليل، جاءت

الحشود لمشاهدتى، فى حين تتابع طرق الأمباجة (وهى بوق حربى مصنوع من سن فيل أجوف) كل الليلة. ومشت إمرأة، نوعاً من أمازونيات (*) المهدية، ورقصت أمامى جيئة وذهاباً، تغنى وتمثل المعانى، ولكننى لم أفهم المعنى الكامل لكلماتها. وبملاحظتى حُسنيه وهى تختلج بكاءاً بعنف ياردات قليلة منى، دعوتها، وسألتها ما بها. فقالت لى إن الأمباجة تدعو أتباع النبى ليحضروا ويشهدوا إعدامى، وإن المرأة، فى قصيدها الوقح، كانت تصف عذابات موتى، والعذاب اللاحق فى جهنم بإعتبارى كافراً. وأخبرنى أحد حراسى أن ما وصفته حُسنيه صحيح، وكانت لدى الرغبة الكافية لأستطلع تفاصيل الإعدام؛ وبعد إلمامى بها، رفضت أن آكل أو أشرب. لقد كنت مصمما على أن أحرم المتعصبة من أى عنصر يتعلق بإعدامى - ولكننى قد لا أخوض فى تفاصيل.

فجر اليوم التالى، جاءنى درويش، وبوضع يدى اليمنى على اليسرى فى المعصمين، وتوجيه الإبهام نحو الأسفل، شرع فى ربطهما بحبل مفتول من جريد النخل. وبعد أن أحكم رباط الحبال عميقاً فى لحمى بإستعمال قطعة من الخشب كأداة للربط، صب الماء عليهما. إن المعاناة الناتجة عن تشبع الحبال بالماء كانت معذبة؛ إنها "تعض" فى داخل اللحم، وإلى الآن لا أستطيع أن أنظر إلى الندوب فى يدىّ دون أن أرتجف، كأنما أستعيد ثانية نفس الأحاسيس التى عانيتها لإثنى عشر عاماً خلت.

ومع إنهمار العرق مع الألم الذى كنت أقاسيه، دون أن أستطيع إخفاءه لأى مدى أطول، تم إقتيادى لأصبح مشهداً لرياضة الدهماء. تم إيقافى فى الفضاء المفتوح، حاسر الرأس، والآلاف حولى، وأعتقد أن لحظة حز رأسى قد أينعت، وبتلاوة صلاة قصيرة، جثوت على الأرض وانحنيت برأسى، ولكنى جُذبت على قدمىّ فى الحال؛ إن السكان كانوا يرغبون فى ممارسة رياضتهم فى شخصى أولاً. إندفع الدراويش نحوى مشهرين الحراب والسيوف؛ وبينهما ذلك جار، نفخ رجلان، أحدهما عن يمينى والثانى عن يسارى الأُمبايه وهى موضوعة على أُذنىّ من الجانبين بفمها الشاغر بأعلى صوتها. وأعطانى رجل قوى على وجه الخصوص، وهو يحمل حربة كبيرة، فكرة أنه هو الذى كلف بتوجيه الضربة الأخيرة، وعندما أصدر عدداً من الضربات تهويما، حاولت أن أتلقاها مرات متتالية. وجذبنى فى كل مرة أحد الرجال الذين يتولون حراسى، من السلسل الموصول بالحلقة المشدودة فى عنقى، لإمتاع الحشد المحيط بالمكان.

إن الحبال التى كنت مقيداً بها أنجزت الآن مهمتها؛ غاص الجلد المتورم، وأزيل التوتر الرهيب بإستقرار الحبال عميقاً فى اللحم. ولئن كنت قد عرضت آنفاً أى شعور بالألم، فإننى الآن غير مكترث به مثلما كنت غير مبالٍ بالجمهرة حولى. وسألنى رسول من الخليفة، عَلِى قُلّه، "هل سمعت الأمبابه؟" - وهى قطعة مما يدخل السرور على الخليفة، عندما كانت أوامره أن تضغط مداخل الآلات على أُذنى. وبتأمينى مجيباً بإشارة على ذلك، واصل قُلّه حديثه قائلاً، "لقد أرسلنى الخليفة لأخبرك أنه قرر قطع رأسك"، وعلى ذلك رديت، " أرجع لخليفتك وقل له إنه لا هو ولا خمسين خليفة بقادرين على إزالة شعرة من رأسى دون إذن من الإله. وإذا شاء الله، فإن رأسى سيقطع، ولكن ذلك لن يكون بسبب إرادة الخليفة". وذهب إلى الخليفة بتلك الرسالة، وعاد وهو يقول، "لقد غير الخليفة رأيه؛ إن رأسك سوف لا يقطع؛ إنك ستصلب كما صُلب نبيك عيسى النبى" (المسيح النبى)؛ وبعد ذلك القول، أمر حراسى بإرجاعى إلى الراكوبه بينما التحضيرات قد إستكملت.

بحلول هذا الوقت، كنت على شفا الغياب عن الوعى من جراء الإنهاك ومتاعب الرحلة، ورأسى الذى يدور نتيجة لضربات الأُمباية، والمعاناة التى تسببت فيها الحبال الموثوقة على الرسغين، والتعذيب الناتج عن عشرات من الحشرات المثيرة واللاسعة وهى تهاجم اللحم الممزق بيدى، والشمس وهى تضرب على رأسى الحافى. وبعد ساعة، أُمرت بالذهاب إلى مكان الصلب؛ ولما كنت مقيداً بالأثقال، لم أستطع المشى، فوُضعت على حمار، يمسك بى رجلان. وبعد وقفة، وجدت مشنقة



أحد خصيان شيخ الدين
فى جبة عرس سيده

منصوبة بدلاً من الصلب الذى توقعته. رُفعت عن الحمار ووُضعت على مقربة من "عنقريب"، وحلقة الحبل تتدلى فوق رأسى تماماً. لقد فارقنى الألم والدوخان فى الحال. إن دقائق قليلة قادمة ستُنهى كل شئ، وقد قررت أن تلك الغوغاء عليها أن تحترمنى حتى وأنا أموت. حاولت أن أصعد على العنقريب، ولكن قيودى حالت دون ذلك. وبوضع يده على ساعدى، قال لى أسود طويل (هو قاضى قضاة الخليفة)، "إن الخليفة يقدر شجاعتك، وليبين لك ذلك فهو يمنحك الخيرة كيف ستموت." أجبت، "أرجع لخليفتك، وقل له إنه يمكنه أن يُسلّى نفسه كيف سيكون موتى، وإذا أراد أن يمنحنى فضلاً منه، فليعجل به؛ فالشمس تحرق دماغى". وعليه رد القاضى. "إنك ستموت فى دقائق قليلة؛ فكيف ستموت، مسلماً أم كافراً؟" وكنت أزداد يأساً، وأجبت بأعلى صوتى،" الدين مش هدم تغير نهارده أو بكره" (الدين ليس رداءاً تلبسه اليوم وترميه غداً).

إن إجابتى، والطريقة التى قلتها بها، فيما أرضانى، جعلته غاضباً. وبينا لا نزال نتحدث، شق رجل يركب فرساً طريقه بين الحشد إلينا، وتحدث مع القاضى، فقال متجها نحوى، "فلتكن سعيداً، إذ أنه ليس هناك موت لك؛ إن الخليفة برحمته العظيمة، عفا عنك." وعلى ذلك قلت،" ولما؟ أطلبت أنا عفوه؟" ذلك أننى لم أصدق لحظة أن العفو صدر بالفعل. ومع ذلك، فقد كُوِّمت على الحمار، وأُخذت إلى الراكوبه. لقد بَلَّغ أحدهم إلى الخليفة حالة يدى، وبعث رجل فى الحال بأوامر لإزالة الحبال. وأُرسل لى طعام وافر ولكننى دفعت به لرجلىّ الأُمباجه اللذين عادا بى إلى الراكوبه، وفى هذا الموقف أمكننى أن أبتسم فى وجه أحد الرجلين الذى اشتكى من أنه لا يحس ذوقاً للطعام، لأن شفاهه – وهى شفاه عظيمة وغليظة وسوداء، أيضاً – كانت جافة من نفخ الأُمبايه طوال الليل كما كانت يدى منتفخة من الحبال.

فى اليوم التالى، ذهبوا بى إلى القاضى، وكان معه الخليفة وسلاطين. وسُئلت، "لماذا حضرت إلى أم درمان؟" فأجبت نفس الإجابة التى كنت قد قدمتها للنور عنقره. وعُرضت علىّ رسالة الجنرال ستيفنسون، وسُئلت، "هل هذا فرمانك؟"فرديت أنه لم يكن فرماناً، وإنه لا علاقة له بالحكومة. طُلب من سلاطين ترجمته، ولكنه لحسن الحظ لم يترجمه كله. وعندما سُئل عن رأيه عنى، قال للخليفة إنه من الأوراق التى وُجدت فى محفظتى، أبدو ألمانيا وليس إنجليزيا، ولكننى مأذون لى من الحكومة البريطانية لأذهب إلى كردفان فى أعمال تجارية. وقال كذلك إن إسم الشيخ صالح مذكور، ولكنه يرتبط فقط بعمل ليست له أهمية. ثم سُئلت إن كنت أرغب فى إرسال أى خطاب لأسرتى، وبالطبع قلت إننى أرغب فيه. وبإعطائى قلماً وورقة حررت رسالة بالألمانية إلى مدير أعمالى فى أسوان؛ ولكن بعد كتابة أسطر قليلة، قال الخليفة إن الخطاب يستحسن أن يكتب بالعربية. ومن بعد إنهاء الرسالة، مُدت لى لأوقع عليها؛ ولكن لعدم إلمامى بمحتواها، سجلت بخط سقيم، كعلامة، تحت توقيعى ما معناه "كلها أكاذيب"، أو شيئاً من ذلك.

بعثت الرسالة بواسطة أحد من عيون الخليفة، وسُلمت للقائد فى أسوان. وبظهور كلمة "السكة الحديدية" كجزء من العنوان، بُعثت إلى منقريوس إفندى، ناظر المحطة، الذى بنسخه صورة منها للمراجعة، أعادها للقائد، بعنوان مدير أعمالى. وقد أحضر لى منقريوس إفندى، لسماعه بحضورى إلى القاهرة، بالصورة الأصلية من الخطاب الذى كتب فى يونيو ١٨٨٧. وفيما يلى ترجمة حرفية له :

"بسم الرحمن، والصلاة على سيدنا محمد وعلى صحبه التابعين.

من عبد ربه عبدالله المسلمانى البروسى الذى كان إسمه سابقاً شارلس نيوفلد، إلى مدير أعمالى مولر البروسى فى خط سكة حديد أسوان.

"أفيدك إننى بعد رحيلى منك جئت إلى السودان مع رجال صالح فضل الله سالم الكباشى، وكانوا يحملون معهم الأسلحة والذخيرة ومواد أخرى مرسلة إلى صالح من الحكومة.

"ولدى سيرنا من وادى حلفا، بصرف النظر عن إحتياطنا ورعايتنا للأشياء التى هى فى ذمتنا، وصلنا لما يسمى آبار سليمة، حيث تزودنا بالماء الوفير، وواصلنا رحلتنا. وفجأةً قابلنا ستة من التابعين فى الصحراء؛ وقد هاجمونا، وقاتلناهم. وكان عددنا خمسة وخمسين رجلاً. وفى نفس الوقت، جاء رجال من طرف عبد الرحمن النجومى؛ وقد عزّزوا الرجال الستة وقاتلونا، وفى مسافة نصف ساعة أخضعونا. قُتل بعضنا، وأُسر الآخرون بكل المتاع الذى كنا نملكه. وكنت أنا، وخادمى إلياس، وخادمتى حُسنيه من بين الأسرى. وأُخذنا جميعا إلى عبد الرحمن النجومى في الأوردا، وبواسطته أُرسلنا إلى خليفة المهدى، عليه السلام، فى أم درمان. وعند وصولنا أم درمان، أُخذنا إلى حضرته، حيث وُجدت إدانتنا وحكم علينا بالموت الفورى؛ ولكن خليفة المهدى، عليه السلام، ألقى علينا الرحمة، واقترح علينا أن نعتنق الديانة الحقة، وقد قبلنا الإسلام، ونطقنا الشهادتين فى حضوره: "أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسوله؛ ثم، "إننى أؤمن بالله وبنبيه محمداً، صلى الله عليه وسلم؛ وبالمهدى، الثناء، والسلام عليه وعلى خليفته". ورجوت، علاوة على ذلك، المهدى ليمنحنى "البيعة" (قسم الولاء) وقد كان سعيداً بمنحها لى، وصافحنى بالتالى بيديه. ثم دعانى عبدالله، بعد أن إعتنقت الديانة الحقة. ولذلك فقد عفا عنى خليفة المهدى من الإعدام الذى كنت مستحقاً له. لقد عفا عنى لأنه رحيم، ومن أجل دين محمد الذى أتبعه الآن. ولذا فإننى أحسن التفكير لإفادتك بكل هذه الأحداث، وإننى أخطرك إضافة لذلك أن دفع الله حُجّل، بالرغم من أنه خدعنى، لا أستطيع أن أشكره بما فيه الكفاية، لأن خديعته لى نتجت عنها الرحمة والطيبة العظيمة التى أصابتنى. إن صالح فضل الله سالم هارب يختفى فى الصحراء، خوفاً على حياته. وكل ما أخبرتك به هو حقيقة خالصة. ولا زلت حياً، والشكر للّه على هذا وعلى عافيتى. ١٧ شعبان ١٣٠٤ (١٠ مايو، ١٨٨٧)".

إنها الآن وحسب، ٢٥ نوفمبر، ١٨٩٨، أن منقريوس مَلّكنى التفاصيل الحقيقية. إن مدير أعمالى، الذى برجوعه مصر لأسابيع خلت، بسماعه إطلاق سراحى، أنكر تسلمه لأى مخاطبة منى أبداً، وفى ٦ أغسطس، ١٨٨٧، عنّون رسالة إلى أبى، مكتوبة على أوراق أعمالى، قائلاً فيها إنه تسلم الرسالة المذكورة بعاليه، وقد تُرجمت، وبعثت إلى الغازيتة المصرية التى نشرتها فى عددها الصادر فى أغسطس.

لم أرَ سلاطين سوى مرة واحدة مدة أسرى الطويل، ثم رأيته مرةً وحسب على مسافة فى مناسبة عندما نادى فى السجن ليصرف بعض الأوامر لرئيس الحرس. ورأيت الخليفة مرتين، في مناسبات سأذكرها لاحقاً.

وبعد التوقيع علي الخطاب، رُجع بى إلى الراكوبه، حيث جاءنى رجل يحمل سلسلاً طويلاً، حوالى مغيب الشمس، وقال إنه يحمل تعليمات لنزع قيودى عنى. وبتمرير السلسل عبر واحدٍ من حلقات الكعبين وحول واحدٍ من القطع الثابتة، رُفع قضيباً قصيراً، واستخدمه رافعه لإجبار القيد على الإنفتاح. وبينما كان لا يزال منهمكاً فى إزالة القيود، حضر قاضى القضاة، وأمر بطرق الحلقات إلى مكانها، وربط أطرافها باللحام.

بقيت في الراكوبه طوال الليل، وفى صبيحة اليوم التالى وُضعت على حمار وسير بى إلى السجن. وقد أُخطرت إنه، لكيما أنقذ حياتى، كان سلاطين قد إقترح تنفيذ هذا الإجراء، محتجاً بأننى يمكن أن أمكث فيه لأحوّل إلى الديانة المحمدية، وأكرس كل وقتى لمعلمى.



الكتابة بمشقة ...

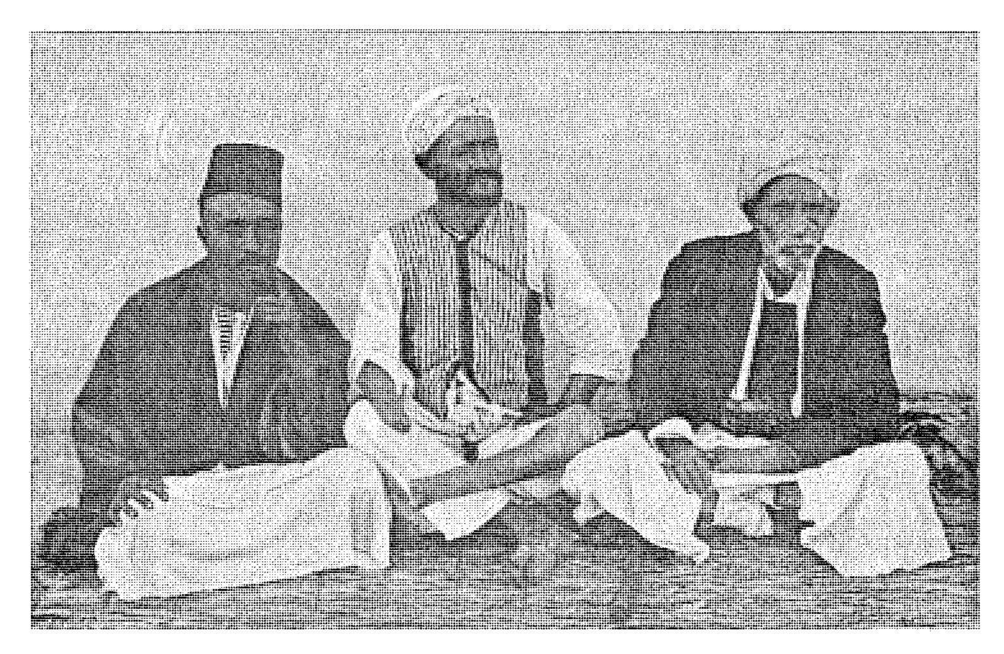
الفصل السابع
عقابى بالسجن

دخولى السجن ألفيت نفسى فى صحبة حوالى مائة من الفقراء التعساء، سودانيين ومصريين، وجميعهم يرسفون فى القيود. وذهبوا بى من فورهم إلى سنديان مغروس فى الأرض لدرجة أن السطح المستعمل للطرق عليه كان مستوياً معها؛ بدأوا بقدم واحدة ثم الأخرى بوضعها على السنديان ريثما تطبق على قيود وسلاسل إضافية. لى الآن ثلاثة أنواع من القيود، وحلقة وسلسلة على عنقى. وخلال إثنى عشر عاما فى الأغلال، بين المئات الذين جاءوا تحت إشرافى المباشر، لم أشاهد أبداً، كما وضّحت فى بعض أوراقى، أى سجين عليه قيود فى الرقبة موصولة بالمعصمين أو الكعبين. فكل السجناء مقيدين بالشكل المبين فى الصورة الفوتغرافية؛ والسلسل المتدلى من العنق يسمح بتعليقه على الكتف فى حرية.

عقب إستكمال التقييد، ساورا بى إلى حجرة طولها ثلاثين قدما فى كل إتجاه، ولكنها احتوت على عمود حوالى أربعة أقدام عرضا ليدعم السقف، وبذا يقلل المساحة الفعلية إلى حوالى ستة وعشرين قدما ما بين كل وجه من وجوه العمود والحيطان. وكنت قد عُين لى مكان على الحائط الأبعد مسافةً من الباب، وبين رجلين - مقيدين بالسلاسل - يموتان من الجدرى. وكان هناك حوالى ثلاثين سجيناً آخراً فى الحجرة، بعضهم طريح المرض، ولا يجدون أدنى قدر من الرعاية لأيام، نحو ما تبّينه حالتهم الظاهرة من مرض. وبالقرب من السقف نوافذ صغيرة قليلة العدد فتحات يفترضُ أنها للتهوية، ولكن الهواء الوحيد الذى يمكن دخوله للمكان يجئ من جهة الباب عندما يُفتح. وكانت رائحة البراز فى الحجرة مجلبة للمرض - نفاذة. ما كان لى أمل فى الحياة لأكثر من أيام قليلة فى مثل هذه الحفرة، ولابد إننى أُغمى علىّ بعد دخولى المكان، لأننى أذكر شيئاً قليلاً أولا أذكر شيئاً حتى نهوضى مستيقظاً بعد مغيب الشمس، عندما أمكننى أن أرى فى الضوء الخافت ما بدا أنه شريط لا نهاية له من السجناء الوافدين من الباب، وسرعان ما أغلق الباب بجلبة وصرير رهيب. مختلطاً بصليل السلاسل، وأنات المرضى، وزمجرة الموتى، وصلاتهم المتقطعة للّه لينقذهم من آلامهم، تلاحقت أشد اللعنات والشتائم إخافةً بمقابلة السجناء أنفسهم مناضلةً من أجل مكان قريب من الحيطان أو العمود، الذى يمكنهم أن يسندوا عليها ظهورهم؛ فما كان هناك نوم ينال؛ إنما يسرق خلال اليوم، لمّا يؤذن بالخروج إلى الزريبة. وليس هناك مجال للسؤال لوصف ليلتى الأولى؛ إنها حلم رهيب يشملنى بالفزع.

وفى صبيحة اليوم التالى بفتح الزنزانة، أُغمى علىّ ثانية، وحُملت إلى الهواء بالخارج لأصحو، وما إن صحوت جزئيا حتى أُعدت من أجل "أن أعتاد على المكان" كما أخبرونى. مرت الثلاثة أيام الأولى بالحمى والدوخة؛ وكانت أقدامى منتفخة من ثقل السلاسل والحلقان؛ وأول ما أذكره إننى علمت مؤخراً أننى كنت فى اليوم الرابع عندما أُرسل مصرى، حسن جمال، ليرعانى. وفيما بعد، نفس اليوم، بعثت لى خادمتى حُسنيه لتعد الطعام وتغسل رجلىّ. إننى إلى الآن لم آكل شيئا، ولا أذكر أننى شربت مآءاً. إن حُسنيه، بإرسالى إلى السجن، أُرسلت إلى حريم الخليفة؛ ولكنها لإفادتها النساء والخصيان إنها تحمل طفلاً، أُبعدت على عجل. وأُعطى المال، الذى كنت قد أحضرته معى، وكان قد نُزع منى لدى وصولى وبُعث لبيت المال لحُسنيه لتشترى به طعامى. وبدخولها ساحة السجن، أخذ عنها إدريس الساير، رئيس الحرس، المال قائلاً إنه سيرعاه، وبوضع قيد خفيف عليها، أرسلها لحريمه.

لقد حصلت الآن على إذن للجلوس خارج الحجرة خلال النهار، وكذلك لأتحدث مع المسجونين الآخرين. وكنت أول دخولى السجن قد أُنذرت، تحت التهديد بالجلد، ألا أكلم أحداً، وحُذر السجناء



جماعة من السجناء
(شريف وزغبير ووالده)

الآخرون، تحت نفس التهديد، من التحدث معى. إنهم، فيما يمكن تخمينه، كانوا متلهفين للتكلم معى، وستحصال بعض الأخبار عن العالم الخارجى، ولكنهم كانوا يتوخون الحذر الشديد فى إستفساراتهم. وكان هناك سجناء كُثر فى المكان، يحاولون تملق سجان الخليفة بالتبليغ عن أى شئ من باب الشكوى من المعاملة - الرغبة من جانب أى أحد فى الهروب أو التعبير عن الأمل فى أن الحكومة سترسل قوات لتحريرنا. ومع علمى أن الحكومة، فى الوقت الراهن، تخلت عن كل الأفكار الخاصة بإعادة فتح السودان، أخبرت رفقائى فى الأسر، عندما تحدثوا معى عن إحتمال تقدم القوات المشتركة، أنهم يجب عليهم أن يتحلوا بالصبر حتى ينتهى الموسم الحار. ولو كنت أخبرتهم بما أعلمه، لكان عسيراً عليهم مداراة يأسهم، ولكانت الحقيقة قد بلغت آذان الخليفة سريعا. إن عدداً من المسجونين كانوا جنوداً قُدامى بالجيش المصرى، وقد أُخذوا فى الأسر بسقوط الخرطوم وغيرها، وانتظروا يوماً بعد يوم، أسبوعا بعد أسبوع، وعاماً بعد عام، وهم على أمل أن الحكومة التى حاربوا من أجلها سوف تجرد قوات لإستعادتهم، وما كان خلاصهم بآتٍ إلا بالموت - تحت المشانق، فى سلخانات الخليفة، أو بالمرض والجوع.

وفى مرة كان سجيناً معى محمود ود سعيد، شيخ قبيلة الضبانية، الذى لسنوات وضع الأحباش تحت الرقابة على الحدود المصرية فى السودان الشرقى. وفى وقت من الأوقات كان قوياً، غنياً بأبقاره، والرقيق، والأراضى، ولكنه أُخذ أسيراً فى الحركة المهدية. ولما سُجن حوالى ثلاث سنوات وأربعة شهور، صار مشلولاً، وأمر الخليفة بالإفراج عنه، وكان حتى ذلك الحين عازفاً عن السماح له بالموت مع عائلته، وكانت فى أم درمان، تنتظر فى صبر إطلاق صراحه الموعود. وبفضل تمريضهم وإنتباههم الحريص، تعافى الرجل العجوز ليعاد للسجن ثانية لما سمع الخليفة بشفائه فقضى به ثلاثة عشر شهراً، وفى نهايتها أُفرج عنه مرة أخرى شريطة إن يجمع بقايا قبيلته، ويهاجم أعداءه القدامى، الأحباش، الذين كان الخليفة فى حرب معهم آنذاك. وبعد أشهر لاحقة سمعت أن محمود توفى، وذكر تقرير أنه مات بقلب كسير، وقال آخر إنه "أُبعد" بأمر من الخليفة لإخفاقه فى أن يستجمع قبيلة، كان الخليفة نفسه هو الذى كاد أن يفنيها عن آخرها.

وكان فى رفقتى فى محنتى عجيب أبوجن من قبيلة الحماده؛ لقد قاتل مع قوات الحكومة فى سنار، وعندما هزمه الدراويش، تقهقر إلى موطنه مع رجاله حتى جرت مهاجمته وهزيمته، بسقوط سنار، وصودرت ممتلكاته، وأُخذ سجيناً فى أم درمان، وأُرسلت زوجته إلى حريم الخليفة. وبعد قضائه أربع سنوات فى السجن، أُعتبر أنه "تعلم" بما يكفى وأُفرج عنه، وفى أشهر قليلة سُمح له بالعودة إلى دياره، عندما شرع فى التحضير لمهاجمة الدراويش، وحاول بكل الطرق أن يتصل بالحكومة. إن كثيراً من قومه جاءوا لمشاهدتى فى السجن، بأمل معرفة الأخبار منى عن حركة قادمة.

أبناء عوض الكريم، باشا قبيلة الشكرية، الثلاثة كانوا كذلك معى فى السجن؛ لقد توفى والدهم فى السجن قبل مدة قصيرة من حضورى. وبعد التحفظ على الإخوة الثلاثة - عبدالله، محمد، وعلى - لتسعة عشر شهراً، وعد الخليفة بإطلاق صراحهم شرط أن تحضر قبيلتهم لأم درمان وتؤدى واجبات الطاعة، وقد فعلوا؛ ولكن بحضورهم بلا طعام، أصاب القبيلة خلال الأربعة أو خمسة أشهر التى جُعلوا فيها منتظرين فى أم درمان، نقص بالمرض والجوع، ثم عندها، وإذاك فقط، وَفّى الخليفة بكلمته وأُفرج عن زعمائهم.

إن رجلاً كدت أن أضرب معه صداقة حقة هو الشيخ حمد النيل، وهو معلم دينى مشهور من النيل الأزرق. لقد كان له نفوذ عظيم على عدد كبير من الناس، وخشى الخليفة أنه ربما يكون له أتباع، فأمره بالحضور لأم درمان. وهنا تصاعدت الصعوبات بشأن التهمة التى يمكن أن تلصق به حتى يدان بالسجن. ولم يكن الشيخ حمد منحازاً إلى طرف دون آخر - الحكومة أم المهدية، وقد كِرس وقته كله للإلتزام بتعليم القرآن والوعظ به، كما ظل يفعل سنينا. ولم يجسر قاضٍ على إدانته بأى تهمة

كانت، "بالشهود" المزيفين. ولكن الخليفة كان مصمما على إدانته بوسيلة ما، وخاصة لأن الشيخ حمد كان ثرياً، وكان بيت المال فى حاجة للأموال. لقد أرسل الرجال إلى منزل الشيخ بأوامر تقضى بإخفاء بعض التبغ فى الأرض – وأُرسل آخرون للكشف عنه، ولما كان التبغ محرما من المهدى، حُكم على الشيخ حمد بالسجن بواسطة القاضى، بالرغم من كل الإعتراضات، وبمصادرة ملكيته. وقد إعتّلت صحته بعد أن مكث فى السجن حوالى ثمانية عشر شهراً من المتاعب، وأطلق صراحه؛ ولكنه بمعافاته نحو ما جرى لمحمود، أُودع السجن ثانية، وتوفى بعد أسابيع قليلة فيما بعد. ومن كل هؤلاء المقيمين فى السجن، كان الشيخ حمد هو الشخص الوحيد الذى كان يجسر على الحديث علانية لمن يثق فيهم أن كلاً من المهدى والخليفة أدعياء. وقد قضيت عامين من الأعوام الأربعة التى قضيتها سجيناً مع الشيخ فى الأساس أتعلم كيف أقرأ وأكتب العربية، وأناقش مرتكزات الديانتين المسيحية والمحمدية، وأخبره عن حياتنا الإجتماعية وعاداتنا فى أوروبا.

وكان هنالك وصول للسجن كنت أرجح سعادةً برؤيته – أحمد عبد الماجد، من بربر، وهو مناصر عظيم للمهدى والخليفة، وواحد من أشد الأعداء للمسيحيين والأوروبيين. وكان بالنسبة للسودان، عالى التعليم، وكان كذلك غنياً، وله نفوذ كبير، ولكن غروره أودى به. فقد قدم إفادة عن ثرائه بلباسه الغنى وحياته الباذخة، وبُلغ ذلك للخليفة، ولكن ماجد لم يقبل أياً من دعوات الخليفة الضاغطة ليزوره فى أم درمان. وقرر ماجد أن يتزوج أخرى – زوجة شابة وجميلة؛ وأقيمت الإستعدادات للإحتفال بالزواج، والولائم التى صاحبتها على مدى واسع ومترف. وكان المهدى قد ثّبت عشر دولارات كمهر يدفع لآباء البكر فى الزواج؛ ولكن ما جد دفع ألفاً، وهذا الإستهزاء بتعاليم المهدى لما بلغ آذان الخليفة، أرسل مجموعة لبربر بتعليمات لإحضار ماجد وعروسه معهم. ووصلت المجموعة بربر والإحتفالات جارية، ولم يستطع ماجد رفض دعوة الخليفة له فى هذا الوقت. وعندما وصل أم درمان أسرع بهما هو وعروسه، التى اشتهرت بأنها أجمل إمرأة رآها أحد فى السودان، فى حضرة الخليفة والقاضى. إن الأخير، مستعداً بتلاوة إتهامه لماجد، إتهمه بالخروج عن التعاليم التى وضعها المهدى، وكذلك بالتكتم على أموال كان يجب إرسالها لبيت المال، بما يثبته عليه ذلك المال الوفير فى الوقت الذى كانت فيه خزائن بيت المال خالية الوفاض. لقد صودرت أملاكه وأرسلت إلى بيت المال؛ واستولى الخليفة على عروسه، وأرسل ماجد نفسه للسجن حيث قضى ستة أشهر به، مشغولاً بلعنة وجه عروسه، الذى قاده إلى الأسى. وبعد نهاية الستة شهور، أُفرج عنه وأُعيد لبربر "متعلما"، بتوصية قوية من الخليفة ألا يصير شديد التباهى بثروته فى المستقبل. واحتفظ الخليفة بمال ماجد – وكذلك بعروسته. إنه هو نفس ماجد، الذى اقتنص كل الناس فى بربر الذين كانوا قد أعانوا مرشدى سلاطين، بعد هروب سلاطين، وأرسلهم إلى النيل الأبيض حيث مات به أولئك الذين <u>ماتوا</u> فى الرحلة.

إن الذين ذكرتهم بعاليه هم الذين يمكن أن أدعوهم بالطبقة الأحسن من السجناء، وقد إختلطت بهم أساسا أثناء العامين الأولين من مدتى فى السجن؛ وكان بقية المسجونين رقيقا، لصوصا، مجرمين عاديين، مدانين، قتلة، إلخ.

وعندما شفيت قليلاً من الحمى، وُضعت على جمل، وتجولت بين الأكواخ، والرواكيب، والزرائب، التى كانت فى ذلك الوقت تشكل مدينة أم درمان. إن عدداً من الهدندوة كانوا قد جاءوا لإبداء الطاعة للخليفة؛ وقد إغتنم المناسبة ليعرضنى على "المخلصين" على إننى الباشا العظيم الذى بُعث لينتزع منه غرب السودان، ولكيما يؤثر على الهدندوة. وتوقف الركب أمام كوخ الأمير سعيد محمد طاهر، أحد أقارب المهدى الذى قام بقص نسخته من موت هكس باشا، وتدمير جيشه، وهما حدثان، حسب ما يعتقد، وقعا بواسطة ملائكة أرسلهم النبى لذلك الغرض، وقدم لى محاضرة طويلة عن المهدية، وسألنى فى نهايتها عن رائى فيها. وقد أخطرته بأننى إذا رغب هو فى دروس قليلة لنفسه عن الدين،

وكيف يحيط الإله الذى أصلى له أنا بالمخلصين له، والوسائل التى يوظفها المعلمون المؤمنين به فى أوروبا لتحويل دين الناس وجعلهم أتقياء، فسأكون سعيداً لإعطاء بعضها. وقد أغضبه الرد، وأمر عدد من السجناء بواسطته ليحاضروننى طوال اليوم فى المهدية. وفى حين إننى كنت على تمام الإستعداد للتحدث معهم حول الدين المحمدى كما يبسطه القرآن، فإننى لن أؤمن برسالة المهدى أو ديانته الجديدة. وعندما سألنى طاهر أى تقدم تحصلت عليه فى "تعليمى"، تم إخطاره إننى لم أحقق تقدما فى المهدية، ولكننى كنت على إستعداد لأصير محمديا. إننى أعلم علم اليقين ماذا يعنيه التقبل الكامل للمهدية - الإفراج عنى، ولكن لا لشئ إلا لوضعى مسئولا عن بعض القوات، ولما كنت قد حاربت مع البريطانيين ضد المهديين، ما كانت لدىّ رغبة ليلقى على القبض فى صفوف الدراويش، مقاتلاً لهم، أو أن يعثر علىّ فى الميدان، بعد القتال، فى جبة درويش، ممزقاً برصاصة بريطانية.

لم يُسّر طاهر، وبلغ عدم طاعتى للخليفة. وكان ذلك فيما هو محتمل فى يومى الخامس عشر، بصحبة الهدندوة الذين جاءوا لإظهار خضوعهم، عندما أُخذت بالباخرة إلى الخرطوم حتى "أنبهر" - ربما - بقوة الخليفة وحقيقة المهدية. ذهبوا بنا أولاً إلى قصر غوردون، القديم، حيث استقبلنا خليل حسنين، على أنه حاكم المهدية على المدينة، وفى نفس الوقت مدير الترسانة، ومنحنا طعاماً. ساروا بنا. عبر الغرف، وكانت مقوضة، وعلى مقدمة الدرج أفادونا أين توجد بقع دماء غوردون. وبعد هذا ساقونا على الحمير، حول التحصينات، بينما كان "معلمونا" فى المهدية، يشيرون إلى الهياكل والأجساد المتيبسة المنطرحة، ويصورون بالكلمات على سبيل الإستشراف كيف ستبدو حصون وادى حلفا والقاهرة بعد أن يكون الخليفة، بعون الملائكة، قد هاجمهم. لقد كانت رحلة كئيبة لى؛ وإننى لا أحس عاراً وأنا أقول بينما أفكارى تسبح إلى الوراء لذلك اليوم فى كيربكان، عندما رسمنا لأنفسنا والأمل يملؤنا إنقاذ غوردون، إن التحصينات والهياكل تبتعد متناقصة وتختفى فى الضباب، متلاشية عن الأنظار، ودمعة حرى تنحدر على راحة يدى.

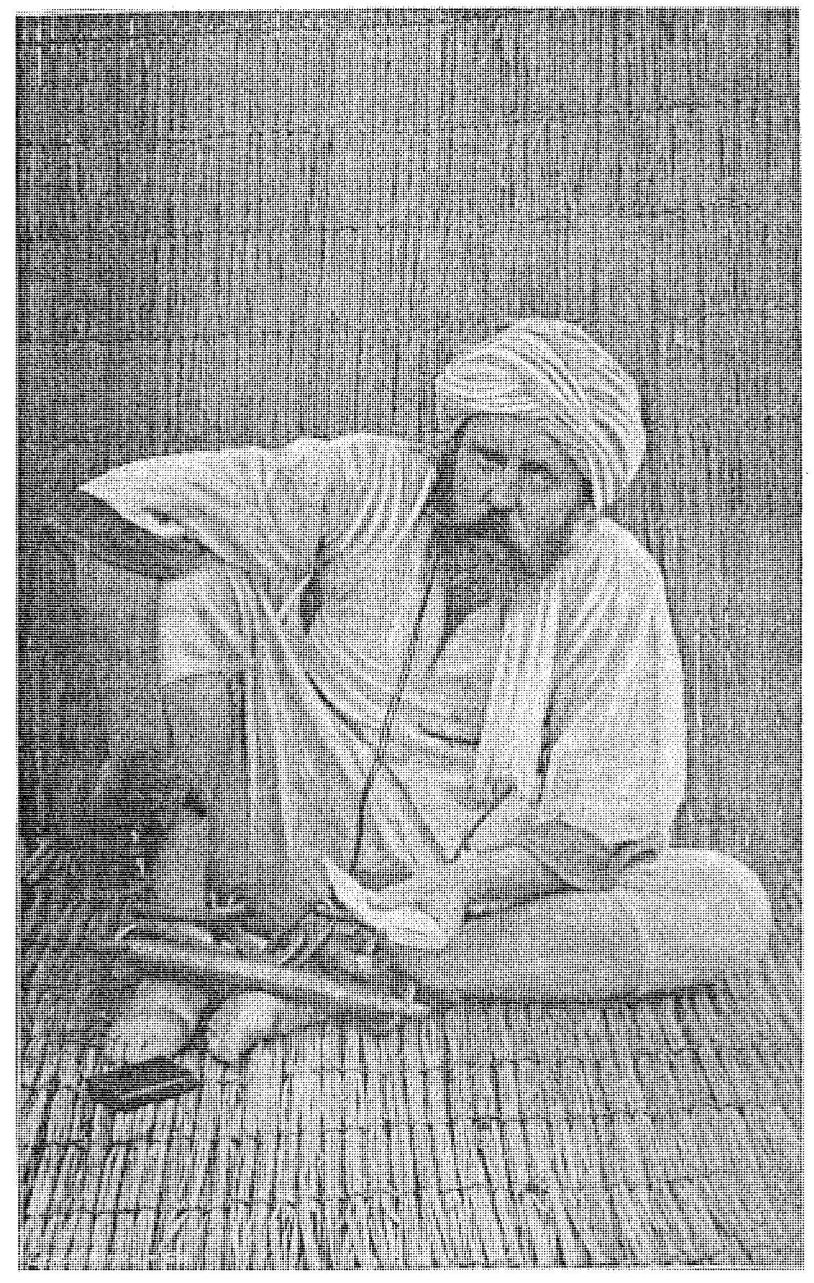
بإعادتنا السجن، ساءت حالتى؛ إن ثقل الأغلال والحلقان المجرورة علىّ بينما أركب وإلتهاب الجلد، أدى إلى حالة من الحك وأسهمت عفونة السجن وقذارته سريعا فى تكوين إلتهابات متورمة. كان ذلك وأنا طريح تحت الظل فى صباح ما، غير قادر على التحرك، فى الوقت الذى صادف وليمة عيد الأضحى، عندما ركب رجلان على الجِمال إلى داخل فناء السجن، وبعد أن أناخا جملاً بجوارى، أمرانى بالركوب فى الحال، لأن الخليفة أرسل فى طلبى. إن السجناء الآخرين تجمهروا حولنا وودعونى، وأخبرنى محمود ود سعيد أن أتماسك، وأن أتصرف مثلما فعلت "عندما حاولوا تفجير رأسك بالأُمباية". وفى ذلك اليوم، كان هنالك موكب عظيم للقوات، وما من أحد لم يصدق أننى سوف يتم إعدامى أمامها.

ما كان فى وسع الرجلين إخطارى بشئ غير أن الخليفة كان يطلبنى، وإنه، حياً أم ميتاً، كانا ملزمين بأخذى له. رُفعت على ظهر الجمل، وذهبا بى إلى ساحة العرضة خارج المدينة. رُفعت على ظهر الجمل، وذهبا بى إلى ساحة العرضة خارج المدينة. إن خطو الجمل الواسع، المتأرجح، نقل حركاته لقيودى، وفى الوقت الذى وصلت فيه للخليفة، كنت مغمياً على، وقد تفتحت جروحى، وتسيل مادتها على جنبى الجمل. وبملاحظته ذلك، سأل الخليفة أحد الأمراء عما وقع؛ ومع إننى كنت قريباً منه، لم يخاطبنى بكلمة مباشرة، بالرغم من أننى كنت أسمع ما قاله، ويسمع هو إجابتى. ولما استمع للسبب، صرف أوامره بإزالة السلاسل تلك الليلة، ووضع قيد خفيف مناسب. وكان الخليفة محاطاً بأمرائه وحراسه، وامتد على السهل أمام ناظرينا جيش عظيم من الخيالة وراكبى الإبل، والمشاة. لقد كان مفترضاً أن يسار بى بطول الجيش، ولكن قبل وصولنا الخيالة، قال الخليفة للأمير على ود سعد، "قل لعبد الله (أنا) إنه لم يرَ سوى ربع الجيش، ودعه يحضر للإستعراض غداً".

عجب السجناء لرؤيتى أعود حيا ذلك المساء، وزاد عجبهم من التعليمات التى صُرفت لإدريس

السايـر لإزالة قيودى في الحال، ووضـع قيد خفيف بدلاً عنها. ولمرة، ما كان في الإمكان تنفيذ أوامر الخليفة؛ فإن الإنتفاخ الذى أُصيبت به الأرجل كان شديداً، والحلقان تكاد أن تكون منغرزة في الجسد، ولا يمكن الإقتراب بها لحدٍ كافٍ على ظهر السنديان ليطرق عليها، وفي اليوم التالى حضرت الموكب وأنا في نفس الحال من الإنهيار كمثل اليوم السابق عليه. هذه المرة، غضب الخليفة غضباً شديداً؛ وما كانت له رغبة أن يسير مستعرضاً أمام قواته، كبّينة على قوته، رجلاً لابد من الإمساك به على جمل. أرسل إلى سجانى، وسئل لما عصى الأوامر. كأسباب، قال إنه، أولاً، لا توجد لديه قيود أخف، وثانياً، إن أرجلى كانت منتفخة بما لم يتمكن فيه من بلوغ الحلقان. أجاب الخليفة بأنه لابد من إزالتها تلك الليلة، وقد تم ذلك، ولكنه كان إختباراً معذباً لى. وقبل مفارقة ساحة العرض، أرسل لى حمار سعيد جمعة وجواد سلاطين، قائلاً إننى يمكننى أن أركب أى واحد منهما رجوعاً للمدينة، لأن حركتهما أفضل لى من الجمل، ولكننى اخترتِ أن أبقى على الجمل.

لقد بذلت ما في جهدى لأصير قريباً منَ سلاطين، لأجل كلمات معه، ولكنه كان بالكاد قريباً من جانب الخليفة، ولو للحظة، وهو ينتقل من جانب في الجيش إلى جانب آخر بأوامره. ومن جانب الخليفة، سألنى على ود سعيد ما رائى في الجيش؛ وعليه أجبت، "لديكم العدد، وليس لديكم المراس"- وهى إجابة لم ترضى الخليفة كثيراً، وقد كان قادراً على الإصتنات إليها دون أن ينتظر إعادة لها من سعد. كان هذا هو آخر وقت رأيت فيه الخليفة، ولكننى أعيش آملاً أن أراه مرة أخرى.



تعلم راتب المهدى

الفصل الثامن
حياة السجن

كانت راحتى فى السجن محققة لمرة واحدة فى أربع سنوات. فبعد تسعة أشهر، أزيلت الحلقات والأغلال عن عنقى، ولكن القيود ظلت لباساً مستمراً لى - فيما عدا ثلاثة عشر يوماً - طوال مدة أسرى. إن تسجيلى تجاربى بصفة يومية يخرج عن الإحتمال، إضافة إلى أنه غير ضرورى، حتى لو كان ممكناً إجراؤه. ولابد أن أقنع نفسى بإعطاء وصف عام للحياة التى عشتها هناك، وأن أعطى فكرة عن الروتين اليومى.

لما وصلت أم درمان، كان السجن فى أصله يتكون من الزنزانة العامة التى سبق ذكرها ("أم حجر" - المبنية من الحجر)، تحيط بها زريبة كبيرة من أشجار الشوك وأفرعها، على إرتفاع يبلغ حوالى ستة أقدام. وكان هنالك ثلاثون حارسا، كل واحد منهم مسلح "بكرباج" (سوط من جلد فرس البحر المدبوغ)، وذلك لأداء واجباتهم فى نظام. ولم تكن هناك تدابير صحية، ولو بأقل حالة بدائية. ويطعم كل السجناء بواسطة أصدقائهم وأقاربهم؛ فإن لم يكن لهم من ذلك أحد يموتون جوعاً، لأن المسجونين، مع تصدقهم على بعضهم البعض فى أمر الغذاء، ما كان لهم سوى القليل ليحفظوا به أبدانهم وأرواحهم على حد سواء، على أفضل ما يكون، وكان القسط الأكبر من الطعام المرسل، مما يأكله الحراس.

وعند شروق الشمس فى كل صباح. يفتح باب الزنزانة العمومية، ويؤذن للسجناء للإنحدار جيئة وذهاباً إلى ضفاف النيل، على بعد ياردات قليلة، لإغتسالهم ولمآء الشرب. وبعد ذلك، نصطف للصلاة الأولى فى اليوم، التى يجب علينا جميعاً حضورها. وإذا لم نكن نعمل، علينا أن نقرأ "راتب" المهدى، وهو وصف لسفر الصلاة، يشمل مقتطفات من القرآن مع أدعية للمهدى. وكان كل الأنصار مأمورين بتعلم هذا "الراتب" عن ظهر قلب،(*) ولهذا الغرض على كل واحد أن يشترى نسخة أو يكتبها. وفى الظهيرة تعقد الصلاة الثانية، وتتبعها صلاة نصف اليوم، بين الظهر والمغيب، ورابعة عند المغيب. وكان الواجب علينا ترديد صلاة الليل عندما يقبل، ولكن لدفعنا حشراً "لأم الحجر" فى المغيب، كان الوقت الذى يجب منحه لنا لهذه الصلاة يُقضى بأكمله فى المشاجرات، والإقتتال، وتلك الشتائم الشاملة للعرب، التى تبدأ بأب الشخص الثانى، وترجع لأسلافه، أجيالاً، وتشمل كل سلف الإناث.

وقد وُجد من المستحيل، حتى فى أكثر اللغات تحفظاً وتورية، أن ترسم هنا صورة بالكلمات لليلة فى الساير. إن المناظر الممعنة فى القسوة والإشمئزاز، والوسائل المستعملة لتركيع أقوى الرجال بضربة واحدة، والجرائم المرتكبة دون أن يسمى مرتكبوها ليلة بعد ليلة، وعاماً بعد عام، قد لا تسجل تدويناً فى الصحافة. وفى أزمان، وأحياناً لأسابيع متعاقبة، يحشر بعدد ٢٥٠ إلى ٢٨٠ سجيناً فى تلك الغرفة الصغيرة؛ لقد كنا مُعَلّبين فيها؛ ما كان هناك مكان لزحزحة سواعدنا إلا لماما؛ وتموج الحشرات والطفيليات فى الجُبَب، وهى تجعل النوم إستحالة والحياة شقاءا. وفى الحرارة وهى تزداد سعاراً، والجو - وهو يسبح دائما فى الرائحة النتنة أبداً فى المكان - يطبق على الحاضرين بالأجساد المعروقة، وبعوامل أخرى، تنقطع الصلة مع أى تمثيل للبشر. لقد كانت الفضلات تتقاذف من جانب فى الغرفة إلى جانب آخر من أى أحد يمكنه رفع يده لهذا الغرض، وحال تقديم هذه المادة التى تدعو للإشمئزاز، فإن الكتلة، فى سعيها لتفادى التعرض لها، تتأرجح من إتجاه لآخر، وتتقاتل، وتعض بعضها، وتناضل بقدر ما يسمح به وضعهم المحشور، ويضربون بالقضبان والأغلال على عضلات الأرجل القريبة منهم، حتى يضحى المشهد واحداً مما لا يستطيع سوى دانتى وصفه. إن أى سجين يسقط فى مثل هذه الليلة لن يقف إلى الأبد حياً؛ إن صياحه سوف لا يسمعه أحد فوق إصطخاب الأغلال والقضبان وصليلها، واللعنات والشتائم، وإذا حاول أحد الإنحناء لإعانته، إذا

استمع له، فمعنى ذلك سقوطه معه كذلك. وفى الصباح، عندما يسمح لنا بالخروج متتابعين، يعثر على خمسة أو ستة أجساد على الأرض وقد سحقت منها الحياة سحقاً تحت الأقدام.

وفى بعض المناسبات، عندما تتعاظم الضجة بأكثر من المعتاد، يفتح الحراس الباب، ووقوفا فى الطريق المؤدى إليه بالحجرة، يوسعون رؤوس السجناء ضرباً بسيطانهم المدبوغة. وكثيراً، لمّا يحدث ذلك، ما ينال الموت ضحاياه الخمسة أو الستة، سحقاً تحت الأقدام. إننى أود لو أنى كنت أتخيل ما قدمته آنفاً؛ ولا أستطيع أن أؤكد لكم إنها تعطى أقل ما يمكن تصوره مما كان يقع بحقٍ فى ذلك المكان.

إلى الوقت الذى شرعنا فيه فى صنع للطوب وبناء حائط حول السجن، كانت حياتنا، بالمقارنة مع ما كانت عليه آنفا، بما يجوز لى قوله، محتملة. وبمنح البقشيش للحراس، كان يُسمح لنا بالذهاب إلى النهر أثناء اليوم يكاد ذلك كلما رغبنا فيه؛ وهذه الرحلات القصيرة التى تقضى إفتراضا بقصد الإغتسال والشرب، وفرت لنا الفرص للتحدث مع أهل المدينة. ولقد تمتعت بهذه الحياة ولكن لبضعة أشهر وحسب. نجح عدد كبير من السجناء فى الهرب. وبالتالى صار أمر حفر بئر لسحب المآء للمسجونين، وبناء حائط حول السجن مأموراً به من الخليفة لإكماله بأسرع ما يمكن.

كان السجناء الهاربون فى معظمهم رقيقاً، ولما كان معظم الرقيق مقيداً لمنع الهروب من أسيادهم – وهنالك مئات يسيرون فى المدينة مقيدين – كانوا يواجهون صعوبة يسيرة فى تدبير هروبهم من السجن، وأيضاً من أم درمان. وبالسماح لهم بالذهاب للنهر للغسيل، يمشون بجهد على الضفة حتى يصلوا قبالة حشد كبير من الناس، وبوصولهم الضفة، لا تثير سلاسلهم ريبة أحد، لأنه، كما ذكرت، يسير فى المدينة مئات مثلهم بالقيود. وبشق طريقهم إلى أقرب حداد، يزيل عنهم قيودهم فى لحظات قليلة من أجل الحصول على الحديد، الذى كان ذا قيمة له.

وما كنا بلا أخبار على الإطلاق فى ذلك الوقت؛ إن الجرائد المطبوعة فى مصر كانت تصل بإستمرار، تحضرها عيون الخليفة، وهم يمرون فى إنتظام بين أم درمان والقاهرة، يصلون الخليفة وبعضا من أكثر المحمديين تعصباً فى العاصمة. ومنذ رجوعى إستفسرت عن حادث وقع فى الحدود بشأن الجيش لسنوات مضت. إننى سأذكر فقط ما سمعته، كما سرده الخليفة وأمرآؤه. إن كل الضباط الإنجليز، طبقاً للتقرير المستلم، كانوا قد صُرفوا، وغادروا مع السردار. وقد أُبعد الجنود الإنجليز كذلك من مصر؛ فكان الخليفة مبتهجا، ونظر إلى الأمام فى المستقبل القريب الذى ستحاول فيه القوات المصرية مهاجمته، وإلى الوقت الذى لن يبقى فيه رجل واحد منهم حيا. وكنت سأصير شاهداً على المعارك العظيمة التى فيها تحارب ملائكة الله مع المؤمنين، وتساعد الأنصار على إفناء الأتراك عن بكرة أبيهم. وفى حين أن ذلك كان لا يزال هو موضوع المحادثة، وصلت رسالة أخرى تقول إن المصاعب تم تدبيرها؛ فإن الضباط والقوات الإنجليزية ما كانت راحلة، وبينما تساقطت آمال الخليفة، تصاعدت آمالنا.

من بين كل القوم الذين عينهم المهدي بنفسه فى المناصب، هناك إثنان، فيما أعتقد، إثنان فقط، إحتفظا بمواقعهما حتى الوقت الذى أُخذت فيه أم درمان. كان أحدهما هو خليل حسنين، مدير الترسانة، والثانى هو إدريس الساير، السجان. إن إدريس – وهو لا يزال حياً – رجل من قبيلة الجوامعة، قبيلة ستجد أول بعثة من المبشرين شيئاً من المتاعب معها، مالم يكن هو مستعداً لمراجعة واحدة من الوصايا العشر فى الكتاب المقدس بمجمعه، وذلك ما إن القصة التالية المتعلقة بأول ظهور لسجانى فى العالم تشير إليه. كانت لأم إدريس شقيقة، وكانت لتعبها من بركة العزوبية، مخطوبة، وقد تقبلها محب من أفراد القبيلة يزور كوخهم بإستمرار. وكانت أم إدريس تنوى كذلك أن تخطب لنفس الرجل، وبإخطارها أختها بما توده، تقدمت أختها أولاً بالخطبة، وقبلت، ثم إن أم إدريس لامتها بالطريقة المتبعّة فى قبيلتها، وهو ما تبين إحتواؤه أفعالاً بأكثر من الكلمات. فعندما ظهر المحب



إدريس ود الساير

السعيد ثانيةً، سألته أم إدريس، وإدريس فى ذراعيها، كيف يجرؤ على مخالفة عادة فرعها فى القبيلة، ويقبل الزواج من فتاة ليس لها أطفال، بينا هى لها طفلان من قبل! إن "الساير" تعنى فى لغة الجوامعة "العادة" و "المعتاد"، وقد دُعى إدريس، إدريس الساير عندما، فى سنوات لاحقة، لا يوجد تفسير مرضٍ لعدم إعتزازه بأب. وبعد ذلك تزوجت أم إدريس وحكمت، بإبنها الشرعى، عائلة الساير. ولما عُيّن سجاناً من المهدى، كان السجن يدعى "بيت الساير"، ومؤخراً نُسب إلى "الساير"، وأضحى الإسم بديلاً للكلمة الأصلية للسجن، فكل السجون سميت "ساير"، وسمى رئيس السجانة، "سايراً".

لقد كان إدريس قاطع طريق ولصا مشهوراً، ولم يكن يتعب قط من قص مغامراته، منهيا لها بالإشارة إلى ما فعلته به المهدية، لأنه وفقاً لحديثه صار الآن الحارس المشرف على كل اللصوص، وقطاع الطرق، والقتلة، وهناك شك قليل أن له إعتبار مداهن لمثل هذه الممارسات، كصلةٍ ما بين نفسه وأيامه القديمة.

وكان يؤمن بالخرافة لدرجة ما، ومع أن المهدى والخليفة منعا بصرامة قراءة الطالع وكتابة الحجاب، فقد إتّبع إدريس نموذج الخليفة نفسه، فكان يستشير فى إنتظام قُراَء الحظ، ومعظم ما يتلقاه من مكاسب بالحرام تذهب إلى جيوبهم كمصاريف. وقد صنع خمسة وعشرين إلى ثلاثين لوحاً من الخشب القوى، حوالى ثمان عشرة إلى عشرين بوصة مربعة، وعليها يكتب يومياً، سورة من القرآن. إن الحبر الذى تكتب به السور كان مزيجاً من رماد الخشب - أو العمار، إن أمكن الحصول عليه - والصمغ العربى وبعض العطر، والمآء. ومتى تمت الكتابة، يأخذ إدريس إناءاً، بعد أن يغسل يديه بعناية، يملأ ما مقداره كوبّى شاى من المآء، ويغسل فى تنبهٍ الكتابة، بما يسمح للمآء بالسيلان رجوعا إلى الإناء؛ إن نقطة واحدة يجب ألا تسقط على الأرض، وإلا فإن الكتابة يجب إعادتها من جديد، لأن إسم اللّه وكثير من أوصافه، مما يكون فى المحلول. وبعد غسل اللوح، والإحتفاظ بكل نقطة من مآء غسله، ثم شربه، يحضر لنا، ويلقى علينا الخطبة التالية، ولأننا سمعناه مرتين أو ثلاث مرات فى الأسبوع لمدة تبلغ أعواماً، لدى تقريباً نصها الكامل ذكره :

"إننى مولود لصاً وقاطعاً للطريق؛ قومى قتلوا الكثيرين على الطرق، وانتهبوا ملكيتهم؛ شربت كما لم يشرب أحد غيرى، وارتكبت كل شئ ممكن ضد النظام والدين. ثم جاء المهدى وعلمنى أن أصلى وأَدَع ملكية الآخرين لشأنها". (هذه الأخيرة ترفع دائما إبتسامة مريرة على وجوه سامعيه، لأنه اعتاد تعذيبنا لنسلّم "للخليفة" أى عمله معدنية صغيرة أو قطعة ذات قيمة مما قد نمتلكه.) "كيف لى أن أشكر المهدى على أنه جعل منى إنساناً طيباً، مبّجلاً، جديداً، وسيفعل يوم الحساب حين يصير شاهدى، ويأخذنى مع أنصاره للجنة. فكر ماذا كنت أنا عليه ، وانظر ماذا أنا الآن. لقد كنت أسوأ من أى واحد منكم. فإذا سرقتم أى شئ، فقد سرقتم عندما كنتم مع الحكومة، وفعلتم وحسب ما فعلته الحكومة وما فعله أى إنسان آخر، لقد كانت لكم سلطة لتفعلوا ما فعلتموه. لقد كنت أسوأ منكم، وما كانت عندى سلطة. لقد عفا اللّه عنى، ولسوف يعفو عنكم كذلك إذا تبتم ودفعتم لبيت المال ما أخذتموه من الفقراء، لأن هنالك فقراء كثيرون الآن فى المدينة يصرخون من أجل الطعام، وليس هناك مال فى بيت المال لشراء أى طعام. لقد منحت كل مالى فى الصدقة، وتصرخ زوجاتى ويصرخ أطفالى للطعام. ما عندى قوارب لتجلب لى التجارة، وما عندى أرض أزرع عليها الذرة "(حبوب فى السودان، تحل محل قمحنا)." إننى سجين مثلكم، والراتب الذى أتلقاه لا يكفى لإطعام عائلتى. وأمس ما كان هناك ذرة فى منزلى لأطعم عيالى، فكان عليهم أن يناموا جوعى، وإننى أحمد اللّه للطفه على بعونى من خلال هذه الإبتلاءات التى سأجازى عليها فى الدار الآخرة. إننى ذاهب لأرى أطفالى الجوعى الآن، ثم سأصلى للّه، وأسأله أن يفرج عنكم إذا تبتم، واستملتم قلب الخليفة إليكم. إن الخليفة يعلم كل شئ تفعلونه، ويراكم كل اليوم، لأن "النبى خضر" هو عيونه وآذانه، والنبى خضر لا يرى ويسمع ما تفعلونه وتقولونه وحسب، ولكنه يرى أفكاركم".

بعد هذا، إعتاد الجميع بإستثنائى أنا، أن ينهضوا ويقبلوا يديه؛ ولم أفعل ذلك أبداً. وفى نهاية الخطبة الأولى التى ألقاها بحضورى، وفى نهاية الخطب فى الأسابيع التى تلتها، يواصل : -

"والآن أيها الرجل من العالم السئ، أنت تفهم العربية جيداً. لقد أخطرنى الخليفة أن أُعلمك الديانة الحقة؛ إن زملاءك السجناء سيخبرونك كين أن هكس باشا كان، بكل جيشه، مقتولاً من الملائكة؛ لم يطلق طلق نارى واحد، ولم يُرْمَ رمح من الأنصار؛ لقد طارت الرماح من أيديهم، وبإرشاد الملائكة مزقوا صدور الكفرة، وحرقوا أجسادهم. إن اللّه عظيم. ولسوف تتعلم عما قريب إنك مخطئ، وإن كل عالمك مخطئ؛ ليست هنالك ديانة غير دين المهدى. فكم أنت سعيد أن تحيا فى زمانه وتدخل فى زمرة الأنصار. إن اللّه يحبك الآن؛ إنه هو الذى جاء بك إلينا، وببركة الخليفة لسوف تعد مع الأنصار، وستحارب الكفار والأتراك كما فعل الذين تحولوا. إن لك عقلاً قوياً، ولذلك فليس للخليفة رأى سئ عنك. فلتشكره على رحمته وإنه لم يقتلك. فلتغير دينك، وسأكون مسروراً وفخوراً بك، وأصير مثل أبيك. وأنتم الآخرون، لقد رأيتم المهدى والخليفة وأعمالهما؛ أخبروه عنها. أنت ياحمد النيل، إنك رجل عليم، وتعلم عن الدين أكثر مما أعلمه أنا؛ فلتجعل عبداللّه يعلم مَنْ اللّه، ومَنْ نبيه".

وفى نهاية محاضرتى الأولى، سألنى أبو جن كم من المال أملك. فاستفسرته عن السبب. فأجاب، "ألا تفهم؟ إن الساير يريد منك بعض المال". فأخبرته عن المال الذى تحفظه حُسنيه، والذى يشرف عليه الساير، فابتسم وأفادنى أن الساير لن يأخذ المال بنفسه، ولكنه سيقسرنى على أن أعطيه له" لعياله الجوعى". وبعد أيام لاحقة أُرسلت لأسمع خطبة الساير ثانية، وفى هذه المناسبة إنتهى بقوله إن بعضنا لابد إنهم إرتكبوا الخطأ. لقد بلغ النبى خضر الخليفة بالأمر، وهو نتيجة لذلك أمره بأن يضيف مزيداً من السلاسل لأقدامنا، ولكن علينا أن نمتثل لذلك دون أى مشاعر حانقة ضد الخليفة أو ضده. فإذا تُبنا، فإن النبى خضر سيكتب لنا ذلك، وسرعان ما يقوم الخليفة، وهو كله ود وإكرام، بإصدار أوامره لفك القيود عنا. إن كل السجناء الأعيان، عَداى، يذهبون بهم بعدئذ إلى السندبان، وتطرق قيودهم عليهم. لقد إستُثنيت، لأنه بعد الخطبة الأولى، أرسلت كلمة، بناءاً على نصيحة أبوجن إلى الساير ليأخذ خمسة عشر دولاراً من مالى "لعياله الجوعى". ثم عقدنا نحن السجناء مؤتمراً، لأنه تقرر أن نقدم مزيداً من المال. واستغرق الأمر يومين لنستجمع معاً المبلغ المطلوب - حوالى خمسين دولاراً أضفت إليه سبعة عشر دولاراً من عندى. كان لهذا النهاية السعيدة، ليس فقط بإزالة السلاسل الإضافية عن السجناء، وإنما عن حُسنيه كذلك. دعانا الساير معا، وأعطانا مأثرة عن التوبة والسلوك الحسن، وأخبرنا أن نستمر على نفس الدرب، لأنه كان طريقاً مرضياً عنه من النبى خضر.(*)

ولكن النبى خضر هذا ما كان أبداً راضياً لفترة طويلة عن سلوكنا. ففى كل شهر يكون له بلاغ "للخليفة"، وتماماً، مثلما أنه تصرف لنا أغلال زائدة، حتى ندفع لإدريس بضع دولارات للفقراء، يبعثه إلى الخليفة بتقرير في صالحنا. كل هذه الأموال المكتسبة بالحرام، كما قلت، ذهبت إلى المداهنين، وقُرأء الطالع، وكُتاب الأحجبة، الذين كان الساير واقعاً فى سطوتهم، مع أن جزءاً منها ذهب فى البقشيش لخدم ومستشارى الخليفة، الذين يتوجب على الساير أن ينفحهم الأموال حتى يحتفظ بموقعه.

كان الساير يعلم علم اليقين إنه ما من واحد منا يؤمن بعمل النبى خضر هذا، ولكن بما أن المسألة خارج دائرة السجناء الأعيان - وهم الوحيدون الذين يمكن إعتصار المال منهم - كانت تحشد دائماً عدداً من الجهلاء، الأشد تعصباً من أتباع الخليفة. ولذا اخترع هذه الحكاية، التى يقصُّها عاماً بعد عام دون أى إختلاف فى الكلمات، لكيما يغشهم ويمنع عنهم وصول أى حكايات للخليفة عن المبالغ "المهداة" من السجناء.

الفصل التاسع
سانحتى الأولى للهروب

كان ذلك أثناء الأشهر الأولى التى قضيتها فى السجن عندما نجح أحمد نور الدين وهو من الكبابيش فى دخول السجن، بأمل إحداث هروبى. لقد كنت لبعض السنين قد عقدت صفقات مع نور الدين فى شأن مصلحة المخابرات، وكذلك تجارة القوافل. وعندما رحلت عن وادى حلفا مع قافلة صالح، كان نور الدين يومها فى معسكر صالح مع رسائل له من الحكومة. ولدى عودته إلى وادى حلفا، سمع عما حدث، وبحضوره على التو لأم درمان، بعث رسالة عن طريق خادمى أنه حضر من أجلى. إن كل محاولاته ليدخل السجن رفضت من الحراس، ولخوفه من أن يجرى محاولة مع إدريس الساير أو المحكمة، إتفق مع صديق للقيام بمشاجرة طفيفة فى السوق؛ وقد أسرع به صديقه أمام القاضى، وزّج بنور الدين فى السجن. ولما رآنى أمشى نحوه وهو داخل، لأننى ساعتها لم أكن أعلم أنه جاء سجيناً، نطق لى "هس"، وهي ما يعادل فى السودان "إش" (أسكت)، وسار مبتعداً فى إتجاه آخر. وفى أواخر النهار، عندما كنا نُقتاد لدفعنا داخل الزنزانة العمومية، جاء بجوارى، وهمس، "لقد جئت لك؛ فكن حذراً؛ أفتح عينيك جيداً؛ حاول الحصول على إذن لتنام خارج أم حجر". مضى أسبوعان قبل أن نجد فرصة أخرى لتبادل بعض الكلمات، ولكن فى هذه الإستراحة كان نور الدين قد تودد للسجناء فألفوه، وأفسح المجال بالتدريج ليشبع إستطلاعه للتحادث مع "الكافر الأبيض". كان ضرورياً له أن يتصرف بهذا المسلك الحذر لكى يبعد الشبهة عنه، وبعد مضى أسبوع آخر من بعد تقديمه لدائرتنا الصغيرة، قبل أن يمسك بسانحة ليستشيرنى فى موضوع صحته وعلل أخرى عديدة – فيما كان توضيحه لما سئل عن محادثتنا الطويلة معا.

كانت قصة غريبة تلك التى سردها. فبمقابلته لجابو، إبتدر جابو الحديث معه فى الحال عن بعض الصفقات المزدوجة التى اقترحها لكلٍ من الدراويش والحكومة. وكان نور الدين مرتاباً، ولم يقع فى فخ المقترحات؛ وترك ذلك التصرف جابوٍ تحت رحمة نور الدين، وتحين الأول شجاراً، وفى خلاله إتهم نور الدين جابو بخيانة قافلة صالح. وكان غيره من الكبابيش ينظرون شذراً لجابو، ويعجبون ما إذا كانت الحقيقة ستخرج مرة فإنهم لن يعاقبوا كخونة كذلك. لقد كانوا يعتقدون أن جابو كان ضالعاً فى مؤامرة ما وستعود عليهم بالسلامة مثله، إذا بلّغوا ضده للحكومة، وحفاظاً على أنفسهم عقدوا إجتماعا مع نور الدين. واقتُرح أن واحداً ما، لشرف القبيلة، يجب أن يحاول الإفراج عنى أو تهريبى من أم درمان، بينما، كما سنرى، كان هنالك عنصر المصلحة الشخصية فى الأمر. فالآن يوجد عداء بين جابو ونور الدين، وقد تطوع الأخير للمخاطرة بالرحلة إلى أم درمان.

إن خطته، عندما رأى أنه ليس هناك أدنى أمل للإفراج عنى من السجن، كانت يائسة، وقد تعرضنا لكل الإحتمالات لقتلنا فى محاولة الهروب، ولكننى كنت مستعداً كل الإستعداد لركوب هذه الأخطار. وكنت أعرف أن نور الدين لن يرتكب خطأ. فما كان الموضوع كما لو أنه مدفوع بالطمع لمعاونتى؛ ولكن لأنه منهمك فى خصومةٍ قاتلة، كان ساعيا لأى وسيلة ليبقى هو على قيد الحياة، وكان يعلم أنه إذا استطاع توصيلى لوادى حلفا، فإن مشنقةً ستزين جابو أو يضرب بالنار.

ومن خلال خدمات أحد رجاله، وهو صبى أحضره معه، وكان يحضر إلي السجن يومياً على أنه يقوم بإطعامه، دبر نور الدين أولاً الإبل المطلوبة للرحلة، ثم شراء البنادق والذخيرة، التى كانت مدفونة فى الصحراء على مقربة من أم درمان. هذه التحضيرات حال إكتمالها، أعقبها إرسال ستة رجال من العشرة المعينين للمحطة الأولى للإبل لقطع حفرة فى حائط السجن المجاور للنيل لأقرب درجة، وكان عليهم القيام بتلك المهمة فى الليلة التى نبعث لهم فيها برسالة أو علامة، فكان واحداً منهم دائماً بجوار الضفة، قريباً من الجزء المختار من الحائط. وأُعطيت تعليمات أخيرة لمّا سمعنا أن الإبل تم

تجهيزها وزودت على أفضل الوجوه بالمآء. وبعد الزحف عبر الفجوة، كان علينا أن نـأخذ طريقنا إلى النهر، ونحن نـجر شبكة قديمة للصيد خلفنا؛ وكان مطلوباً أن نربط الملابس الممزقة حول القيود لتميت صليلها؛ وهذا الجزء من المشروع هدف إلى إخفاء سلاسلى، ومنعها من الرنين. وأثناء إجتيازنا آخر الأكواخ، كان علينا أن نترك النهر، ثم بركوبنا الإبل، نسافر بأسرع ما فى وسعها، لإثنى عشرة ساعة تجاه الغرب، حيث سنلتقط الفوج الأول. وقد أرسلنا الصبى برسالة لقومنا لإمدادنا بثلاث مسدسات وذخيرة. وكان علىّ وإدريس أن يأخذ كل واحدٍ منا واحداً منها للإستعمال فى حالة الضرورة قبل أن نبلغ مكان البنادق المدسوسة؛ وكان على واحد من الرجال أن يأخذ المسدس الثالث، وإذا اكتُشف هروبنا فى الحال أُلزم بإطلاق النار ناحية قارب كان قد أُودع الضفة المقابلة، ويقسم أننا هربنا به. ولسوف يضع ذلك مطاردينا على الطريق الخاطئ لوقت ما. إن مسدساً وسبع عشرة عبوة وحسب أمكن العثور عليها، وقرر نور الدين أن يتريث بضعة أيام حتى يدبر أمر الآخرين.

وفى حين كان يجرى البحث عنها، إشتعل نور الدين بالحمى، ولرعبى وجدت عليه كل أعراض حمى التيفود وهى تتفاقم. لقد دُعيت هذه الحمى أم سبعة (سبعاً)، لأنها، دون تغيير، تودى بضحاياها فى سبعة أيام. ويمكن تخمين اللهفة والعناية التى بها مَرّضت نور الدين، وكيف تم شغل حُسنيه طوال اليوم لتعصر اليوسفى، والبلح، والجذر، تبريداً للجفاف لتهدئة الحمى. ولعله كان سيشفى، لولا إنه ظل شاغلاً نفسه خشية من فقدان ثأره من جابو، ولكنه شيئاً فشيئاً إنهار ومات.

قُفلت داخل أم حجر فى ليلة موته، وكانت الحمى وقتها تتملكنى؛ وبعد يومين صرت فاقد الوعى، ودون شك عاجزاً. وكانت حسنيه، مع ولدين، معتادة على حملى من مظلةٍ لأخرى بينما تنتقل الشمس، ولكن السلسلة المتدلية من عنقى تنجّر معى وأحياناً يتعثر منها واحد أو الآخر، ومن ثم أُصدرت الأوامر لإزالتها. وتم إخطار حُسنيه أن أفضل علاج لى هو وصفة من شوربة الخضروات المغموسة فى مآء مالح؛ تشرب المآء وتؤكل الشوربة بينما يواصل المريض شفاءه. إن خصائص هذا العلاج المؤدية إلى إستفراغ المعدة ربما تناسب أوضاع السودان، ومن الجّلى أنها كانت صالحة لى فى ذلك الوقت، ولكننى أحّذر كل قرآئى إذا كانوا سئ الطالع ليلاقوا مثل تلك الحمى، من مغبة محاولتها. فعندما يسرى مفعول الحساء بفعالية، يمتلئ الفم بالزبدة، وهى حتى الحلق، فى هذه المرحلة من "العلاج"، تكون بمثابة الزيت المغلى، وستختبر كل أحاسيس الإحتراق الداخلى. أما العملية التالية فكانت هى مسح الجسم كله بنشاط، ثم تُدفق الزبدة أو الزيت عليه – مع تفضيل الزبدة. وليس للمريض شئ يقوله عن علاجه – فهو مستسلم؛ وكل ذرة من قوته وإرادته فارقته، وعندما يلف فى دثارات قديمة للإبل ويعرق يصعب أن يصف ضعف الحالة التى يكون قد بلغها. وفى اليوم الثالث عشر من مهاجمتى بالحمى بلغت المرحلة الأخيرة من علاجى، ثم سقطت نائماً، واستيقظت بعد بعض الساعات برأسى معافى وإلمام بما يدور حولى، مع إننى كنت آنذاك هيكلاً بشرياً حياً.

ولما سمع الخليفة عن حالتى، فكر أنها فرصة طيبة لى لأتلقى بعضاً من الدروس عن المهدية، وقد إمتدت فترة نقاهتى بسبب الضيق والملل اللذين أنزلهما بى مدرسوا المهدية. إن القاضى حنفى، وهو أحد قضاة سلاطين القدامى، سُجن معى لإعتراضه العلنى على العدالة والأحكام التى تصدرها المحكمة الشرعية مجانبةً للقرآن، وقد أخبرنى أنها غلطة من ناحيتى أن أتحدى الخليفة بهذه العلنية التى أبديتها، وإنه سيكون أكثر "كياسة" أن أمتثل كما خضع سلاطين، الذى يملك الآن داراً، وزوجات، ورقيق، وخيولا وحمير، ويزرع أرضا خارج المدينة. ولكننى فى حالتى تلك، كان إحراز تقدم يسير، بسبب جسدى الميت، أكثر مما أتمناه، ولم أهتم بأى شكل يجئ الموت، شريطة أن يأتى ويريحنى.

إستهلك حنفى كل حججه محاولاً حتى لكى أصير مسلماً طيباً. ومهولاً من قوة الخليفة، وعجزى، أشار إلى الأغلال التى تكبلنى، ووزنها ما يقرب من الأربعين رطلاً، وقال لى إن الخليفة

سوف يعذبنى حتما بها حتى أستسلم لأصير مسلماً طيباً. وفى مواجهة هذه الحُجة الأخيرة، أجبت بأننى إذا قلت إننى سوف أتحول عن دينى، فإن الخليفة لحظة سماعه بذلك، سيطلب من إعلان ذلك على الملأ، ولسوف يقطع رأسى بعد ذلك فى الحال، ليمنع إنزلاقى نحو المسيحية مرة أخرى. وكان حنفى يعتقد أن الخليفة سوف يبقى علىّ حيا بعد إعتناقى العقيدة المحمدية بأمل قبولى للمهدية؛ ولكنه فشل مع ذلك فى تحويلى عن عقيدتى، ولما سمع الخليفة بالنتيجة، ولم يقتنع بأن حنفى بذل بحقٍ كل ما فى وسعه بما ساقه لى من حجج، بسبب ذلك وأسباب أخرى أرسله فيما بعد مداناً إلى جبل الرجاف، بالقرب من لادو، وهو محطة إنزال العقوبة فى السودان .

بمجئ ساعة إستشفائى بقوة كافية لأحاول الهرب، كان الرجال المعنيين قد فقدوا جنانهم، وما كان هناك من أحد ليقودهم. مات نور الدين، ولأنهم ما جاءوا إلا لتسلم المال سبباً لدخولهم فى الأمر، وما كانت الدولارات آنذاك متوفرة، قرروا ألا يخاطروا، وتخلوا عن محطة الإبل، وانتشروا فى ديارهم المختلفة.

لمئات من المرات ما أكثر ما أسفت أننى لم أعمل بنصح نور الدين وأهرب فى ذلك الوقت، تاركاً له خلفى. فكما قال، ما كان هناك سبب أخشاه أنه سيفقد رأسه، لأنه كان شديد المرض ولأنه بتركه وراءنا سيمنع الريبة عنه. وخلال إثنى عشر عاماً من الأسر، كانت هذه، أول فرصة لهروبى، محفوفة بالمخاطر ويائسة كما كانت، الأولى من نوعها التى كانت تنطوى على عامل حقيقى للنجاح، لأن من يود إنقاذى كان سينقذ نفسه.

وعلى غرار ما كان معتاداً فى كل السجون بالشرق، كان السجناء فى الساير ملزمين بشراء طعامهم، أو أن أصدقاءهم وأقاربهم يرسلونه للسجن لهم؛ إن الإخفاق فى الحصول على المال والأصدقاء والأقارب، يؤدى لجوع السجناء حتى الموت. وقد ذكرت آنفا أن بوابات السجن كانت مملوكة للحراس، أى بعد أن يكون إدريس الساير قد مضى على كل حاجات "عياله الجوعي" وديار عديدة أولاً. ولم يفقد إدريس من وزن بدنه شيئاً، حتى فى أسوأ حالات المجاعة؛ لقد كان دائماً طويلاً، قوى البنية، أسوداً أفطس الأنف، عندما شاهدته أول مرة فى ١٠ مايو، ١٨٨٧، وعندما رأيته لآخر مرة فى سبتمبر ١٨٩٨. وما كان إدريس سيئاً كل السوء كما رسم البعض صورته؛ إنه كان دائماً – عندما تؤدى حكاية النبى خضر مفعولها المرغوب فى إحداث التوبة – يخرج عن نفسه ليغمر سجناءه ببعض من الإحسان، مثل فك القيود الإضافية، ومنح الإذن للنوم خارج الزنزانة؛ ولكن مؤسسة النبى خضر جعلته تحت رحمة عناصر الخليفة الحضور حتى إن فترات مرحة الطيب كانت قصيرة جداً بالتالى. وفى يوم، إذا عدت للسودان، أو إذا أجرى إدريس زيارة للمدينة، فربما أعلم منه مَنْ الذى علىّ أن أشكره لبعض من المصاعب غير الضرورية التى أُنزلت بى.

قد يُسأل لماذا، ونحن ندرك أن الحراس سيلتهمون معظم الطعام المرسل لنا، لم نسعَ لإرسال كمية أكبر. هنالك سببان، الأول هو الأقل: أن الحراس يعلمون جيداً الكمية فى حدها الأدنى لتجعلنا أحياء، وأن ذلك الحد من الطعام لا غير هو الذى يؤذن بمروره من أبواب الساير. والسبب الثانى هو أنه لدى رؤية طعام طيب أو نوعين يُحضران لسجين يثبت واحداً من إثنين: إما أن السجين نفسه تسلم بعض المال، أو أن أصدقاءه هم الذين تسلموا المال. وفى اليوم التالى، تعنى حكاية النبى خضر المسهوكة، وقد أُحسنت صياغتها، مزيداً من الأغلال ما لم يُقدم المزيد من الدولارات. وتحت هذه الظروف، يُستدعى سئ الطالع من المارقين على سياسة الساير من طرف المسجونين المعاقبين بالغرامة ليحسنوا من المال الذى اعتصر منهم، فالساير محايد للغاية فى موضوع القيود، وواثقا من أنه سيجد دائماً الضحية المناسبة فى النهاية، يُرسف بلا تغيير دستة أو ما مثلها بالسلاسل الإضافية، ويأمر بالجميع ليودَعوا أم حجر. إن دجاجة ضعيفة محترقة، أو حمامة، تكلف قليلاً من الدولارات من أجل التوبة، وكذلك المعاناة من السلاسل الإضافية ورعب أم حجر فى الليالى، كانت



كاترينا

مما يُنّصح به لجعل إدريس منتظراً لأيام كدليل على التوبة، حتى يؤمن هو، ويؤمن رجال الخليفة الحضور، أن بعض الصعوبة قد إختبرت لجمع الدولارات القليلة التى يجب عليك دفعها.

كان طعامنا المألوف هو "العصيدة" من ذُرَة السودان، وهى عجين مطحون إلى حد ما، وممزوج إلى معجون كثيف، يُحس ويتذوق فى الفم كأنه نشارة الخشب. وما كان وجبة مغذية جداً، ولكنها كانت ثقيلة، وتمكث طويلاً معينة على آلام وعض الجوع. وقد يجنى طعم بترك كمية منها ليوم أو يومين حتى تختمر. وأحياناً، لا غير، فإن مخلوطاً يُصنع من سحق بذور نبات البامية، ويسمى "مُلاح"، يمكن إستحصاله، وهذا، مع العصيدة المختمرة، مائدة أصلية. إن الأصدقاء فى المدينة يرسلون لنا، عندما يستطيعون صنعه أو شراءه، خبزاً من القمح قليلاً، وقطعة من الجبن أو الزبدة، وحبات من القهوة.

بين الأسرى الكثيرين فى أم درمان الذين فعلوا من أجلى الكثير، يقف بارزاً الأب أوهرولدر، والسيدة الإغريقية العجوز، كاترينا - وكانت ملاكاً من الرحمة للسجناء والأسرى على السواء - والسيد ترامبا وزوجته فيكتوريا، وناحوم عباجى، ويوسف جبالى. أكيد أن ملاك الحساب قد وضع على اليمين الحيل الصغيرة التى مارسها الأب أوهرولدر ليجد سبيله إلى السجن، عندما لم تكن القروش القليلة التى يستخدمها للبقشيش كافية لإشباع جشع الحراس، حتى يحضر لى بعضاً من الأشياء الفاخرة، والله يعلم إنه كان يُحضر لشخصى نصيب الأسد مما كان هو فى أمس الحاجة إليه. وفى وقت ما كان يقدم نفسه فى البوابة على أنه "عيان خلاص" (أى مريضاً على شفا الهلاك)، وبالطبع يرغب فى رؤيتى لآخر مرة قبل فنائه. وفى مرة أخرى يدّعى أنه سمع أننى أموت، ومن ثم فهو يرغب فى مشاهدتى؛ وتأتى التغييرات من مجيئه بذريعة أنه يود مشاهدة سجين آخر. وبرأس محنى وظهر مقوس، مبالغاً فى حالة ضعفه آنذاك، يزحف نحوى، يجر قدماً وراء الأخرى، ومتى بلغنى، يجلس على الأرض ويؤرجح جسمه على الأجناب - مسرحية صامته تمكن من تمريرة خلسة لى الأشياء الفاخرة التى يكون قد أودعها حقيبة الجلد القديمة المعلقة من فوق كتفه الأيسر. وقتاً وراء الآخر يُبعد من الحراس، ويتم هذا أيضاً بعد أن يكون قد دفع البقشيش؛ ولكن مثابرته أمنّت له رؤيتى مرة أو مرتين فى الشهر خلال سنواتى الثلاث فى السجن، ومنحتنى قصاصات الأنباء التى يجئ بها من العالم الخارجى - أخباراً لكل منا، لسنة أو سنتين ماضيتين - شيئا أفكر فيه وأُقلبها فى عقلى حتى زيارته القادمة. إننى لا أخشى الموت، أخبرت الأب أوهرولدر، ولكن خوفى الأعظم هو الجنون.

وفى معظم الأحيان، عندما يؤذن لى بالنوم فى الهواء الطلق فى الليل، بدلاً عن تعريضى لكل رعب المبيت فى الزنزانة العمومية، يرسلنى هواء الليل البادر فى نوم عميق، أستيقظ بعده على حلم مضطرب بالأيام الماضية، وناظراً إلى السماء، أعجب لنفسى، بين اليقظة والمنام، ماذا كان الحلم وما هى الحقيقة، المناظر القديمة المحبوبة، أم سجن الساير فى أم درمان. وللحظات أظل خائفاً من النظر حولى على الرجال الموثوقين بالسلاسل على جانبىّ، وعندما أملك الشجاعة لذلك، وأحس بثقل الحديد والأغلال الثقيلة بقطع رجلى، وهى التى تعصب مجموعتنا البالغة أربعين أو خمسين معاً، أتخيل لكم من الوقت سيستغرق الأمر قبل أن يسقط تحت تأثير التوتر الضاغط الخيط الرفيع الذى يحول بين رشدى والجنون.

إن كون عقلى لم يبارحنى خلال فترة سجنى الأولى، لا أجد إزاءه سوى أن أشكر الأب أوهرولدر والأصدقاء المذكورين. لقد خاطر كل واحد منهم بحريته أو حريتها النسبية، إن لم يكن بالحياة، لإعانتى. وحتى أثناء الليالى الرديئة فى أم حجر عندما يتحدى الجحيم نفسه ليواكب مثل ذلك المشهد، عندما يتبختر الجنون مع الموت يداً فى يد ما بين الكتلة الملتحمة وهى تتصارع، وعندما، كنت مدفوساً مقيد الوثاق مع عدد من أكثر السجناء تعصباً، حاربت وناضلت، وعضيت وضربت، كما فعلوا هم من أجل البقاء على قيد الحياة، أبقت فكرة وجود أصدقاء فى البلاء، يقاسون يكادوا مثلما

أقاسيه أنا، على ذلك الخيط الرفيع وحالت دون سقوطه؛ ولكن التوتر العقلى سبّب لى أكثر الصداعات عنفاً وعرضنى لفترات من فقدان الذاكرة، ولا أزال أعانى من تواترها أحياناً. ولكن ما تبدى خلال المجاعة أن الإحسان المسيحى - والأكثر من المسيحى - الصادر من أصدقائى إختُبر بأشد الإختبارات ولم يتساقط أبداً. كان الطعام فاحش الأثمان، ولكن، يوماً بعد يوم، أحضرت كاترينا حفنتها من الذرة أو خبز القمح؛ وفى كل يوم يرسل يوسف جبالى قطعاً من الخبز، غير آبهٍ بمقدار ما يسرقه الحراس، بشرط أن أجد أنا لقمةً منه.

إن كل الغذاء المبعوث للسجناء، لا يصلهم بالطبع؛ والقليل الذى يجتاز بوابات الساير يصير هدفاً للصراع؛ فهؤلاء الذين يقيدون بسلاسل طويلة، أو قضبان، تربط ما بين الحلقات بأرجلهم يحظون بأفضل الفرص فى السباق من أجل الطعام، لأنهم يستطيعون أن يمشوا بخطى واسعة. ولولا أنها كانت تئز ظروف أخرى، لربما قدمت المشاهد موضع الحديث تسلية لا حد لها للمشاهدين، لأنها تحوى كل العناصر عدا مشهداً للسباق حول جوال، ورياضة بلد عتيق (*). وبرؤية ثلاثين أو أربعين من الهياكل الحية المقيدة، وهى تقفز بقدر ما يسمح لها وزن القيود وقوتها، فستعلم، إنه هو الضعف الذى أحدثته المجاعة ذلك الذى أسقطهم. هنالك ينطرح حيثما سقط، مستسلماً لليأس، بينما الذين بلغوا أى رسول يحمل طعاماً، بدلاً عن مقاومة الضربات التى ينهال بها عليهم الحراس بالكرباج، يكاد يتبين أنهم مسرورين من الجروح التى تفتحها تلك الضربات، لعلهم يمسحون على جروحهم بأيديهم ويلعقون الدم من أصابعهم. ما هذه الصورة بمبالغة - ولكنها أقل مما تحتويه بالفعل؛ ولكننى نُصحت بأن أحذف تفاصيل دقيقة ومشاهد أخرى، لأنها تجلب الرعب بلا مبرر.

لقد سمعنا أن أكل لحوم البشر مارسه الناس فى هذه المدينة، ولم يقع من ذلك شئ فى السجن؛ ففى الساير، عندمايأخذ اليأس المتولد بالجوع والقسوة أحد السجناء، فإنه يرقد وينتظر الموت؛ وهو لا يرفض طعاماً إذا قُدم له، ولكنه إذا أُعطى ماءاً دون طعام، فإنها ترفض. يوما بعد يوم لأشهر، يُقذف بأجساد لثمانية أو عشرة سجناء إلى جوف النيل، ولابد أن آلافاً لقوا حتفهم فى الساير. إن سكان السجن كانوا يحفظون دائماً عدداً، بسبب الأمد المتواصل فى كل ساعة من التعساء الجوعى المحاكمين لمحاولتهم سرقة الطعام فى السوق، ومن هؤلاء كان ينبعث القتال من أجل الطعام أساساً فى السجن. ويمكن تخيل كيف أن أكثر مخلوق متمدن يمكن أن يُدفع للجنون واليأس عندما يحاول أن يسرق قطعةً من الغذاء، ربما لنفسه، أو ربما لطفل يموت، ثم هاهو يدان فى سجن شرقى، وهنالك، بينما يأخذونه للسنديان، يتم جر جسد آخر ضحية من ضحايا الجوع حتى تنزع منه القيود ليوثق بها هو. لقد حدث ذلك ليس مرتين، ولا عشرات المرات، إنما مئات المرات فى سجن الساير خلال تلك المجاعة المريعة.

وبعد أن أُلقى بخادمتى حُسنيه عدداً من المرات أرضاً، والتهم الطعام الذى أحضرته لى السجناء الجائعون، قمنا بضربهم مضطرين. وبشرائها جلد غزال، علقته على معصم يدها، تحت لباسها، وتركته متدلياً بين ركبتيها؛ كان طعامى يودع هكذا، ولكن حُسنيه كانت تحمل، تعمية أو طعماً، قليلاً من الطعام فى يديها. وكانوا ينقّضون عليه، وهنا ترفع حُسنيه عقيرتها بالصريخ، بما لها من رئتين صحيحتين على نحو ما اكتشفه والنجومى أول ما قابلها. وقد سهل لها ذلك طريقاً صافياً لى، وكانت تنتظر الفرصة الملائمة لترمى بجلد الغزال بجوارى.

لا يجب أن يعتقد أحد مما تقدم ذكره أن السجناء لم تكن لهم أحاسيس تجاه بعضهم البعض، ونحو الذين كان موقفهم سيئاً فى أمر الطعام أكثر من البعض الآخر. كانت هنالك صدقة تبدى من ناحية هؤلاء المتعصبين غير المتحضرين، الذين يكادوا أن يكونوا متوحشين، أكثر مما يظهر دائماً فى الأماكن الأكثر تمدناً. إن محمد ود سعيد، طالما أن ملكيته البسيطة ظلت باقية، باع أجزاءاً منها

يوماً منّ بعد يوم، وقد أرسل إلى السجن لرفقائه المساكين "قدحا" كبيراً من العصيدة واللبن، ليلاً ونهاراً، وهذا وفر لثلاثين إلى أربعين سجيناً وجبة فى كل يوم؛ وهنالك آخرون تقاسموا مع أصدقائهم الذين يقلون عنهم حظاً ما لديهم من طعام قليل. وقد رأيتها بَيّنة أن إحسانى للسجناء الآخرين خلق إنطباعاً طيباً للغاية؛ ولكن، مع ذلك، كيف كيف يكون لى، وأنا الأبيض والمسيحى الوحيد فى السجن - ولهذا الغرض، المسيحى الوحيد البارز فى السودان - ألا أجاهد لأُظهر شيئاً يسيراً من نكران الذات والتصدق والعطف القلبى أكثر مما أظهره هؤلاء المتعصبة لى؟(*)

الفصل العاشر

العدالة السجنية

ما خطّيته آنفا فى شأن تأريخ النبى خضر سوف يساعد القارئ، فى المذكرات التالية عن حياة السجن، على تفهم أفضل عن الكيفية التى كانت تجرى بها الخديعة المتبادلة والواضحة حين يتبادلها الخليفة والحراس كما سنبين هنا. ولسوف يتذكر أن الخليفة، إتباعاً بالمهدى قدوة، إدّعى أن النبى خضر كان نبيه ورسوله الدائم – نوعاً من المركورى(*) الحديث وسط السودانيين؛ وبالتالى الحيل الخادعة المتبادلة، ولكنها غير معترف بها، التى ربما كانت ممارسةً من الخليفة وأتباعه حيال بعضهم البعض، ودائماً ما كانت على هذا الإشتراط: بما أن الخليفة يتملك قوة الحياة والموت، وكانت كلمته مطلقة، لا يجرؤ أحد، ولو إيحاءاً، على أن يتضمن حديثه أنه بأى شكل من الأشكال خدع أو غش عبدالله، وإلا فإن النبى خضر سوف لا يستريح إلى قناعة حتى يكون من نُصِّب عليه قد إنتقصت قامته رأسها.

ولما صارت حالات الهروب العديد من زريته الساير مُضغَةً فى الأفواه وما عاد ممكناً إخفاؤها، أمر عبدالله ببناء حائط فى مكان الزريبة الشوكاء، ومؤخراً، للتخلص من إقتضاء السجناء الذهاب لضفاف النيل لماء الشرب والإغتسال، حُفرت بئر لتوفير الماء المصفّى للأغراض المذكورة(*). وحتى الوقت الذى أُمر فيه بإنجاز هذه الأعمال، وُظف السجناء أساساً فى بناء منازل من الطوب اللبن للحراس؛ ولما أُكملت هذه، كان علينا أن نهتم بعمل بعض الواجبات الأسرية رعاية الأطفال، والخراف، والأغنام، ونقل الماء من النيل. ومن بين كل المهام الملقاه على عاتق المسجونين، كانت المهام الأسرية هى الأكثر مدعاة للإنشراح أو، فى كل الحالات، الأقل مرارة. وكان معظم الحراس قادرين على الإحتفاظ بمنشأة كبيرة مما يجنونه من بقشيش ومكاسب حرام، ولكن مع العدد المتضاعف من الزوجات أو العشيقات وقعت نتائج طبيعية للغاية – مشاحنات البيوت ومصادماتها، التى تحصد فيها زوجة أو عشيقة حصاد السوء، وهيأ ذلك للسجين الصاحى الموكلة له واجبات البيت فرصته. فلسوف يرصد أى عشيقة "أُبعدت"، أو أى واحدة كانت جمهرة النسوة يغرن منها، وفى أيام قليلة، نتيجة لإنتباهه وهو يحمل آنيتها وعدة طهيها، ويجلب لها الماء عدة مرات فى اليوم، كما تشتهى، يئن شاكياً فى أذنيها المواسية من مصيرهما معا، محاولاً أن يحضّها على أن ما تحملته كان أشد رداءة من سجنه وقيوده. إن الحقيقة القديمة الماثلة " بأن الشفقة توءام المحبة" تمارس على حد السواء تحت البشرة الغبراء لفتاة سودانية كما تمارس تحت البشرة البيضاء لشقيقتها الأوروبية، وسريعاً جداً يُنضج الزوج خططاً لهروبهما كعاشقين. والمشقة الرئيسة هى إزاحة قيود الرجل وتحقيق هروب سريع إلى قرية ما بعيدة؛ ولكن سيدات السودان لسن، ولو بمقدار ذرة صغيرة، متخلفات عن حيوية النساء، وهن يقابلن وجهاً لوجه الإستحالات البادية. فإذا عجزت إمرأة عن تدبير هروب منتظم، فإنها ستهيئ مكاناً آمناً للإختباء فى أم درمان نفسها. إنها ستتخذ كل الإجراءات، ولم أسمع أبداً عن فشل فى مثل تلك الخطط.

فى كل شهر ترفع لعبد الله قائمة بأسماء السجناء فى الساير، وعرضاً لتقدمهم فى "التعليم"، مصحوبة بتوصيات للإفراج عن مسجونين معينين، وكل شهر متآلفاً مع إعداد هذه القائمة، يكون سجين غائباً من مكانه المعهود فى تلك الليلة والصباح التالى – وللأبد بعده؛ وهكذا كانت تجرى رومانسيات السودان. أما الخراف والمعز فكانت تختفى عن الأنظار بلا حساب. وفيما تحدث هذه الوقائع فى وقت قريب من المغيب، تنطلق العشيقة مع السجين المقيد لإحضار الحيوانات الضائعة فى نفس الوقت الذى يكون فيه مالكها وسيدها فى زحمة أداء واجباته الرسمية وقفل السجناء فى أم حجر. وعند مناداته داره، لا يثير الغياب الموقوت إلا شبهة قليلة أو عديمة، ولكن مع مضى الساعات

تزداد الشّكوك، وإذا لم تجد الخراف والأغنام طريقها للعودة فى الصباح التالى أو الليلة عينها، لا يوجد أمام الحارس طريق لدرء هذا الإبتلاء سوى أن يقدم تقريراً محبذاً عن سلوك السجين الهارب، بأمل أن يصدر أمر بإفراجه من الخليفة. وليقر أنه كان هارباً فى حين أنه وُظف فى رعاية الخراف والأغنام فمعنى ذلك أن يعرض رأس الحارس للخطر بلا تحفظ، ويعلم العاشقان الهاربان كل ذلك تمام العلم. وما أن يحدث قرار الإفراج، حتى يظهر الزوج السعيد نفسيهما أمام القاضى ليتزوجا زواجاً حالياً - فالفتاة السودانية يحوزها زوج، دون وجود زوجات أو عشيقات يقلقنها فى البيت، وزوجها حر من القيود التى كانت عليه. حقاً لربما يطلق زوجته فى نفس اليوم إذا أراد ذلك، ولكنه آنذاك يكون قد حقق مقصده كما حققته هى - فقد تخلصا كلاهما من الحارس، الذى يعلمان أنه لن يجسر على رفع أى قضية بحقهما بأمل أن يُدان أحدهما أو الآخر ثانيةً بالسجن، لأنه متى أطلق صراح سجين بأمر الخليفة، لا يعاد سجنه إلا بأمره. أضف إلى ذلك، أنه إذا ذكر أحد الإثنين ما حدث بالفعل، فالحارس نفسه، الذى خدع الخليفة بتقرير عن حسن السلوك "والتعليم"، سيرسل إلى السجن بلا مرآء، أو إلى المشنقة.

لقد كنت سجيناً مهماً للغاية لأجعل هروبى ممكناً بمثل هذه الأساليب السعيدة نحو ما وصفت بأعلاه. وكان أملى الوحيد يكمن فى الأهالى الموثوق بهم والإبل الخفاف التى تسبق المطاردين. وقد حسدت دائماً رفقائى بالسجن الذين قاموا بتبديل وثاق العبودية نظير رابطة الزواج، لأن أعداداً منهم جاءت لترانى بعد "الإفراج عنى"، ولكننى أنأى بتفكيرى هلعاً عما كان يكون لو أطلق صراحى بأوامر الخليفة؛ لأنه طبقاً للمثل المأثور إن الرجل الغريق يتمسك بقشة، لربما كنت قد وعدت بالزواج عشرات من جميلات السودان (؟) فى حالة قيامهن بأى شئ نحو استرجاء أسيادهن أو الخليفة للإفراج عنى، ومن الجازم أننى بالإفراج عنى لكنت قد قابلت فى أبواب السجن حشداً يطالب كله بذلك الشرف، هتافاً.

على أنه يجب أن أشرح كيف جرى الحال عندما صادفت نفسى فى إحتكاك مباشر مع حريم الحرس. لقد كنت درست علم وظائف الأعضاء والطب فى كونيقسبرج وليبزج، والأهالى يدعوننى دائما فى مصر العليا، قبل أن يصير المكان شهيراً بالنسبة لجمهرة المسافرين كما هو الآن، وفى غياب الأطباء، لرعايتهم فى حالة المرض أو الحوادث. إن ممارستى التى كانت مجانية، كانت كبيرة، وسرعان ما أضحيت "حكيم باشا" (مسئولاً طبياً كبيراً). إن سمعتي، إن لم تكن سابقةً لى، قد صحبتنى إلى أم درمان عندما تم أسرى، على الأقل، وبذلك كنت مطلوباً بإستمرار فى قسم حريم الحراس، أقوم بزيارات "مهنية" تتراوح ما بين حالات تقتضى مثول أمر عاجل أمام الخليفة إلى أكثر الشكاوى تفاهة وأحياناً تخيلاً. وطالما كانت النسوة يألمن، كانت حياتى محتملة، لأننى كنت قادراً على الجلوس والتحادث معهن ثرثرة لساعات، منتظراً لأرى نتيجة العلاجات المصنوعة، بالنسبة لى، من أعشاب وجذور مجهولة، وذات خصائص كنت أجهل حقيقتها؛ ولكن النتائج كانت دائماً مرضية. إن الدواء أو الكيماويات التى صادفت لها قيمة فى مخازن بيت المال كان مادة برمانقانيت البوتاس القلوية، وقد إكتشفت بسرعة أن بنية السودان إستدعت إستخدامها فى شكل مالح بلورى وليس كسائل. وآثارها، كما يمكن تخيله، كانت سريعة، ومع أن قرائى من السلك الطبى ربما يميلون إلى الإرتياب فى هذه العبارة، فإن النتائج كانت مرضية بإتقان لكل من المرضى ولنفسى.

من مناسبة لأخرى، يتم إبتعاثى لحضور ما يستوجب رعاية شخص ما فى سجن النساء، الذى كان يقع على مسافة قريبة من ساير إدريس. إشتمل سجن النساء على زنزانة عمومية وزريبة خفيفة، من خلالها يمكن للمستطلع أن يصوب أنظاره على النساء وهن يرقدن على الأرض فى الشمس نهاراً، قضاءاً لأول مدتهن من العقوبة. ومعظم النسوة السجينة كن رقيقاً مقفولات بإدعاءٍ ما أو آخر لمنع هروبهن. وربما أن سيدهن كان يحضر للسفر للتجارة التى تستغرقه أسابيع، وربما أشهراً. إن أبسط

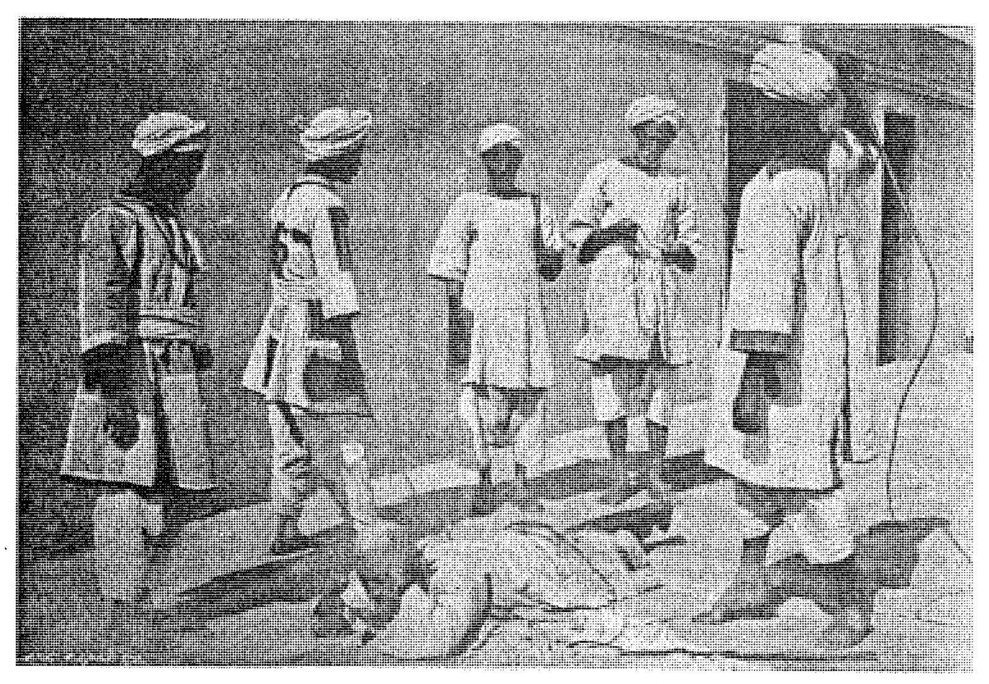
طريق لمنع ملكيته من الهروب أثناء غيابه هى أن يدس إتهاما ما ضدها، ويحبسها، مع علمه أن الإفراج عنها ربما لا يتم حتى رجوعه وطلبه لها. ولأنها فى هذا الأثناء لابد أن تطعم على حسابه، وتمنح خدماتها مجانا لبيت أحد الحراس، كان هو متأكداً على قدم المساواة أن الحارس لن يكون حريصاً على تأمين الإفراج عنها.

يُزَج بالنساء المتزوجات فى السجن على كل أنواع الجرائم، بدءاً بالشك فى الخيانة الزوجية إلى الإدلاء بخطب من وراء حجاب. وكانت النساء السجينة تلبس سلاسل خفيفة تصل كعوب أرجلهن. والإتهام بخيانة "غير مثبتة"، كما عند الإسكتلنديين، تتبعه عقوبة السجن والجلد ثلاثمائة جلدة بالكرباج، وعندما تشفى المرأة منها، ترسل إلى دار واحد من الحراس لتصبح خادمة الجميع، لكل واحدة بالبيت، ولكل العمل؛ وسيكون واجباً عليها أن تسخن الذرة، وترعى الأطفال، وتنقل الماء، وتساق رقيقاً ليلاً ونهاراً لأسابيع. إن السيدة "كودل" [إمرأةٌ مشاغبة] تُضرب من خمسين إلى ثمانين جلدة، وهى كذلك عند شفائها تبعث لواحدة من حريمات الحراس لتعمل بشدة كمثل رفيقتها فى البؤس التى قد تكون بريئة ولكنها تجازت بعقاب أغلظ. وبعد أسابيع من تلقى هذه المعاملة تعاد النساء إلى بيوتهن وهن معالجات تماماً من الأخطاء التى سُجِّن من أجلها للإصلاح إلى جانب أن قصة ممارساتهن تكون قد أحدثت أثراً رادعاً للنشء أمثال السيدة كوديل والأخريات.

كان إفراغ القوارب هو أقسى عمل نلزم به، وكنا نبقى فيه إلى مستوى علامة الجلد الموجودة دوما؛ لربما نرهق ونمرض عندما نستطيع تقديم ترف الدفع نظير الشكوى، لأن هذا العمل كان أكثر الأعمال أربحية لحراسنا؛ فإما أن نعمل، وإما أن ندفع معادلاً يبلغ أضعاف عملنا. لقد كان موصولاً بتفريغ القوارب، وهو أيضاً لما كنت أستعيد صحتى ببطء من مهاجمة حمى التيفود بعد وفاة أحمد نور الدين أننى إستقبلت أول جلد أصابنى. فقد ضايقنى حارس مُلّحاً فى طلب المال، ولما كنت لا أملك منه شيئاً يُعطى، أمرنى بالعمل الإستعبادى عند تفريغ القوارب. إن الطريق الوحيد لإظهار الرفض الحقيقى كان الجلوس على الأرض، وقد فعلته، فشرع فى سحبى نحو بوابة الساير. وهنا نهضت على قدمىّ وأسقطته، بلكمة، على قدميه. ركض إلى إدريس الساير، وأخبره بحكايته، وبتقدم إدريس نحوى أمرنى بالقيام - لأننى عدت للجلوس - وبالمعاونة فى تفريغ القوارب. رفضت، واتهمت الحارس بمحاولة إبتزاز الأموال منى. وهنا ضربنى إدريس "بالسفروق" (وهو أداة للرمى تناظر بالتقريب الأداة الخشبية الأسترالية - وتستخدمها قبائل السودان بالضبط لأغراض مماثلة)؛ إن الضربة التى سددها هشمت السفروق وأطاحت بصوابى، ولما كنت واعياً إلى حد ما قُلبت على بطنى وأُدنت بخمسمائة جلدة تلقيتها هناك فى ساعتها.

لقد جلدت فقط ستين أو سبعين، كما أخطرت؛ أما الباقى فلم يطبق، لإعتقادهم إننى مت، وبالتالى لقيت حالتى تخوفا مُفزعاً. لقد حُملت إلى مكانى فى الزنزانة، فى حين بدأ إدريس يبرئ ساحته لدى السجناء الآخرين، ويشرح أنها كلها من عمل الحارس الشاب. إن إدريس كان يعلم ما يعنيه الأمر له إذا جلدت حتى الموت، ولأنه إعتقد إننى لن أشفى، قرر، عندما تبين شفائى بالفعل، أن يسوى الحساب مع الحارس الذى كان مسئولاً عن خوفه فى المقام الأول، وعن تنازله للسجناء الآخرين فى اللحظة التى كان يفكر فيها أن هناك مبررات لذلك.

سنحت فرصته بعد وقت قصير لاحقاً، لمّا اخترع نفس الحارس عذراً لجلدى. وكنت قد إشتريت من أحد الحراس كوخاً طينياً صغيراً، بضعة أقدام مربعة، فى حوش السجن، وتلقيت إذناً من إدريس الساير لأنام فيها ليلاً بدلاً من أم حجر. إن هذا الحارس الصغير - وحراس آخرين - تقبل البقشيش من سجناء للسماح لهم بالنوم فى الساحة. وفى ليلة نام خلالها عدد أكبر من المعتاد خارج أم حجر، ظهر فجأة فى ساحة السجن. وما كان أمام حراسنا شئ سوى التظاهر بأن السجناء كانوا غير خاضعين، ورفضوا الدخول لأم حجر، وأن ينهالوا عليهم بسيطانهم. ولعدم إلمام الحارس



الجلــد بأمــر الخليفــة

اليافع بأننى دفعت البقشيش اللازم لإدريس، سار مباشرةً إلى كوخى، وسحبنى منه للخارج، وجلدنى على باب الزنزانة العمومية، مسافةً، ربما، تصل إلى أربعين أو خمسين ياردة، ولكن جبتى الكثيفة حالت دون أن تصيبنى الضربات بأكثر من إلتهاب الجلد؛ ومع ذلك، أثّر ذلك على صحتى المتلاشية، فسقطت مريضاً مرة أخرى. بلغت الحالة آذان الخليفة عبر إدريس، أو النبى خضر، وكان لى الرضاء الكبير برؤية جلادى مطروداً من وظيفته المربحة معرضاً لمائتى جلدة حكم بها، ثم مبعوثاً كسجين بالأغلال ليعمل فى نفس القوارب، التى كان قد جلدنى لرفضى المعاونة فى تفريغها. إن هذا، فى اللحظة الراهنة، هو قطعة العدالة الحقيقية الوحيدة التى يمكننى تذكرها طوال إثنى عشر عاماً فى الأسر.

فى فصل سابق قدمت وصفاً خفيفاً للجلد كما رأيته يمارس أول ما أُسرت من قبل الدراويش؛ ولكن الجلد فى السايرِ كان شيئاً مختلفاً. إن العدد الأقصى للجلدات المأمور بها أبداً كان ألف جلدة، وهذا العدد كان كثيراً ما ينفذ بالفعل، ولكن فى كل حالة كانت الجلدات تضرب فوق الثياب. فقواعد الجلد كانت على العموم كالآتى: المائتى جلدة الأولى توقع على الظهر تحت منطقة العمود الفقرى، والمائة الثالثة والرابعة على الأكتاف، والخامسة على الصدر. وعندما يؤمر بالعقوبة الأقصى، الألف جلدة، كانت توقع على نفس الأجزاء مثل المائتى جلدة الأولى، وكانت تلك العقوبة يلجأ إليها لغرض إنتزاع الإعترافات. وبعد ثمانين أو مائة جلدة، تتقطع الجبة رقعاً، وسرعان ما تتشبع بدماء الضحية؛ وبينا يكون أثر الجلد من فردٍ ما غير عظيم بمثلها يكون من سوط له تسعة أذناب، فإن العدد المقرر يبلغ كماً ما قد يكون مُفتقداً كيفاً، على نحو ما تشهد به الأعداد الكبيرة من الأشخاص الذين يموتون تحت وقع العقوبة أو نتيجةً لإنزالها فيما بعد.

فى مناسبة بُعِّث لى جندى أسود عجوز كان بالجيش المصرى، وإسمه محمد عجمى، وكان موظفاً كعّداء (راكض بالأقدام – لو جاز لى أن أخترع التعبير – للخليفة فى أيام العمل الميدانى)، حينما كنت فى السجن لأعالجه من آثار الجلد. وكان بطريقة ما قد إستجلب سخط شيخ الدين عليه، وهو ابن الخليفة، وبواسطته حُكم عليه بالجلد العلنى وزُج به فى السايرِ "ليتعلم". نُقل إلىّ فى السجن بعد جلده. وكان الجزء الملحم من ظهره ممزقاً إرباً، وكذلك برزت عظام المؤخرة. ولستة أو ثمانية أسابيع شغلت دواماً بغسل جروح هذا الرجل بمحلول مخفف من حامض الكاربوليك، وقد بعث لى شيخ الدين نفسه ببلورات الكاربوليك لهذا الغرض، لأن أباه، الخليفة، وهو غيور على سلطته، وَرّع إبنه، قائلاً له، كما كان يقول دائماً للآخرين، "إن أصبعى شاركنى فى ملكى، أنا أقطعه".(*) شفى عجمى، وكان يحضر ليرانى دائما فى السجن مُعبّراً عن عرفانه. وسُرّ شيخ الدين نفسه سروراً عظيماً بشفاء الرجل حتى إنه توسل لوالده ليفرج عنى، لأباشر فن العلاج وسط الأنصار، وأُدّرسه لآخرين؛ ولكن الخليفة كان عنيداً، ورفض، وأسباب رفضه الإفراج عنى من الأفضل أن أتركها ليحكيها بعض رفقائى الأسرى.

جلدى للمرة الثالثة تلقيته تحت الظروف التالية. بعد أن صَدّق لى إدريس السايرِ بالبقاء فى بيتى البائس، الطينى، بدلاً من قضاء الليالى في أم حجر، ولإحساسى بالطمأنينة لحريتى نسبياً وأمّنى من أتاوات الحراس الآخرين، لأننى نفحت إدريس بالبقشيش الكثير، رفضت فى حزم أن أدفع أتاوة جديدة لأكثر مما دفعت. إن حارسى المخطوب، وهو لا يَقْدِم على أن يأمرنى بالدخول فى أم حجر، بعد ما وقع لحارسى السابق، ذهب خطوةً أبعد مدى، ورفض أن يسمح لى بمغادرة كوخى الطينى إلى أى مكان لأى غرض مهما كان. أصّريت أن يُسمح لى بالذهاب لمكان الإغتسال – حوالى مائة ياردة بعداً – ولرفض طلبى، بدأت فى الذهاب، وأنا أتلقى ضربة بالكرباج على كل خطوة أخطوها. وكنت عاجزاً بسبب قيودى الثقيلة، ولم أتمكن من اللحاق بجلادى لأنه كان يقفز عنى كلما اقتربت منه اقتراباً لا يزيد عن طول القضبان التى تصل ما بين رجلىّ، وكان طولها خمس عشرة بوصة. فى هذه

المناسبة، وكانت مساءاً كذلك، زار إدريس السايز السجن زيارة مُباغتة، ليرى عدد السجناء "غير المصرح لهم" بالنوم خارج أم حجر، واجتاحه غضب هائل من هول العدد الذى اكتشفه، فأمر بكل من كان خارجها، بلا أى إستثناء، ليجلد.

كان نصيبى أنا وعشرين آخرين مائة وخمسين جلدة - وجلدت هذا العدد، على الأقل؛ وأعرب آخرون عن إقلاعهم عن ذلك بالصياح بعد عشرين أو ثلاثين ضربة. لقد قبضت على أسنانى بالمقابل وعضضت شفاهى لأمنع أى صيحة ألم من الهروب، دائماً ما كنت أُسأل، "ألا تصرخ؟ ألا يزال رأسك وقلبك مثل الحديد الأسود؟" وكلما ذَكّرونى بالشجاعة التى أعرضها، أجد الأسباب لعدم الإمتثال أو الإنهيار. ولكن العذاب العقلى كان مُشتّطاً، أكثر إخافة من عقوبة الجلد. ها أنذا الآن، أوروبى بروسى، رجل قاتل مع القوات البريطانية ما تمخض عن كونه "متأخراً للغاية" من حملة لإنقاذ غوردون، الآن أرسف فى أغلال الطاغية وأتباعه المرمدون(*)، الذين لا يعصون له أمراً، وكنا نأمل فى إنقاذ غوردون منهم؛ أبيض ومسيحى - الوحيد الذى يأخذ بالمسيحية - مقيد وعاجز، أُجلد من أسود، أسيراً كان ورقيقاً مثلى أنا، ومع ذلك فهو رئيسى وسيدى. إن المستحيل على أى واحد لم يجتاز مثل هذه التجربة أن يُقّدر عذاباتى العقلية التى احتملتها متألماً .

لربما كنت قوى الإرادة وعنيد الرأس؛ إننى ربما، إذا رغبت أنت فى ذلك، تصرفت بغباء فى تحدياتى الدائمة للخليفة وتعاليم المهدى؛ ولكننى الآن، وأنا أنظر للماضى مستعرضاً تلك الأزمة الرديئة، فإننى أحس بالإقتناع أنه لو كان غوردون المسكين حياً، فلعل تصرفاتى كانت تجد منه ثناءاً، لأن الإحتفال بالديانة المحمدية أو ملاحظة إتباعها كان يُجرى على بالقوة، بعد هروب روسجنولى. إن الموت، بأى هيئة جاء، لربما كان يجئ كزائر مرغوب بالنسبة لى؛ وفى حين كنت أبذل كل ما فى طاقتى لأدفع زبانيتى لقتلى، كان هناك شئ ما - الأمل، الشجاعة، التعلق بالحياة، الإعتزاز بجنسى، أو الإستبسال الشخصى تحدياً لهم حتى النهاية - يكبح جماحى دون أن أخمد أنفاسى بنفسى، مع أن السماء تعلم أنه، لو كان لإنسان عذر مقبول لعمل ذلك، فقد كنت أنا ذلك الإنسان. ولكن مسلكى أُخذ به الخليفة حتى إنه أخبر ود النجومى، الذى سأل عن إطلاق سراحى حتى أصحبه لدنقلا "كى أفتح التجارة"، وكلم كثيرين غيره فيما بعد،" لن أفرج عن نيوفلد، ولكننى لن أقتله". ودواماً، وهو يتحدث عنى للآخرين، حيث كنت لم أتحول بعد عن دينى، يحذف الخليفة إسم "عبدالله" الذى مُنحت إياه، ويتكلم عنى على أنى "كافر" - النطق العربى لنيوفلد.

الفصل الحادى عشر
ورطة خطيرة

وأنا أكتب تنطرح أمامى ثلاث فقرات متتابعة مقتطفة من إصدار حديث فى صحيفة لندنية. قصد بهذه الفقرات أن تسلى قرآءهم، ولا شك أنها فعلت، ولكنها تفتقر ألى الدقة. لقد أكدت أن إحدى البيانات الخاطئة يعود أصلها إلى تقرير إستُجمع من وصله بسرد الدليل للهروب الناجح للأب روسجنولى. إن الحقائق المرتبطة بذلك الهروب، ورفضى المسجل للهرب عندما توفرت الفرصة (؟)، وجدت طريقها مؤخرا فى قصتى. وفى هذه اللحظة سأقتنع نفسى بفقرة واحدة لا غيرها، وأكمل التفاصيل التى، مع إنها لا تصرف الأنظار عن عنصر المرح المتضمن بها، سوف تبين أن الفصل موضع الإشارة يحوى شيئاً من الأسى، إن لم يكن المأساة، بين جوانحه. وربما أن هذه الناحية لم تستبصر بسبب الحكاية التى دُونت فى مكتب يبعد ألفى ميل من مسرح الحادث، وربما يعود عدم الدقة إلى حقيقة أن الحكاية رواها واحد من الطبقة الكبيرة فى الشرق التى يتركز مجدها الأعظم عندما، يكون واحداً من أفرادها قد حصل بسبب المراس الدائم على مستوى معين من المقدرة الإختراعية وحمل الناس على تصديق ما يفتريه، ليثبت للعالم أن جنس قصاصى هارون الرشيد لم ينفد بعد. وليس هناك سوى شك قليل أن الدليل ووقيع إدريس، وربما آخرين، ستزيد تسليتهم، إن لم تصحبها دهشة صغيرة، إذا أُخطروا أن كل حكاياتهم قد تم تصديقها، فيما يبدو .

بإرسال خادمتى حُسنيه إلى حريم الخليفة فى مايو ١٨٨٧، حَصلتْ على إطلاق سراحها، أو صرفها، بإعلان إنها حامل طفلاً؛ وما كانت حاملاً. وفى نوفمبر ١٨٨٨، كانت حقيقة حاملاً، وما كان ممكناً إخفاء الأمر. ولأنها كانت رقيقا، ما كان فى وسع حُسنيه أن تتزوج زواجاً شرعياً، ولذلك فعندما صُرفت من حريم الخليفة، أُرسلت إلىّ كملكية تخصنى إلي حريم إدريس الساير، وفُرضت عليها، إضافة إلى شراء الطعام وإعداده، المهام المنزلية ونقل الرسائل للنساء بدار إدريس.

وكنت أعلم أن إدريس كان يشتهى حُسنيه، وبدا له أمر حملها طفلا سانحة طيبة لتأمينها لنفسه، لأنه فى الظروف العادية، عندما تكون المرأة رقيقا ويولد طفلها فى حريمه، يمكنه أن يطالب بالأبوة، حال حصول الأم والطفل على الحرية، وصيرورة الأم إلى زوجة. حادث حُسنيه فى الأمر، وأرسلها لمحادثتى فيه. عرضت الحالة على أصدقائى فى السجن، وبيّنوا أن إدريس أخطأ مطالعة الأمور، أو لم يفهمها تماماً، فالسورة الرابعة من القرآن، التى وحدها تبرر موقفه نحو حُسنيه فى حالة أننى أسير حرب، ويكون هو قد أسر حُسنيه فى الميدان. وتعقدت الأحوال أكثر بإعتراف حُسنيه لى أنه تكتنف الشكوك دماغها حول أبوة الطفل. وكانت بشرة حُسنيه نحاسية خفيفة؛ وكان إدريس أسوداً كآس الأسود. إن ما يعقل وحسب أن يتوقع أن الطفل عند ولادته سيعرض فى بشرته بيّنة على أبوته، وكان إهتداءاً بهذا الحساب أن حُسنيه أرادت أن تؤجل أى قرار علناً حتى يأتى الحدث. ولو اختارت أن تعلن إدريس أباً، وكذّب الطفل بعد ولادته بيانها، فسوف تصبح حياتها فى خطر؛ وقبل أن أواصل سردى للأحداث، مفصلاً تعقيدات حالة حُسنيه وعدم يقينها الذى دعا إليها نحو تلك النقطة الحساسة - ربما يستحسن الإشارة بإيجاز إلى واحد من المقومات الأخلاقية للقوانين التى سنها المهدى، لمساعدة القارئ على الوصول إلى تفهم أفضل للحالة المضطربة التى كنا عليها.

إن الرجل، وهو يتمتع آنفا بالعدد المحدد للزوجات الشرعية، يمكنه أن يزحم حريمه بأى عدد من الرقيق من النساء والعشيقات ما أمكنه إعالتهن أو ضبط مسلكهن، أما المرأة فكانت مقيدة بزوج أو سيد واحد. أما كل المخالفات للوصية السابقة من وصايانا العشر فكانت، إذا أُثبتت، تُتبع بالجلد فى حالة المرأة غير المتزوجة والرقيق، وبالرجم حتى الموت للمرأة المتزوجة؛ ولكن فى الحالة الأخيرة ذكراً، لا يمكن النطق بالحكم، ولا يمكن توقيع العقوبة، ما لم تعترف المرأة. إن حالات قليلة جداً من

الرجم وقعت، وكانت تلك الأيام الأولى للمهدى، عندما سادت العصبية الدينية.

لقد وصف الجلد من قبل. وعندما يراد تطبيق الرجم حتى الموت، تُنشأ حفرة فى الأرض، وتُدفن المرأة حتى عنقها فيها. وتقف الجمهرة مواجهة للضحية، على بعد خمس عشرة إلى عشرين ياردة، وبإشارة معينة يبدأ الرجم؛ ولكن لا يصح سوى القول أن السودانيين أنفسهم كانوا يكرهون القيام بدور فى ذلك الإعدام، ويخافونه. إن الأحجار التى تستعمل ليست لها، مفردة، القوة أو الوزن الكافى لإحداث الإغماء أو الموت، والمشهد الفظيع يتمثل فيما يبدو رأساً بلا جسد، يتلفت فى خور للأمام والخلف ومن جانب لآخر ليتفادى الحجارة المنهمرة عليه، ويتواصل هذا العذاب ساعة أو أكثر. وأحياناً، يندفع قريب أو صديق، بذريعة عدم تحكمه فى طبعه فيما يتعلق بإدانة المرأة أو شتمها، نحو رأسها بأحد الفؤوس الصغيرة التى يحملها السودانيون عادة، فينهى بذلك عذابها وشقائها فى الحال. وقبل مغيب الشمس، يأتى الأقارب والأصدقاء ليأخذوا الجسد ويمنحونه دفناً لائقا، لأن الروح طارت، مطهرة بدم المرأة، إلى العالم الآخر.

ولمعرفتها بمّغبة الإعتراف، يصير عجباً أن تعترف أى إمرأة أبداً بالذنب؛ والعدد الذى فعل ذلك قليل، بلا جدال. وفى واحدة من الثلاث حالات من الرجم حتى الموت فيما أعلمه، إنتُزع الإعتراف بالتعذيب، وفضلت المرأة المسكينة الموتة الرهيبة، المحققة قطعا، بحلول مغيب الشمس، بدلاً عن الموت الحائم حولها التى كانت تقاسيه يوماً بعد يوم. وكانت آلاف النسوة يتهمن بخرق هذه القاعدة الغريبة أو ما أمره المهدى، ولكن كل الإتهامات كانت تقريباً تقدم من نساء - وكل هذا، بدوره، كان يحدث بدافع الغيرة وحسي، وليس بسبب أى إحساس بالغضب من أجل الأخلاق.

يمكننى الآن أن أتابع سرد الورطة الخطيرة التى أوقعتنا فيها حُسنيه، بما فى ذلك هى نفسها. لقد أُبقيت فى القيود والحبس المشدد لتسعة عشر شهراً، وكنت تحت إشراف إدريس الساير بالذات؛ وخلال نفس الفترة كانت حُسنيه خادماً فى جناح حريمه، وتحت عهدته الكاملة. ولئن إدّعيت أبوة الطفل، فإن الإحتمالات هى أن إدريس كان سيقع فى المتاعب مع الخليفة - ؛ ولو إدعاها إدريس، فقد يصير رأسه فى خطر، لأن حز الرأس أو الشنق كان عقوبة مقررة للجانى من الذكور، وفى كل الأحوال كانت حُسنيه معرّضة للجلد أو الرجم حتى الموت. ومرة ثانية، فلو إدعيت أنا أبوة الطفل، وكانت هناك أسس معقولة بعد ولادته للإعتقاد أن الأبوة يجب أن ينظر لها بإتجاه ما مغاير، وكنت أعلم أنها يجب أن تكون كذلك؛ ففى هذه الحالة، وبينما إدريس سيُخلى نفسه من الأمر أمام الخليفة، فسيكون لزاماً عقابى لكذبى عليه، ويكون على حُسنيه ما عليها من أضرار، بلا تغيير.

قمت بتحريات خارجية عن حركات حُسنيه بينما كانت تذهب للسوق، والأشخاص الذين كانت تختلط بهم، أو تُبعث لتراهم؛ وبإرتضائى. نتجة لتحرياتى، أن الولادة المتوقعة سوف تكون مولوداً أخف فى لونه قليلاً من أمه، وبناءا على نصيحة رفقائى فى السجن، إدّعت أن المولود طفلى، وبذا أبعدت إدريس خارج الموضوع على أفضل ما كان يود. وكانت هنالك، فضلاً عما أشرت إليه آنفا، مخاطرة فى إدعائى الأبوة، ولكنها كانت تستحق العناء. إن الخليفة، الآن، كما أخبرنى أصدقائى، سوف يفرج عنى الآن قطعاً من السجن، لأن زوجتى وطفلى ضمان لحسن سلوكى إذا أفرج عنى، وكذلك ضمان لعدم هروبى، لأن محاولة الهرب مع إمرأة وطفل تجعل من النجاح فى الهروب أمراً شائكاً، فى حين ستعيقنى المرأة فى أى محاولة للهروب، عندما تكون نتيجته الوحيدة عاقبتها موتها هى وطفلها. لهذا السبب عينه - تعطيل الهرب - كان الخليفة يحفظ أسراه بزاد كاف من الزوجات، ويُظهر عدم رضائه بوضوح إذا لم تُحرز النتائج المتوقعة. ولكن مطالبتى بالأبوة لم تُرض إدريس، لأنها جردته من أى فرصة لتأمين حُسنيه لنفسه، وتركته تحت رحمة الخليفة لإغفاله واجبه بسماحه لحُسنيه بملامستى، ولذلك عين محكمين من السيدات المتزوجات للتحقيق فى الحالة.

إن الوقت الذى خلعت فيه حُسنيه عالمنا الصغير بحالتها المثيرة للإهتمام، كانت أم درمان،

وظلت لبعض الشهور، مفرغة من سكانها الذكور تقريباً؛ ولقد تمخضت إشاعات حضور حملة (بقيادة إستانلى، لإنقاذ أمين) فى إرسال قوة كبيرة إلى الإستوائية. وكان الجيش المجرد إلى مهاجمة إثيوبيا فى الميدان أشهراً، وكذلك جيش ود النجومى المكلف خلال بضعة شهور فيما بعد نحو دماره فى توشكى.

وكان بعض السيدات اللاتى عُيّن محلفات، مالم ينتمين لقبيلة الجوامعة، لائقات للإختيار، وبعضهن كان عليهن تحت وقع الظروف أن يتجنبن الفضيحة؛ ولكن توفرت لهن فرصة هنا، وما كن ليفقدنها - جئن معا لإنقاذ أنفسهن - لا حُسنيه أو إدريس - ومن ثم القرار الشاذ الذى أبدينه : إنه ما كان ممكناً لإمرأة أن تبقَ مع طفل تسعة عشر شهراً وحسب - كما كانت حُسنيه كذلك إفتراضاً، ولكن لأربعة وعشرين شهراً، فى حين جادلت بعض النسوة بحرارة لمد الوقت سنوات !

وكان لإدريس كرت آخر يلعب به، لا يزال؛ فقد أكدّ فى حزم أنه من المستحيل للطفل أن يكون إبنى، وهو يقسم الآن إنه ليس إبنه. ومن ثم صار واجباً جلد حُسنيه وإرسالها السجن؛ ولكن بما أن إدريس سيعهد إليه بتوقيع الجلد بنفسه، فقد كان مفهوما إنه سوف لا يدمر ملكيته الموعودة. إن الدور الآن جاء على أولئك اللائى لاحظت أنهن غير جديرات بالإختيار للتحكيم؛ فالحكايات التى قصّصنها عرضاً لحالتهن أنفسهن. وما اقتضته مصالحهن لهى جديرة بأحسن ما فى "ألف ليلة وليلة" من مأثورات؛ ولكن، حتى لو كُتبت، فستصبح أقل لياقة للترجمة والنشر من أصول القصص الشهيرة. إستأنف إدريس الآن للقاضى، الذى، بعد مقابلته المحلفين، أيّد قناعاتهن، وحكى القصة كلها للخليفة، لتسليته ولإقلاق راحة إدريس على الأكثر؛ ذلك أنه، بينما بعث لى تهانئه اللطيفة على الحادث القادم، أمر بالإفراج غير المشروط عن حُسنيه التى ذهبت لتعيش فيما يمكن تسميته بالحى "المسيحى" من المدينة.

وفى يناير، ولدت الطفلة أنثى، وسُميت "مكيه" (قيود)، وهو إسم تلمس جانب المرح فى الخليفة الذى، مُوعزاً له بالإسم، فى لحظة دعابة طيبة، بعث كلمةً لى ليسأل إن كنت سأتعهد بإنتاج البارود، إذا أطلق سراحى. لقد أجبت لسوء الحظ إننى لا أفهم تصنيعه، وأثار ذلك شكوكه، وهى التى لا يفلت منها شئ، لأنه بعد فترة قصيرة، قبض على فران بوهيمى، كان قد تاه سيره من حلفا، وأُرسل سجيناً لأم درمان كجاسوس أسير. إن هذا الرجل الذى أعرفه بإسم جُسّبى - مع أن لديه سلسلة من الأسماء، نسيتها الآن - كان بوهيمياً بالميلاد وفراناً فى عمله. وما كان ذا ألمعية باهرة، وما كانت له من موهبة أعاقها ربما "ولع بالموسيقى". ومن العبارات المضطربة التى ساقها لى خلال العام الذى قضاه بالسجن، جمعت أنه كان متجولاً فى أوروبا كموسيقار سائح، واستقر أخيرا فى مصر، هائما على وجهه من البحر الأبيض المتوسط إلى الحدود. وإنه واضح جداً أنه بدلاً عن القطع النحاسية كان يحصل على الشراب نظير أنغامه، وضاع ذلك من معاناته العقلية، مع أن السُكر الذى تجازى عليه، فى رائى، كان محصلةً للظروف وسوء الحظ أكثر منه تلهفاً على تعاطى الكحول الحارقة.

برحيله عن وادى حلفا، توقع أن يجد، مثلما وجد فى أوروبا وجزءاً من مصر التى هام فى أرجائها، قرى أو مدناً أثناء أيام ضياعه. وما كانت لديه أقل فكرة عن الصحراء حتى وجد نفسه تائها فيها. وبعد أيام من التيه، تعاطى خلالها قطّعاً من حذائه الممزق بديلاً عن الطعام، ضرب ناحية النيل، ومتجولاً عبره، جاهلاً إتجاهه، لاقى فرقة من الدراويش وحاول أن يتفاهم معهم، وبعد شرح حديثه بالحركات الدالة، بيّن لهم أنه يرغب فى خبز أو طعام، وبدأ فى "تهدئة ثائرة المتوحشين" بأنغام من آلة الكمان التى كان يحملها معه. أخذوه أسيراً، حطموا آلته، وأرسلوه إلى أم درمان كجاسوس. وعند وصوله، أُدخل فى حضرة الخليفة، الذى لم يصل إلى قرار ما إذا كان أمامه رجل معتوه أم ممثل ليبت فى أمره، لأنه عندما جئ ببلح لجُسبى ليأكله، قذف به بعيداً، ثم انطرح بطوله على الأرض. أُرسل إلي السجن وقُيد بالأغلال الثقيلة؛ وفى أثناء العملية الخاصة بتركيب الأغلال والقضبان عليه، وقع مغشياً عليه.



وجبة طعام فى الساير

كان جُسبى تحت رعايتى لحوالى عام، ومع إنه كان وديعاً كالطفل، عرضنى لمشاكل لا حصر لها. فهو يبقى فى النهار هادئاً على وجه الإتقان، ولكنه فى الليل يصرّ على الغناء أو الترنم. وبما أن أنغامه ليست لها بداية ولا نهاية، وكانت تتكون من موسيقى مقتطفة من هنا وهناك، سرعان ما نالنا الإعياء منه، وتلقى جُسبى فى مناسبة ما جلدة خفيفة "لعدم قفله فمه" عندما طُلب منه ذلك. لقد حادثته بعد جلده متوسلاً، ألا يواصل همهمته مدندنا بعد أن يكون السجناء الآخرون قد طلبوا منه الإمتناع عنها بالهدوء. لقد تأمل فى ذلك، ولعله بعد تفكير أننى فى الأثناء تحيزت للآخرين ضده، ذهب إلى الساير، وأخبره سراً إننى كنت جنرالاً عظيماً ومشهوراً فى أوروبا، وبضعة أشياء أخرى. وكانت لجسبى شهية عظمى، فكان جائعاً على الدوام؛ وقد سبّب لى قلاقل مما لا حد له فى أكثر أيام المجاعة سوءا، عندما كان الطعام نادراً، فكان بعد أن يشاركنى وجبتى الضامرة يتجول متسكعا سائلاً لقمة من الطعام من جماعة لأخرى. وفى نهاية المطاف، توصلنا لتخصيص ثلاثة أطباق له؛ متى يصلنا طعامنا، نمد له أطباقه، وهكذا ننعم بلحظات من السلم. وكنا نجهز على طعامنا قبل أن يلتهم وجبته، ومن ثم تتحرر جماعتنا من تشفعاته. وقد إنتابه الحزن والأسى الدفين من أكله قطعاً من جلد الجمل الذى كان الحراس يبيعونه للسجناء الفقراء أيام المجاعة.

ولتخوفى من وفاته فى السجن، بعثت كلمة عنه للحى "المسيحى"، أسألهم كثير الشفاعة للخليفة ليفرج متعطفاً عن جُسبى، وتم ذلك، ووجد وظيفة من شاكلته لوقت ما فى فرن يوسف سوار. ومن بعد ذلك بقليل، إستدان قليلاً من الدولارات من هنا وهناك من أجل أن يشترى الحبوب من الفون(*)؛ وبدأ بجُبة جديدة، حاملاً دولاراته، وسلة ملأى بالإمداد لرحلة يومين. وفى نفس اللحظة التى كان فيها ود عدلان يلتمس من الخليفة الإفراج عنى من السجن، حتى أساعده فى عمل بيت المال، وصل وفد من الأسرى أمام باب الدار ليخبروا الخليفة أن جُسبى لابد أنه هرب، لأنه كان يجب أن يعود إلى أم درمان قبل أيام مضت. وبلفتةٍ منه إلى ود عدلان، قال الخليفة، "البومى ما هَجَد - عبدالله نيوفلد عُقد؟ خلى أُصبر". ("المغقل لم يُقلع - عندما توفرت له فرصة هرب. فهل سيتوقف نيوفلد؟ دعه يصبر قليلاً".) كانت تلك المرة الثانية التى كلفنى فيها الزميل المسكين حريتى. وما من شك أن الرجل قُتل من أجل الطعام أو المال الذى كان لديه، لأن بقاياه وُجدت فيما بعد، على الطريق ما بين الخرطوم والعيلفون .

الفصل الثانى عشر

إبراهيم ود عدلان

تهيئ فرصة طيبة هنا نفسها للإشارة إلى ذلك القليل المكتوب، ومن ثم القليل المعروف عن الشخصية الغريبة فى المهدية – إبراهيم ود عدلان، أمين بيت المال. ولعله لم يثق فى أحد غيرى بمثل ما وضع ثقته في شخصى عندما كنا رفيقين فى السجن، وربما لم يفعل ذلك إلا لأنه كان يعلم أننى كنت عّدواً مريراً للمهدية، وإنه فى الوقت الذى كنت أتحدى فيه الخليفة ليبطش بى ما وسعه الأمر، كانت مصالحى كامنةً فى مكان آخر غير السودان. وكانت هناك ريبة تسربت أننى إبتُعثت كرسول حكومى، وأن رسالة الجنرال ستيفنسون كانت مضمونة عمداً فى اللغة التى كانت عليها، حتى إذا سقطت فى أيدى الخليفة، ينساق إلى الإعتقاد بأنى بدأت بعثة تجارية خالصة وبسيطة. إن الصداقة التى نشأت بيننا خلال الشهرين أو الثلاثة أشهر التى قضيتها عدلان وأنا كرفقاء فى السجن، كان عليها أن ينتهى أمدها ليس فقط من ناحية أنها أقل خبراتى فائدة لى، ولكنها إنتهت إلى مأساة.

قبل الثورة المهدية، كان ود عدلان واحداً من عمدة التجار وأثريائهم فى كردفان. وقد أخذته علاقاته التجارية عدداً من المرات إلى القاهرة وأجزاء أخرى من مصر. ونظراً لذكائه، وكرجل موصول بالعالم، كان أعظم شأنا بكثير من كل القوم "العظماء" الذين صاروا رفقائى فى السجن من وقت لآخر؛ ولابد أن أميل إلى وضعه فى مستوى أعلى من أفضل موظفى الحكومة السابقين؛ فهو حسن القراءة والكتابة، وكما سيُرى ذلك لاحقاً، ما كان مفتقدا إلى بعض الصفات التى تذهب بالمرء بعيداً ليضحى دبلوماسياً شرقياً ناجحاً. وإلى النهاية كان مخلصاً حتى اللباب للحكومة القديمة، ولكنه كان مُجبراً على أن يلعب دوراً – وقد لعبه بجدارة. ولو كان هناك أكثر من عدلان واحد فى السودان – وكان لكثيرين السانحة ليصبحوا مثله – فإن حكم عبدالله كان سينتهى بعصيان الخليفة شريف. إن ذلك العصيان كاد أن يحقق النجاح، ولكن لم يكن لعدلان خطأ فى الأمر. لقد هيأ له الطريق بحذر وفى سرية، ولكن عمله أُنهى لما أنجز هو تهيئة السبيل؛ وكان لزاماً على آخرين أن يصيبوا الهدف.

كان عدلان هو الرجل الوحيد فى السودان الذى كانت له الشجاعة فى إبداءِ آرائه، والإفصاح عنها لعبدالله؛ كان سيد نفسه، ويتصرف على ذلك النحو، وهو يحتقر من فؤاده هؤلاء الذين، فى إعتقاده، كانوا يحملون طاعتهم إلى أغلال العبودية. ولإخفاقه فى حث عبداللة على أن يحكم بشئ من تمثل العدالة والمساواة، كما ينص على ذلك القرآن، شرع فى تقويض نفوذه وقوته، ولكن كان عليه أن ينفذ عمله بمختلف الذرائع، وبالإعتماد على نفسه. وقد أخطرنى، أن هناك عدداً من الناس كان يتمنى لو يثق بهم، ولكن هناك آخرون يخاف منهم فلربما خانوه، وهو لا يستطيع أن يثق فى الآخرين بسبب قلة التقدير التى لا يستطيعون التباهى بأكثر منها. وكان يخشى أنهم ربما بلا قصد تنزلق منهم كلمات قليلة قبل أن تنضج الأمور، وعليه يُسكت لسانه وألسنتهم إلى الأبد.

وكمدير لبيت المال، كان همه الأول أن يحفظ الخزانة والصوامع مليئة تماماً. وخلال المجاعة كان تحقيق ذلك الهدف مستحيلاً، ولكن قدراً من الحبوب والمال كان لابد من إستحصاله من مكان ما. إن الفقراء والأشخاص الذين صعدوا الدرج بمخازنهم الصغيرة فى إستقامة، لم يدعوهم عدلان أبداً؛ والحقيقة، إنه كان حامى الفقراء والمسلمانية (المسيحيين الأسرى). وكانت سياسة عدلان أن يخلق أعداءاً للخليفة، فمثّل ذلك سبباً آخراً لقيامه بحماية الفقراء الذين كانوا آنفا أعداء مريرين لحاكمهم المتوحش. وفى إبلاغه للخليفة الحالة المتناقضة للخزانة والصوامع – وكان عبدالله عليماً بأن أبواب بيت المال وبيت عدلان محاصرة ليلاً ونهاراً بآلاف من البؤساء الجوعانين – يُصرف لعدلان أمر شفاهى للبحث عن الذرة وإحضاره لبيت المال. وكان يضع ذلك الأمر قيد التنفيذ الفورى

ضد أصدقاء الخليفة وأتباعه من ذوى الخاصة، لأن كل مخازنهم كانت نتاجاً للنهب، والإغتنام وجرائم القتل المرتكبة ضد القبائل والأقوام الأضعف. وعلى كل الإحتجاجات يجيب عدلان أنه كان ينفذ تعليمات عبدالله، ويعلم كل واحد أن عصيان أوامر عبدالله، أو أى محاولة لتفاديها، تعنى الإعدام الإيجازى. ومن مناسبة لأخرى، يُدخِل رجل "قوى" إعتراضاً خفيفاً على الخليفة نفسه، فيتظاهر بالجهل أنه لم تصدر أوامر عمومية لعدلان. ويستدعى عدلان، ولكنه حال إستفساره عن تصرفاته فى حضور الشاكى، لا يكون فى وسعه أن يجيب بأنه لم يفعل سوى إطاعة الأوامر العامة التى كلف بها؛ بل سيكون ملزما بالإجابة بطريقة تجعل الرجل "القوى" يعتقد أنه قام بتصرفاته بمبادرته الشخصية. ومن بعد الحضور، يتبع الرجل "القوى" عدلان إلى بيت المال، ويطالب بإعادة حبوبه ودولاراته؛ ولكن عدلان يكون قد وزع آنفا كل شئ بموجب أوامر الخليفة – وهو ما تثبته السجلات، فما من شئ يخرج من بيت المال دون ترخيص منه. إن الرجل "القوى" الآن غير جازم ما إذا كان عبدالله لاعباً عليه، ولكن أسلم خطه يتخذها هى أن يتآمر ضد عدلان. وفى هذا يُعينه يعقوب، شقيق عبدالله، وأشد عدو لعدلان فى قوة ومضاء لأن يعقوب، أميراً للأمراء، كان يجن بالغيرة من القبضة التى ينعم بها عدلان على الجماهير. إن الإحترام والتبجيل الذى تحيط به عدلان كان يعقوب يعتبر نفسه جديراً به بحكم موقعه ومنصبه.

إنها قد تكون هى الحالة بحق، أو ربما لا تكون كذلك، أن عبدالله نفسه كانت غيرته تتنامى من عدلان. وكخليفة، كانت قوته مطلقة حتى إنه بمستطاعه إزالة أى شخص خطر بإشارة توحى بذلك بيده، فعندما أرسل عدلان إلى السجن لمدة ما، كان ذلك فى رأى عدلان، ليهدىء من ثائره أعدائه، ليمنع أى تحول فى ولائهم، ولكيما يجتث موجة السخط المتصاعدة فى سرعة. ولكن الزج بعدلان فى السابر ترك المجال مفتوحا لأعدائه ليتآمروا ضده، وحيث إنه كان يفاد بأى إتهام أثير ضده، وبمزاج الخليفة المتقلب نحوه، رأى عدلان خطراً ماحقاً يحدق بين يديه.

بلغتنا التقارير أن بيت المال كان فى فقر مُمض، وأن الخليفة كان قد عَبّر عن نيته فى إعادة تعيين عدلان إذا لم تتحسن الأمور. ثم إن عدلان أسرّ إلىّ بكنيته عملياً دون أى تحفظ. شيئاً فشيئاً، ولكن مؤكداً، حملنى على أن أدرك أنه إذا أعيد تعيينه، أبداً، فسيفعل كل ما فى وسعه ليؤمن الإفراج عنى، وما أكثر ما ردد لى أ<u>لا</u> أحاول الهروب، إذا أفرج عنى، وإنه بصفاء يُعْنَى بمساعدتى فى ذلك. ولما تدهورت حالة بيت المال من سئ إلى أسوأ، إرتفعت معنويات عدلان، والتمس منى النصح ماذا يفعل إذا عُين ثانيةً أميناً عليه. لقد رأى لوقت ما، على الأقل، أن عليه أن يتخلى عن سياسته القديمة، ولم يعلم أى إتجاه يسير ليعيد للخزانة والصوامع حظوظها المتساقطة.

أُذن بالتجارة إلى حد ما، ولذلك إقترحت أن يتوسع فى ذلك، ولكن عدلان فى بداية الأمر لم يكن يستمع لهذا. وكان غرض عبدالله أن يحتفظ بالسودان <u>تراباً لا هوية له</u> ما أمكن ذلك، وبإتساع طرق التجارة ينهزم هذا الهدف. فكان إقتراحى الثانى أن بيت المال يجب أن يمد التجار بالصمغ، والعاج، والرياش، إلخ، بسعر ثابت ليقايض بحق مواد محددة تحتاجها أم درمان، وبتسلمها فى بيت المال توزع منه، مما يسمح بحصوله على أرباح مزدوجة من هذه العمليات. إستطلع الفكرة مبدئياً، لأنه لم يكن هناك رجل واحد يمكنه الثقة فيه، ولو أعطى التجار أى بضائع ولم يعيدوها بما جنوه من أربحية فى المقايضة، سيُعّد عدلان مسئولاً. إذاك إقترحت أنه يجب أن يقدم البضائع للناس الذين تكون عوائلهم فى أم درمان وحسب، لأن ذلك يؤمن رجوعهم؛ ولكنه تنبأ بأن الخليفة سيثير إعتراضات، لأن هؤلاء الناس قد يسربوا معلومات للحكومة. وفى حقيقة الأمر، كانوا يفعلون ذلك بالفعل فى النهاية، فيعودون إلى أم درمان ويعطون عبدالله معلومات كاذبة عن الحكومة مثلما كانوا يزودون الحكومة معلومات عنه وعن شئون السودان.

وفى النهاية، توجهت نحو عرض مقصدى بإستخدام البديع من القول، أسلوباً للمجادلة يشيع

فى الشرق وله تأثيره الآن كما كان فى الأزمان القديمة. "عدلان" قلت له، "لقد كنت تغذى عبدالله فى سداة لحمه؛ إنه مريض، ولكنه جائع؛ لقد قطعت كل اللحم عن عظامه؛ فإذا حاولت أن تغذيه من عظامه، فسيقتلك، لأنه يريد لحماً يأكله؛ وعليك أن تقتطع اللحم من أحد ما غيره لكى تطعمه هو، وتكسو عظامه من جديد". وهنا قفز عدلان متهللاً من فكرة التجارة، وقال إنه حالما يأتى إفراجه – لأنه كان واثقاً أنه سيطلق صراحه – سيسأل الخليفة ليطلق صراحى حتى يمكننى مساعدته فى عمله. إن أول شئ ضرورى، مع ذلك، فيما قال لى، أن أتخلى عن سلوكى الراهن نحو المهدية، وأن أعرض صيرورتى مسلماً. وقد وافقت على ذلك، وبلغ عدلان الساير، الذى بدوره بلغ الأمر للقاضى، أننى راغب فى إعتناق العقيدة. "ماذا،" قال القاضى، "عبدالله نيوفلد مسلماً؟ لا، إن قلبه هو نفسه القديم الأسود؛ إنه ليس معنا؛ إنه يخادع؛ إن دماغه (رأسه) لا يزال قويا؛ إنه غشاش؛ قل له هذا عنى". ما نسى القاضى مناقشاتى السابقة معه بحضور الآخرين، إذ لعله أخذ أسوأ ما بها، وما كان ليسامحنى عليها. وإسقاطاً "لحديثى"، كان يعلم إننى مرغم بمعاناة عذابات الساير، وكانت نيته أن أعانيها. وبعد ذلك سريعاً، أُطلق صراح عدلان وأُعيد وظيفته القديمة؛ ولكنه بعث كلمة أننى يجب أن أكون صبوراً، لأنه لم يتمكن من الحديث مع الخليفة عنى حتى يعود تماماً إلى تحبيذ الموضوع.

لعلى كنت ذاكراً من قبل، أنه عندما طلب الخليفة بعمل تصميمات للقبة المقترحة للمهدى، إقترح القاضى حنفى وآخرون أن أقوم أنا بتحضير التصميمات بأمل قبولها، وبالتالى إطلاق صراحى لأشرف على تنفيذها. وبتذكرى القبب القديمة للخلفاء فى مصر، ما كانت تواجهنى إلا صعوبة يسيرة فى رسم تصميم كروكى لقبة، رفعته إلى عبدالله، على أنه تصميم أصلى تماماً. وقد أخبرنى الساير أن أعمل نموذجاً بالطين فقضيت ثلاثة أسابيع أنفذه بحوالى قدمين من العلو. جاء المئات لمشاهدته، حتى حُطم وتناثرت أجزاؤه بلطمة متعصب فيما افترض، إعترض على أن كلباً كافراً يصمم قبة الرجل المقدس؛ ولكن مما علمته لاحقاً، حُطم النموذج بعد أن نُسخ. ولما علم عدلان بذلك الحادث، أرسل لى كلمة لأعد تصميمات لديكورات إضافية لداخل القبة، وقضيت أسابيع فى إعدادها؛ وعندما أُنجزت، أرسلتها مباشرة للخليفة، الذى أرسل لعدلان، وأمره بإجراء تحقيقات عن المدة التى ستستغرقها عملية نقل التصميمات للحيطان، وكم سيتكلف العمل من نفقة. وقدمت تقديراً حوى ستين يوماً لإكمال العمل. وقال عدلان إن النفقة لن تكلف شيئاً، لأنه يملك اللون.

فى حين كان يجرى إعداد التصميم الأولى، وضعت تجهيزات للهروب حال إمكانية الإفراج عنى المتوقع، وبوجود الورق والحبر فى وفرة نسبية، جُعل من الممكن لى أن أكتب رسائل خلسة فى ١٢ أكتوبر، ١٨٨٨، أرسلت خادمى إلى أسير إغريقى، أسأله أن يكتب لى رسالة بالإغريقية إلى صديقى القديم، منقريوس أفندى، رئيس المحطة فى أسوان. إن الرسالة الأصلية أمامى، وهذه ترجمة حرفية لها :-

"طلب منى السيد نيوفلد أن أحرر هذه الرسالة لأنه لا يستطيع أن يكتبها بنفسه، إنك لا تعلم أى موقف صعب يكتنف وجوده؛ فمنذ أن جاء هنا أُخذ مرتين إلى المشنقة، ولم يُشنق مع ذلك، وهو لا يزال راسفاً فى الأغلال، ويخضع لرحمتهم. وهو يريد منك أن تستلم أعماله، وتتصرف وفقا لذلك كوكيل له. لقد إقترض من حامله مائة مجيدى (دولار)، وعليك إعادتها له، ومنحه شيئاً لما لاقاه من مشقة، وأن تحاول إرساله مرة أخرى ومعه مائتى جنيه فربما يشترئ بها حريته. إن هذه الرسالة يجب الإحتفاظ بها سراً، لأن هناك أناس ينقلون كل الأخبار هنا، فإذا علمت السلطات أى شئ عنها، سيزداد حال السيد نيوفلد سوءاً على سوء .

(توقيع) "نيروقبولو".

وفى ١٠ نوفمبر، ١٨٨٨، بسماعى أن معرفة قديمة أخرى كانت فى أم درمان، سعيت لأسير إغريقى آخر ليكتب رسالة أخرى إلى منقريوس أفندى هذه الرسالة أيضاً تم تسليمها، وسلمها



موسى داؤود القنجه

منقريوس أفندى. لى مع عدد من الوثائق الأخرى التى احتفظ بها بعناية. إننى أترجمها حرفياً مرة ثانية --

"السيد منقريوس بيه، -----

"أرجو أن تكون عطوفا، وتستلم كل الأشياء خاصتى بواسطة السيد مولر (مدير أعمالى)، وإننى أتوسل إليك لتتصرف كوكيل لى؛ وكذلك أرجو من فضلك أن تحاول أن ترسل لى بعض المال الذى أود أن أساعد نفسى به، فلنقل مائة جنيه أو مائتين؛ إن هذا المال سيكون لإستعمالى الخاص. ولأننى كنت محتاجاً، أخذت من حامله مبلغاً يساوى مائة مجيدى، سوف تعيدها له ومعها شئ إضافى، لأنه قام نحوى بجميل، وإسمه عكر (الإسم الحقيقى كرار - بُدِّل دون شك قصداً). إن المال الذى يمكنك إعطاؤه لحامل هذا، أرجو أن تأخذ عليه إيصالاً وتحفظه معك؛ أكتب لى خطاباً، وأرسله إلى أحمد أبو درويش، أو أخيه كباشى، واذكر المبلغ الذى ترسله لى؛ كذلك أعطى الحامل أى مساعدة قد يحتاجها.

(توقيع) "بروثموس" (إننى مستعد).

ولقد سمعت من قوم كانوا قد جاءوا إلى أم درمان عن أعمال غريبة تتعلق بأعمالى، ولكيما يدرك مدير أعمالى أن الرسالة كانت موثقة، وقعت كذلك على الرسالة، واستعملت شفرتنا لدفع ٢٠٠ دولار ---- "ى . ر . ر."

وبيّنا أنا فى حمى من الإثارة والقلق حول إبتعاث هذه الرسائل، أرسل لى عدلان رسولاً سرياً ليقول إن سليمان هارون، من قبيلة العبابدة، وكان يعيش أيامها فى أم درمان، كان يرسل إبنه محمد على إلى القاهرة. ولتثمينى أن عدلان رغب فى أن أتصل أنا بسليمان، أرسلت كلمة بأننى أود رؤيته. وفى ظرف أيام قليلة حصل على إذن بدخول السجن ليرانى، فشرعت فى الحال للتعامل معه، وسألته إن كان سيتعهد بالتدابير لتهريبى. وافق على ذلك، ولكن بشرط أن أنجح فى الخروج من أسوار السجن. وذلك حتى تكون لى الثقة فى أننى سأعينه كذلك، فطلبت منه أن يتصل بعدلان ويقابله، وإننى أعتقد أن عدلان هو الذى تقدم نحو سليمان بالمائتى دولار التى كان قد أحضرها لى، ومن أجلها حررت إيصالاً بمائة دولار. وقد سلمته خطاباً لإبنه لكى يسلمه لمدير أعمالى فى أسوان، وبداخله إيصال ب ١٠٠ دولار، وأمر لدفع ٢٠٠ دولار أخرى. وبإستلامه المال، كان عليه أن يشترى بضائع، وأن ينظم أفواج الجمال فى طريق عودته من الرحلة، ويحضر البضائع لبيت المال، حيث أكد لى عدلان أنه سيجدنى به. كان عَلَى محمد على أن يرحل فوراً، ويعود إلى أم درمان فى أسرع وقت ممكن.

خلال أيام قليلة من إرسال هذا الرسول، جاء موسى داؤود القنجه، وهو أيضاً من قبيلة العبدلاب، ومن معارفى القدامى، وطلبت خدماته. كلمته عن التدابير الأخرى التى عملتها، وسألته إن كان يستطيع مشاركة محمد على فى إحداث هروبى. ولقنجه، أعطيت خطاباً أخبر فيه مدير أعمالى إننى قد سحبت على حسابه أمر دفع بمبلغ ٢٠٠ دولار ووجهته بإعتمادها؛ ولكن، فى سياق الأحداث، وجهت قنجه ليرى منقريوس إفندى فى أسوان، وإذا لم يجده، أن يتخذ طريقه إلى القاهرة، ويسلم الرسالة للقنصل الألمانى. وغادر قنجه أم درمان فى حوالى ٣٠ ديسمبر، ١٨٨٨.

عقب ملاحظاتى التى عنت عدم المصداقية الموثوق بها بالنسبة لأى فرد فى السودان، تفاعلت الخديعة ضد بعضها بعضا، وصارت الحاجة مطلقة للسرية، وكان من الطبيعى أن يُتعجب أننى أسلمت سرى للكثيرين، إن كان للسر أن يدعى كذلك حين يكون فى علم الكثيرين. إن تفسير ذلك بسيط. فأنا أعرف الناس الذين أتعامل معهم، فهل لاحظت الحقيقة غير الهامة أننى أستدنت مالاً من كل واحد من الناس الذين قمت بتوظيفهم؟ لاحقاً فى قصتى، سوف أشرح هذه المعاملات الغريبة.

فى حين أن هؤلاء الرسل المختلفين يسيرون فى رحلاتهم، وهم "موثقون" إلى مكان أو آخر، ونحو آخرين يتظاهرون أنهم كانوا على مهل يقطعون طريقهم إلى بربر أو دنقلا للتجارة، سأشير إلى ما كان يجرى فى أم درمان.

تسربت الأنباء تحكى أن ذلك "المخلص" أحرز نصراً عظيماً على الإنجليز فى سواكن؛ ولكن لما امتلأ الساير بالسجناء الذين كانوا حاضرين القتال، وأعطوا صوراً مختلفة لتلك التى فرضها عبدالله - ومن ثم سجنهم - علمنا الحقيقة. لقد تلقى "المخلص" هزيمة نكراء. ومن بعد ذلك وبسرعة، حقق الجيش الذى جُرد علي الحبشة نصره العظيم على القوات التى قادها الملك يوحنا، ولعبت مغانم بيت المال دورها متحسنة من الأرباح المجنية من بيع العبيد والغنائم المجلوبة. وكان عدلان يحتل الأفضلية من جديد، ولكن عبدالله كان شديد الإشتغال بوكز النجومى لمهاجمة مصر ليبدى أى مقصد تجاه تجميل قبة المهدى أو مد التجارة. لقد كان لا يزال أقل ميلاً ليمنح أى إهتمام بمثل تلك الأمور، عندما جاءته الأخبار - وقد وصلت بسرعة البرق - أن جيش النجومى أبيد تقريباً فى توشكى. إن نجمة شرورى لابد إنها كانت فى صعود، وكانت تصعد إلى الأعلى فالأعلى، لأنه فى هذا الوقت تلقى جُسبى الجلد على ممارساته الصوتية، ولأنه كان يقاسى من نوبة شديدة من الإضطراب العقلى بالتالى، ذهب إلى الساير، وأخبره إنى معروف كجنرال عسكرى عظيم، وكنت أضع اللمسات الأخيرة فى مخططات للإحاطة بعبدالله. وللحظة لم أصدق أن الزميل المسكين كان يعلم ما يقوله، لأنه عاد لمشاركتى وجبتى البائسة، كالمعتاد.

قنجه ومحمد على فيما حسبنا سيبلغان أم درمان وقتاً ما فى ديسمبر أو الأيام الباكرة من يناير، ولما اقترب وقت رجوعهم، أصبح عدلان بوضوح متشوقاً ضمن مساعيه لعمل الزينة فى قبة المهدى عملياً. وكان هروبى سيحدث فى أسرع ما يمكن بعد عودة رسلى، وإلا فإن أفواج الصحراء سوف تتفرق، لإعتقادها أن المشروع فشل إنجازه؛ ولذا كان من الضرورى أن أمارس أنا العمل لوقتٍ ما قبل وصولهم، أى، قبل وقت كاف يسمح لحراسى بتخفيف حراستهم رصداً لحركتى.

يرما إثر يوم يرسل عدلان يستفسرنى "هل لديك أخبار من الخليفة؟" وفى كل يوم يأخذ الرسول إجابتى إليه،" لا؛ هى لديك أنت أى أخبار؟" ولكن إستفسارى كان يقصد به الأخبار عن الرسل. وأخيراً جاءت الأخبار المفرحة؛ نفذ العمل، وجاء حارسان إلى الساير، وسارا بى إلى قبة المهدى. وهناك إكتشفت أن نموذجى الطينى نسخ بإخلاص، فيما عدا أن البنائين جعلوا القبة فى شكل مقوس، دائرة تتسع قاعدة وتضيق للأعلى. زارنى عدلان هناك، وهنأنى على أن ذلك يومى الأخير فى المكيات (السلاسل). ومخبراً لى بالبقاء فى القبة حتى عودته، وذهب إلى الخليفة ليتسلم أمراً بنقلى إلى بيت المال، وفى نفس اللحظة التى كان يتسلمه فيها، جاء وفد المسلمانية ماثلين أمامه ليبلغوا عن إختفاء جُسبى. أسرعوا بى عوداً للسجن، وطرحت مكية إضافية على أثقالى. لكم لعنت جُسبى، وما كنت أعلم آنذاك أن الزميل المسكين كان قد قُتل. لم يمض وقت طويل بعد هذا عندما شاهدت عدلان يعود سجينا، مثقلا بالأغلال، ومساقاً إلى كوخ يبعد مسافة عن كل الآخرين، والسجناء ممنوعون من الإقتراب منه أو التحدث معه.

وفى الليل، متذرعا بالذهاب إلى مكان الغسل، مررت بكوخه وعندها على بعد ياردات قليلة، منطرحاً على الأرض، أتحرك خلسة قريباً منه، وسلاسلى ممدودة كى لا تصلصل وتجذب إنتباه الحرس. سألت همساً، "ماذا حدث؟" أجاب فى صوت منخلع، "أمشى، أمشى، لا تتحدث معى؛ إن كلباً كبيراً أخذنى من رجلى هذه المرة؛ اذهب، وإلا أمسك برجلك." حاولت ثانيةً أن أعلم منه حقيقة الأمر، ولكن توسلات عدلان لى لأذهب بعيداً كانت من التلهف بحيث أننى رجعت القهقرى، وبلغت كوخى دون أن يكشف أمرى. وبعد ذلك بقليل قال لى رقيق عدلان، وهو صبى، بينما يسير ماراً بكوخى، "لا تتكلم إلى سيدى؛ فإذا فعلت، فإنك ستسمع الأُمباية". وطوال الليل ظل الصبى يذرع المكان جيئة وذهابا

بين كوخ عدلان وداره خارج السجن. ولما سئل لما يفعل ذلك، رد بنفس الإجابة فى كل مرة أطرح عليه سؤالاً فيها، "أحرق أوراقا؛ لا تتحدث مع سيدى." ولقد علمت من عدلان إنه كان على إتصال مع "أصدقاء"، ولما كنت أدرك منه أنه، فى حالة رجوعى أبداً إلى مصر، على أن أصير "صديقاً فى المحكمة" له مع الحكومة، إرتبت فى إنه كان كل الأدلة التى قد تستخدم ضده والآخرين. إن كون الخليفة نفسه تلقى كلمةً ما عن بعض الإتصالات بَيِّن من الغضب الذى عرضه عندما فتش منزل عدلان، ولم يعثر على وثائق تجريمية. كاد إدريس الساير أن يفقد رأسه بسبب هذا الأمر، لأن الخليفة إتهمه بمعاونة عدلان على التخلص من الأوراق بطريقة ما.

وفى صباح اليوم الثالث أو الرابع من سجن عدلان، رأيناه يُقتاد من كوخه مقيداً، ويؤخذ به إلى السنديان لنزع قيوده عنه. إننا كلنا نعلم ما حدث - إعدام، ولكن معظمنا يؤمن أن الخليفة كان يفعل ذلك لتخويف عدلان، وليبهره بتلك البّينة بقوته. وما كنا مأذونين بالتقدم نحوه، ولكن عدلان صاح منادياً، "هذا هو يومى؛ فلا يخافن أحد منكم. إننى رجل. لسوف لا أقول أو أفعل أى شئ يشين رجلاً. مع السلامة". وفى حين كانت قيود إضافية قد أجريت على كعبّى رجلى، كانت الأُمباجة تعلن موت عدلان. كان الحداد على موته عاماً، ولكن قلة، إن لم يكن أى أحد، كانت تلم بالأسباب التى عَجّلت إصدار الخليفة أمراً بإعدامه. لربما أن الخليفة الهارب نفسه هو وحده العالم بها، ولكن من الممكن أن أُلقى شيئاً من الضوء فى الموضوع. ولكيما أصوغ عبارة، كان عدلان قد "غُوردِّن؛" فحوالى الوقت المقابل للإحتفال بالذكرى السنوية لموت غوردون، لاقى عدلان حتفه، وهو ينتظر ذلك العون الذى فيما سنرى، بدأ "متأخراً للغاية".

الفصل الثالث عشر
التاريخ الحقيقى لمحاولتى الهروب

لئن كنت أرهق قرائى بهذا الجزء المستطال من الرواية، الذى لا يبدو أنها ذات نهاية، لربما أسألهم الغفران على أساس أن الأسابيع قُضيت فى تجميع نقاط الربط التى كانت مبعثرة بين أوروبا وأم درمان، ودون هذه النقاط مكتملة فإن الحكاية قد لا تصدق، ولأسباب معقولة.

إن الرسل الذين بعثتهم مع الرسائل الأولى المترجمة نصاً، وصلوا أسوان وقتا ما فى يناير أو فبراير، ١٩٨٩، وسلموا الرسائل إلى منقريوس إفندى، الذى كتب فى الحال إلى مدير أعمالى، وكان قد باع أعمالى، وغادر إلى الإسكندرية. ولما لم يتلقَ رداً، كتب منقريوس إفندى إلى القنصل الألمانى فى الإسكندرية الذى رد فى مارس بالآتى : –

"الإسكندرية، ٤ مارس ١٨٨٩.

"منقريوس إفندى رزق، أسوان ---

"إجابة على خطابك بتاريخ ١٨ فبراير الماضى، إننى آسف لإفادتك بأن وكيل السيد شارلس نيوفلد، أسير المهدى فى السودان، السيد مولر، بَيّن أنه لا يستطيع أن يساعد نيوفلد بأى شكل. والمشاع هنا أن الدار الذى شيده السيد مولر للسيد نيوفلد إمتنع عن الدفعيات لأشهر مضت، وعليه وجد السيد مولر من المستحيل عليه أن يرسل أى مبلغ إلى السيد نيوفلد مالم يرفض أى دفعيات لدائنين عديدين يطالبون بأى مبالغ خصماً على بيت السيد نيوفلد. لقد إستُدعى السيد مولر إلى هده القنصلية، ووُجه بأن يعطى بياناً وافياً عن العمليات التى أجراها نحو ذلك المنزل، وموقفه، وبقيامه بذلك وُجد أن مولر لم يرتكب أى خطأ، وليس لنا لذلك ما نقوله عليه .

"ولكن فيما يختص بالمائة دولار المودعة فى الكرديت ليونيه بواسطة السيد نيوفلد قبل رحيله للسودان، أظهر السيد مولر إيصالات لما يزيد على ٤٠٠ دولار للدائنين، وصرف الباقى كمصروفات للسفر بين هذا المكان وأسوان، ولبناء المنزل الجديد فى الإسكندرية. ولا يزال السيد مولر جاداً فى مساءلة عبد القادر بيه، الذى رجع منذ وقت قريب من السودان، لينصحه بشأن الطريقة التى يمكنه بها إرسال مبلغ إليه من المال وكانت نصيحة عبد القادر بيه، مع ذلك، أنه لا يجب إرسال أى مال إلى نيوفلد، لأن الأخير لا يمكنه أن يستفيد من المال. هناك. وأفاد عبد القادر بيه، علاوة على ذلك، أن السيد نيوفلد كان وقتها مقيداً بالأغلال، وكان محرضاً من حراسه وحسب للسؤال عن المال. وكان أنذاك تحت تهديد شديد ومعاملاً بغلظة منهم. هذا هو كل ما يتعلق بالحالة التى أضعها الآن قبالة نظرك.

"(توقيع)

القنصل الأول

"هلفيق"

فى نفس هذا الوقت، أرسل مدير أعمالى، على رسالتى نفسها، الآتى : --

"الإسكندرية (بلا تأريخ).

"بعد السلامات، إلخ، بلغنا ما جاء منك وتفاصيله. ورداً عليه، أفيدك إننى عرضت نفسى على القنصلية الألمانية، ووجدت رسالة منك معنونة للقنصلية، تبين فيها أن السيد نيوفلد قد كتب إليك بما معناه أنه يطالب ب ٥٠٠ دولار منى، مع إننى دفعت هذا المبلغ للدائنين الذين طالبوا بمبالغ من السيد نيوفلد. لقد أرسلت بضائع إلى حلفا وأسوان، ولم أستلم قيمتها بعد. وإننى أعلمك إضافة لذلك أن



منقريوس أفندى مع المرشدين

نكولا لطف الله باع الدهبية، والحصان، والحمير، ولم يبعث لى ما يساوى أثمانها، بالرغم من إنه باعها دون أى إذن منى. وبالتالى، فقد كتبت له ليرسل لى الحساب أو المال، وما من شئ من هذا تُسلم منه.

"هل تتكرم بتدبير مباع كل البضائع التى فى حوزة نكولا، لأنه كتب لى قائلاً إنه كان مريضاً، وليس بمستطاعه الشراء أو البيع؛ لذا أرجو أن تتكرم ببيع كل الأشياء وأن تبعث المال ليغطى المطالبات (أى، المبالغ المرسلة لى من المرشدين خاصتى، والمال الذى كنت قد بعثت فى طلبه).

"أرجو كذلك أن تحصل على قائمة كاملة يعدها نكولا، تبين كل الأشياء التى باعها، ودعنى أحصل على هذه القائمة، وبذا تجعل الأمر صافياً، وإلا فإننى سوف أكون مضطراً لإتخاذ إجراءات بواسطة الحكومة.

"وأما منزلينا الإثنين فى أسوان، فهلا تكرمت بتأجيرهما بأى ثمن، حتى تدفع منه الضرائب. فإذا كان خاليين الآن، أرجو أن ترعاهما، وترسل قوماً كل أسبوع لنظافتهما. إنهما يجب أن يحفظا دائماً مقفولين. فإذا تبقى أى شئ مما لا يمكنك بيعه، أرجو أن تحفظه للسيد نيوفلد، وإذا كتبت لى أى خطاب، أرجو أن تعنونه إلي السيد مولر، وكيل السيد نيوفلد فى الإسكندرية، والتقدير.

(توقيع) "مولر".

"لعنايتك – أرجو أن تسأل نكولا عن الحساب كذلك".

وفى الوقت الذى تم تبادل هذه المراسلة. وصل رسول آخر من مبعوثىّ، ومرة ثانية كتب منقريوس أفندى للقنصلية، وتلقى الآتى إجابة : --

"الإسكندرية، ١٢ مارس ١٨٨٩.

"رسالة أخرى، بتأريخ ٤ مارس، بُعثت إلىّ. وفى نفس اليوم تسلمت رسالة منك. إنك قد تكون متأكداً أن ما ذكره السيد ويليام مولر حقيقى للغاية، أى أن السيد نيوفلد لم يعد مواطنا ألمانيا أو أحد رعاياها، لأنه خلال إقامته فى مصر لم يطلب السيد نيوفلد أبداً بحماية ألمانيا، التى ولد فيها. ولذا فقد فقد جنسيته. وهذا طبقاً لما نعلمه من الجهات المهتمة بألمانيا. وبناءاً عليه، لا تستطيع هذه القنصلية بأى حال أن تنظر فى شئون السيد نيوفلد أو تحمى حقوقه، ما عدا معاقبة السيد مولر لو كان إرتكب أى شئ يستحق عليه عقابا، كما أخطرناك فى رسالتنا بتأريخ ٤ مارس. ولكن التحقيقات التى أُجريت فى قنصليتنا توضح بجلاء أن السيد مولر لم يفعل أى شئ خاطئ ليجد عليه العقاب.

"ومع ذلك، فإذا فكرت أن من الضرورى، فيما يتعلق بخطابى السيد نيوفلد، اللذين يعادا مع هذا، لتجعل أعماله تُنقل إليك، فهذه الخطوة يجب أن تتخذ منك أمام المحاكم المختلطة، فى حالة ما يرفض السيد مولر أن يُحيل إليك أعمال السيد نيوفلد بطوع إرادته.

"أما الوصية التى أجراها السيد نيوفلد، والتى قمت بإرسالها إلى هذه القنصلية فى ٢٣ أكتوبر، ١٨٨٧، فقد حُفظت أولاً فى هذه القنصلية، ثم، عندما جاءت زوجة السيد نيوفلد هنا فى سبتمبر، ١٨٨٨، سألت عنها، لأنه كان مُبّلغاً أن السيد نيوفلد توفى. هذه الشهادة أُرسلت بعد ذلك إلى حاكم الإسكندرية بوصفه الجهة المسئولة، التى على السيدة نيوفلد أن تلجأ إليها كرعية محلية. وهكذا فتح الحاكم الوصية، وسلمها إلى السيدة نيوفلد، وهى لا تزال مالكة لها. إن السيد مولر نقل أعماله الآن إلى القاهرة، حيث ينوى الزواج. والسلامات.

(توقيع) "القنصل الألمانى،

"هيلفق".

إن منقريوس لربما اتخذ إجراءات ليحفظ ملكيتى، ولكن الحجة إستخدمت أن الرسائل لم تكن

مكتوبة منى، وإنه ربما لم أكن ملماً بمحتوياتها الحقيقية. ولم يعرف هو، أو القنصلية فى حادث وقع مؤخراً، أن الحروف اللاتينية الصغيرة التى كتبتها أنا فى هذه الرسائل تثبت أصالتها، لأنها هى "شفرة الدفع نقداً" التى كنت أستعملها مع مدير أعمالى فى برقيات العمل. وأعاد منقريوس محمد على إلى أم درمان بالفاتورة التى لم تجد دفعاً يسددها، ورسائل شفهية إنه سوف يفعل كل ما فى وسعه ليجمع الأموال لهروبى. وبينما كان يجرى التجهيزات، كان موسى داؤود القنجه، الذى قضى بعضا من الوقت على الطريق يبنى له شعبيةً بين الناس الذين سنتطلب مساعدتهم فى هروبنا، ويبرز مظهره، ولما علم مسيرة الأحداث، ودون أن يضع ثقته فى منقريوس أو محمد على، ذهب للقاهرة، بأمل أن يستطيع الحصول على المال بقوة الرسالة التى أعطيتها له لأنه كما يقر، أراد كل المجد وكل الربح لنفسه.

إننى أواصل التأريخ من البيان الذى وضعه قنجه تحت القسم، أمام محامى وفى حضرة شهود يمكنهم أن يؤيدوا معظم أجزائه. إننى أعترف إننى نفسى كنت على شئ من عدم التصديق، ولكن قنجه كان مذاك قد ثَبّتَ بيانه بإظهار وثيقتين، لا يمكن الآن حالاً إستحضار مصداقيتهما، بينما أن إثنين مودعتان فى سجلات القنصلية الألمانية، بطولهما. وطبقا لأقواله التى أدلى بها، عرض قنجه، لدى وصوله القاهرة، الرسالة التى كانت معنونة لمدير أعمالى على القنصلية الألمانية، وهو يبلغ فى نفس الآن رسائلى الشفهية. وبواسطة القنصلية الألمانية أُخذ إلى القنصل النمساوى العام الذى ، بعد أن سمع ما نقله من أنباء، أرسل معه موظفاً قنصليا لمكتب الحربية، حيث قص قصته.

إن الثابت تماماً أن الكونت واص، القنصل النمساوى العام صَدّق أن قنجه سوف يجد عوناً ليبدأ على الفور فى البعثة المعتزمة، لأنه عهد إليه بخطاب كتبه هو شخصياً بتاريخ الأحد ٢٧ أكتوبر، ١٨٨٩، معنوناً إلى سلاطين، يطلب فيه من سلاطين أن يرجو من الخليفة الرد على الرسالة التى بُعثت إليه من إمبراطور النمسا فيما يتعلق بأسرى البعثة التبشيرية النمساوية. وكان قنجه يُصرف وقتاً بعد آخر على أساس أنه لم تتلقَ إجابة بعد على الرسالة التى كان قد سلمها. ولما عيل صبره، رجع إلى أسوان وجهز قافلة على حسابه، ولما صار كل شئ معداً، رجع إلى القاهرة ليبلغ أن كل الإستعدادات مكتملة. ومرة ثانية، أُجل البت من وقت لآخر، وفى ٢٦ أبريل ١٨٩٠، قدم نفسه للمرة الأخيرة للقنصلية الألمانية، ولما أُخبر أنه "ليست هناك إجابة"، طالب بشهادة تشهد أنه سلم رسالتى، ولكنه لم يتسلم أى أموال تتعلق بها، وسلمت له شهادة موقعة ومختومة(*).

أخفى قنجه شهادة القنصلية والخطاب المعنون لسلاطين فى جبته، وتحرك نحو أم درمان. وعندما قارب بربر قابلته دورية من الدراويش، وأخذته سجينا، وأسرعت به أمام حاكم المهدية على المدينة. وهناك واجهه رجلان أقسما أنها شاهداه يتحدث معى ومع ود عدلان. لم ينكر قنجه ذلك، ولكنه قال إنه كان يتحدث فقط عن التجارة، وإنه لديه رخصة بالتجارة. أخبره الحاكم أنه من الخير له أن ينطق بالحقيقة، لأنه وصلته الأنباء من أم درمان أن ود عدلان ساعده فى تدبير هروبى، وإنه تلقى أخباراً من القاهرة عن زيارته لوزارة الحربية والقنصليات، وإنه يعلم أن البضائع التى جاء بها تعمية لهدفه الحقيقى فى الذهاب لأم درمان. ولكن، تابع الحاكم حديثه، قُتل عدلان، وقُيد نيوفلد بأثقال أكثر. لم يُنتزع إعتراف من قنجه، ولذلك جُلد وقذف به فى السجن، وصادر الحاكم جماله وملكيته. وبعد فترة قليلة فى السجن، أُطلق صراح قنجه وأُمر بالرجوع لقومه. ولأن إرساله سجينا لأم درمان كان معناه إرسال الإبل والبضائع المصادرة فى نفس الوقت معه، ولما كان الحاكم يرغب فى الإحتفاظ بها لنفسه، كان الطريق الوحيد لحفظها معه أن "يعفو" عن قنجه، ويفرج عنه. لم يضع قنجه وقتاً فى الإسراع إلى أهله، ولكن بعد ذلك الإفلات الحرج، لم يقم بأى جهود ليخترق السودان، وكان ذكر تجربته كافياً لردع أى واحد آخر من محاولة تهريبى.

إننى وأنا أقدم سرد قصتى للعالم - نظراً للمحاولات الثابتة التى تبذلها بعض الجهات لتدحض

قولى – أحسست أنها هم ثقيل لا أرزح تحته أنا من أجل نفسى، ولكن من أجل أمى، وزوجتى وطفلى، وأقاربى، أن أُخرِج لأكبر قدر فى طاقتى بيّنة موثقة بأن القذف الذى تنشره الصحافة قبل الإفراج عنى ومنذه هو بالضبط ما وصفتهم به. ولذلك لا ينبغى لأحد أن ينبرى ناقداً بلا موجب للوسائل التى تبنيتها لتحقيق هذا الهدف شريطة أن تكون تلك الوسائل نزيهة، مهما كانت العملية غير متقبلة بالنسبة لآخرين فى نهاية المطاف.

وإجابةً على الإتهامات الخاصة يرفض الهروب من السودان، إننى، مغامراً بالتصديق فى قولى، إستجمعت كل خيوط الأدلة فى صالحى حتى الفترة الراهنة من سردى للأحداث. وهناك أدلة أخرى ستأتى فى شأن أحداث ستعالج فيما بعد. إن الرسائل التى أشرت إليها نصاً برهان كاف على أنه منذ أكتوبر، ١٨٨٨، حتى أبريل، ١٨٩٠، كان مرشدىّ وأنا معهم نفعل ما فى قوتنا لإحداث الهروب. وفى هذا الأثناء، تكتب مصلحة المخابرات في ١٠ مارس، ١٨٩٠، لزوجتى ما يلى:"محمد أفندى رافعى، الذى كان برتبة – مساعد ملازم، بالكتيبة الرابعة، الفرقة الخامسة، الذى غادر الخرطوم قبل ثلاثة أشهر، يفيد أنه يعرف نيوفلد حق المعرفة، وقد رآه فى أم درمان بضعة أيام من قبل رحيله عنها. لقد وُضع نيوفلد تحت المراقبة إلى ما قبل حوالى خمسة أشهر قبل هذا، ولكنه الآن حر. وقد جاء إطلاق صراحه بسبب واحد من الأمراء وهو يدفع لعبدالله خليفة(*) بالخدمة العظيمة التى أسداها نيوفلد لتمكين أخذ الأسلحة والذخيرة من الكبابيش فى الوقت الذى أُسر فيه نيوفلد. إنه الآن مستخدم كواحد من ملازمية الخليفة، وتلقى مرتباً بسيطاً؛ وقد أعطاه الخليفة زوجتين، ويعامله معاملة طيبة. ما لنيوفلد سوى الشئ اليسير ليشكو منه عدا الإحتياج إلى الأموال، مما يجعل الحياة صعبة، لأن الطعام الجيد غالٍ جداً. إنه يقيم دائما مع إبراهيم بيه فوزى، الذى افتتح مقهى صغيراً. وليس صحيحاً أن الخليفةً هدد زوجة نيوفلد أبداً؛ وإنما هُدد بالسجن وحسب مالم يتحول إلى مسلمانى. لا تفكرى أن من الممكن إستلام نيوفلد لأى رسائل، إلخ، من الخارج. إن نيوفلد لا يشغل نفسه بالأعمال التجارية بأى شكل كان. ولم يسمع عن نيوفلد أبداً إنه عبر عن رأى رغبة ليبعد نفسه، ولكن لا تفكرى أنه سيكون قادراً على فعل ذلك حتى لو رغب فى ذلك، فيما يعرفه كل واحد".

فى سبتمبر، ١٨٨٨، تم الإبلاغ لزوجتى أنه، بعد محاولتى الهرب، أُعيد أسرى، وأُرجعت لأم درمان وأُعدمت . وكان لذلك عطفاً زائداً ومعتبراً من مصلحة المخابرات أن ترى تصحيح الخطل، ولكننى أخاطر بالقول أن حلاوة الأنباء الطيبة لا تحتاج أن تُحال إلى جراح وعلقم بإخبارها إننى مدين فى الإفراج عنى "لإعانتى" الخيانة لقافلة الشيخ صالح الوفى لتقع فى أيدى الدراويش. وحتى لو كان هناك أى قسط من الحقيقة فى مثل هذه العبارة، فإننى أعتقد أن سيدة إنجليزية ربما كان الأوجب إغناؤها عند هذا الإيلام غير الضرورى للفؤاد. إننى أحمد الله كل ليلة – بل، كل ساعة، لأنه أعادنى حياً من جهنم التى كنت أعيش فيها، لأنقذ زوجتى من الجحيم الذى رُميت فيه بتقارير كمثل ذلك التقرير.

ويجب ألا يتخيل، مما سبق ذكره، أن هناك أدنى نية من ناحيتى لأرمى بالآكاذيب الجزافية وزارة الحربية أو القنصليات. إننى أضع حقائق مجردة وبسيطة أمامكم، وذلك لأنه فى الوقت الذى كنت فيه منتظراً على أحّر من الجمر عودة رسلى، مُصّوراً لنفسى الجهود التى يتولاها أصدقائى لتأمين النجاح – بالرغم من أنه، كما هو مشهود، كانوا مشغولين إنشغالاً مختلفاً للغاية – أُديرت التقارير على الملأ إننى رفضت الهرب، وإن زوجتى بالتالى كانت تستلم عدداً لا حصر له من رسائل العزاء، وفى بعضها "صلاة للرب القدير ليقّلب قلب زوجك الخاطئ"، بينما أخرى كانت تعبر عن الأمل، أن الروابط التى تشدها بى تتقطع سريعاً عندما أقابل ما استحقه على أيدى جلاد الخليفة ! أما الذين صلوا من آجلى فإنى آشكرهم؛ إن الواحد الذى علم الحقيقة، سمع تلك الصلوات: والذين حكموا علىّ بالإدانة لا أنحو عليهم بلوم، ولا أحس نفوراً منهم؛ إنهم آمنوا، ليس إلا بما أُوصل إلى الصحافة.

الفصل الرابع عشر
سجين لإخرمدى

أطاح بى اختفاء جُسبى، وما لحق به من موت عدلان، فى حالة تكاد تكون يأساً مطبقاً؛ فقد بدا أنه لن تكون هناك أى آمال لخلاصى من الساير أبداً، وبعد الإجابات التى قدمها عبد الله لود عدلان والمسلمانية عندما تشفعوا لى ، تخلى أصدقائى بالخارج فيما هو واضح عن كل أمل كذلك. ولكننى كان لى أن أحظى برفيق سجن مثير للاهتمام إذ قادت مخادعاته لعبد الله وآخرين بطريقة غير مباشرة للإفراج عنى. إنها ستأخذ أجيالاً للمعلمين في كلية غوردون لإجتثاث الإعتقاد الجازم للسودانيين فى "الجّن" (الأرواح، والعفاريت، والجنيات) وفى القوى الغيبية التى يُدّعى تملكها من بعض المجتمعات والأفراد. إن قروناً من أكثر أنواع الغش وضوحاً للملأ لم تهز عقيدتهم، ولذلك ما كان فى الأمر عجب أن المهدى وجد كثيراً من المقلدين فى صف صُنَّاع المعجزات، وأن هؤلاء القوم وجدوا آلافاً من المؤمنين. وكلما فشل هؤلاء الأدعياء فى مساعيهم لإنتاج البارود من الرمل، الرصاص من الغبار، والأحجار الثمينة من المعادن الرخيصة، مُنحت المصداقية للكيمائى التالى الذى يأتى بنبوءة تالية. إن رجلاً إسمه شيبو من بلاد الفلاتة (بالقرب من بحيرة تشاد)، حقّق تجارةً رائجة فى أم درمان بإغرائه الناس إعطاءه كميات كبيرة من القطع النحاسية ليحولها إلى دولارات فضية؛ وقد قدم خدماته لود عدلان، ولكن بما أن بيت المال كان قد جُرد من بعض آلاف الدولارات آنفاً من أُناس مثله، رفض عدلان أن يقبل أى إقتراحات منه.

وبوفاة عدلان، تقدم شيبو بخدماته للخليفة، وبيت المال. وقد أمر القاضى بالتحقيق فى إدعاءاته؛ وادّعى شيبو أن له سلطة على الجّن الذين يحولون النحاس إلى فضة؛ وقدم عدد من ضحاياه المخدوعين أنفسهم إلى القاضى، وتظلموا من أن جن شيبو لم يستطع تحويل النقد الذى أعطوه لهم ليقوموا بتحويله، وحسب، وإنما سرقوا النقد فى مجرى العملية. ودفع شيبو بقوله إن أعمال الجّن كانت متسقةً مع الإفتقاد إلى الإيمان من طرف الشاكين، وجنون الإستطلاع الذى أصابهم وهم يحولون أن يشاهدوا الجّن فى العملية؛ إن الجّن لا يعمل أبداً فى حضور الأغراب؛ وما من أحد غيره هو يجب أن يكون متواجداً فى المكان الذى تجرى فيه عملية تحويل المعادن. وقد أُعطى شيبو حوالى مائة دولار ثمناً للنقد النحاسى، والبخور، والأدوية، والتوابل، إلخ، لقيمة إضافية حوالى مائتى دولار، أُخذت من بيت المال، واحتُسبت على القاضى. إن البخور، والأدوية، والتوابل كان عليها أن تُسكّن من فورة الجّن الغاضب؛ ولكن لكيما يؤمن عدم إزعاجهم فى العمل، قال القاضى إن شيبو من الأفضل له أن يجرى تجاربه فى الساير حيث سيرى إدريس إنه سوف لا يتدخل فى شأنه أحد.

خُصصّ له كوخ بمنأى عن الآخرين، حيث شرع تواً فى تعاويذه وحرق البخور. ودُعَى إدريس وعدد من المسجونين ليذهبوا ويشاهدوا النقد مدفوناً فى التراب- حيث جرت تهدئة الجّن، وانتظر لربع ساعة من التعاويذ، وشيبو يتكلم لغةً لابد إنها كانت غير مفهومة له ولعفاريتة مثلما كانت لنا. وكان واجباً أن تقدم تعويذة مماثلة فى كل يوم فى تلك الساعة كل أسبوع حتى يفرغ الجّن من العمل الذى يقومون به. ويوم الجمعة، ظهراً، كنا نسأل لنذهب لكوخ شيبو، وحال إزاحة التراب، كانت النقود النحاسية قد إختفت، وحلت محلها دولارات فضية! وفى الجمعة التالية، حُول جزء فقط من النقد، وعندها تذكر شيبو أن الجّن لم يطعم، وإنه لابد كان جوعاناً. وللعفاريت أذواق رفيعة؛ لا يأكلون العصيدة، ولذلك أُطعموا فى حرية الدجاج المحّمر، والحمام، والخبز الأبيض، واللبن، والبيض، إلخ. وما كنا ليسمح لنا برؤيتهم يأكلون، ولكننا كان يسمح لنا بأن نرى العظام النظيفة وفقس البيض! ثم وقع خطأ آخر، لأنه فى الجمعة التالية إكتشف أن شيئاً من النقد لم يتم تحويله؛ وبوضوح قُضى ما بحوزة شيبو من دولارات.

إن إدريس، بطلب من القاضى، سألنى عن رائى فى الأمر برمته، لأن شيبو رغب فى محاولة أخرى. ورديت بأن الأطفال الصغار فى بلدى سوف لا يُخدعون بمثل هذا الإحتيال، وإنه إذا أراد القاضى أن ينفق ماله فى الطعام، فالأحسن له أن يشترى الطعام للنساء والأطفال الجائعين، وليس تبديده على الجّن المفترض. وإذا كانت إجابتى، أو الإعتقاد الذى خُدع فيه قد أغضبه، فذلك مما لا يمكننى قوله، ولكن شيبو حصل على جلدٍ قاس. ولم تطلق شفاه صرخة؛ ضحك على الساير، وهو يقول له أن يشدد الضرب. وبعد إنتهاء الجلد، أخبر إدريس إنه بالرغم من أن الجّن العامل معه فى ضرب الفضة قد هرب، ما لخطأ منه هو، فإن الجّن الذى يعمل معه فى صنع الذهب جاء إلى نجدته، وقد جثم على أجسادهم ليحول بينه وبين السوط. ونحو ما أشرت سبقاً، كان إدريس منسوخ الخرافة والإستعداد للتصديق، وما كان على شيبو إلا أن يخبره أن الجّن المخلص له فى صنع الذهب يمكنه أن يجعل الرصاص ذهباً، وأن يدفع شيبو لجمع الدولارات من السجناء لحساب النبى خضر. وبها أقام معملاً خصوصياً لشيبو فى منزل ود فراج، أحد الحراس - وابن معروف لإدريس. وزُود شيبو بعدد من القدور لتذويب المعادن، وجهازين من الكير، وصبيين من الرقيق ليقوما بتشغيلهما، وكمية من الرصاص وعدد من الجرادل ممتلئة بالأدوية والمساحيق من صيدلية بيت المال. ووُجه فراج بمراقبته، وأن ينتبه إلى أنه لن يخبئ أى ذهب متى حان ظهوره.

ولما ذُوبت الكتلة الأولى من الرصاص، لفت شيبو أنظار فراج إلى لونها الأحمر، مبرهناً على أن التغيير يحدث؛ ثم تراجع فراج بعيداً فى حين نطق شيبو بتعويذة أخرى؛ ولما نُودى للمرة الثانية للداخل، ورفع الغطاء عن القدر، شوهدت كتلة صفراء براقة، تتصاعد منها أبخرة قوية. وطُلب من فراج أن يغطى القِدْر بسرعة، ففعل، وترك الحجرة مع شيبو ليدع الجّن يكملون عملهم ولتبريد المعدن. وذهب فراج لإدريس والقاضى، وأخبرهم إن تحويل الرصاص إلى ذهب قد حدث بالفعل؛ وإنه رأى الذهب بنفسه. إحتار القاضى، ولكن بما أن إدريس كان يوظف شيبو فى هذا العمل، أحجم عن الحضور إلى السجن ليرى مردود الذهب. وعندما أيقن أن العمل إكتمل، ذهب إدريس، وفراج، وشيبو إلى المعمل، ولكن أنظر! وُجدت القدور فارغة. وعلى ذلك، إتهم شيبو فراج بسرقة كتلة الذهب، ودار شجار معتبر؛ وفُتش السجن والسجناء، ولما لم يوجد الذهب، جُلد فراج ليفصح عن المكان الذى خبأ فيه الذهب. ونفذ شيبو محاولة أخرى، ولكن بما أن إدريس أصّر على البقاء فى المعمل من البداية إلى النهاية، رفض الجّن القيام بالعمل، وجُلد شيبو. إن المرء لعله يفكر أنه، بعد كل هذا، سيرى الناس أن شيبو كان يحتال عليهم، ولكنهم إستمروا فى جمع المال لإلتقاط الحديث مع السجناء، والآن وثانيةً كان يتمكن من دفع دولار أو دولارين مما جناه من شخص مخدوع إلى آخر بعده. وتواترت الشكاوى ضده مع ذلك، وتلقى جلدات مكرره ليقلع عن غشه، ومات فى السجن نتيجة لذلك.

لقد كان إنه فى الوقت الذى كان شيبو يعمل ألاعيبه الكيمائية بعيداً أن حسن زكى، وهو طبيب مصرى عجوز، وكان مسئولاً عن المخازن الطبية فى بيت المال، جاء إلى الساير بشأن الأدوية التى شُريت على حساب شيبو؛ وكان زكى يعرفنى بالأسم لبعض الوقت، لأننى فى تمرس على عملى "كرجل طب" كثيراً ما كنت آرسل له مذكرات بالأدوية التى أطلبها، ولأنى لم أكن عليماً بالمصطلحات العربية، إستعملت الأسماء اللاتينية التى كنت ملماً بها لمثل تلك الأدوية. من هذا، لابد أن زكى خلص إلى أننى كيمائى كفء، وفى ذلك الوقت، كان مساعده، سيد عبد الواحد، وظل لوقت ما، يحاول إستخراج مادة السولبتر(*) فى الخرطوم وجيرتها، وقد سألنى زكى عن إنتاجها فى أوروبا، ولكننى كان علىّ أن أعترف بإننى رأيت فقط البلورات التى حُصل عليها فى المعمل لما كنت فى الجامعة، وما كانت عندى خبرة عن إنتاجها على مستوى تجارى. أخطرت زكى بالقليل الذى أعرفه بشأن إختبار البلورات، ويمكنك أن تتخيل دهشتى بعد ثلاثة أيام لما طُلبت للمثول أمام يعقوب لأشرح له تصنيع تلك المادة.

جاء أمين بيت المال الجديد – النور الجريفاوى – إلى الساير بعد مغيب الشمس، وسار بى إلى منزل يعقوب. إن المرء يفكر بسرعة تحت وطأة مثل تلك الظروف، وبوصولنا منزل يعقوب كنت قد تأملت فى حكايتى تماماً. لقد رأيت إننى لو أعلنت أننى لا أستطيع أن أقوم بالعمل فسوف لا يصدقوننى القول، وسوف أُجلد وأحصل على حديد إضافى على العصيان. إن سوقهم لتصديق إننى بوسعى تصنيع بلورات الملح يعنى إطلاق صراحى من السجن. وبعد مناقشة مطولة مع يعقوب، تم ترتيب لقيامى بتركيب ثلاثة أحواض كبيرة، حوالى ستة أقدام طولاً وأربعة أقدام إرتفاعاً، يخلط فيها تراب مشبّع بالماء، وبتجفيفه يترك ليتبخر. ولإعتقادى إننى يجب أن أُترك لصنع هذه الأحواض أو المستودعات، إقترحت ذلك، لأن تركيبهم يستدعى بالضرورة نزع قيودى. فى الصباح التالى دُعيت للسنديان، وقُطعت الحلقات التى تأخذ بقضيب الحديد الثقيل وفُتحت عنوة، وبدلاً عن سلسل الكعب الثقيل الذى كنت ألبسه وُضعت قطعة السلسل الخفيف الذى كان يغطى واحدة من بواخر غوردون. لقد كنت شاكراً حتى لمثل هذا التخفيف، لأنه نزع عنى وزناً مميتاً مقداره خمسة عشر إلى عشرين رطلاً من الحديد على رجلى، وسار بى دليل مسلح إلى النيل، حيث وجدت فى إنتظارى الأمراء يعقوب، وأحمد فضيل – الذى يسبب الإن المتاعب فى النيل الأزرق – ومحمد حمدنا الله – الوكيل القديم للزبير باشا – وجماعة من ثلاثين إلى أربعين عاملاً ومعهم مواد لصنع الأحواض. إن عبد الله متى أصدر أمراً يتبعه تنفيذ فورى.

لقد مكثت فى الساير برائحته الكريهة لما يقارب الأربع سنوات، ويمكنك أن تتخيل كيف أنى تمتعت بالساعتين اللتين قضيتهما على النهر المنساب إلى الحلفاية. بالوصول هذا المكان، قابلنا الفكى أمين، وهو فلاتى كان مسئولاً وقتها عن الأعمال. ولم يخفِ امتعاضه من أخذى إلى ذلك المكان، لأنه اعتبر ذلك فيما هو واضح حطاً من مكانته. وقد كان يستخرج المادة الملحية من تلال صناعية، يخلط التراب والماء فى قلل مثقوبة مغطاة بغربال رفيع، وبذا يسمح للسائل بالتصفية خلاله، ثم يُغلى لإستحصال البلورات؛ وكانت تطبيقاته بدائية للغاية، ولكن كان ينتج نوعية جيدة للغاية من المادة فى حجم "الإبر". أمرنى يعقوب بالبحث فى الأرض عن أى ترسبات، وبمصادفتى رقعة سوداء رطبة، ذقت التراب، ولإعتقادى أن المادة موجودة بها، خلطت بعضاً من التراب بالماء، وصبّبت المحلول فى إناء صغير لإعداد القهوة، ثم غليته. وأُضيف مزيد من المحلول للمآء مع غليانها، وبعد حوالى ساعتين كان لى راسب خفيف بخاصية سائل كثيف؛ وبصب هذا على طوبة محروقة، إمتُص السائل، تاركاً البلورات وراءه، ولما أُحرقت هذه فى فحم حجرى حار تبددت. بعد ذلك أخذت شيئاً من التراب، وجففته، ثم جعلته ناعماً، وتركته ليتساقط على النار فى شريط رفيع؛ إن "الحسيس" والتوهجات الملونة أقنعهتم أن راسباً قيّماً قد تم إكتشافه، وأُرسل حمدنا الله إلى أم درمان ليخطر الخليفة بالأمر.

فى غيابه، أخبر الفلاتى يعقوب أن إحتراق البلورات لا يبرهن أنها المادة المطلوبة؛ ولذلك تم إخطارى لإنتاج كمية ترفع إلى زكى والإغريقى برديكاكى، وهو صانع البارود لمدافع الخليفة. جاء حسن زكى للحلفاية ليفحص البلورات وأعلن صلاحيتها؛ وأرسل برديكاكى إغريقياً موظفاً معه، ولكنه لعدم إستطاعته تقديم رأى ، أخذ البلورات إلى برديكاكى، الذى بعث لى رسالة أنها لا فائدة منها، ولكنه لكيلا يعيدوننى إلى السجن سيقول إنها صالحة شريطة أن أحاول إنتاج كميات أكبر "كابّر" وليس كحبوب. وبتقديم حسن زكى تقريره إلى الخليفة، وإفادته بأننى يجب أن أحصل على أوانى كبيرة، بعث عدداً من الغلايات النحاسية الكبيرة، وحوضاً للإستحمام الميدانى لضابط. وهذا الأخير لابد أنه أُخذ من الخرطوم أو جيش هكس باشا. لقد إمتلأ الفلاتى غيظاً، ولأن يعقوب كان يعلم أن الخليفة يعتمد إعتماداً مطلقاً على الفلاتة – القوم الوحيدون الذين فيما يبدو يفهمون فى إستخراج المادة – سألنى فيما إذا كنت أفكر فى إننى قد لا أجد رواسب فى مكان آخر، وذلك حتى لا يثير

الرجل. وقد إقترحت البحث شمالاً على مسافة أبعد، ولم يجدِ ذلك شيئاً . إنه برية مكاناً قريباً من أم درمان – حيث يمكن رصد حركاتى. ثم اقترحت الخرطوم، ولكن الخليفة لا يريد لأول وهلة أن يسمع عن نقلى إليها. إن الذى دعا لإصداره قراراً ربما كان إننى بعد قضائى أسبوعين فى الحلفاية، جاءتنى حُسينه وأخبرتنى أن مكيه ماتت، وإن الخليفة لما سمع بالفقد، ولإعتقاده بأننى ليس لى ما يحملنى على البقاء فى السودان، وافق على النقل إلى الخرطوم، لأنه بها يمكن وضع رقابة أحكم علىّ. ولم أحس أسفاً لمفارقتى الحلفاية، لأنها بالرغم من توفيرها كل تسهيل لهروبى، رأيت فى الفلاتى عدواً لى لدوداً مريراً، يتجسس على كل حركاتى وسكناتى. وكان من المؤكد أنه سيحبط أى خطط ربما أتخذها للهرب، وكان الشك حليفى لو جاء أى من المرشدين لمقابلتى هناك.

عُين حمدنا الله مديراً على أعمال الخليفة لتصنيع بلورات الملح! وكان عبد الوهاط نائبه، وكان علىّ أن أعمل تحت أوامر عبد الوهاط. ولما وصلت الخرطوم، يناير ١٨٩١، وضُعت تحت إشراف خليل حسنين، مدير الترسانة، وكان على الثلاثة أن يتشاطروا المسئولية عنى مخاطرين بحياتهم. كان وهاط قد مُنح معبد البعثة كدار لسكنه؛ وأُعطيت واحدة من حجرات الرهبان المواجهة للمداخل. لقد نزع عن المكان النوافذ، والأبواب، وكل قطعة من الخشب، والمعدن، والزخارف؛ كان حطاماً كاملاً، ولكن الحديقة حُفظت فى حالة ممتازة، وكان إنتاجها – البلح، والجوافة، والبرتقال، والليمون، والخضروات – يباع لحساب بيت المال. وعندما كان وهاط، يعد جناح نومه، وجد الصرح فى طريقه، وبذل محاولتين أو ثلاث محاولات لنزعه بلا فائدة؛ ولفشله، إستعمله مكاناً لفضلات الدار، وهنا تتجمع الديكة والدجاج لفقس كتكوتها.

لما جئنا لصنع أحواض الترسيب، إقتُرح أخذ المواد من حيطان البعثة التبشيرية، ولكننى أخطرت حمدنا الله ووهاط لإننا يجب أن نعيش فى المكان، فالأفضل كثيراً أن نصلحه بدلاً من تقويضه؛ ولذا أحضرت المواد الضرورية من الخارج بواسطة خمسين إلى ستين رقيقا أُرسلوا لإعانتنا فى صنع الحياض ونقل التراب من التلال المصنوعة. وبينما تواصل تركيب الأحواض، توجب علينا إستخراج البلورات المحلية من الغلايات، إلخ، التى كانت قد أُرسلت لنا فى الحلفاية، وقد أحضرناها معنا؛ أنتجنا ما بلغ تقريباً نحو أربعة إلى خمسة أرطال يوميا فى المتوسط خلال مدة مقدارها ستة أشهر – الوقت الذى إستغرقنا فيه بناء الأحواض. وأنتج برديكاكى بعض البارود للمدافع من أول شحنة قمنا بتجهيزها؛ وكان غير صالح. إن الزميل الطيب، مع ذلك، مزجه ببارود من مخزن الحكومة الماضية، وأرسل لنا إنذاراً آخراً. وكان رئيسى، عبد الوهاط متزوجاً من إبنة على خاطر، مدير ترسانة أم درمان، الذى أرسل إليه منتوجنا من البلورات أول ما أرسل؛ ولما كان برديكاكى قد أعلمه بالنوعية الرديئة، مزج خاطر، خوفاً على زوج إبنته، الشحنة التالية بكمية معادلة لها من مخزون الحكومة الماضية فى عهدة مخازنه، وبذا إجتازت الجمع، مع أن برديكاكى إشتكى للمرة الثانية أنها كان نصفها غير مصفى. وأيا كانت الحالة، فإن البارود الذى يصنع منها سينفجر، بالرغم من أنه يترك حوالى ٢٥ فى المائة من الرماد. ولما سمع الفلاتى بالنجاح، جاء إلى الخرطوم ليفحص منتوجنا، لأن سر إنتاج بلورات نقية كان يعتقد أنه مما يحتكر معرفته الفلاتى وحده، وفى حقيقة الأمر، كان الأمر كذلك فى السودان. ومرة ثانية أعلن أن البلورات غير صالحة للأغراض التى تنشد منها؛ ولكن بما أن عبد الوهاط كان يعمل فى الأدوية فى الجيش المصرى، ومن ثم يفترض أنه كيمائى، وكنت أنا رجل طب، ومقدراً مثله، كسبنا اليوم. إستأنف الفلاتى لبرديكاكى، ولم يجد ما يرضيه فى ذلك الحى. ولكن برديكاكى ما كان أجله طويلاً حتى يتعب لأكثر من ذلك من ناحية صناع البلورات التافهة؛ وفى مناسبة الذكرى السادسة لغوردون، إنفجرت صفائح البارود فى مصنعه، فقتله ومن كان معه من عمال.

وفى وقت ما حوالى يونيو أو يوليو، ١٨٩١، إكتملت أحواضنا؛ وفى حوالى شهرين أنتجنا ما

بين خمسة إلى ستة قنطاراً من البلورات، ثم أوقفنا العمل بسبب هطول الأمطار. لقد خلطت هذه البلورات بكمية معادلة لها من البلورات الصالحة من المخازن، وأرسلت إلى مصنع البارود. ويجب ألا يتخيل أنه فى هذا الوقت كان الخليفة فعلياً فى حاجة للبارود أو مكونات صنعه؛ وكان هناك، دون علم آخرين فى المدينة، كميات كبيرة جداً، بحق، يحفظها عبدالله إحتياطاً ما أمكن ذلك، ويستهلك فقط البارود والذخيرة التى كانت آنذاك تنتج فى المصنع.

وبوفاة برديكاكى، عُيِّن حسن حسنا - شركسى، أعتقد أنه كان سابقا فى الجيش القديم ضابطا - وعبدس سيمير، وكان فى قسم التموين فى الجيش القديم فى كسلا، مسئولين عن مصنع البارود. وعندما إستُعمل مخلوطنا لتصنيع بارود المدافع، وقعت أشياء غريبة. فبعد أن أُطلقت عبوات قليلة مصنوعة من البارود، وجدت ماسورة البندقية مغطاة بقذارة بيضاء كثيفة؛ فأُجرى تحقيق. وأُحضرت لنا البنادق إلى الخرطوم، ومشيراً إلى دوبارة التنظيف، سألت عن أغراضها؛ ولما أُخبرت أنها لتنظيف الماسورة، سألت إن لم يكن من الأحسن الحصول على بارود يترك رماداً أبيضاً يمكن أن يرى من بارود يترك رماداً أسود لا تمكن مشاهدته. ولكن، مرة واحدة، لم تكن لمجادلتى فائدة. أجاب وهاط إنه ربما كنا نعمل على حياض سيئة، واقترح أن ننقل إلى مكان آخر. ولم يفعل شئ فى وقته، وعملنا لما يقرب أشهراً إضافية؛ ولكن لما كانت كميات كبيرة قد وصلت من دارفور، وبعدها، وصلت كميات معتبرة من البارود الجيد من مصر العليا وعن طريق سواكن، تمكن خاطر من تخزين بلوراتنا بعيداً، وتموين المصنع ببارود وبلورات ملحية من تلك المصادر.

كان المفترض أن تحفظ الشحنات الواردة من مصر العليا وسواكن فى الإحتياطى، ولكن ما إن إنفّجرت العبوات من بين مؤخرة البنادق، لتدمير أبصار عدد من الجنود، حتى عاد من جديد إلقاء اللوم على بلوراتنا. وعقد تحقيق جديد، وأُخطرنا أن الطلق لم يبارح البندقية، وأن حواجز المؤخرة إنفجرت على آخرها. وقد جادلنا أن هذه ما كانت لتكون خطأ للبارود، وإنما عيب فى البندقية. وبصرف النظر عما كان عليه رأى الخليفة، فقد أرسل وهاط لأتلى على النيل الأزرق حيث إستطاع، مع عدد من الفلاته الذين يعملون تحت إمرته، أن يرسل كميات كبيرة من البلورات "الإبّرية" إلى أم درمان، فى حين تابعت أنا أعمالى فى الخرطوم لأنتج كمية، من الفقر كما كانت عليه آنفا. إن عبد الوهاط موجود فى القاهرة حالياً (*)، ويخبرنى أن إنتاجنا الغالى - حوالى طنين من البلورات الملحية - لا يزال مطروحاً بلا إستعمال فى المخازن بأم درمان. ولا يزال خليل حسنين وعلى خاطر أحياء، وسوف يبتسمون بلا شك من الحجوة القائلة بأنى "صنّعت البارود للخليفة ليُردى بها الجنود الإنجليزية"، لا سيما عندما منعت أنا إستخدام رماد الخشب فى أحواض الترسيب، وهذه الإضافة، كما عُلم مؤخراً، هى سر الفلاتى فى تنقية البلورات الملحية.

بينما كنت مستخدما فى دار البعثة التبشيرية فى الخرطوم، جاء الأب أوهرولدر فى ثلاث أو أربع مناسبات ليرانى، وكانت المناسبة الأخيرة، فيما أعتقد، شهراً قبل هروبه. وكنا نجلس سوياً نتحدث عن الأيام الماضية، نواسى بعضنا بعضا فى محنتنا الصعبة، وفى محاذرة، شديدة جداً، نتنفس أملاً لعله بطريقة ما، بوسيلة ما، يأتى الإفراج عنا. ولكننى لا أذكر أننا أبداً أسّرينا لبعضنا بأى خطط للهروب. إن الأب أوهرولدر يعلم أننى تحصلت على خطابات أعدها بعض الإغريق، ولكننى لا أعتقد إنه كان على علم بأى من مخططاتى. أما إننا لم نناقش علانية مثل تلك الخطط فيبدو لى الآن غريباً - ولكنه ليس بتلك الغرابة. فحينما قاد الجميع حياة من الزيف، ما كان فيها خداع النفس بأقل من خديعة الآخرين، والإرتياب فى كل واحد حولنا، حيث لا ثقة فى أحد، أى عجب يصير إليه مآل ذلك العجب أن الخداع أصبح طبيعة ثانية، وأن الحقيقة، والشرف، والأخلاق - أى الأخلاق كما يوعظ بها فى أوروبا - تراجعت إلى نقط اللا شئ!

ولما سمعت عن هروب الأب أهرولدر، كانت النتيجة التى خلصت إليها فى الحال أن مرشدىّ،

لما رأوا إستحالة إحداث هروبى من الخرطوم، توصلوا إلى شئ ما من الإتفاق معه. لكم صببت لعناتى المحمومة عليهم جميعاً، ولكنى لم أصلى من أجل إعادة أَسرهم. حتى لو كنت فعلت ذلك، لكان أمراً بلا جدوى. ما كان هنالك شئ، شريطة أن يكون معك مال تشترى به الجمال وتنظم أفواجاً بضعة فى الصحراء، ليمنع أى واحد يرغب فى الهروب من أم درمان. إن مرشديك عليهم وحسب أن يقودونك بعيداً عن أى مساكن؛ فليس هنالك مطاردون بمستطاعهم اللحاق بك متى بلغت فوجك الأول، مهما كانت إبلهم سريعة، ولسوف تسافر بمقدار ضعفى السرعة التى ستنتشر بها أخبار هروبك، علاوة على بعض ساعات تكون إكتسبتها بداية قبل سريان الأخبار بهروبك. وفى حالة مصادفتك لأى هائم على وجهه فى الصحراء، فإن بضع دولارات سوف تسكت لسانه لأن الدولار ليس بأشد "قوة" فى أمريكا عنه فى السودان آنذاك. ولو إفترض أن الدولار يعنيه كثيراً، وأخطأت رصاصتك الهدف، فالفرصة واحد إلى الألف أن مطارديك سيلحقون بك على الدرب الذى جئت فيه، لأنهم سيهرعون ناحية المساكن القريبة من النهر، ويضيعون وقتهم فى تحقيقات بلا فائدة، فى حين تطيل أنت المسافة بينكما.

الفصل الخامس عشر

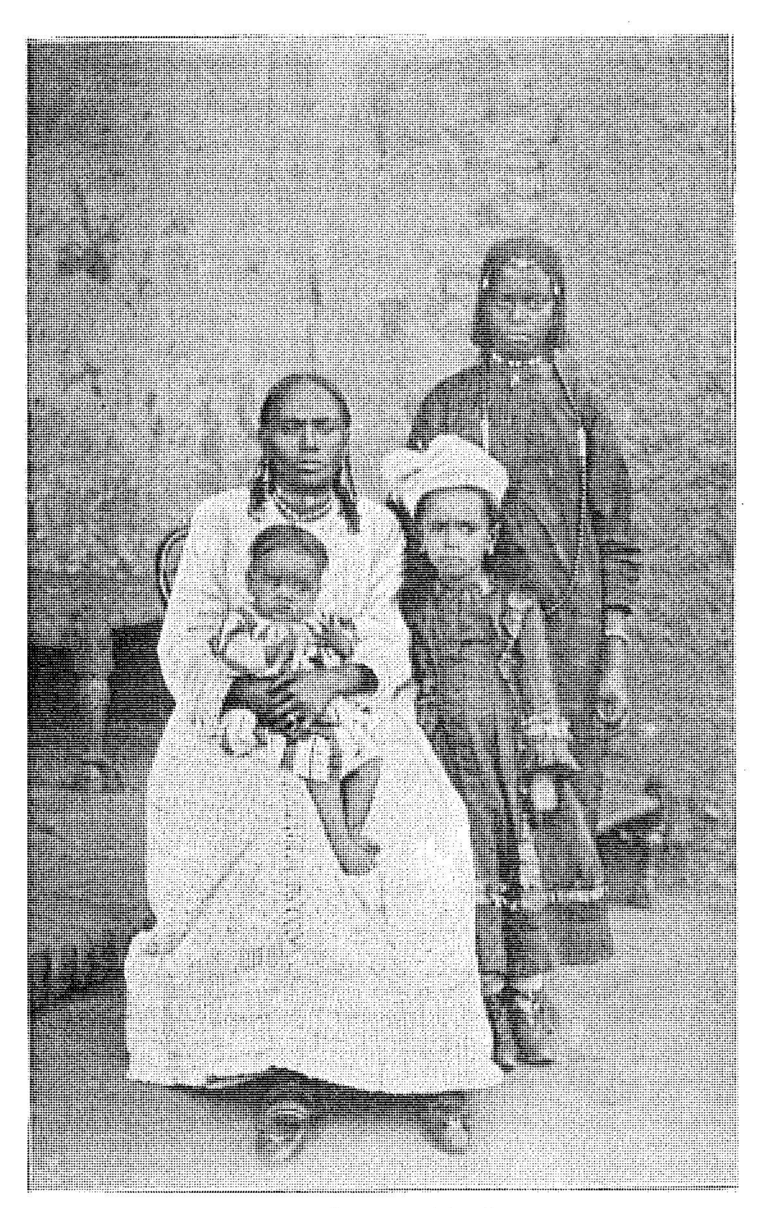
مُطلّق ومُزّوج

لكأنما متاعبى لم تكن من الكفاية فى نفسها، فحُسنيه، إضافةً إلى الشحذة وغيرها من الميول غير المرغوب فيها مما طورته منذ وفاة مكيه، إستزادت ذلك بالسرقة. وكانت بطبيعة الحال تكرس مواهبها فى هذا الإتجاه لأصدقائى، وهى تعلم أنهم، مجاملةً لى، سوف لا يعرضونها للمساءلة. بلغتنى شكاوى لا حصر لها، وأُوصيت كثيراً بالتخلص منها؛ ولكن بما أنها كانت قد بُعثت لى بواسطة الخليفة، لم أكن لأستطيع صرفها عنى دون إذنه. كذلك يثور السؤال حول العذر الذى سأقدمه لطلاقها؛ إن الكشف عن الأسباب الحقيقية ربما ينتهى إلى رجمها، أو التمثيل بجسدها، أوسجنها، وكنت أنكمش على نفسى من التفكير فى ذلك. ولابد أن أقر، كذلك، أننى، ما هى عليه من سوء وقتها، لم أرتاح إلى فكرة قذفها بعيداً عنى. ولما كنت أستلم عشر دولارات فى الشهر، بعثت كلمة لأصدقائى أننى سوف أدخر ما أستطيعه لأدفع لهم خسائرهم، وأفعل ما فى وسعى لأبعد حُسنيه عن عاداتها السيئة. حذّرنى أصدقائى أننى ما لم أكن حذراً، فأجد نفسى أمام القاضى كشريك لحُسنيه فى الجريمة؛ وإن القاضى، لأنه ليس صديقا لى، سيحيلنى لا مراء إلى السجن ثانية، وهو ما سيضع نهاية لكل فرص الهروب الممكنة.

وفى النهاية كان على حُسنيه أن تتوارى عن الأنظار. لقد أقام صديقى الأعظم، ناحوم عباجى، وليمةً فى منزله إحتفالاً بزواج إبنه يوسف. وكانت حُسنيه واحدة من الضيوف المدعوين. وقد سرقت كل المعالق والأطباق قبل أن تبدأ الحفلة، وكذلك عدداً من حاجيات اللبس لبعض من المدعوين، وباعتها كلها فى البازار. وكان ممكناً أن يغض ناحوم الطرف عن سرقتها ممتلكاته، ولكن سرقتها الضيوف وهم فى داره حملت الأشياء إلى مكان سحيق. وبعث كلمة أنه لابد لى من التخلص منها، فوراً. وبدعوتى حُسنيه للخرطوم، إضطررت للتشاجر معها بطريقة إسترعت تنبه حمدنا الله، وبإستفساره لى عن السبب لمصادماتنا المستمرة، أخبرته أن حُسنيه لا تتصرف كما ينبغى لها أن تكون نحوى، وتوسلت له أن يتدخل بواسطة الأمير يعقوب للحصول على إذن من الخليفة لتطليقها. وكان عبدالله "كريما"، فأذن بالطلاق، وبعث أمراً أنه سيختار لى زوجة أخرى. وكان هذا بالضبط ما لا أرغب فيه. فلأنى أتوقع عودة مرشدىّ بشكل دائم، كان عدم إرتباطى بإمرأة مما يهيئ إحتمالا لكسبى مسيرة ليلة كاملة متقدماً على مطاردىّ، لأن غيابى قد لا يكتشف حتى مشرق الشمس فى اليوم التالى، وهو الوقت الذى نسعى فيه للعمل، وسوف تفقد كذلك ساعات أخرى -- ومن ثم فهى كسب لى - من ناحية حمدنا الله وآخرين وهم يّجدون بحثاً عنى قبل أن يجرأوا على إبلاغ الخليفة بغيابى.

وبتقديم شكرى رداً على الخليفة، رجوت أن أترك عازباً فى بركة العزوبية لبعض الوقت؛ ولكنه رد على ذلك بقوله "إن قلبه مثقل من فقد طفلتى؛ وإنه ما من إنسان يسعد بلا أطفال، وتمنى لى السعادة؛ وتمنى كذلك أن أنعم بكل مباهج الحياة، التى لا تتوفر حيث لا توجد إمرأة؛ وإننى إذا لم أتزوج زوجة أخرى، فسوف يعتقد أننى غير مقتنع بحياتى في السودان تحت حمايته". لقد كانت رسالة طويلة فارغة المعانى تلك التى أرسلها لى، فهو لزم عليه إختيار زوجة لتُعنى بى، وقد إختار لذلك الغرض إبنة من بنات عبد اللطيف تيران.

أضحت المسائل بهذا أصعب مما كانت عليه، لأن هذه الفتاة، مع أنها أُنشئت فى السودان، وكانت تتحدث العربية وحدها، كانت من الرعايا الفرنسيين، لأنها حفيدة الدكتور تيران، وهو موظف قديم للحكومة. وكانت تدين بالمحمدية إسمياً وحسب، وتعيش فى "الحى المسيحى". ولما كانت الزيجات تتم فى هذا الحى، كان شكل الزواج المحمدى يتبع إجراوْه، ومن بعد ذلك يؤدى الأب أوهرولدر الإحتفال المسيحى الدينى خلسةً مؤخراً فى اليوم. لقد تحدثت معه حول نية الخليفة، ولما



أم الشول وطفليها

كان يعرف أننى متزوج آنفا، نصحنى أن أحاول التخلص من الزيجة المقترحة بطريقة أو أخرى، لأنه ستعتبر رباطاً ملزماً. وبعد إستقصائى الأعذار التى فكرت أنها ربما تقنع الخليفة، سألت حمدنا الله لإفادته إننى أشكره على إختياره زوجة لى، ولكن لأنها من سلالة أوروبية، وأنشئت فى حُضن عائلة ثرية حيث كانت السيدات يُخدمن ولا يقمن بأى عمل، فلن يكون لها نفع لى، لأننى أحتاج إنسانة تقوم بتمريضى، وتعد الطعام وأعمال البيت، وتذهب للبازار لشراء الطعام؛ وهى كان لها خدم يقومون بكل ذلك لها؛ ولذلك توسلت أن يسمح لى بإختيار زوجة من الريف.

إن الجزء الأخير من رسالتى لابد أنه أرضى الخليفة؛ فقد ظهر له شغفاً منى إننى "مقتنع"، ولكنه للمرة الثانية أخذ على نفسه إختيار المرأة. ولما يخبر عبدالله أى إمرأة أن عليها أن تكون زوجة لأى واحد، فإنها لا تجسر على الرفض بل إنها تقبل بمثلما أن الشخص الذى يرسل إليها لا يجرؤ على أن يرفض إستقبالها. ولخشيتى من أنه قد يبعث لى بواحدة من حريمه، سألت ناحوم وأصدقاء آخرين ليجدوا لى زوجة – راجحة. وكان هدفى أن أحضرها لدارى قبل أن يبعث لى الخليفة "بهديته"، وهى التى، بوصولها، سأعيدها على أساس إننى تزوجت آنفاً، ولا أستطيع إعالة زوجتين. ووجد لى ناحوم زوجة، وبعث لى بالتأريخ الآتى عنها.

إن أم الشول (والدة الشول – وهو إسم طفلها الأول) كانت حبشية ترعرعت منذ الطفولة بين ظهرانى أسرة إغريقية إستقرت فى الخرطوم. ولما اكتملت أنوثتها، تزوجت من أحد أبناء الأسرة. ولما سقطت الخرطوم، ذُبح زوجها، ومعه سبعة ذكور من أقاربه فى الدار الذى لجأوا إليه؛ وأُخذت أم الشول، ومعها أطفالها الثلاثة، "ملكية" لبيت المال، حيث سُلمت عشيقة لأمير من قبيلة الجوامعة. ولرفض إحتضانات ذلك الرجل لها، عذب هو، إنتقاماً منها، أطفالها حتى الموت، ولذلك هربت أم الشول لأم درمان. وبواسطة عبد القادر، خال المهدى، أحضرت قضيتها فى حضرة محمد أحمد، الذى بعد إستماعه للتفاصيل، أعطاها وثيقة مكتوبة تعلن أنها، طالما كانت قد تزوجت وولدت أطفالاً من رجل حر، إمرأة حرة، ولكن لكيما يتأكد أنها لا يدّعى أحد أنها كانت رقيقاً له، أعلنت الوثيقة كذلك أنها "عاتقة" أى (محررة) بواسطته .

ولما خلف عبدالله المهدى، أمر بكل إمرأة ليس لها زوج، وكل فتاة فى عمر الزواج، بأن يتم زواجهم فى الحال. وكان أكثر ما يعنيه على وجه الخصوص أن كل واحد فى "الحى المسيحى" لابد أن يتزوج. وتزوجت أم الشول يهودياً مسناً وعاجزاً، وظلت تمارضه حتى مات بعد عامين من الزواج. وبعودتها لإمرأة قريبة لزوجها، أعانت المرأة العجوز ونفسها بالطهى، وإعداد الأكل للولائم، والخياطة، والمهام المنزلية العامة.

كانت هذه هى الزيجة التى إختارها لى أصدقائى، وقد تقبلتها شاكراً؛ ولكن لما تقدم لها بالموضوع، تمنعت بإصرار عن الزواج ثانية، وتقبلته فقط عندما أُخبرت بأننى مريض، وقد أموت؛ وكان واجباً على أن أعين "وكيلا" (شخصاً يتصرف عنى، فى هذه الحالة) ليمثلنى فى الزواج وإحتفالاته؛ وجهّز ناحوم الوليمة فى بيته، وكانت العروسة تعد الطعام وتعنى بالضيوف. وفى نهاية بضعة أيام من الإحتفالات والولائم، أُقتيدت أم الشول إلى الخرطوم – إمرأة متزوجة، وقدمت للمرة الأولى لزوجها. وباشرت فى الحال واجباتها المنزلية والعناية بى، وبعد خمسة أشهر طويلة وشاقة قامت بتمريضى وبعثت فىّ الحياة.

وبما يمكن تصديقه تماماً، فإن حُسنيه قاومت بمرارة زواجى المزمع بأم الشول، أو بأى إنسانة أخرى، بما لا يقل عن نفورها من الطلاق، وقد قاومت هذا بمرارة شديدة فى الحقيقة، لأن سيرها كزوجة لأوروبى و "جنرال" فيما هو مفترض كان يُضفى عليها وضعيةً إجتماعيةً معينة فى أم درمان، وكانت تنتفع من ذلك عندما تدعى فى المناسبات فى الأشكال المختلفة التى مَرّ ذكرها. ولما قلت لها، "إنك طالق"، وهى الصيغة الإلزامية الوحيدة فى الأقطار المحمدية فى مثل هذا الشأن العَائلى الخطير،

أجابت بسرعة إنها كانت حاملاً للمرة الثانية. إن كلمات قليلة عن موضوع الطلاق فى السودان - والأحكام التى هى متماثلة عملياً مع تلك التى وُضعت فى القانون القرآنى - ستساعد نحو تقدير المأزق الذى أوقعنى فيه تصريح حُسنيه.

إذا أعلنت إمرأة، لدى إخطارها "إنك طالق"، أنها لها طفل، يُجبر الزوج على حفظها حتى ولادة الطفل؛ فإذا كان ولداً، يصير الطلاق باطلاً ولاغياً؛ وإذا كان إبنة، فعلى الزوج أن يعيل الزوجة خلال العامين اللازمين للرعاية، ويوفر للطفلة معاشها حتى عمر السابعة، حيث يمكنه، إذا أراد ذلك، أن يطالب بها كإبنة.

ولما كانت المرأة تطلق للمرة الأولى، ما كان يسمح لها بالزواج ثانية دونما موافقة من زوجها؛ وكان هذا يمنح له "نداءاً أولياً" فيما لو أرادها ثانية، لأن الطلاق قد يعلن لأشياء تافهة مما يحدث بسبب عدم توافق الأمزجة. وإذا إستعادها الزوج، وطلقها مرة ثانية، فإن المرأة تكون حرة لتتزوج، ولكن إذا أرادها الزوج بعد ذلك، فعليه أن يدفع لها مهراً للزواج مثلما فعل أول ما تزوجها. أما إذا توجب عليه طلاقها للمرة الثالثة، ثم رغب فى إستردادها فعليه أن ينظم أمر زواجها - وتطليقها - من أحد غيره أولاً، إذا كانت حرة فى العودة إليه. إن كل هذا قد يبدو غير أخلاقى للناس فى أوروبا، ولكن الواحد لا يسعه سوى أن يُعجب ببساطة الإجراءات؛ وأن يعتبر مقدار الشقوة العائلية التى يحول دون إنتشارها. ليس هناك إختبار عام للأطراف المعنية؛ وليس هنالك نشر لتفاصيل تثير الإهتمام فى الصحف؛ وهنالك تفكير صغير يعطى للمرأة التى ربما كانت هى أم لأطفالك، وإن كانت قد إنحدرت إلى طريق الرذيلة، فإنك لا توسعها صياحاً من جنبات المنزل؛ إن الزواج كان تدبيراً شخصياً بينكما، وكذلك الطلاق، وأسباب الأخير شأنك أنت وليس من شئون غيرك.

لقد لامست أمر الطلاق بشئ من التفصيل، لأن كثيراً من الزيجات المعادة تحت طائلة كل الظروف المذكورة آنفا حدثت بالفعل، وأصبحت بعض سجلات العائلات عقدة لا أمل فى فضها للجميع خاصةً أولئك الذين تعنيهم مباشرة. ولما ستأتى حكومة السودان الجديدة لتبت فى المطالبات بالملكية، فإنها سوف تُواجه بجملة من ألغاز "الخلافة" لتتولى حلها، فإمرأة ما قد تكون هى الأم الفخور بالورثة الشرعيين لثلاثة أو أربعة أشخاص مختلفين، ولكونها أرملة وأم للشخص الوارث، فهى تستحق نسبة ثابتة من الملكية، ويمكنك أن تتأكد أنها ستقاتل حتى الموت لتأمين مصالح إبنها.

إن حُسنيه ما كان لها أن تؤول إلي الحالة التى أعلنت نفسها عليها، لأننا كنا منفصلين لفترة أطول مما يحدده القانون. وكنت ملزماً لإخطارها بأنها إذا جمعت محكمين، على غرار إدريس الساير، فإن كل الشروح التى ربما يقدمونها سوف لا تقنعنى أن لى أى علاقة بالطفل بأكثر مما كان لى مع مكيه، وليس هنالك شئ الآن ليغرينى للمطالبة بالأبوة، -- حقاً العكس هو الصحيح. ومع ذلك، فإذا كان لحُسنيه طفل، فسأكون ملزماً للإحتفاظ بها لعامين على الأقل، وإذا أرسل الخليفة هديته، فسيكون لى بيتين لأعولهما بعشر دولارات فى الشهر. وكنت عندما أعد أى خطط للهرب، أشمل حُسنيه فيها؛ فكانت سوف تهرب على نفس الهجين مثلى. ولما يرجع مرشدىّ، فسيجدوننى بصحبة زوجتين، وبما أننى كنت قد أجريت تحضيراتى لواحدة وحسب، فربما يتزمرون من أخذ الإثنين. وكانت الإحتمالات أنهم سيتركون الأمر كله مرة واحدة، خشية من أن واحدة أو الأخرى ربما ستخونهم، مما يعنى الإعدام الفورى لهم والسجن لى. وإذا إحتفظت بحُسنيه، فربما تسرق من غريب ما، لأن بيوت أصدقائى الآن قريبة منها، وبالتالى فسأُعاد إلى الساير؛ وإذا بعثتها بعيداً عنى، فإنها، لمعرفتها بمرشدىّ وكل إستعداداتى، سوف تكونِ أول من سيقابلهم لدى وصولهم أم درمان، وستصر على الذهاب معى تحت تهديد الإفضاء بالمؤامرة. لقد كان ذلك أشد مأزق حرجاً لى؛ ولكن بعد نظرتى للأمر كله بكل عناية، قررت أن أتخلص من حُسنيه، وأن أُعوّل على الحظ فيما سيأتى من خطب. وكنت أؤمل أنها قد تتزوج من شخص آخر فى أم درمان، ومن ثم لا يوجد ما أخشاه منها. ولكنى حُسنيه

عادت فى فبراير ١٨٩٢، بعد أشهر قليلة من زواجى من أم الشول، وهى تحمل كومة صغيرة من ذكور البشر، الذى كان قد ولد منذ ثلاثة أو أربعة أشهر متخلفاً عن حالة مكيه.

لقد كانت حُسنيه تحمل نحوى ما يعادل فى السودان العاطفة التى ندركها؛ لقد أنقذت حياتى عندما أُسرنا أولاً؛ وقد قامت بتمريضى، لأنه لم يكن لغير إمرأة أن تفعل، بعد أن ضربتنى حمى التيفود، وقد حالت دون جوعى أيام المجاعة. ولكننى مع عدم إستطاعتى نسيان كل هذا، لا أستطيع أن أنسى كذلك أنها أصبحت مصدراً لخطر عظيم يتهددنى، ومع أن معاملتى القاضية بصرفها عنى بعيداً عندما فعلت ذلك، ربما تبدو للبعض غليظة فى وجه ما قامت به نحوى، يجب ألا يُنسى أن الحفاظ على النفس لا يقل قانوناً فى السودان عنه فى أى مكان آخر. ولقد توليت إعالة حُسنيه لحوالى عامين، لما مات طفلها. ثم غادرت الخرطوم، حين كنت لا أزال سجيناً مقيداً على الإطلاق، واتّبعت السوء بلا حدود. وكنت أسمع عنها من وقت لآخر، وعند إفراجى فى سبتمبر الماضى، وسماعى أنها فى بربر، تأخرت هنالك حتى طاردتها وهى تخرج من وكر للرذيلة كانت تعيش فيه، ووفرت لها مكاناً آخراً، لا لشئ إلا لأستلم برقية تلغرافية بعد أسابيع لاحقة تقول، إنها مشتبقة إلى الحياة التى كانت تعيشها سنوات قليلة ماضية، هربت لتعيدها سيرتها الأولى.

إن هذا التصرف من ناحيتى هو الذى أثار الحجوة القائلة بأننى أحضرتها إلى القاهرة معى، حيث وصلت زوجتى، "لتواجه بزوجة سوداء بعد كل هذه السنوات من القلق النفسى والمقاساة، لا بشئ آخر". لماذا يجب أن تلوى الحقائق بكل هذه المثابرة، أمر لا أفهمه. وبقيامى بذلك المجهود الأخير - والذى لا أقول إنه نهائى - من أجل المرأة التى، فى وقت ما، أدين لها بالكثير، أحس أنه ليس عندى إحساس ما بالعار. وهؤلاء الذين يفكرون تفكيراً مختلفاً عليهم أن يتذكروا أنه يأخذ الواحد وقت جَدّ قليل ليتخذ ثانية المفاهيم والأفكار الأوروبية بعد إثنى عشر عاماً من الأغلال والعبودية وسط قوم كنت مُجبراً على الإرتباط بهم؛ وما من أحد فى السودان كان أكثر بُعداً من العالم مثلما كنت أنا .

الفصل السادس عشر
الأمل واليأس

حينما كنت لا أزال سجينا فى الساير، تعاقد منقريوس أفندى، مع محمد فرجون وسليم على، مع رجل من العبابدة، محمد عجيب، ليأخذ طريقه لأم درمان مستقصداً ثلاثة أهداف: عليه أن يتحقق من إننى على قيد الحياة؛ فإذا كنت كذلك، أن يدفع لى مائة دولار، ثم يحاول إتخاذ تدابير لهروبى. ولدى وصوله أم درمان، إلتقى عجيب بإثنين من قومه - محمد وكرار بشير - اللذين أوصياه، عندما تساءل عنى، ألا يذكر إسمى إن أراد أن يحتفظ برأسه على أكتافه. وكان بإمكانهم أن يخبروه إننى كنت لا أزال فى السجن، مقّيداً وتحت حكم بالإعدام. أُعطى كذلك نفس المعلومات ونفس التوصية من ناس فى حى المسلمانية؛ ولكن إغريقيا يعرفه عجيب فقط بإسم المهدية، عبدالله، قال إنه سينظم إجتماعاً بينه وبين خادمى. وبواسطة حُسنيه، أرسل لى عجيب كلمة واحدة عن غرض حضوره لأم درمان. وفى حين تقدم لى الإغريقى بعرض لأن يصبح موضعاً لثقتى، سلمه عجيب المآئة دولار، وأخذ منه إيصالاً، ثم بإرساله الإيصال لى مخبأ فى قطعة خبز حتى أوقع بإستلامه. كان واجب عجيب أن يرجع إلى أسوان، ليعلم أصدقائى كيف تسير الأمور، ويخبرهم إننى سأحاول الإتصال بهم، إذا أُفرج عنى أبداً من السجن لأن الهروب من السجن مستحيل. وعاد عجيب إلى أسوان، وسلم الإيصال؛ ولكن الحكاية التى سردها كان من شأنها أنها وضعت نهاية، فى الوقت الراهن، لأى محاولات لإعانتى إضافةً على ما حدث.

ولما هرب الأب أوهرولدر، وفى رفقته راهبتين وخادمة زنجية، شرع منقريوس فى الحال لإيجاد رسول ما يعتمد عليه وراغب فى القيام بالرحلة إلى أم درمان للتأكد من إمكانية هروبى أيا كان. وكانت حجته إنه إذا كان الأب أوهرولدر قادراً على الهرب بصحبة ثلاثة نساء كعبء على هروبه، فما من شئ، ما كنت حراً، ليمنع هروبى؛ ولكن الذين يعرفون السودان - وهم الذين يمكنه إستخدامهم لا غير - جادلوا أنه إذا كان بقية الأسرى قد تم قتلهم آنفاً، فسيجدونهم مقيدين بالأغلال فى السجن فى إنتظار إعدامهم. ومضت شهور قبل أن يتمكن من إيجاد أى واحد يتعهد بالرحلة، ثم توصل إعرابى مسن ولكنه صلب فى الصحراء إلى إتفاق معه، وهو الحاج أحمد أبو هوانين. وقد أُعطى هوانين جملين، وبعض المال، وكمية من البضائع ليبيعها ويقايض بها فى طريقه للسافل.

وفى وقت ما فى يونيو أو يوليو، ١٨٩٤، جاءنى أبوكيس، وهو رجل موظف فى حدائق البعثة، بينما كنت أعمل فى تلال الخرطوم، وهمس لى أن رجلاً يحمل أخباراً لى يختبئ فى الحدائق، وإنه علىّ أن أحاول تنظيم إجتماع معه. كان الرجل هو هوانين. ولأننى كنت دائماً حّذراً من الفخاخ التى ينصبها لى الخليفة، سألت الرجل عما يريد. فأجاب أنه جاء من طرف أصدقاء ليساعدنى. ولم يحضر معه رسائل، ولكن بسؤاله إختفت شكوكى عنى وسرعان ما تعمقت معه فى مناقشة الخطط لهروبى. إن الإبل التى جاء بها معه، كما قال، ليست ملائمة لعمل هروب سريع، واقترح أنه يجب أن يرجع إلى أسوان، فيهيئ جملين عدائين، وكذلك زوجاً من المسدسات سألت عن إحضارها، لأنه كان الأكثر إحتمالاً إننى سأستخدمهما للخروج نهائياً من الخرطوم.

وبعد رحيل هوانين مباشرة، ظهر الدليل عبدالله، الذى كان قد قام بتهريب روسيجنولى. وسأل أحمد ود الفكى، الموظف فى حديقة ماركوت القديمة إن كان ممكناً مناداتى لرؤية رجل مريض فى داره. ولما بلغت المكان، قدمنى فكى إلى رجل يافع، عبدالله، الذى بعد تبادل بضع كلمات سألنى أن أقابله فى اليوم التالى حيث سيحضر لى رسالة. قابلت "مريضى" ثانية، فسلمنى قطعة من الورق عليها علامات باهتة تبدو للعيان؛ إنها، فيما قال، ستظهر صافية عندما تحرق الورقة، ولما كان الكى واحداً من التطبيبات المفضلة فى السودان، إستجلبت بعض الفحم المشتعل دون أن يثير شبهة.

كانت الكلمات عند ظهورها، تُثبت أن الرجل ليس جاسوساً، وإنما جاء حقاً من وزارة الحربية المصرية؛ ومع ذلك، قبل أن نجد وقتاً للإنغماس فى مناقشة الخطط، إقترب منا بعض الرجال العاملين فى المكان، وكان لزاماً علينا تأجيل الأمر لليوم التالى، الذى يتأتى علىّ فيه أن أقابل "مريضى" ثانية.

الهروب بمحاذاة الضفة الغربية من النيل ما كان وارداً التفكير فيه؛ فذلك مما يستدعى مرورنا بأم درمان، وكان من غير المحتمل أن نجتاز المدينة دون أن نُرصَد. وكان على عبدالله، بعد أن ترك جماله وبندقيته فى بربر، أن يعود إليها ليأخذهم، ثم يقفل عائداً بأسفل الضفة الشرقية للنيل، التى علينا أن نسافر على طولها عندما أهرب. وخلال غيابه قمت بإرسال أم الشول لزيارتها الأسبوعية لأصدقائها فى الحلفاية؛ فهى كانت ستهرب معنا، وقُضى التجهيز ليخدم غرضين. أولاً، إن زياراتها سوف لا تستجلب شكاً فى اللحظة الحرجة، فالناس فى الحلفاية والخرطوم إعتادوا عليها؛ كذلك كانت هى ستحضر معها المسدس الموعود به ملفوفاً فى ثيابها، ثم تعود للحلفاية فى زيارة ثانية. وستراقب هى وعبدالله ضفاف النيل الأزرق بالنسبة لى ويساعداننى على الوصول للضفة. إن هروبى يجب أن يحدث وأنا راسف فى الأغلال، وهى بالطبع، ستغل إستخدامى للأرجل فى السباحة. وكان واجبا علىّ أن أثق فى دعمى بقطع من الخشب الخفيف على الضفاف، يستعمله الأطفال والرجال عنما يمرحون مروحين عن أنفسهم فى النيل، وكذلك أن أعتمد على التيار وأى شئ يعيننى مما أجده فى يدى عندما أبلغ الأرض فى الشاطئ المقابل.

ذهب عبدالله، ولكنه لم يعد أبداً. وظللت محافظاً على إتفاقى أشهراً، لأن الخطط التى وضعتها مع عبدالله كانت شبيهة بالتى وُضعت مع هوانين. إلى جانب ذلك، كان على عبدالله فى حالة عدم إستطاعته إيجاد المسدسات فى بربر، أن يواصل رحلته إلى أول محطة عسكرية، ويحصل عليها هناك ويبدل إبله مقابل جمالٍ عَداءة، لأن الإبل التى تركها فى بربر كانت من فصيلة ضعيفة. ولكيما يبرهن لأى ضابط يلقاه إنَه كاَن بالفعل مُستأجراً لإحداث هروبى، أعطيته خطابين مصاغة فى كلمات تكون معانيها ألغازاً غير مفهومة، إذا وقعت فى قبضة الخليفة أو أى من الأمراء. فى كل يوم أثناء تلك الأشهر كنت أطالع الأفق فى تشوقٍ لأى علامة من أى واحد من القوم الذين عُهد إليهم بتهريبى.

لأسباب عديدة إعتبرت من النصح أن أقابل عبدالله بعد إطلاق صراحى، وقد فعلت ذلك، ولكن لأجعل توضيحاتى قاطعة، رتبت كذلك لأن يسائله آخرون فى هرب روسيجنلى والأسباب التى جعلته لا يفئ بإلتزامه معى، وهذا هو ما ذكره.

عندما فارق القاهرة، مُنحَ نوعاً من المهمة المزدوجة؛ فقد وُعد بثلاثمائة جنيه إذا أحضرنى سالما، ومائة جنيه إذا أحضر أى أسير من الأسرى الآخرين. ولما رأى المشاق المتضمنة فى إحداث هروبى، وبتقديره للمخاطر، مالم يكن لدينا مسدسات وجمال خفيفة السرعة، قرر "تطبيق الخطة الأخرى"، فيما عَبّر عنه، تحديداً هروب روسيجنولى، لأنه "كان حراً ويمكنه الذهاب لأى مكان حسبما يسُره"، فى حين كنت أنا مقيدا بالأثقال وموضوعاً تحت أعين حراس. وبدلاً من الرجوع للجمال، نظم عبدالله لروسيجنولى هروباً بالحمار حتى بربر. ولما صار على بُعد مسافة من أم درمان، قفز روسيجنولى من ظهر حماره، ومشى على أربع، ثم رفض أن يتحرك عن موقعه، قائلاً إنه تعب. حاول عبدالله أن يحثه على مواصلة الرحلة، ولكن روسيجنولى رفض، وقال إن عبدالله قائده لا محالة للموت، وطالب بإرجاعه إلى أم درمان. ولبضع لحظات، يعترف عبدالله أنه صُعق وتملكه الخوف. فالرجوع لأم درمان كان يعنى الجنون والإنتحار فى رأيه؛ وترك روسيجنولى يسير فى الصحراء على أربع يجعل القاهرة خطراً ماحقاً عليه مثلها مثل أم درمان، لأنه من ذا الذى يصدق حكايته هناك؟ وأحس باليقين أنه سيتهم بالتخلى عن الرجل، وكانت هناك فرصة لأن يكتشف روسيجنولى من مطارديه، عندما تجرى المناداة والصراخ للخليفة.

إن الفرد لا يسعه سوى الإعجاب بحل عبدالله للمسألة. لقد كانت هناك شجرة تنمو بالقرب منهما؛ فاختار منها فرعاً كثيفاً جيداً، وبه جلد روسيجنولى فأعاده إلى أحاسيسه الصحيحة أو إلى إطاعة أوامره؛ ثم أجلسه على الجمل وراءه، آخذاً طريقه لبربر. وهنا، بدلاً من البقاء فى الخفاء، تجول روسيجنولى فى المدينة، وتعرف عليه بعض الناس، وعندما تحدثوا إليه، قال لهم إن عبدالله كان يقوده إلى مصر، ولكنه يفضل الرجوع إلى أم درمان. ولحسن الحظ أنقذ شره الأهالى للثروة عبدالله؛ فقد منح البقشيش للناس مقابل ساعات قليلة من الصمت عنهما، وأخلى ساحته بصعوبة عظيمة من المدينة، وبصعوبة أعظم واصل ضربه "وتعذيبه ولعنه" حتى دخل به مصر والأمان. هذه حكاية عبدالله نفسه. وقد أكد لى، وإننى أصدقه، أن نيته، حال تسليمه روسيجنولى سالماً، كانت تتجه للسؤال عن المسدسات والرجوع ليحاول أن يحقق هروبى، على ما فيه من مخاطرة؛ ولكن بما أن روسيجنولى أفضى بإسمه فى بربر، فهو يعلم جيداً أن الخليفة عَيّن رجالاً يتربصون به الدوائر من أم درمان إلى الحدود، ولم يبين هو حساً أفضل عندما جلد روسيجنولى مما أظهره بإقامته بالمائة جنيه التى أحسن كسبها مستقراً، بدلاً عن محاولة مضاعفتها لأربعمائة بإجتياز الحدود.

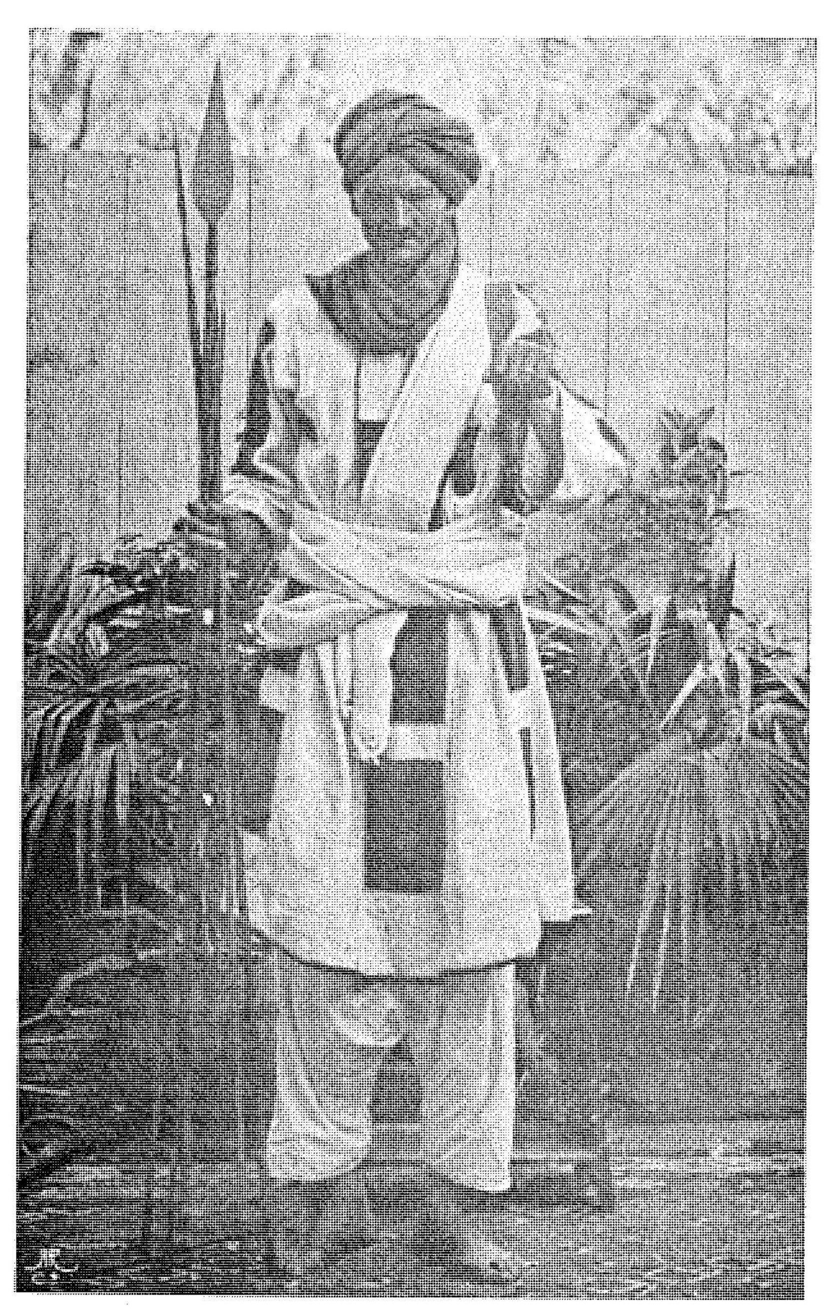
لم يلاحظ غياب روسيجنولى لبعض الوقت، ولحسن الحظ، فالحمار يترك آثاراً أفضل لقص الأثر من الجمل. ولم يكن الخليفة غاضباً على وجه الخصوص فى هذا الشأن، مع إنه حبس السيد كوكور أمبو لمدة يوم، وهو زوج الراهبة جريجالينى، كبيرة الراهبات السابقة فى بعثة الأب أوهرولدر، ورفيق روسيجنولى من العامة، بيبو؛ ولكن الأخير، بعد هروب سلاطين، أصبح رفيق سجنى فى الساير.

إن المرء يميل للإعتقاد أنه لا أنا ولا بعض كتاب الدراما إخترعنا عن قصد سلسلة الأحداث، التى تلاحقت لتحبط أى خطة من خططى للهروب. وفى ٢٨ فبراير، ١٨٩٥، ودونما إنذار، أُهيلت فوقى الأغلال حتى عجزت عن الحركة، ووُضعت تحت حراسة مزدوجة فى منزل شريف حمدان، حاكم الخرطوم فى المهدية. وفى البداية حدست أنه لا عبدالله ولا هوانين إرتابوا فى أمرهما وسُجنا، أو أنهما إعترفا، أو أن مؤامراتنا إفتُضحت بطريقة ما، حتى إنه، ما بقليل من الدهشة، إستمعت إلى الأسئلة التى طُرحت علىّ فيما يختص بهروب سلاطين. لقد أنكرت أى معرفة بهروبه، أو أى ترتيبات متعلقة به. وأشرت إلى أننى لم أره، ولم أتحدث إليه، ولم أسمع عنه لثمانى سنوات مباشرة، ويمكن لسجانى وحراسى إثبات ذلك. وما كان ذلك بلا حس بالعدالة نحوى، وإنما ليبرهن على أنه لم يهمل واجبه فى الرقابة الصارمة لى، أن حمدنا الله قام بدور المحقق معى. وربما كنت يطلق صراحى ثانية، لولا أن هوانين ظهر أياماً قليلة من بعد إكتشاف هرب سلاطين.

لم يبلغ غياب سلاطين من محطته المعتادة للخليفة إلا بعد مضى ثلاثة أيام من هروبه؛ وكان يفترض أنه مريض. وفى اليوم الثالث، أُرسل الحاج زبير، رئيس حرس الخليفة الخاص، إلى منزله ليتحرى الأمر معه. ولما لم يقتنع بالرد الذى تلقاه، أخبر الخليفة، الذى أمر بإجراء بحث فورى. وُجدت رسالة من سلاطين إلى الخليفة مغروسةً فى سيور بندقية، وأُخذت إلى الخليفة. وبعد المقدمة المعتادة من الثناءات والبركات واصلت الرسالة —

"لعشر سنوات جلست على بوابتك؛ إن طيبتك وكرمك كان عظيماً معى، ولكن لكل الرجال للعائلة وللوطن؛ وإننى ذهبت لأراهم؛ ولكن بذهابى لا أزال متمسكاً بالدين الحق. إننى لن أخون خبزك وملحك أبداً، حتى لو مت؛ لقد أخطأت بالرحيل دون إذنك؛ إن كل فرد، بما فى ذلك نفسى، يُسلم بقوتك ونفوذك العظيم؛ سامحنى؛ إن رغباتك هى رغباتى؛ ولن أخونك أبداً، سواء بلغت وجهتى أو مت فى الطريق؛ سامحنى؛ إننى قريبك وأدين بدينك؛ فأمدنى بعفوك".(*)

إن عبدالله، بعد إدراكه أن سلاطين هرب بالفعل، وإنه استغرق آنفا مسافة ثلاثة أيام قبل أى مطاردين يرسلهم وراءه، إستشاط غضباً؛ ولفقده السيطرة على مزاجه، أظهر كرهه الشديد له أمام



سعيد بك جمعه

الأمراء، والقاضى، والحرس الخاص المجتمعين معه. وذكّرهم أنه عندما أظهر سلاطين فى بداية الأمر خضوعه، إستُقبل بالتشريفات لأنه اعتنق صراحة العقيدة المحمدية وتم ختانه بيما لا يزال حاكم عام دارفور "التركى"؛ وذكّرهم كذلك كيف أن سلاطين سُمح له بإحضار آل بيته، وحرسه الخاص، وخدمه إلى المعسكر معه، وقد أُلحق بجناح المهدى الخاص، الذى كان هو عبدالله، رئيسه؛ وكيف أنه، مع زقل، تابعه السابق، عُهد إليه بإخضاع سعيد جمعه، الذى رفض أن يسلم الفاشر عندما أمره هو بذلك؛ وكيف إنه بنفسه عامله كأنه ابنه وأمين سره، ولم يتخذ أى خطوة أبداً دون نصحه وإرشاده؛ ولكن فجأة، وقد رأى الخطأ الذى وقع فيه بإظهار كيف إنه كان شديد الإعتماد عليه، لملم نفسه، وقطع حديثه ليقول بما سيفعل بسلاطين إذا وضع يديه عليه أبداً، ووعد بعقوبة مماثلة لأى أحد غيره يقابل جمايله بالجحود والكفران. وبقراءة رسالة سلاطين جهراً له، هدأ عندما طالع إعلانات الولاء، وأمر بقراءة الرسالة فى الجامع وأحياء أم درمان المختلفة. لقد كان عبدالله يعتبر متوحشاً بالغ الشراسة جهولاً، ومجرداً من كل قدرة على البداهة العقلية، وليس ببعيد عن خلقة الوحوش الضارية إلا قليلا. وبما إننى أستطيع إبرازه لاحقاً، ربما، فمثل هذا التعبير عن الرأى إما أنه يحمل إنكاراً معه، أو إنه يسدى تقديراً ضعيفاً للغاية لأولئك الذين، كانوا فى يوم ما حكاماً لمدن ومديريات، أو من كبار المسئولين، وهم يحنون قاماتهم، ويقبلون الأيادى، ويصلون إلى مستوى الركوع لتقبيل أقدام الممثلين لهذا "الوحش الجاهل"، الذى لسنوات إمتثلوا له. ولأن عبدالله كان يحترمنى، فإننى أحترمه للقدرات الألمعية التى عرضها، والتى فيما يبدو أصابت بالشلل قدرات الآخرين الذين كانوا له خاضعين.

إن سلاطين، بعد أن قدم عرضاً جيداً لنفسه فى معاركه الكثيرة، كان، بعد إمتثاله، يُنظر له على أنه العبقرية العسكرية لجيش المهدية؛ ولم يكن يستطيع، كما فعلت أنا، أن يمارس أى حيل مخادعة فى العمل الذى يعهد إليه بإنجازه؛ والخريطة التى رسمها لمصر، مبينة المدن والطرق الرئيسة، والتى عليها أمر كاتب التلغراف السابق، محمد سرى، بكتابة الأسماء العربية، أعطت البعض الفكرة القائلة بأنه ليست هناك أى حملة يمكن أن تخطط بدون عون سلاطين وهذه الخارطة. إن هدف عبدالله من قراءة هذه الرسالة علناً يجب أن يُدّرس؛ إنها أولاً، ستؤكد للدراويش أنفسهم إنه ليس هناك خوف من سلاطين، بعد إعلاناته بالولاء، من أن يعود على رأس قوات الحكومة ليطيح بحكم المهدى، وإنه دون عون من الخارج فإن المهديين المتقلبين لا يمكنهم أن يأملوا فى الخلاص من ربقة عبدالله. علاوة على ذلك، فإن قراءة الرسالة على الأسرى ستؤيد الرأى الذى تكون لدى الكثيرين، أن سلاطين كان بقلبه مع الأسرة السودانية الحاكمة الراهنة، وإنهم لا يمكنهم توقع أى عون نتيجةً لهربه.

هنالك حدث آخر، لابد من ذكره هنا، لتبيان كيف كان عبدالله دقيقاً بحق. لقد كان سلاطين معلنا على الملأ تحوله إلى المحمدانية قبل خضوعه للمهدى، وذلك حتى إذا ما سلم بالفعل، يقبل كأحد المؤمنين، ويعامل كواحد منهم. أما بقية الأسرى الذين أُخذوا قبل سقوط الخرطوم وبعدها – فكانوا، حتى وقت هروب روسيجنولى، قد قُبلوا بالفعل كمسلمين. وبإقتراح من يوسف منصور، فى يناير الخامس والعشرين ، عام ١٨٩٥، كان الخليفة متكرماً بما فيه الكفاية ليضم الجميع إلى معيته كمؤمنين حقيقيين بالعقيدة، وفى مناسبة إحياء ذكرى موت غوردون، كان كل المسلمانية (المسيحيين) يؤمر بختانهم، والوحيدان اللذان لم يختتنا، فيما أعتقد، هما بيبو، الذى صُرف النظر عنه بينما كان سجيناً فى السجن، وبناء إيطالى عجوز، التمس لكبر سنه إعفاءه من العملية. إن الحى المسيحى، لذلك، إبان هروب سلاطين كان يعتبر مجتمعاً مسلماً، والحصانة العملية التى تمتعوا بها من التطبيق المتشدد لقوانين المهدى وُضعت لها نهاية على ذلك النحو.

من ثم، حال هروب سلاطين، وتركه وراءه تلك الإعلانات من الولاء، كان آمن كرت يلعبه الخليفة أن يقرأ عليهم رسالته. إن قراءتها سبّبت قليلاً من الخلعة والخوف والتعقيب، بلا شك، ولكنى كنت قد

عَبّرت عن رائى آنفا بالمجهر الذى يجب أن تُقدر به تلك الرسالة. لقد كانت حركة ذكية من عبدالله؛ وضاعت أدراج الرياح كل الآمال من جانب السودانيين الساخطين فى أن تصل أى مساعدة من سلاطين لذر مملكة الخليفة فى الهواء ذر الغبار، بقراءة الرسالة على الجمهور، وكذلك وضعت نهاية لكل الآمال من ناحية الأسرى المسلمانية السابقين في الهروب، لأن النسبة القليلة من موظفى الحكومة القُدامى الذين كانوا، حتى ذلك الوقت، يعتقدون جازمين أن سلاطين كان يتصرف، فيما عَبّروا عنه، "بوليتيكا" فى كل صفقاته، إنضمت الآن جماعتهم إلى صفوف الذين إعتقدوا إعتقاداً مخالفاً. وفى ذلك، بالطبع، كانوا خاطئين.

وبعد القراءة الكاملة للرسالة بعث الخليفة لموظفى بيت المال المسئولين وأمرهم بإمتلاك بيت سلاطين، وزوجاته، وخدمه، وأرضه، وأبقاره، وصرف لهم تعليمات صارمة فى نفس الوقت بأن يعامل آل بيته معاملة رقيقة، بوصفهم ملكية لمسلم حقيقى. إن زوجته الدارفورية، حُسنيه، التى كان قد إقترن بها لما كان حاكما عاما على دارفور، طالب بها من بيت المال داؤود (سلطان) بَنَقّا بإعتبارها من عائلة ملكية، وقد زُوجت بواسطته إلى أسرة دارفورية ملكية أخرى. وخلال أيام قلة من بيت عدتها، كانت زوجته الحبشية، دسته، تنجب طفلاً، ما عاش إلا أسابيع قليلة، أما نتيجة للخوف وإجتياح البيت والحط بمكانتها إلى موقع الرقيق العادى، أو نتيجةً لما كان سيصير لها، فى حالتها الحساسة، تناولاً فظاً.

لقد كان خلال الوقت الذى كان فيه الخليفة ينتظر عودة الكشافة الذين أرسلهم لإعادة أسر سلاطين أن هوانين أطلّ بطلعته فى أم درمان. وقُبض عليه فى الحال، واتُهم بالمساعدة فى هروب سلاطين، وكذلك للعودة لإحداث هروبى. وبدفعه بإنكار أى معرفة بى أو بسلاطين، لم يصدقه أحد؛ أُرسل بداية للساير، ثم لرفضه الإعتراف، أُخرج منه وجُلد. ولم يستصدر ذلك منه إعترافا؛ ولما كان الخليفة غير راض بذلك، فقد أمر بجلده ثانيةً، ولكن البشاريين توسطوا لهوانين، ونجحوا فى إستحصال حريته. وبينما إجتاز مُخَلِصى القابل بوابات الساير، دخلتها أنا (٢٦ مارس، ١٨٩٥). ولم يفقد هوانين وقتاً ليرجع إلى أسوان، بظهره الممزق وجروحه المتقرحة دون أن يقوى على حملها، ووضع ذلك نهاية أخيراً لكل المحاولات فى ذلك الحى لإعانتى على الهرب بأى طريقة، أياً كانت.

لعله مطلوب كذلك ألا أحاول وصف حالتى العقلية عندما وجدت نفسى ثانية فى الساير. إن لى فكرة خافتة عما كانت حالتى عليه قطعاً؛ اليأس لا يصفها؛ لربما الجنون من الآمال المهدرة. نعم، لابد إنى كنت فاقد العقل؛ ولكننى كنت متملكاً لعقلى، إن كان مثل ذلك التناقض فى مجرى الأمور مسموحاً به. إننى أذكر أننى لأيام، كنت أجر أقدامى من مكان لآخر، رافضاً النظر أو التكلم مع أى أحد. وربما أن ما جرنى حول المكان هو ، تبعاً لتسكعى، إننى جئت بالقرب من سنديان الساير وسمعت رجلاً يبكى. لقد كان إبراهيم باشا فوزى، المفضل قديما لغوردون، الذى كان يقيد بالسلاسل. إن إعتراضاتى على تصرفه كالطفل وتوعدى له للإحساس بالرجولة، منع ثانية تساقط الخيط الرفيع ما بين الرجحان والجنون. ولابد إنها بشكل ما، قد هدأتنى وأراحتنى لإعادتى إلى معرفة أن الآخرين كانوا يعانون بمثلما كنت أعانيه أنا؛ وتماماً مثل طفل، يحتاج نفسه للرعاية والإهتمام، ويمنح كل عاطفته ومواساته للعبة لا أطراف لها، لابد إننى قدمت عزائى لفوزى، وبهذا العمل خطوت خطوة بعيدة عن الوقوع فى وهدة الجنون الذى كنت أتقدم نحوه.

الفصل السابع عشر
إشتغال جديد

بنقل سيد عبد الوهاط من الخرطوم إلى أشغال ألتى لإنتاج البلورات المحلية، إعتبر والد زوجته، على خاطر، أمين مخازن ترسانة أم درمان أنه لم يعد مسئولاً ليخاطر بعنقه بمزج إنتاج الخرطوم مع إنتاج الفلاتى، أو إستبداله ببلورات صالحة من المخزون. وأُرسلت شحنة من إنتاجى مباشرة إلى مصنع البارود، واستعملت فيما ظن عبد السميع وحسن، المديران، أنها ستكون متفجراً قوياً. وكانت النتيجة، مع كونها مرضية لأقصى الحدود لى، هى عكس ما توقعه القوم، المسئولين عن صنع البارود. ولعدم تأكدهم من ماهية الخطأ، خلطوا المسحوق بكمية من البارود الممتاز بحق والمصنوع من إنتاج الفلاتى، ونجح ذلك فى إفساد المادة كلها، لا فى شئ آخر، وعندما أرسلت شحنتى التالية، أجروا بعض الإختبارات، وبإكتشافهم مكمن العيب، أرسلوا لى إقتراحاً أن أشغالنا إذا لم تنتج بلورات مساوية فى نوعيتها للكمية التى سبق تزويدنا بها، فسيبلغ الأمر حولى للخليفة. ولما سمع ناحوم عباجى بذلك الشأن جاءنى فى حالة من الهلع، وأشار إلى الخطر الذى أندفع أنا نحوه، وبما أنه كان وقتها يفكر فى محاولة لصك النقود بإبتكار ما، عرض أنه لابد من إلتماسه الخليفة ليصدق على إعانتى له بخدماتى. إن هذا الرجاء كان الخليفةً سعيداً كل السعادة بالموافقة عليه؛ فالبلورات الملحية كانت تشحن بكميات كبيرة، وكان هو فى متاعب عظيمة من نظامه المالى.

وكخليفة، كان مستحقاً لخمس الغنيمة، والملكية، والضرائب، والبضائع الوافدة إلى بيت المال؛ وحيثما كانت كل الملكية بأى وصف كانت تعد منتمية أساساً إلى هذه الإدارة، كان عبدالله مستحقا لخمس ما يملكه السودان؛ ولكنه لما لم يكن له إستعمال كثير للجلود المدبوغة، والجلود، والصمغ، والعاج، وما إلى ذلك، كان يأخذ نسبته بالنقود - بعد أن يضع تثمينه الخاص لنصيبه. وبينما كان المال الذى يأخذه من بيت المال مُكتَنَزاً فلا يعود إلى التداول أبداً، أُصيب بنوع من المجاعة فى نوعيته. إن المحاولات كانت تبذل فى الأيام الأولى من حكم عبدالله لإنتاج دولار بكمية معقولة من الفضة؛ ولكن نور الجريفاوى، خليفة عدلان فى بيت المال توصل إلى خلاصة، فيما هو بائن أن النقد ليس سوى رمز، وإنه ليس بذى قيمته بماذا يصنع بشرط أن يحمل طابعاً ما عليه ليُحدث أثراً. وبدأت كمية الفضة فى دولاراته تقل شيئاً فشيئاً، ثم ما عادت تُمثل إلا بطلاء خفيف يبلى فى ظرف أسابيع قليلة. ولما تذمر الناس، أصدر بلا حياء دولارات نحاسية صافية وبسيطة. وأُصدرت كل الدولارات من بيت المال على أنها معادلة فى قيمتها للدولار الفضى، وعندما رُفضت، أصدر الخليفة مرسوما بأن كل المخالفين فى المستقبل سيعاقبوا بمصادرة ملكيتهم مع قطع يد وقدم. وكان التجار مع ذلك، على إستعداد للحدث؛ فعندما يستفسر مشتر راغب عن ثمن سلعة، يسأله البائع بأى عملة يود الدفع؛ ويعلم التاجر آنذاك أى ثمن يطلبه.

ولما اختفت الدولارات الفضية بالتدريج، إرتفعت قيمة ما تبقى منها بدرجة عالية، حتى إنه فى النهاية بلغ ثمنها خمسين إلى ستين من نقد بيت المال، وبذا فإن السلعة التى كان يمكن شراؤها بدولار فضى لا يمكن بيعها بأقل من خمسين إلى ستين دولاراً نحاسياً. وبالرغم من أن نسبة التبادل كانت ممنوعة، فقد إستفاد بيت المال من هذه الأوضاع بشرائه بالدولارات النحاسية، وتذويبهم، ثم إعادة صبهم، ويضربهم بختم مختلف. هذه النقود تصدر ثانية بقيمة دولار فضى، ويفضى ببقية الدولارات النحاسية الدائرة فى السوق إلى عدم الإستعمال برفض بيت المال تقبلهم. وإمعاناً فى تسوئ الأمور، يقوم عمال صك العملة بوضع صكوك لأنفسهم ولأصدقائهم، فقد كان مما له قيمة أن يجعل العمال المزيفون (؟) دولاراً من معدن أفضل مما يفعل بيت المال، فهذه نتقبلها نحن من جديد على أنها عربون. ولقد إزدهر التعامل بالنقد المزيف حتى عُطل واحد من أفضل عمال الصك، وهو

إلياس الكردى، بفقدانه يده اليمنى وقدمه اليسرى؛ وظلت هذه العقوبة؛ لمدة ما على الأقل، رادعاً للآخرين، جاعلة لبيت المال الإحتكار الكامل للنقد.

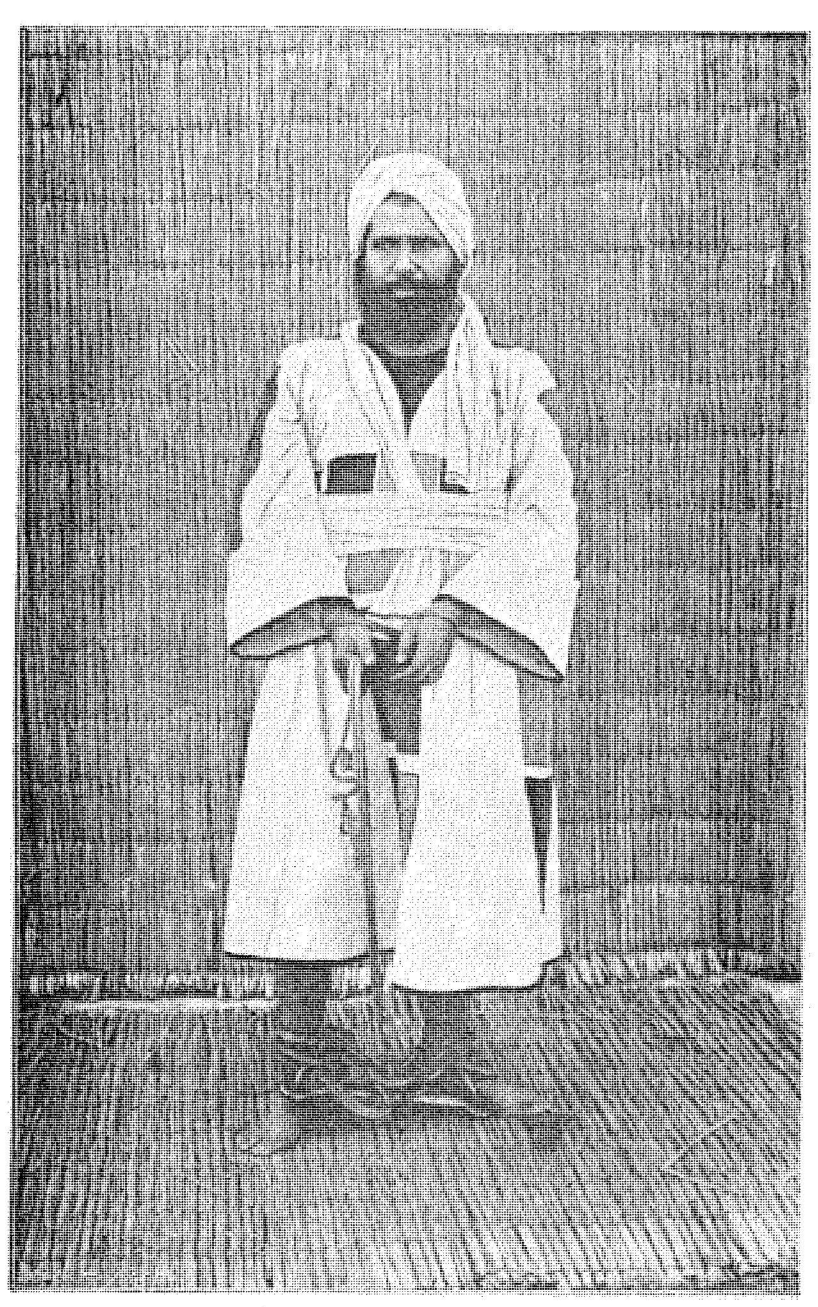
إن العملة البريطانية الذهبية قد تُشترى بقيمة الدولار فى أى وقت، لأن ممتلكيهم كانوا سعداء بالتخلص منهم. فإمتلاك نقد ذهبى كناية عن الثروة، وقد وجد كثير من الناس الذين حاولوا تغيير عملة ذهبية عذ عودتهم بيوتهم أن الكوخ يقع فى أيدى موظفى بيت المال، وهم يبحثون عن باقى الذهب المفترض إكتنازه. وبإخفاقهم فى إيجاده، يصادرون البضائع والمنقولات الشخصية. وكانت التجارة مع الحدود المصرية، وسواكن والحبشة، تجرى بواسطة المقايضات والإتجار بالدولار النمساوى (ماريا تريزا).

لقد كان خلال الوقت الذى بلغت فيه مسألة العملة القمة أن عباجى تقدم بمشروعه لطبع العملة؛ ومن أجل أن أساعده أنا، نقلت إلى ترسانة الخرطوم. وقد أُلزمت بالتخلى عن مسكنى فى مبانى البعثة التبشيرية، لأعيش مع الحرس الخاص البالغ ثلاثين بقارى فى دار حمدان، حاكم الخرطوم المهدى. وكانت الترسانة تحت رئاسة خليل حسنين الذى كان فى وقت ما كاتباً تحت إمرة روفرسى، فى مصلحة منع تجارة الرقيق. ومع أن عشر سنوات مضت منذ سقوط الخرطوم، فإن الترسانة لابد إنها كانت فى حالة تشغيل متقنة كما كان غوردون قد أقامها على نموذج ورشة فولفج. وكانت الطاقة يُحصل عليها من ماكينة بخارية للسحب بلا قضبان، تدفع بالخراطات، وطاحونة دائرة، وماكينات الثقب، إلخ، بينما كان العمل يدوياً فى التخريم، ومقصات الحديد، والماكينات الصغيرة. وفى الورش التى يجرى فيها العمل كانت هنالك ثلاث ماكينات، وغلايات كاملة، جاهزة للتركيب فى بواخر النيل، وكانت قطع الغيار مثنى وثلاث لكل أجزاء الماكينات المستعملة جاهزة فى حالة الحوادث. إن الصهر، والصب، والتذويب، وصنع النماذج كانت كلها عمليات تجرى فى المكان. وكان المخزن مليئاً بكل أداة يتخيلها الفرد أو معدات تتطلبها الحدادة، وورش النجارة، والقوارب. إن كل معادن السودان تُجمع هنا. وكانت هناك قطع من عصارات القطن؛ وطواحين السكر؛ وقضبان من الصلب والحديد، وسبائك من الصفر(*) والنحاس؛ والحديد، والنحاس، والصفر أطباقاً؛ والطبقة الثقيلة من الأدوات والمعدات؛ وأُكد لى من ناحية أسطى عبدالله، وكان خراطاً فى ورش غوردون فى زمانه، أن هناك مواد فى المكان لبناء أكثر من ثلاثة قوارب إضافية ومضاء تشغيل الأسطول بأكمله لسنوات كثيرة. ولم يبالغ فيما أدلى به عن الناحيتين. فكل المصالح الأخرى كانت تمون من ترسانة الخرطوم بأى شئ تحتاجه من أدوات، وأثاث، وحديد، والأعمال المعدنية الأخرى، وعصارات العبوات وكتل الصلب لصك العملة؛ وكان العمل يسير فى الحقيقة بكل كفاءة وقدرة.

الوقت القليل الذى قضيته فى الترسانة كان بالطبع مستغرقاً بأكمله فى مسألة النقد. وخصص رجلان بصورة دائمة لتشكيل كتل مربعة من الصلب لمصنع صك العملة، تم تلميع هذه الكتل وقُطعت فى أم درمان، وكانت خمسة وعشرين قطعة تستعمل عموماً فى نفس الوقت. والممكن أن مائتى رجل كان يتم توظيفهم فى تذويب النحاس وصبه فى صبّات فى حجم وكثافة الدولارات. ثم يُذهب بالأقراص للعمال المسئولين عن الطبع؛ وكان يحصل على هذا بطرح القرص على الكتلة السُفلى، ثم يطرق عليها بالكتلة الأعلى. إن العلامات الناتجة كانت فى الأساس ضعيفة جداً؛ وكانت النقود تتمدد وتنشطر، والصكوك دائما ما تتهرأ وتتكسر. وبعد أن درسنا العملية، وكان عباجى قد بسط أفكارى لمطبعة، إقترحت أن علينا أن نبتدر عمليات بماكينة التخريم. وباشرنا تجاربنا حتى نجحنا فى تهشيم الصكوك، وإفساد ألواح النحاس، وفى نهاية المطاف هشمنا الماكينة نفسها؛ ثم إن عباجى، بوصفه رئيس العمليات، نال أسوأ سباب من كل الجهات المحيطة. ولما كان له مزاج تسهل إثارته، كان يود أن أشاركه جزءاً من اللوم، ولكننى ضحكت عليه وحسب. ثم إننى علمت أنه كان له سبب عادل للغضب؛ لقد كان قد ضمننى لدى الخليفة، وبما إننى كنت أنتظر هوانين وعبدالله فى كل يوم، فقد

واصلت الشجار حتى ترك عباجي العمل وهو مشمئز، لأننى تمنيت أن يكون بعيداً عن طريقى عندما أهرب. إن عودته لأم درمان، تاركاً لى المسئولية الكاملة عن الإختراع، وضعت حداً لضمانته لى. ولربما كنت أُنجى نفسى من هذا العناء، وسوء الفهم المؤقت بينى وبين صديقى القديم، لأننى، قبل أن أجد الوقت لأستقر على فكرة بشأن مطبعة للعملة، هرب سلاطين، وأُعدت إلى الساير.

لقد سئلت دائما أى تقدير يمكن تقديمه عن كنز الخليفة المدفون. إنه يلى المستحيل قولاً؛ شئ واحد إنه مؤكد: فكل الذهب والمجوهرات الفضية والنقد الصالح إختفت خلال الخمسة عشر عاماً الماضية. وربما أن آلاف الأفراد يملكون مكدساتهم هنا وهناك. إن فكرةً عن مقدار ما كان عليه كنز الخليفة قد تستنبط من تفحص سجلات بيت المال، لأنها كانت محفوظة حفظا جيداً. والسؤال الحقيقى هو، أين يوجد؟ ولكن، إن هذا أمر لا يحتاج كبير عناء من الناس. فقد كان المعتقد فيه عموماً فى أم درمان هو أن الذين دفنوا المال فعلاً قد دُفنوا هم أنفسهم بعد ذلك. "فالأموات لا ينطقون". إننى ارتاب فى نفسى لو اكتُشفت مكدسات الخليفة أبداً - رسمياً. ومن الصعوبة بمكان أن يعرض المكتشفون المحظوظين أى لهفة من نوع خاص ليطلبوا من أصدقائهم أو الحكرمة مشاركتهم حظهم السعيد. ولربما أن كمية صغيرة توجد، ولكنها ستكون صغيرة حقاً. إن الملايين المعدودة التى دفنها فى أماكن مختلفة، لسوف يُعثر عليها يوماً ما، لا ريب فى ذلك، وسنسمع عنها -- وقتاً طويلاً بعد الواقعة.



فوزى باشا فى لباس درويش

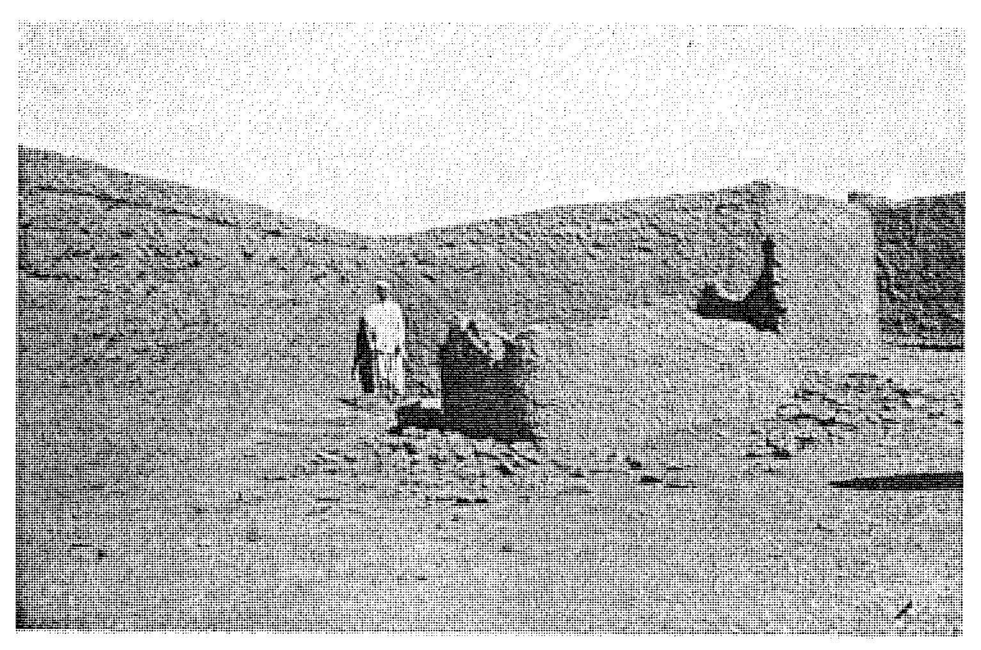
الفصل الثامن عشر
سجنى للمرة الثانية

كان ذلك أياماً بعد عودتى للساير قبل أن أعلم إننى حُبست على غير رغبة من الخليفة ويعقوب؛ ولكن حمدان وخليل حسنين، لخوفهما من أننى ربما أهرب، أحجما عن تولى المسئولية عنى لأكثر مما فعلا، وتحججا بأن هروب سلاطين قد حدث بواسطة عملاء للحكومة، وإن تهريبى محّتم تبعاً لذلك. وفى إحترام لرغبات حسنين أكثر من رغبة حمدان، أمر الخليفة بإرجاعى إلى الساير، ولكن من المحتمل جداً أنه أرسل تعليمات لإدريس الساير بكيفية معاملتى؛ ولذلك، بتفكرى فى الأمر جملة وتفضيلاً ما صارت حياتى مما لا تطاق بمثلما كانت عليه أول دخولى السجن. ومضافاً إلى إهتمام عبدالله العطوف (؟)، بشخصى، أضحى إدريس نوعاً من الشخصية التى جرى إصلاحها؛ لقد ذاق حلاوة العقوبة بالسجن والسوط الذى كان فى غاية الإغداق به، وكذلك إختبر بنفسه ماذا يكون الحال عليه عندما ينهب على حساب النبى خضر. لقد قُلبت عليه الموائد، وتعلم درساً.

ولما أُعدم عدلان وفُتش بيته لإيجاد أوراق تجرمه، بلا جدوى، إتُهم إدريس الساير من الخليفة بأنه أعان عدلان على تصريف الوثائق التى كان هو ساعياً فى أثرها. وسُجن إدريس فى داره، وجُلد ضمن المساومة؛ وظل مغضوباً عليه لبعض الوقت، ووفر ذلك السانحة للبقارة المفرج عنهم لتسوية الأمور مجاراة له. شرحوا موضوع النبى خضر للخليفة، الذى أمر إدريس برد كل الأموال التى كان قد جمعها على هذا الحساب؛ وجُرد من كل شئ جمعه ليملكه، ولكن، حتى النهاية، كان أى بقارى سجيناً سابقاً يعلم أين يجد دولاراً يحتاجه. يقدم نفسه لإدريس، ويُسأل لمساهمة إضافية فى سبيل تسوية إدعائه.

هذه المطالبات دفعت إدريس للسؤال عن السجناء، لأن أقصوصة النبى خضر ليس لها تأثير إلا مع السجناء القادمين من مناطق نائية، وكانوا أقلية. وبما أن إدريس لم يعرف أبداً متى يصدر إستدعاؤه ثانيةً، وجد من السياسة أن يصير عطوفاً ومقدراً للمسجونين ما أمكن، وأن يخفف النظام إلى الأقصى. هذه الحالة، علاوة على تعليمات الخليفة المفترضة تجاهى، لابد أنها تفسر جمع إدريس للسجانة، إخطارهم فى حضورى إننى ماجئ بى إلى الساير إلا لأمنع أى جماعة مع الحكومة من أخذى إلى مصر؛ وإنه إذا سأل أى واحد منهم مالاً منى أو أساء معاملتى بأى شكل، فسوف يُسجن، ويُجلد ويُجرد من منصبه؛ وسمح لأم الشول وطفلها بالحضور للسجن فى أى ساعة تختارها – ولكن، وهذه أفسدت كل شئ، لم يكن ليؤذن لى أبداً بالنوم فى الساحة، فلابد من أن أقضى كل الليالى فى أم حجر.

لقد وصفت من قبل ليلة فى هذه "الحفرة السوداء بكلكتا"، ولكن لعله لا يكون خروجاً عن النص أن نحاول إعطاء وصف خفيف لليلة الأولى التى قضاها إبراهيم باشا فوزى – واحد من ضباط غوردون المفضلين – فى ذلك الجحيم، خاصةً وقد رغب أنى أفعل ذلك. عندما أُخذ إلى السندان، كما ألمحت آنفاً، إنهار فوزى تماماً، وقد حُمل مغشياً عليه إلى أم حجر، وأسند ظهره وهو جالس على ركن الحائط الأبعد مسافة من الباب، وهنالك ترك – كما كنت أنا "ليدور". ولما أُدخلت المجموعة الأولى من السجناء فى الحجرة بمغيب الشمس، كانت هنالك مساحة للجميع لينطرحوا أرضاً على الأرضية المتسخة وهى مشبعة بالقذارة. وعندما دفعت المجموعة الثانية بعد حوالى ساعة ونصف بعد ذلك، كان على الراقدين أن يجلسو مع القادمين الجدد، وأفسحت أرجل فوزى الممدودة مجلساً جافاً ومريحاً لأربعة سودانيين ضخام الأجسام. وقدف بى أنا مع المجموعة الثالثة بعد صلوات الليل، ثم كان على كل من وُجد بأم حجر أن يظل واقفاً أو يوطأ عليهم. وكان فوزى لا يزال يعانى من جُرح بسبب شظية أصابته أثناء واحدة من الغارات التى شنتها القوات المحاصرة ضد القوى التى كانت



كوخ نيوفلد فى الساير ، والسندان الشهير

تحاصرها فى الخرطوم، وأربعة أشخاص يجلسون عليه أو يقفون فوقه، وبالأثقال المهالة عليه كذلك، كان غير قادر على القيام على قدميه. لقد كان بإمكانى سماعه من مكانى القريب من الباب وهو يحتج فى ضعف إعتراضاً على الأشخاص الذين كانوا يجثمون عليه؛ وقد فكرت أنه ربما كان قد وُطئ حتى الموت، وفى حالتى المكدودة وقتها شرعت فى مناضلة طريقى نحوه، ضارباً على الصديق والعدو بلا تمييز، وأُلكم بقوة نظير ما أتلقاه. وسرعان ما اندلع قتال واستمر بطول الياردات القليلة التى كان علىّ قطعها، فما كان أحد فى الظلام ملماً بمن يسدد اللكمة التى يتلقاها، ومن ثم يضرب فى أى إتجاه يصله رداً على الضربة، وفيما بعد أخطرنى أصدقائى إننى كنت "شيطاناً"، مغفلاً مجنوناً، وأمطرونى بثناءات مريبة؛ ولكنى وصلت فوزى. وكان الحراس، وقد سمعوا الهرج، قد فتحوا الأبواب، وكالمعتاد، إنهالوا على رؤوس كل من أمكنهم بلوغه بالعصى والسيطان. ولما كان الهرج فى قمته، والسجناء يترنحون من جانب لآخر ، تعرفت على أصوات لواحد أو إثنين ممن كانوا بالقرب من فوزى وكانا ممن كنت ألتزم بمنحهما شيئاً من الصدقات فى الطعام من مناسبة لأخرى؛ وبإستحصال خدماتهما نظير أشد الوعود تكلفة، أزحنا الأشخاص الواقفين على أرجل فوزي، ودفعنا بهم بعيداً، ونصبنا نوعاً من الساتر حوله بأجسادنا. ولابد إننا فى معرض إخلائنا المكان، قد ضربنا بعضنا البعض بمثل الذى دفعنا به أولئك الذين كنا نرغب فى أزاحتهم عن الطريق، وما كان فوزى بمستطيع القول ما إذا كانت المحاولة المبذولة قد تمت لقتله أم لإنقاذه. وأخيراً عقب نجاحنا فى إفساح المساحة، كان علينا أن نستخدم قطعة من الأسمال القديمة كنوع من المسند لكى يستدير فى الواجهة؛ ثم أصابه الهذيان .

وفى منتصف الليل، فُتحت أبواب الزنزانة على مصراعيها ثانية، وحُشّر بعشرين رجلاً، وعلى كل واحدٍ منهم شعبة؛ عملياً، لم يكن هناك مكان لهم، ولكن لم يكن هناك مفر من إدخالهم فيها بأى صورة. ولتدبير مكان لهم، لجأ الحراس إلى أداتهم المفضلة فى رمى حفنات من القش والعشب الملتهب داخل الزنزانة، ويتواصل في نفس الوقت طرقهم على رؤوس وأكتاف المسجونين العارية بالسياط. إن المشهد لابد من تصوره. إن فوزى، وهو يرى النار تتساقط على رؤوس السجناء، إعتقد أنه حقيقة كان قد أُرسل إلى جهنم - ولكنه إنقلب على نفسه يحادثها فى حالةٍ من الهيام أتراه فى الجحيم أم لا. ويبدو أنه كان يستذكر كل ما اطلع عليه طوال حياته عن أماكن التعذيب، وحاول أن يقارن الصورة التى تشكلت فى عقله من تلك الأوصاف، بالذى يختبره فعلياً، خالصاً إلى أنه لا يمكن أن يكون فى جهنم لأنها ليست بهذا السوء. وفى هذه المرحلة إستطعت أن أجعله يلاحظ وجودى، وتناقشنا حول الجحيم وعذابها حتى مشرق الشمس؛ ولكن ما من شئ الآن يمكن أن يهز رأى فوزى أن جهنم لا يمكن أن تكون من السوء بمثل ليلة فى أم حجر، وإن أفظع ما يتمناه لأى واحد هو أن يقضى ليلة مثلها. وهو يتمنى ليوسف منصور البقاء فيها للأبد(*).

جنباً إلى جنب مع الآخرين الذين قضوا تلك الليلة المذكورة فى الساير، كان بينهم أحمد وبخيت عقيل، وصادق عثمان، وأبو البشير وآخرين من بربر، قُبضوا لمساعدتهم على هروب سلاطين؛ وفيما بعد نُقلوا إلى محطة الإدانة فى جبل الرجاف بناء على شهادة الدليل زكى، الذى قاد سلاطين من أم درمان إلى بربر. إن زكى أُلقى عليه القبض معهم مشتَبهاً فى مشاركته فى الهروب، واعترف أنه وُرط فى الأمر من عقيل وآخرين ليحضر من أم درمان رجلاً له "عيون كالقط"، ولكنه ما كان يعرف من هو ذلك الرجل.

على مقربة من الزنزنة العمومية كانت هناك أخرى سليلة لها - حجرة أصغر تدعى "بنت أم حجر"، وهى تأخذ مكان الزنزانة اللعينة فى أوروبا. ولدى عودتى من السجن، علمت أن عدوى القديم، القاضى أحمد، قد حُكم عليه بالحجز فيها عاماً. إن السبب الظاهر لسجنه هو إنه كان متحالفاً مع مُزيفى العملة، فجمع مالاً كثيراً؛ ولكن السبب الحقيقى هو إن الخليفة غضب عليه بسبب موت الزاكى طمل، الذى أدار الحملة الحبشية وقتل فيها الملك يوحنا. لقد حُضّ القاضى أحمد على الحكم على

زكى بالسجن والتجويع بواسطة يعقوب؛ ولذا لما حان دور أحمد، قال الخليفة، "دعه يتلقى نفس العقوبة مثل زكى." وقد وضع فى بنت أم حجر، وبعد حوالى عشرة أشهر قفل طريق الباب عليها؛ وهناك ترك أحمد، ومعه زجاجة ماء للغسل لمدة ثلاثة وأربعين يوماً وفقاً لرواية، وخمسين يوماً فى رواية أخرى. وبعد مضى أيام لم يسمع فيها صوت من مقبرته الحية إفترضت وفاته؛ ولكن لما فتح الباب، وللدهشة، ودعك من الخوف الخرافى، كان لا يزال حياً، ولكنه فاقد الوعى، مع أن القاضى الذى كان ذات مرة بديناً كبيراً تبدد إلى هيكل عظمى. إن عبدالله لابد أنه أصابه الفزع كذلك، لأنه أمر بأن يُمّرض أحمد برقة ويعطى جرعات من الغذاء المقوى كل أربعة وعشرين ساعة، حتى تستطيع المعدة أن تحتفظ بالطعام ملئها؛ ولكن على الرغم من كل الرعاية والإهتمام، مات القاضى فى أو حوالى ٣ مايو، ١٨٩٥. ولم يأسف عليه أحد سوى الخليفة، الذى كان هو أداة طيعة فى يده، يصرّف العدالة (؟) كما يُملى سيده سيرها، لا لشئ إلا ليموت هذا الموت المؤجل النهاية وهى ما أدان به الكثيرين بإيماءة من سيده.

إن مكان القاضى أحمد فى "بنت" سرعان ما شغله خليفته - القاضى حسين ود زهره. وكان ما جناه هو رفضه الحكم على الناس بلا عدلٍ عندما يأمره الخليفة ويعقوب بذلك. وعندما أُودع حيطان مقبرته أولاً، مُنح، خلال كوة صغيرة تُركت مفتوحة لهذا الغرض، طعاماً قليلاً وماء كل أربعة أو خمسة أيام، ولكن نحو نهاية يوليو، ١٨٩٥، بُنى عليه الباب كلية، ولم يكن زهره متين البُنية مثل أحمد، فأصابه الجوع، أو أنه يبس من الحرارة حتى الموت، فى حوالى إثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين يوماً. وفى يوليو يكون الجو حاراً.

أثناء الأسابيع الأولى من سجنى، كان لأم الشول صعوبة يسيرة فى إستجداء كمية صغيرة من الحبوب، وإستلاف دولار من وقت لآخر لتبقى على تغذيتنا. ولكن الناس سرعان ما أصبحوا يخافون من مساعدتنا بأكثر مما فعلوا، وكنا على أبواب تشابه المجاعة، حينما جاءت إمرأة حبشية فى شهر سبتمبر لترانى بذريعة أنها تحتاج معاملة طبية. وقدمت لى إناءاً صغيراً، قالت إنه يحوى رسائل من أصدقائى، وقد أُعطى لها من رجل فى الخارج، قال إنه يملك مالاً لى، ويرغب فى معرفة لمن يدفعه. ومضت ثلاثة أيام قبل أن أجد فرصة لفتح الجردل دون أن يلاحظنى أحد، لأنه مع كل الرسائل المستلمة والمحررة وقتها، على أن أنتظر حتى أجد نفسى وحيداً فى الجو الكئيب لإضافة ملحق إلى مكان الغسل. إحتوى الإناء خطاباً من شقيقتى أُرسل فى ١٨٩١، وآخر من الأب أوهرولدر، ومذكرة من الماجور ونجت. وكانت كلها هادفةً لعين المغزى - ليظل الأمل مرفوعاً، بينما المحاولات جارية لعّونى.

إن شهرين تقريباً لابد أنهما مضيا قبل أن أنجح فى كتابة ردودى. لقد أرسلتها إلى الدليل، أونور عيسى، الذى وعدنى بالرجوع لى فى ظرف أشهر قليلة. لقد سلمنى الأب أوهرولدر الخطاب الذى كنت قد بعثته له. وفيما يلى ملخص لمحتوياته:-

"لقد تسلمت خطابك وبداخله خطاب أختى الذى كتب قبل أربع سنوات مضت، والمذكرة من ونجت. وقبل أى شئ آخر، دعنى أشكرك على المساعى التى ستبذلها لمساعدتى. لقد عُطلت رسالتك دون الوصول لى بسبب سجن دليلى، ثم بالرقابة التى فُرضت علينا إثر هروب سلاطين، ونقلى إلى الساير، الذى آمل أن أُفرج منه فى وقت وشيك. هنالك حاجة عظيمة للنقود هنا؛ وحتى هذا الوقت الحاضر، لم يستطع أحد أن يصدر دولاراً يمثل الفضة. ولو إستطعت إنتاج مثل ذلك النقد، فقد يؤدى إلى إطلاق سراحى من السجن، ويجعل محتملاً إغتنامى الفرص للهرب. أبمسطاعك أن ترسل لى توجيهات للخلطة البسيطة لأى معادن رقيقة لأنتج مظهراً فضياً، وتبعث لى بعض المكونات؟ إننى أود كذلك الحصول على أداة لتقليد صك النقود؛ إن الصكوك يمكن إقتطاعها هنا. وسأكون سعيداً بالحصول على أى معدات أو أدوات تعتقد إنها لا يمكن العثور عليها هنا. فإذا لم أُعطَ حريتى حتى



أونور عيسى

الوقت الذى تصلك هذه، فإننى أشعر جازماً إننى سيطلق صراحى بواسطة وكالتهم. أرجو أن ترسل المذكرات المرفقة إلى عناوينها المطلوبة، وعندما تصل الردود، إرسالها مع الأشياء التى طلبتها. هلا تمكنت من تزويدى بأى أخبار عن تقدم أعمالى التجارية فى أسوان، والمعاملات التى أجراها مدير أعمالى؟ أصدقاؤنا العموميون هنا فى حالة محزنة. ولابد أن سلاطين قد أخطرك بالختانات القسرية بكل ما يكتنفها؛ والآن أُمر كل المسيحيين أن يتزوجوا ثلاث أو أربع زوجات، وهم مشغولون بمراسيم الزواج. بيبو وأنا فى السجن معاً فى الأغلال؛ ومن السجناء الآخرون هم إبراهيم فوزى، إبراهيم حمزه، من بربر، الذى إعتقل بعد هروب سلاطين؛ أحمد وبخيت عقيل؛ ونقل صادق وبشير إلى الإستوائية، مع إثنين من أقاربهما. إن مرسولك أحضر معه سبعين دولاراً، قدمت إلى بيبو، وأرفق لك إيصالاً بها. أرجو أن تتعطف بترجمة الخطاب الذى أرفقه لونجت؛ لقد كتبته بالألمانية، لأنه لا يوجد أحد هنا يفهم اللغة. وأرجو من فضلك أن تحفظ هذه الخطابات فى سرية. وبالله عليك، لا تجعل رجال الصحافة يحصلون عليها، كما تعلم، فلو فعلوا، سيكلفنى ذلك رأسى. وربما، إذا أمكنك أن تجعلهم ينشرون أخباراً كمثل هذه، فسيعيننى ذلك: لقد سمعنا، بعد هروب سلاطين، أمّن جانب نيوفلد من الهرب؛ لقد أسدى للمهدية خدمات عظيمة بالبلورات الملحية؛ وسيتمكن من الحلول محل أسطى عبد الله، وهو الآن عجوز واهن؛ إن نيوفلد لهو فى أعظم بلاء، فى السجن، والموت الزؤام يحلق فوقه؛ إن الناس فى السودان يعتقدون أنه قريب من أقرباء سلاطين؛"

ذهب أونور عيسى بردودى، متعهداً بالعودة فى أشهر قليلة، بعد أن نظم ترتيبات بين بربر والقاهرة لهروبى؛ وخلال غيابه كان على أن أشرع فى إيجاد أى عذر للخروج من السجن؛ فالهروب كان مستحيلاً من هناك. إن أونور - أو مترجموا حساباته - مخطئين فى قولهم أنه قابلنى بالفعل فى السجن؛ فلقد أجريت كل المفاوضات عبر المرأة الحبشية التى استخدمها لتحضر للسجن "للرعاية الطبية"، أو أم الشول، ومرت أيام وأيام بين الزيارات أحياناً، بما يبلغ فى مجمله شهرين ربما. كانت هذه أوقاتاً من التوتر النفسى فى الساير بأم درمان. وفى نظرى كان الحظ السئ وحسن الطالع فيما يبدو يناضلان دائماً وأبداً للصعود أثناء أسرى الطويل. وقد إكتسب حسن الطالع فى النهاية - نفس حسن الحظ الذى كان قد صاحب سلاطين طوال حملته الجريئة، ليس للتغلب على عبد الله وحسب، وإنما لفتح السودان، وهى الحملة التى، بإذن الله، سوف تصحبه فى حملات مستقبلية؛ ولكن الضغوط الناتجة عن لعبة الكأس والكرة، إمساكاً وإطلاقاً، كانت شنيعة لى، وكانت صلاتى الوحيدة هى أن يبلغ البلاء نهاية ما. فالحرية، بالتأكيد، كنت آملاً فيها حتى آخر مدى؛ ولكننى كنت دائماً أكشف نفسى وهى تخمن ما إذا كان هؤلاء الذين يعجزون فجأة عن الحركة بضربة واحدة إختبروا ثوانى قليلة من الضمير المستنير بحق، وأعجب لنفسى ما إذا كان يوجد وقت ليرمقوا رأسى حال قطعه ليتدحرج فى التراب من جلاد الخليفة، نظرة أخيرة من العصيان، هل يكون ذلك حقيقة أم لا.

ومع ذلك، فعندما أعاود التفكير فيها، ما كان هناك شئ غريب كل الغرابة فى مثل هذه التأملات. أى جندى أو بحار لم يحاول دائماً فى لحظات سكونه الأخيرة أن يتصور موته هو نفسه، مناضلاً حتى النهاية بينا ينهار أمام عدو أشد قوة؟ وبعد كل شئ، فإن آلافاً مؤلفة من الرجال والنساء فى البلدان المتمدينة يتحملون إساراً أقسى وسجناً أكثر مما لاقى الكثيرون فى السودان؛ ولكنهم غير محظوظين فى هذا - فلم يُحَلِّقْ أحد هالة من الرومانسية على معاناتهم. ولقد كان نصيبى صعباً، وشديداً للغاية، فيما يجب علىّ أن أسلم به؛ ولكن عذابات بعض الأسرى الآخرين كانت بحيث أن آلافاً فى أوروبا كان سيسرهم أن يبادلوا معاناتهم بها، وكانوا سيكسبون فى ذلك الإستبدال.

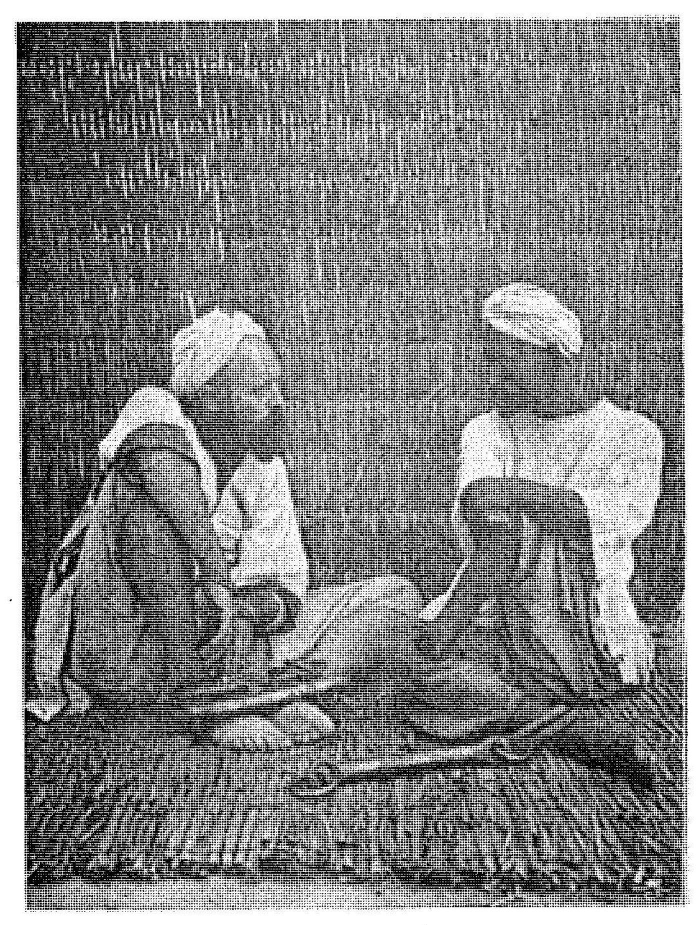
الفصل التاسع عشر

إشاعات الإفراج

بعد مدة وجيزة من رحيل أونور عيسى أُغنيت عن أى متاعب إضافية على طريق التخطيط لأعذار أخرج بها من الساير. إن عوض المرضى، خليفة نور الجريفاوى كأمين لبيت المال بتعيين الأخير مديراً لمخازن مدفعية الخليفة، عرض له ناحوم عباجى وآخرون فى موضوع إستخراج الذهب والفضة من أحجار معينة إكتشفت فى الجوار. أرسل عوض ناحوم ليرانى بشأن تركيب طاحونة للسحن أو أفران للصهر. وكانت مقابلتى مع ناحوم مقابلة عاصفة. وبدأت بلومه لى على الأحاييل التى لعبتها لسحق ماكينة التخريم فى الترسانة عندما كنا نعمل سويا فى إنشاء ماكينة للصك. وكلما أمعنت فى الضحك، إزداد ناحوم غضباً؛ إنه أصم، ومثل معظم المصابين بالصمم، يتحدث عادة بصوت خفيض، مرهق للسامع بمثلما عليه من ضرورة ليصبح بإجاباته عليه. ومما يجاور المستحيل أن تُعقد محادثة مع شخص أصم دون أن تكون النتيجة الطبيعية لرفع الصوت ضمن أعراضها؛ فالمضايقة فيها كافية متى نضح الوجه بالجهد غير العادى، إذ يفكر صديقك الأصم أنك غاضب، ويتبع سبيلك. هذا هو بالضبط ما فعل عباجى. لقد أرانى أنواعه، فصحت فى أذنه، "ميكا - ليس ذهباً، وليس فضة - ميكا؛" فصرخ بدوره، "ذهب، فضة، ذهب". إن المناقشة الصاخبة، مصحوبةً كما كانت بالحركات المبذولة للإقناع، جذبت سجناء آخرين حولنا، وذهب ناحوم يتأجج سخطاً.

وعقب ذهابه، سألنى بعض أصدقائى لما لم أعرض عليه العون؛ وحتى لو كان الشئ فاشلاً، فقد فكروا أننى ذكى بما فيه الكفاية لأجد عملاً آخرا أقوم به؛ ولكن، كما قالوا، "عُدْ بأى شئ شرط أن يخرجك من الساير." كانت هناك أسباب ممتازة، ولكنها ليست مما أستطيع البوح به لهم، أن أى عمل أتولاه سيأخذ أشهراً، وسنين لو دعت الضرورة، لإكماله. ولأعرض إعانة ناحوم فى إستخراج الذهب والفضة من مثل تلك الأحجار معناه قضاء أسبوعين أو ثلاثة أسابيع فى الخارج ستبين فشلنا فى تحقيق المشروع، وبالتالى فهو الساير لى مرة تالية. وسواء أكان أى عمل أقوم به للخليفة سينتهى إلى نجاح أو فشل فهو لم يكن ذا قيمة بالنسبة لى؛ إنما المهم جداً عندى أن النتاج، أياً ما كان، يجب ألا يُستحصل فى شهور، لأنه بحلول عودة مرشدى لى، قد تتغير الأحوال المحيطة بهروبى بما يستدعى تغييراً شاملاً فى الخطط والبرامج. وربما تحمل عودة المرشدين إلى القاهرة على حدٍ سواء أو الحدود، وهذه تستغرق أشهراً. ولكن النصيحة القاضية بأن أتقبل مقترحات ناحوم وأثق فى الحظ لأجد ذريعة أخرى للبقاء خارج الساير عندما لا يمكن تطويل عملية إخفاء الفشل، إستهوتنى، ورداً على عرضى المعاونة، جاءنى رسول من الخليفة يأمر الساير تسليمى إلى مدير بيت المال. وكانت تعليماته الأخرى أن القضبان والأغلال الثقيلة يجب نزعها عن قدمى وأرجلى وأن يتم تأمينى بزوج واحد من الحلقان موصول بسلسلة خفيفة. وفى حين أن هذا التغيير كان يتم إجراؤه تقبلت تهانئ السجانة والنزلاء وقادنى حارسان من السجن (فبراير، ١٨٩٦) خارجاً لأدخل فى صناعة جديدة تحمل خصائصها الكثير من عناصر النجاح نحو ما يصطحب أى محاولة لإعتصار الدم من مسحنة إسكافى. وما كنت لأنسى مصير شيبو.

عندما وصلت الخرطوم، ولم يكن عوض المرضى قد وصلها بعد. وكان ذلك شهر رمضان، وكل المعاملات مؤجلة حتى ما بعد مغيب الشمس، فلم يُسمح لى بالنزول للبر حتى يصل عوض ليستلمنى رسمياً. تُركت وحيداً فى واحدة من بواخر غوردون القديمة، مربوطاً فى البقعة التى سقط فيها غوردون، وحيثما كان السردار المنتصر وجنوده سينزل لإجراء مراسم الدفن. وخلال الساعات التى كان على إنتظارها محمّلقا فى المدينة الخربة والقصر المقوض الذى شهد إستشهاد رجل وجندى من الطيبة بما لم يمض أبداً على هذه الأرض، تأملت متفكراً فى آماله المهدرة وآمالى. إننى سوف لا



نيوفلد بقيدٍ مزدوج

أتظاهر بتذكر كل الأفكار التى جالت فى عقلى وأنا أخطو بمفردى فوق سطح الباخرة الممتلئ بشظايا القنابل والرصاص؛ ولكن يمكنك تخيل كيف كانت حالتها عندما فكرت إننى أنا الأوروبى الوحيد فى السودان الذى أطلق ناراً من أجل غوردون، وإننى الآن أسيراً فى قبضة خليفة المهدى، أصوب أنظارى على المدينة الخربة التى كنا نأمل، قبل إحدى عشرة سنة بالضبط، فى إنقاذ مُدافِعَها النبيل. إننى لأحس بالعار أن عوض لما جاء أخيراً لم تكن الدموع رقراقة فى عينى.

لقد أحسست مزيداً من التيقظ لما حولى عما كانت حالتى عليه عندما أُخذت إلى الخرطوم "لأُصاب بالروع"، وكذلك بأكثر مما كنت عليه من وضعى وأنا يُسرع بى مثل كومةٍ من الأشياء الموثقة إلى البعثة القديمة لأبدأ أعمال المادة البلورية. ومنذ أول مرة يتم فيها أسرى تُركت وحيداً بمفردى. كنت أجلس على واحدة من قطع أسطول "البواخر الزهيدة" التى، لو لم يرسلها غوردون أسفل النهر لإحضار منقذيه، لكانت قد أنقذته ونجى بها السودان على الرغم من التعطيل الخبيث الناتج عن محاولة إقامة عرض مسرحى باهر لحملةٍ القصد منها هو أن تكون منقذاً على جناح الريح للحامية المنكوبة وقائدها الشجاع، الذى كان يصلى لأشهر من أجل أن يرى رداءاً أحمراً واحداً. لقد أُخبرت أن غوردون، متجهاً نحو النهاية، دعا الأوروبيين معا فى الخرطوم، وبإخطارهم أنه، فى رأيه، إنتوت الحكومة التضحية به، أوصاهم بإتخاذ سبيلهم للهرب. إن محاولة عامدة إلى التضحية به ما كان ممكنا أن تنجح بأفضل مما وقع له. وئ للعجب، أن مثل تلك الأفكار وكثير غيرها مما امتلك ناصيتى لساعات، لما بلغنى عوض، والظلام يلف المكان قليلاً قليلاً، كان ظلام الليل يُخيم كذلك على عقلى. إنه، معتقداً أن سلاسلى كانت السبب الحقيقى لإكتئابى، أمر فى الحال بتغييرها بقيود أخف وأقل خشونة، لأن الحلقان والأغلال التى وضعها إدريس علىّ كانت بالغة الخشونة لأقصى درجة.

وبعد أن سُلمت رسمياً لحاكم الخرطوم، ثار السؤال عن مكان إقامتى. وعُرضت علىّ الإقامة فى داره، ولكننى كنت قد إختبرت الحياة بين الحرس الخاص من البقارة، وتوسلت توسلات كثيرة أن يؤذن لى بالحياة فى نفس المكان الذى يقيم فيه ناحوم عباجى وسرى - كانت التلغراف السابق فى بربر، الذى كان علىّ أن أعمل معه. وخُصص لنا منزل غطاس، تاجر الرقيق السابق، لنقيم به. وكان واحداً من أفضل المنازل التى تُركت بلا تقويض فى الخرطوم، متباهياً بطابق أعلى، حازه ناحوم عباجى كرئيس لما يمكننى أن أطلق عليه إسم مؤسسة الذهب، بينما اقتسمنا سرى وأنا الطابق الأرضى. إن إتجاه الغرب معكوس فى منطقة الشرق، فأنت ترتقى غرفة السقف بالأعلى بحظوظك الصاعدة، وتنزل بها، وهى تتساقط عنك، للطوابق الأسفل. فبدلاً من أن يكل إلى الساير أو الحرس البقارى بمراقبتى، أعطانى عوض بعض العبيد من بيت المال حراساً لى، وكان واجبهم، إضافة إلى مراقبتى، أن يؤدوا المهام المنزلية، والحق يقال، فقد كانوا خدماً لى.

وبعد صلوات المساء، جمع عوض موظفى الترسانة وحرسى معاً، وشرح لهم إننى لم أعد سجيناً بالساير؛ وإن أغلالى تُركت علىّ لا لشئ إلا لمنع عملاء الحكومة من أخذى؛ وإننى "محبوب" الخليفة، ويجب أن أُعامل كصديقه، وإنه إذا عاملنى أى أحد معاملة مختلفة عن ذلك، فسوف يُرسل ليحتل مكانى فى الساير. ثم قام عوض وهو يأخذنى جانباً بحجة أنه يود أن يصرف لى تعليمات من الخليفة بمحادثتى قائلاً، "إننى صديقك؛ فلا تخف؛ وإذا لم تستطع إيجاد الذهب والفضة، فأخبرنى بأى شئ أخر تستطيع الإتيان به، وسأرى أن العمل يقدم لك، حتى لا يُعاد بك للساير". ولما كان عوض وقتها غريباً بحق عنى، كنت مغموراً فى دماغى بالشكوك فى أصالة صداقته لى؛ ولكنه كان جعلياً، وقد وثقت به.

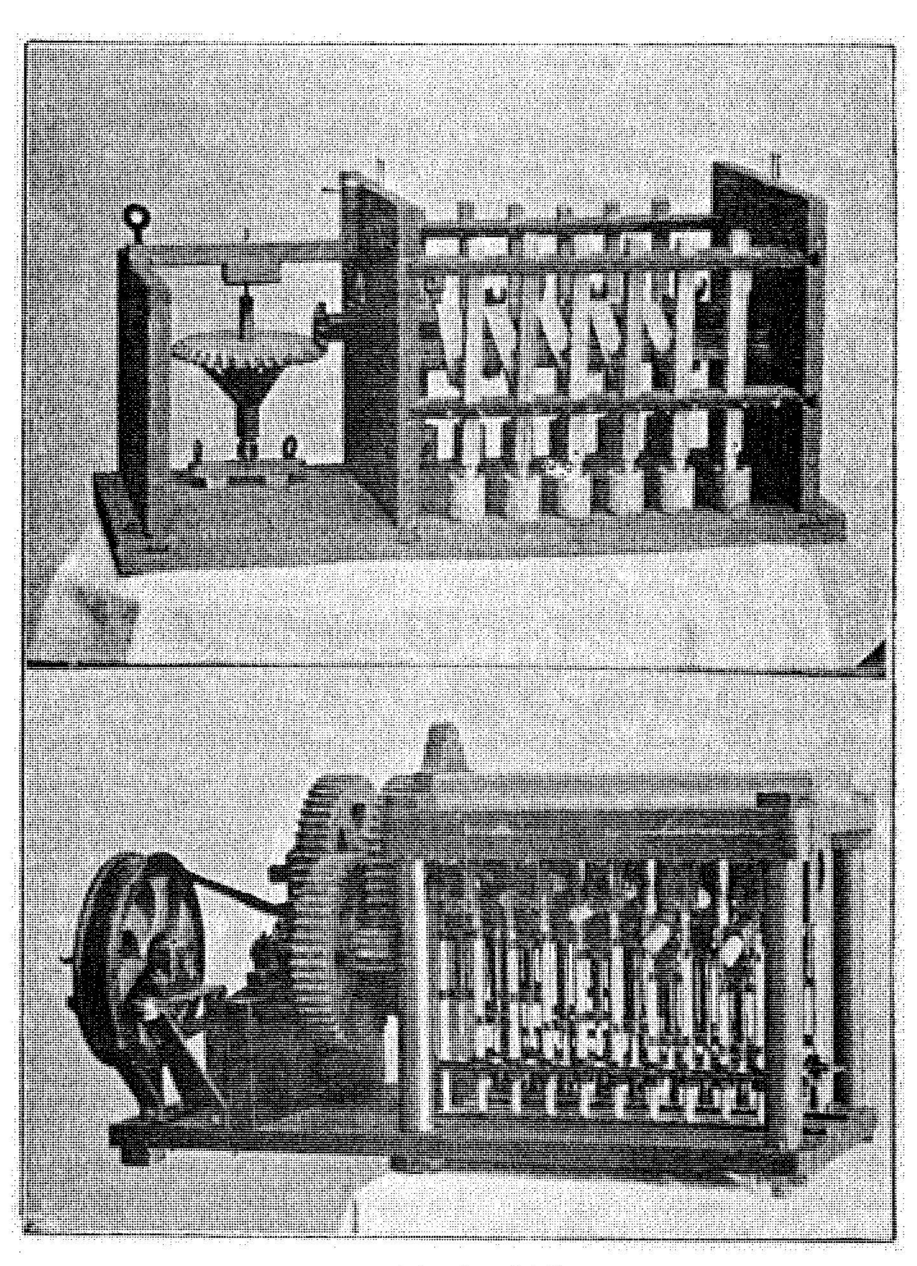
أعلنا أن نبدأ العمل فى الحال لإستخراج المعادن النفيسة. وبوصفى المهندس، كنت مُلزماً بتصميم التركيب للأفران والإشراف عليها على أن يشيدها حسن فهرانى (صانع الفخار)، الذى كان مسئولاً عن إمداد معدات المعمل. وقد تداعى الفرن الأول الذى بنيناه إلى قطع منثورة بعد أن بدأنا

فيه العمل، وكان لابد من تشييد فرن أقوى. ثم استهلكت قوارير العمل. وفعلنا ما فى وسعنا لإستنباط الذهب والفضة من هذه الأحجار، وحصلنا على بعض النتائج غير العادية، فقد خلطنا التراب، والملح العادى، والبلورات الملحية، وأوكسايد الرصاص – أى شئ وكل شئ للحجارة المتهرئة فى الأوانى. وأحياناً كنا نجد الآنية ومحتوياتها مصهورة معاً. إن الشئ الوحيد الذى وجدناه حقيقة وأعطى إنطباعنا إننا كنا نعمل بالمعادن كان لؤلؤة سوداء، وهذه إمتلكها حمدان فى الحال وحملها للخليفة، قائلاً إنه ما أخذ نجاحنا شيئاً سوى ما تطّلبه من وقت. ولما كان حمدان رئيسنا، فقد كان شديد الإهتمام بهذا العمل، وكان دون شك ينظر إلى اليوم الذى سيجد فيه قسم من محتويات هذه الأوانى طريقه إليه .

على أن تجاربنا قُدر لها ألا تنتهى أبداً. فحوالى إبريل، ١٨٩٦، وصلت أم درمان الإشاعات أولاً، ثم الأنباء المؤكدة، أن قوات الحكومة كانت تتقدم ثانية. ثم جاءت الأخبار الصاعقة أن دنقلا إستُولى عليها، ثم لتتلوها أنباء بسقوط أبو حمد. وقصر إمداد المواد دون المصنع الذى يترأسه حسن زكى وهو المصنع الداوى بمتفجرات الملح، ولما لم تصل شحنة من الكلوريات القلوية المطلوبة من مصر، إعتُقد أن القوات الآن قد سيطرت على كل البلاد الواقعة ما بين دنقلا وأبو حمد، ولا توجد فرصة للإختراق عبرها. وفشل عبدالله رشدى، كيمائى بيت المال، مع حسن زكى، فى إنتاج الكلورين، كما فشل آخرون كذلك، ولذلك أُمرنا لنجرى التجارب فى الحال. وبعث ناحوم إلى بيت المال ليجمع كل التطبيقات، والمواد الكيمائية، وأى شئ آخر يختار حيازته. وبدأت منشأتنا فى النمو، وسُرّ حمدان برئاسته لأناس كان عليهم أن يبذلوا الكثير من أجل المهدية. ولكن الكلورين المطلوب لإنتاج الكلوريات القلوية لم يظهر. وكان معملنا مكاناً خطراً ليُزار، لأننا كانت لدينا إناءاً وراء إناء حمضيات ممزوجة، وكانت المتفجرات هى مطلب الساعة. وكان لناحوم، أصماً كما كان، وقت حيوى. ومرة، بعد مرة، يتظاهر حمدان بأنه يفهم تجاربنا؛ واستنشق فى عمق من إناء كان يحتوى مزيجاً من حمضيات متنوعة مع إكسيد ملحى من البارمانجانيت. وكاد أن يختنق، ولكنه كان شديد الإنبهار، وكلم الخليفة عن التابعين الأوفياء الذين حصل عليهم، باذلين كل جهد فى جول ملئ بالسموم كالذى نعمل فيه.

كان هناك سبب قوى لأن أفعل كل ما فى جهدى لأجعل حمدان كثير الإهتمام ومؤملاً فى نتائج عظيمة. لقد كان أونور عيسى قد بعث لى كلمة مع رسول من بربر أنه كان حينها فى تلك المدينة برسالات ومال لى، ولكنه إعتقله الأمير؛ وكان يأمل مع ذلك، أن يستطيع الإفلات عاجلاً ويدّبر هروبى. ثم ظهرت شحنة الكلوريات القلوية – حوالى ألف ومائة وزناً، فيما أُخطرت به – وبحيازة سرى على عَينة صغيرة منها، أريناها حمدان كبرهان على إننا كنا لتونا قد نجحنا فى تجاربنا. وقد أرضاه ذلك، وكذلك رضى الخليفة، وأُمرنا بمتابعة العمل.

مع كل ذلك، كانت الحكايات الواردة كل بضعة أيام تسّبب قلقاً غير هين للخليفة. ولم يصدق أحد منا أن القوات كانت تجئ عبر الصحراء فى "شياطين حديدية"، ومضى بعض الوقت قبل أن نفهم أن خطاً للسكة الحديدية قد شُيد. والحقيقة إننا صعب علينا تصديق الأمر. وأيا ما كان من موضوع "شياطين الحديد"، فقد صَحّ به عزم الخليفة على العناية بأسلحته وذخيرتها. بعث شيخ الدين فى تفتيش عام على المخازن والترسانات(*)، واكتشف أن كمية كبيرة من البارود إعتراها الصدأ لإمتصاصها الرطوبة، وأن كميات أخرى أكثر منها كانت ذات نوعية فقيرة للغاية، وأن مخازن البارود على العموم ما كانت كما فكر هو آنفا. وهدد الخليفة بقطع يدٍ لكل من عبد السميع وحسن حسنى وساق، وهما مديرا المصنع، إن لم يعيدا إنتاج البارود مرةً ثانيةً كمتفجر فاعل. وحضر عوض، كرئيس على بيت المال وسأل إن لم يكن من الممكن أن يصنع نوعا ما من الآلات لإعداد مواد مسحونة للبارود؛ وكان العمل وقتها يجرى بالأيدى. وقد حاولت أن أثير همة ناحوم فى هذا العمل، لأن الوقت كان قد شارف آنذاك لنفض أيدينا من مؤسستنا الإكسيرية، لسبب أو آخر، وإلا فإننى كنت



آلات صنع البارود

قد إستشرفت المتاعب فيما لو تحرى شيخ الدين تحرياً دقيقاً عن عملنا. ولكن عباجى قدر أنه استكفى من علاقته معى فى التجارب والآلات، وقرر أن ينأى بنفسه تماماً عن الأمر؛ لقد قدر إن حياته ظلت فى خطر منذ وقت سالف. واختار سرى البقاء.

إخترعت آلة للسحن على أساس لعبة "دولى" الألمانية القديمة. قضينا بضعة أسابيع، بمساعدة من حميدة، رئيس النجارين، لعمل نموذج، وقد عمل بأداءٍ جميل؛ ولما عُرض على الخليفة، صار من البهجة بحيث أنه أمر بإزالة قيودى. وبدئ فى عجن مواد البناء فى الحال، وكذلك عمود الرفع الذى كان سيستخدم لتثبيت الساحنات، ثم اكتُشف أن الآلة لا يمكن صنعها وفقاً لمواصفاتى. وكنت أعلم ذلك عندما قمت بتصميمها، ولكنى كنت آمل أن أحداً ما كان يُرسل ليحاول إيجاد أشجار من الكبر بحيث توفر الأعمدة، وبذا يُضمن تأخير العمل. أن أسطى عبدالله وخليل حسنين، ولعلهما بسبب الغيرة منى، وخوفهما من أن تتعرض مواقعهما لخطر إحتلالى لها، كان رأيهما إننى كنت "أستغفل" الخليفة لما ذهبا إليه. واقترحا كذلك أن عوض المرضى كان صديقا للحكومة، وكان يساعدنى فى ذلك الحساب؛ ولكن يعقوب، الذى كان حاضراً، أيد موقفى. وأثناء المقابلة، قال الخليفة إنه كان قد سمع أنه فى بلدى تصنع النساء والأطفال عبوات الرصاص بآلات، وبما إننى لابد أننى عليم بها كلها، فعلى أن أصنع له ماكينة مثل ذلك فى الوقت الذى تكون فيه طاحونة البارود قد تم تركيبها.

لعشر سنوات كنت مقيداً ومثقلاً بالحديد حتى إنه ببذل الجهد كنت أستطيع رفع قدمى من الأرض لكى أنتقل من مكان لآخر؛ إن قضبان الحديد موصولةً بالكعبين حدّدت خطوى أو تحركى إلى حوالى عشر أو إثنى عشرة بوصة وعندما حُررت من كل ذلك، كنت أجرى وأقفز تقريباً فى كل النهار كإنسان تملكه الجنون؛ ولكن الإستعمال المفاجئ لعضلات ظلت لوقت طويل غير معتاد على الإنطلاق تسبب فى إحتقان الأرجل من الفخذين إلى الكعبين، وصحبت ذلك أوجاع فى منتهى الإيلام. وكنت لتوى قد جهزت الرسومات الخاصة بآلة التعبئة عندما أُجبرت على الرقاد. وأعطى ذلك أسطى عبدالله وحسنين سانحة أخرى للدخول على الخليفة، وللمرة الثانية إقترحا إننى كنت "أستغفل".

بعث عوض لى، وإجابة للخليفة، قال إنه يعتقد إننى كنت أبذل جهدى الجهيد، ولسوف أُوفق بالتأكيد؛ وإنه لولا إنه آمن بى بنفسه فلن يكن ليوصى بتوظيفى فى أعمال بمثل تلك الأهمية. ومرة ثانية وقف يعقوب بجانبى، وقال إنه إذا لم يعيننى أى كائن من كان، أو إذا أعاقنى أى واحد، فسوف يعتبر عدواً للمهدية. وبالرغم من أنه لا يفهم فى الآلات، كما اعترف، ففى رأيه "لابد من شئ ما فى رأس هذا الرجل الذى اخترعهم، ومن الأفضل توظيفه فى الترسانة بدلاً من عطلة وقته فى الساير". كذلك قال عوض إنه إذا كان الأسطى عبدالله وحسنين لم يستطيعا ولم يكن فى مقدرتهما أن يجدا المواد لتركيب الآلات، فهو يعتقد أنى أستطيع أن أصنع آلة أخرى بالمواد التى عثرا عليها. حسم هذا المسألة - فالآلتين يجب الشروع فيهما؛ ولكن الخليفة وافق على أن أُقيد بالسلاسل لمنعى من أى هروب، وفى اليوم الثالث عشر من حريتى وُضعت القيود فى مكانها. ولما أصبحت غير قادر على التحرك من منزلى، أُرسل إلى المشاركون، ومعهم خراطة، ومعداتهم وموادهم، فقد كان الخليفة يرغب فى إستكمال صنع الآلة بأسرع ما يمكن. وآنذاك كان عبدالله سليمان، رئيس مصنع التعبئة، يستخدم ما يزيد على خمسمائة رجل، وأراد الخليفة أن يحولهم إلى مهام القتال.

إن جهودى للحصول على كلٍ من النماذج الأصلية أو صوراً فوتغرافية لها لمّا لم تنجح حتى الآن، فقد حصلت على نماذج لآلات صُنعت هنا. أما الأشخاص ذوى الإهتمام بالمكينات فسوف يكشفون بأنفسهم العيوب الميكانيكية والتعقيدات غير الضرورية التى أُدخلت عليها. لقد كنت أعمل تحت إشراف مهندسين ميكانيكيين على قدر طيب من الدراية، حتى لا تكون العيوب صارخة. وقد رُصد بعضها وأصلح، ولكن العيوب الأساسية لم تكن بادية للعيان، لأنها كانت مما يقع وراء قدرات عبدالله الحسابية؛ وكان حميده، الذى كان يستطيع كشفها وقد رآها بالفعل يتمتع بالحيل التى

تمارس. إن الأفكار العديدة التى التقطتها عندما كنت مشاركاً فى قوات غوردون القديمة تمثل أمامى الآن للخدمة. فعندما أُخذ نموذج آلة التعبئة لعبدالله، كان بدلاً من الإبتهاج به، فى غضب شديد: فقد إستُولى على بربر! قال، "إننى أريد عبوات، لا نماذج"؛ وصرف أوامره أن يذهبوا بى عن بيتى، وباشر العمل طوال اليوم فى الترسانة، وأُقفل مساءاً فى سجن الترسانة مع الأشخاص المحكومين ليعملوا عمالاً معى.

ولأكسب مزيداً من الوقت، أصرّيت على أن يُصنع لى أولاً نموذج خشبى كامل لآلة التعبئة ليقوم بصنعه عمال المعدن. وكان يعقوب قد أمر بأن كل المواد والعمل المتوفر فى الترسانة يُضع تحت تصرفى. وفى حين كان النموذج الخشبى تحت التصنيع، شغلت نفسى بإختيار المعدن المطلوب، وبهذا وضعت يدى على كل شئ كان الأسطى عبدالله يحتاجه للأعمال العادية تحت يديه. وامتلكت محور التدوير بأحد البواخر لأننى قلت إننى أتطلب قطعة بأقراص مركزية، وبذلت جهدى لأهرس أفضل ماكينة خراطة به، حتى أكسب مزيداً من الوقت؛ ولكن الخراطة تحملت الضغط، وقطعت أربعة أو خمسة أقراص بالفعل فى المحور.

لقد كان سيأخذ عاماً آخراً لقطع الباقى بالمعدل الذى كان يتقدم به العمل، وربما أربع سنوات لصنع الماكينة؛ ثم إنه عندما يكتمل صنعها لكان حادث قد وقع، ولكان قد قتل بعض القوم أو مُثل بأجسادهم، لأن محور التدوير كان سيتمزق خلال الآلة مع أول تشغيل لها. وكنت أجد بهجة جهنمية فى تدمير كل قطعة جيدة من المعدن أضع يدى عليها بذريعة أنها تلزم الآلة؛ وكان النحاس ومعدن الصفر الذى امتلكته يدخل لحد معتبر فى إنتاج عبوات الذخيرة، والعمال المهرة الذين أبقيتهم عاملين معى عطلوا لأشهر اللمسات الأخيرة لمصنع البارود الجديد فى جزيرة توتى. ولكن لا يمكن الآن التراجع. لقد كان عبدالله هو عدوى الثابت؛ وكنت أعلم إننى كلما أتلفت المواد تحت أبصاره، كانت المخاطر أقل فى ذهابه إلى الخليفة مرة أخرى لحثه على أن يصدق أن كل عملى كان، كما كان يدعوه هو، "شغل خبلاص" – كله أكاذيب، لأن عبدالله نفسه سيقع فى المتاعب لعدم إكتشافه ذلك الأمر قبل أن يقع كل التلف.

وأثناء إنشغالى بجمع المادة للآلة (لأنه ما إن قطعت كتلة حتى وُجد أن خطأ ما وقع فى الطول أو الكثافة، وبذا تحدث إغارة أخرى على المخازن)، جئ بالباخرة صافية وأُرسيت فى مواجهة طابية المقرن للترميمات. وبدلاً عن الرسو بها على مهدٍ يستودع طول أرضيتها، أقيم ما بين منتصفها، وتمزقت مقدمتها ومعها المؤخرة. إن كل القوارب كانت فى هذا الوقت تحت مسئولية بيت المال، ولما أصدر الأسطى عبدالله حكمه على الصافية، قائلاً إنها يستحيل إصلاحها، طلب منى عوض المرضى، لخشيته من سخط الخليفة فى وقت بتلك المصاعب، إن لم يكن من الممكن إصلاحها. وبأخذنا عدداً من الرجال الحاملين على الأسطى عبدالله، فحصنا القارب، وأعلنا أنها يمكن أن يتم ترميمها. كان عوض مسروراً، وعُينت مشرفاً على العمل كذلك. وتمثل إشرافى فى إختبائى بالأسفل وتدخينى خلسة.

يوماً ما فى أغسطس ١٨٩٧، عاد أونور إلى أم درمان، وبعث لى برسائل بواسطة أم الشول. إن أهميتهم ستُرى من الرسالة الآتية، التى تمكنت من كتابتها وتهريبها إليه؛ وكان واجباً أن تُسلم الرسالة إلى أول ضابط يمر به : —

"طبقاً للترتيب الذى اتخذته مع حاملها أونور، نجحت فى التحرر من الساير، وتحركت إلى الخرطوم، حيث قضيت عامين فى الترسانة تحت الرقابة. وقد تمكن أونور من مقابلتى شخصياً ليتشاور حول خططى للهروب، التى لا تشكل صعوبة كبيرة إذا توفرت لى الأموال. وفى مايو، ١٨٩٦، أرسل لى أونور، بواسطة وكيله، رسالتك، وحملنى على فهم أن المال المذكور فى هذه الرسالة كان بحوزته، وإنه كان ينتظر فرصةً لإحضاره إلى الخرطوم. والآن (يوليو – أغسطس، ١٨٩٧) جاء لأم

درمان ليجدنى فى مركز عصيب، لا فى غيره، بسبب تقدم الحرب. وقد أخطرنى أنه أُمر بالذهاب لسواكن حيث زُجّ به فى السجن، وأُخذ منه المال الذى كان يحفظه لى، فما كانت لديه إجابة منى على الرسالة التى بُعثت، أو أى بّينة لتظهر أن الرسالة كانت قد إبتُعثت. لقد إستدان بعض المال هنا، وتعهدته أنا كضامن بمبلغ خمسين جنيها، ووعد أونور أن يعود خلال ثلاثة أشهر بأخبار منك وبالمال المطلوب لدعمى وهربى. إن مجرى الحرب سوف يسلمنا أحياءاً أو أمواتاً من أيدى هذا الحشد الهمجى.

"القسم الأعظم من الترسانة نُقل إلى بيت المال فى أم درمان بسبب الحرب، والمادة المتبقية ستلحق به فى وقت وجيز جداً، وسأذهب فى صحبتها، عندما تسنح لى فرصة لمقابلة أونور إن لم يقع شئ خرب للعلاقات الطيبة، الموجودة بينى أنا أو أسيادى الحاليين، لأبعد الحدود. أرجو أن تسلم أونور (ما يلى هنا من قائمة بالحاجيات الطبية)؛ إن ممارسة الطب يسّهل إتصالى بالعالم الخارجى. وآمل أن يجد أونور معك رسالةً من أسرتى؛ إننى فى صحة جيدة، وكذلك إبنتى بخيته، وأمها أم الشول. إننا نبعث لك بتحياتنا".

تواترت الأخبار كل يوم عن أشد الأوصاف تحذيراً للخليفة؛ إن حكايات عن قوارب حربية ضخمة تبحر لإستطلاع الخرطوم، و "شيطان الحديد" (السكة الحديدية) وهى تزحف للأمام، جعلته يستجمع كل شئ تحت أبصاره. كل المخازن أسرع بها لأم درمان؛ وأُرسل مائة وخمسون إلى مائتى رجل لتدمير دار البعثة، والجامع، ومبانى أخرى فى الخرطوم، لأن الخليفة كان عازماً على ألا يترك أى مكان تستظل به أى قوات تنجح فى الوصول هناك. ونُظر إلىّ بأعلى درجة من الشك، فما كان هناك إخفاء، لقلقى، بالرغم من كل محاولاتى، لألتقط أى جزئية من الأنباء يمكن إلتقاطها عن الحملة، وكنت على قدم المساواة فى حمى من الإثارة وأنا أنتظر رجوع أونور. وفى كل يوم يحمل فرصاً للهرب، شريطة أن يوجد رجل له جمل مستعد لى على الشاطئ المقابل. ومع عشرات القوات ومئات الرجال العاملين فى نقل الترسانة إلى الجانب الآخر من النهر، كان الهروب الناجح مؤكداً؛ ولكن أونور لم يحضر أبداً. ونحو نهاية نوفمبر ١٨٩٧، أُخذت مع آخر مادة للترسانة إلى أم درمان، وأُلقى بى فى سجن الساير، حتى يمكن تجهيز دار لى، كما أُخبرت، فى بيت المال، حيث كان علينا أن نكمل آلات صنع البارود وتعبئته.

الفصل العشرون

الإستعداد لإستقبال الزوارق الحربية

برجوعى إلى الساير فى نوفمبر، ١٨٩٧، كان كأنما كنت زائراً - شخصيةً بارزة آنذاك. وقد أخبرونى أننى ما كنت لأبقى هناك سوى للوقت الذى يُجهز خلاله مقرى فى بيت المال لإقامتى، حيث سأغادر السجن وأواصل تركيب آلات صنع البارود وتعبئة الذخيرة، والتى كان الخليفة ويعقوب يتطلعان إليها بإهتمام وقلق غير يسير ولكن ما إن وطئت بأقدامى ما وراء بوابة الساير، حتى قوى عزم الأسطى عبدالله وخليل حسنين لحفظى به، وقد وفقا فى مسعاهما. ولما أظهر عوض المرضى للمرة الثانية إكتراثه بى، نجح هذان المحترمان فى إقناع يعقوب أن إهتمام عوض بشخصى كان بلا شك بَيّنةً على تعاطفه مع الحكومة، وقد إنتهت مشاريعهما بإرسال عوض أيضاً إلى السجن تصحبه تهديداتٌ بما سيلاقيه إذا حاول أن يعقد أى محادثة معى.

وربما كان أسبوعا بعد أن دخلنا السجن أن أم الشول جاءت لتقول لى أنها قد رأت أونور عيسى وتحدثت معه، وما كان قد غادر أم درمان - نفس الأونور الذى كنت أتطلع لرؤيته زمنا طويلاً بكل قلقٍ خلال وقت نقلى من الترسانة بالخرطوم، لما كان كل يوم يعج بسوانح الهرب الناجح! ولخوفى من أن يخدعنى، ويسلم المذكرات التى كنت قد سلمتها له إلى الخليفة كجدية لوفائه له، وجهت له أم الشول، وقلت لها أن تفيده إن لى مذكرات أخرى أود إضافتها للمذكرات التى كنت قد أعطيتها له. لقد إرتاب أونور حالاً فى الأسباب الكامنة وراء طلبى لها، وأجاب إنه ليس مسروراً من إفتقادى الثقة فيه، وإنه تَحّصل على تصديق ليتحرك إلى سواكن للتجارة، ولكن، بما أنه وقع فى دائرة الريبة، فقد مُنع من السفر، وإن كان يأمل فى الرحيل فى أى يوم. وعلى هذا فقد وثقت به مرة أخرى، وأضفت الآتى إلى مذكراتى، مرسلاً بها له حال كتابتها : -

"الأخبار من هنا (الساير)؛ يعلم سلاطين سجن أم درمان. من بيت المال إلى الموردة على طول النيل هنالك ست طابيات شبه دائرية ولها جنبات؛ وكان لكل حصن ثلاثة مدافع، ولكن الجنبات عليها فجوات لحملة البنادق وحدهم. إن المتاريس من طين النيل، وتبدو ثلاثة أمتار فى ضخامة سمكها. ومعظم الطوابى قائمة بالتجاور تحت السور العالى. وهنالك طابية مشابهة فى أقصى الشمال المحدد لجزيرة توتى، وطابيتان فى الحلفاية، ونفس العدد فى الهجرة، شمال أم درمان. إن فرقتى مدفعية بالقرب من المقرن تكتسحان النيل الأبيض والفرع المحاذى لجزيرة توتى، ولقد سمعت منذ لحظة أن شخصاً ما قد عرض الرمى بطوربيد فى النيل ليعصف بالبواخر. إن سلاطين يعلم الكثير عن الجيش مما أعلمه أنا؛ وقد جاء ود بصير من الجزيرة بحوالى ألفى رجل. وعثمان دقنه، بقوة لا أعلم بعد قوتها، فى الحلفاية. وسيخبرك أونور كل ما يتعلق بهذه القوات. أحمد فضيل فى السبلوقة (شبلوكا). وقوته معلومة لكم أكثر منى. إن كل السكان الموجودين هنا يعيشون فى أعظم رعب من هذا الحشد الهمجى وحكامهم، ويصلون للّه كى يسلمهم من قبضة أيديهم، وإنك لربما تنقذهم من مصير الجعليين. إننى أتوسل إليك أن تحفظ هذه الرسالة فى خفاء تام. فهناك خونة وسط جواسيسك "(أُيدت هذه الملاحظة أسابيع قليلة لاحقة)؛" فإذا بلغ أقل وشى بإتصالى معك آذان الخليفة، فسيحاط بى هلاكاً. أجب علىّ بالألمانية، فليس هنا غيرى ممن يفهم اللغة. وإنه لخطأ أن تثق فى أى عربى - متمدنا كان أم غير متمدن. وأونور هو الشخص الوحيد الذى أحضر لى أى أنباء. وهو أفضل رجل يصل بيننا. وتوقعاً لأى إجابة مبكرة منك، فإننى أضع نفسى قيدك بكل ما أملك وأدعو الله أن يمكّننى من الإنضمام إليك قريباً. لقد نُقلت من الخرطوم إلى سجن أم درمان فقط ريثما يجهز بيتى فى بيت المال.

تلقى الخليفة أنباءاً البواخر ستمخر لإستطلاع الخرطوم".



وليمة العيد، ١٨٩٩

لم يكن قبل نهاية ديسمبر أن أونور وُفق فى الحصول على تصريح بالرحيل عن أم درمان؛ وبإسراعه لسواكن، سلم مذكراتى إلى القائد هناك، ورجع بعد ستة أشهر بشكره للمعلومات الواردة بها ومالاً لأواصل. إنه لمن الغريب أن المشقة التى تَجشمتُها لجمع المعلومات عن الطوابى، والكتابة إلى الجيش المتقدم، وإعطاء التفاصيل التى أمكننى سردها، يمكن أن تعطى إنطباعاً لأولئك القادمين إلى أم درمان أنها كانت "حصون نيوفلد" تلك التى دُمرت إرباً. وحتى صديقى العزيز - ملك مراسلى الحرب - السيد بنيت بيرلى، كان من الطيبة ليخبرنى أنه يؤمن بأننى صممتهم وقمت بتشييدهم. لقد كانوا كلهم، منذ البداية إلى النهاية، من عمل يوسف منصور.

فى الوقت الذى أتحدث عنه، كان السجن ممتلئا بالأشخاص المشتبه فى تعاطفهم مع الحكومة؛ وقد أُلمح إلى حضور إبراهيم باشا فوزى وعوض المرضى آنفا. وكان حُجّل، الذى كان سيصاحبنى فى البعثة إلى كردفان، سجيناً كذلك؛ ولكن مضت ثلاثة أشهر قبل أن أتمكن من سرقة مقابلة معه - حوالى الوقت الذى حانت فيه ذكرى أسرى - ثم عرفت، على الأقل ساعة إطلاق صراحى، التأريخ الحقيقى لأسرى. إن دائرتنا من "ناس الحكومة" كانت تزيد يوميا؛ وواحدة من أكثر الزيادات إثارة للإهتمام كانت جماعة من ستة عشر أو سبعة عشر جاسوسا، من بينهم وراق من دنقلا، عبدالله محسى من دراو، عجيل من كسلا، وآخرون من سواكن. لقد خانهم جواسيس آخرون؛ وقد نسيت أسماء الخونة، ولكنها ذات أهمية قليلة الآن، لأن الخونة بلا شك سُويت حساباتهم بالإستيلاء على أم درمان. إن الخائن أو الخونة كانوا دونقلاوياً - ربما الثلة الوحيدة من اللصوص على ظهر الأرض الذين لا يملكون شرفاً بين أنفسهم

وأياً ما كانت عليه الإثارة واللهفة فى أنحاء أخرى من العالم فيما يتعلق بتقدم السردار، فقد كان لنا نصيبنا منهما فى أم درمان. لقد بلغتنا أقاصيص غريبة عن عروض من العون أُرسلت للخليفة ليقاوم تقدم القوات. وقبل وقت قصير قبل مفارقتى الخرطوم، وصل مدفع ميدانى من الجنوب هديةً للخليفة؛ وقد كان مصحوباً بإمداد محدود من الذخيرة - عبوات من معدن الصفر تحمل قنبلة بنفس الطريقة التى تحمل بها البندقية عياراً نارياً. وكانت إحدى العبوات قد أُرسلت إلى ترسانة الخرطوم ليروا إن كان فى الإمكان تصنيع مثلها. وحُكيت قصص كثيرة عن أصلها؛ ولكن بما أن المدفع لابد أنه أُخذ عند الإستيلاء على أم درمان، فقد تم تتبع تأريخه الحقيقى بلا شك.

لقد كان فقط عندما قابلت فى السجن إبراهيم ود حمزة، من بربر، وحمد ود الملك، إننى علمت منهما ما تسربت أخباره عندما أرسل ملك الحبشة مبعوثاً للخليفة يسأل مساعدته ضد الإيطاليين. أُحضر المبعوث إلى ترسانة الخرطوم ليفتشها، ولم يسمح لى بالتحدث معه. وتم الإتفاق على ترتيب بمقتضاه يفتح الأحباش طرق التجارة من القلابات، ويرسلوا من البن الكثير مع غيره من مواد الغذاء شهرياً مقابل وعد الخليفة بمساعدتهم بمهاجمة الطليان؛ ولكن المساهمات أو الفدية دُفعت لأشهر قليلة فحسب، لأن مبعوثا آخر جاء بعروض من المساعدة ضد الجيوش المتقدمة. وكان يحمل علماً طلب من الخليفة أن يرفرفه، حتى لا تطلق عليه القوات النار؛ إن المؤتمرات، مثل كل المقابلات بين الخليفة والأجانب، كانت تُعقد فى خصوصية، ولكن فى نهاية اللقاء الأخير، قدم الخليفة رده فى حضور الأمراء وآخرين. فبإرجاعه العلم "قال" إن مهمتى مقدسة ودينية؛ إننى أثق بالله لعونى وتوفيقى؛ إننى لا أريد العون من مسيحيين. ولو طلبت عوناً من إنسان أبداً، فإن الصبى المحمدى عباس(*) أقرب إلىّ وأحسن"، وبهذا صرف المبعوث وصحبه. إن البناء الوحيد الذى يمكننا طرحه فى الجملة النهائية، هو أن الخليفة كان يرغب فى أن يفهم كل واحد أنه، بأسرع مما يتقبل به عون قوة مسيحية، فإنه سيسلم للخديو، وهذا يعنى المستحيل، لأنه كان ينظر إلى اليوم القابل الذى سيقيم فيه قواعده فى قلعة القاهرة، فيشد فوقها الخديو و "بورين" (اللورد كرومر) كأول ضحاياه. وللسودانيين، كان اللورد كرومر، أو "بورين"، كما كانوا ينطقون "بارينق"

خطأ، يمثل نفس العلاقة التى مثلها يعقوب للخليفة.

من اليوم الذى بدأ فيه محمود حتى وصول الجيش المنتصر فى أم درمان، كنت أُضَايق بالأسئلة ليلاً ونهاراً؛ وأراد المهديون أن يعرفوا ما إذا كانت الجيوش المتقدمة منتمية للشيخ الذى أرسل القوات إلى غوردون فى ١٨٨٤؛ ورغب الذين يعادون المهدية معرفة إن كانت تتبع للشيخ الآخر. ومن الجرائد العربية التى وجدت طريقها إلى أم درمان، علم السودانيون أن هنالك قبيلتان فى إنجلترا، يقود كل واحدة شيوخ أقوياء؛ واحد منهم هو شيخ ١٨٨٤، والثانى هو الشيخ الذى قال إنه عندما يبدأ عمله فلن يكون هنالك رجوع حتى "يسحق" المهدية. وبالنسبة للمهديين، كانت هى القوات التى "لاذت بالفرار" تلك التى تعود ثانية؛ وللقوم المتعاطفين مع الحكومة ما كان ذا شأو أى شيخ يتولى السلطة؛ لقد كانت القوات البريطانية تتقدم، وذلك يكفى. وفى الليل تُمّحص ثلتنا وتُناقش كل الحكايات التى كنا نسمعها نهاراً، ومع أننا كنا ملئنا الأمل، يتملكنا القلق والخوف فى معظم الأحايين.

لما أُمر محمود بالقيام، كانت التوجيهات الصادرة إليه أن ينتظر فى المتمة، ويفعل كل ما فى قوته ليضايق القوات بينما تعبر النهر، فلو توفرت له القوة الكافية لمهاجمتهم عليه بذلك، ولكن لو كانوا أقوى منه، فعليه التراجع تدريجيا لكررى، حيث تنبأت نبوءة قديمة بنشوب المعركة العظيمة فيها. وعصى محمود هذه التعليمات، وعَبَر للضفة الشرقية، وعليه بعث له الخليفة أوامراً بألا يبقى فى زريبة أو خنادق، وإنما يهاجم الكفار فى العراء. إن الإثارة التى سَبّبها عصيان محمود لأوامر الخليفة ما كادت تتلاشى أخبارها، عندما جاءت الأنباء أنه هاجم الجيش الإنجليزى وأباده. ولكن أخباراً غير هذه جدت فى أثرها؛ وعلمنا الحقيقة من جماعة لحوالى ثمانية وثلاثين من السود يلبسون الزى العسكرى المصرى. وكانوا دراويش أُخذوا فى دنقلا وأبو حمد وجُندوا فى الجيش. وفى العطبرا هربوا عائدين للدراويش، ولكن للإشتباه فى أنهم جواسيس، أُرسلوا إلى الساير. إن الحقيقة كلها ظهرت عندما عاد عثمان دقنه لأم درمان ليّبلغ الخليفة.

"أى أخبار أحضرتها لى، وكيف حال المؤمنين؟" تساءل الخليفة. "سيدى" أجابه عثمان، "لقد قدتهم إلى الجنة". والآن، كان عثمان يفعل هذا فى كل معركة لسنين، ونفذ صبر الخليفة؛ إنه يريد إنتصارات، ولا يريد حجاً لأفضل قواته للعالم الآخر". إذن لما لم تذهب معهم؟" رد عبدالله فى سرعة للبديهة. "اللّه" أجاب عثمان، "لم يقدرها كذلك؛ ولابد أن له عمل أكثر لى لأقوم به؛ ولما ينتهى ذلك العمل، فسيدعونى". لقد كان معلوماً كل العلم للخليفة، ولكل واحد غيره فى السودان، أن عثمان له نظرة ممتازة لميدان المعركة، ويعرف أى ساعة قبل أن يدرك أحد غيره، يلوذ بها فى يوم خاسر. وكان ظهور عثمان كافياً للغاية ليفهم الناس أن كل حكايات النصر فى جانب الدراويش مزيفة، وإنه لا جدوى أن يحاول الخليفة لأى مدى إخفاء الحقيقة، ولكن شرحاً ما لابد من تقديمه للإجتثاث المريع الذى حاق بجيشه. لقد كان كله من فعل إلهٍ غاضب. فقد عصى محمود الأوامر المبعوثة من النبى عبر عبدالله، وكانت هذه هى النتيجة! وبتوافد جنود آخرين من الصفوف الخلفية أو أولئك الهاربين، تحدثوا حكايات شاذة عن بواخر ضخمة بها مدافع هائلة تطلق "شياطين" و "صواعق" من النار؛ إن هذا الوصف ربما أشار إلى الصواريخ التى، فيما جمعت، إنطلقت فى كل معسكر محمود، وأحدثت دماراً فظيعاً به.

بسقوط دنقلا، قدم مغربى (من تونس، أو الجزائر)، يُسمى نورانى خدماته ليعقوب، كصانع للطوربيد، وبها قال إنه يستطيع أن يُفجر أى قارب على النيل. رُفضت خدماته فى البدء وقتها، لأن الخليفة قال أنه ينوى أسر كل هذه القوارب لنفسه؛ ولم يرغب فى تدميرها. ولكن الحكايات توالت حولهم بعد قتال عطبرة، مبّينة أن شيئاً ما لابد أن يُفعل لتأمينهم. وتعهد عبدالله وحسنين بعمل "حلقة" من السلاسل عبر ممر السبلوقة، ولهذا الغرض جُمعت تكاد كل خردة السلاسل فى أم درمان. إن

خطتهم، كما وُصفت لى، كانت كالآتى: أن تطرح السلاسل عبر النهير، وتثّبت أطرافها على عمدان فى الضفاف المتقابلة للنيل. ولمنعهم من الغوص إلى قاع النهير، صُنعت مجموعات من الطافحات الخشبية الكبيرة، وهذه تثّبت على مسافات قصيرة على طول الحلقة. واحتُسب أن الطافحات بفضل أثقال السلاسل، ستغرق تحت سطح المآء مباشرة، وكذلك تُحفظ السلاسل فى مجموعات مزدوجة؛ وهذه مقصود منها أن تعضل تروس الدوران ومحولات طاقتها فى الزوارق الحربية، وبينما هى معضلة على هذا النمط، يقوم رجال منصور القناصة بضرب كل من على سطحها بالنار، ومن ثم يطلقون القوارب قائدين ركبها لأم درمان. كان ذلك هو التدبير.

موظفاً فى الترسانة فى ذلك الوقت كان رجلاً إسمه محمد بوراى - يتعاطف مع الحكومة، وعدواً مريراً لمنصور والآخرين؛ وقد عُهد إليه بوصل الطافيات فى النقاط الثابتة فى الحلقة المحيطة. وأياماً قليلة عقب أرسال الحلقة أسفل النهر، وبينما كنت "أمارس" فن التطبيب من أبواب السجن، قابلت مريضاً مثيراً للإهتمام؛ لقد كان بوراى، برأس ملفوف بالثياب حتى لا يتعرف عليه أحد. أخبرنى أولاً عن التدابير المتخذة للحلقة، وكيف نجح فى تدميرها. إن السلاسل طُرحت فوق مؤخرة القوارب الراسية فى النيل من ضفة لضفة، وثّبت بوراى الطافيات عليهم، ولكنه بدلاً من جعل الطافية موثوقة بقوة فى هذه النقاط، فإنه أدخل الحلقات حول الحلقة دون إحكام حتى تتدافع الطافيات من طرف لآخر. وقد قُدمت الكلمة لنزع الحلقة من القوارب. وحُملت الطافيات بقوة التيار إلى مركز الحلقة، وبالمقاومة التى أمدها بها التيار، تحطم وثاقها وضاعت. إن هدف بوراى من الحضور لى سيجرى تقديره؛ إنه وقد إستخدم في تركيب الحلقة، قد يُعدم، بوصول الإنجليز، كمهدى، وقد رغب فى إخطارى بذلك، "كرجل من رجال الحكومة"، بما قد فعله، حتى يمكننى أن أتحدث فى صالحه. وقد وعدته.

ما كانت هناك سلاسل إضافية باقية لتصنيع حلقة أخرى، ولكن تلك القوارب الرهيبة لابد من إيقاف حضورها لأم درمان، وأرسل إلى نورانى ليشرح مشروعه مرة ثانية. وقد إقترح أن يأخذ غلايتين فى شكل أنبوبتين كبيرتين، ثم من قاعدة بالخرطوم، يقطعهما إلى قطعتين، ويحشو كل قطعة بالبارود، ويختم طرفيها، ويطلق الجميع بالكهرباء بينما تجتازهم القوارب. ولقد طُلب من سرى، كاتب التلغراف السابق فى بربر، أن يصمم الأجهزة الكهربائية، ولكنه أجاب أنه جاهل بمثل هذه الأشياء. وكنت التالى بعده، لأقدم رائى عن إمكانية تطبيق خطة نورانى. وأوضح لى أن كل نصف من الغلايات سيحتوى ثلاثين قنطاراً (طناً ونصف) من بارود المدافع؛ إذن فهى ألغام، وليست طوربيدات، ما أراد الرجل إستعماله. ولكن إسم "طوربيد" كان دائما ما يتم إستخدامه. وقد رديت إننى سمعت، كما يقول نورانى، عن طوربيدات تستخدم فى البحر لتدمير السفن الكبيرة، ولكننى لم أسمع قط عن إستعمالهم فى الأنهار، وإننى أرتاب فى قدرته على صنعهم. ولم يكن الخليفة راضياً عن إجابتى، وبعث كلمته أنه يعتقد إننى يمكننى الإعانة فى صنعها، ولكنى لا أود ذلك. ونحو هذه، قلت للمرة الثانية، إننى يجب أن أكون سعيداً كل السعادة لإعانة نورانى فى عمله، ولكن ما اقترحه كان خطيراً وشديد المخاطر لأقصى حد. وقلت إننى متأكد أن النتيجة الوحيدة ستكون إنفجاراً يحدث بينما يجرى تصنيع الطوربيدات، وإنه، بينما لا يهمنى أن أُقتل أنا نفسى، فإنى لا أحب أن ألقى اللّه وأنا مسئول عن أرواح الآخرين. وربما إننى أخطأت فى طرح واعز دينى، لأن الخليفة لم يصدق أبداً تحولى عن عقيدتى؛ وقد إستيقن عليه إننى رفضت العون، وأمر الساير بإهالة سلسل وقضيت إضافيين على جسدى.

تمسك نورانى بجدوى خططه، وأُمر بعمل "طوربيد" صغير على سبيل التجريب؛ وأشرف منصور، وحسنين، وعبدالله على العمل الذى نُفذ فى سرية تامة. وعندما أُنجز، حُمل اللغم إلى النيل الأزرق، وثُبت فى حزم تحت قارب، وانفجر. لقد كانت النتيجة مرضية للغاية - تفّجر القارب إلى خشب منثور، وانتصب فى الهواء عمود كبير من الطين والمآء، وكان ذلك أكثر مجلبة للإنبهار، فيما

وضح، من تدمير القارب.

صدرت التعليمات بصنع "الطوربيدات" فى الحال، وظل الرجال يعملون ليلاً ونهاراً لإكمالها؛ وقطعت الغلايات أنصافاً، وغطيت أطرافها المفترحة بأطباق، أسلاك و "رباطات" كما وُصفت لى، معصوبة إلى أداة فى داخلها، وفى وقت لعله أسبوعين، علمت أن أربع طوربيدات كبيرة وواحد صغير أُنزلوا فى النهير، بينما كان يتم تصنيع أخرى. وثانية، إستقبلت زيارة من بوراى؛ لقد كان مكلفاً بالمساعدة فى إنزال الألغام، وأراد أن يعرف منى كيف يبطل فاعليتها. ومن وصفه للأسلاك وإزدواج الخطوط، توصلت إلى خلاصة أن الكهرباء لابد أن تكون وسيطاً لتفجيرها، خاصةً لأن التعليمات لبوراى هى أن يُولى المسئولية تلك الخطوط السلكية، فتنساب بين يديه بينما تغوص الطوربيدات تحت المآء، ويوثق هو أطراف الأسلاك إلى أعمدة تُثبت على اليابس جنوب خورشمبات بالضبط. وقد أخبرته أنه إذا انكسر أى من السلك أو الرباط الخاص بالخطوط السلكية المزدوجة، فإن الطوربيد لا يمكن تفجيره، واقترحت عليه أن يجذب أحد الخطوط جذبة قوية حال إنزال "البرميل" فيما كان يدعو الألغام إلى سفح النهير.

إن ما حدث يقع فى علمنا؛ أما كيف حدث فلن نعرفه أبداً. فقد شوهد بوراى فى الإسماعيلية التى قامت بسحب القياسات المحملة بالحجارة وعلها الطوربيدات، إن القياسات كان يجب أن يكون عليها ثقب مُشكل بها، ويسمح للقارب والطوربيدات بالغوص بالتدريج داخل المآء. وقد أُنزل طوربيد واحد، وتبع ذلك إنفجار حالى. أُطيح بالقوارب وبها نورانى وما بين ثلاثين وأربعين رجلاً فى الهواء ذرات؛ وانشطرت الإسماعيلية إلى جزئين – وطفحت المؤخرة ياردات قليلة تحت النهير ثم غاصت. والتقط بوراى من الماء واللحم الذى يكسو عظم ساقه اليسرى منزوع عنها فى جلاء، وكذلك اللحم الذى يغطى ضلوعه فى جانبه الأيسر. وظل منتظراً لسبعة أيام، يسأل مجدداً عنى؛ ولكن كل ما أُذن لى به أن أرسل له حامض الكاربوليك لجروحه – ولم يُصدق لى لأذهب وأراه. وعلى كل التحريات حول وقائع الحادث كيف كانت، ما كان يستطيع، أو لم يرد أن يقول، غير أن كل ما فعله هو أن يجذب الأسلاك غير المشدودة، ليمنع تشابكها.

آسفاً على ما كنت عليه لموت بوراى المسكين، لا أستطيع أن أعتبر إننى ملام عليه بأى شكل من الأشكال؛ إننى يمكننى أن أفكر وحسب أن نظاماً ما من الإحتكاك، أو الفتيل، قد وُضع إلى "الطوربيدات"، وإن عين الإجراء الذى اقترحته لإبطالهم قد تسبب فى تفجيرهم. وحوالى نفس الوقت الذى انفجرت فيه الألغام، رجع أونور، أو، على الأقل، تسلمت أنباءاً عن عودته، بوصول الرسالة والمال اللذين جاء بهما من سواكن. إن كل فرد له ميول نحو الحكومة كان الآن يحضر لى فى السجن بحجة أو أخرى، ليعطينى معلومات عن كل ما كان يجرى؛ إنه لمصلحتهم ذلك العمل، لأننى حتى النهاية كان يُنظر لى كموظف مسئول. ونظراً لهذا، كنت قادراً على أن أبعث لأونور قصاصات من الورق تعطى تفاصيل لأقرب درجة من الصحة ما أمكن ذلك عن عدد الأسلحة المتنوعة التى امتلكها الدراويش، ومقدار الذخيرة المحفوظة، وخطط الخليفة التى ما كانت معلومة. وفى واحدة من مذكراتى أخبرت الجيش بإنفجار "الطوربيدات" ووجود لغمين آخرين جاهزين للإسال، مع تفاصيل تخص الطوابى. وسألت أونور أن يذهب بهذه بأسرع ما يمكن، وقد وعد بذلك. إننى لا أعلم هل سلم هذه المذكرات لأحد، أم إنه قام بذلك بنفسه؛ لقد أجاب على تحرياتى بالكتابة لى من أم درمان قائلاً إنه قُبض عليه فى النيل بواسطة عثمان دقنه، ولكن ما إذا كان هذا وهو عائد من الجيش أو ذاهب إليه يستحيل البت فيه. إن رائى الخاص هو أن أونور وهو غير عالم بمجرى اليوم، بقى فى أم درمان كل الوقت. فإذا انتصر الإنجليز، فإن حياته تكون سالمة كجاسوس مشهور؛ وإذا انتصر الدراويش، فهو قائم بين قومه، ويمكن أن يتلقى حمداً على مساهمته فى سبيل إنتصارهم. ولم يكن هو الإنسان الوحيد فى السودان الذى يَزن الفرص واحتمالاتها كما فعل حسيب جابو، وحُجّل عندما ناقشه جابو فى ١ أبريل، ١٨٨٧.

ما إن بُعثت "مخابراتى الأخيرة" إلى وجهتها من أونور، حتى جاءنى نجار بالترسانة، محمد راغب، فى موضوع الطوربيدات المتبقية. وقد أُمر بالمساعدة فى طرحها، وكان على وجه الخصوص قلقاً ليتعلم منى كيف يجعلها باطلة المفعول، وليس أقل لهفة من أنني يجب أن أخذ مذكرة فى عقلى عن الحقيقة حتى يمكننى أن أذكر "كلمة طيبة" عنه إذا اتُهم أبداً بأنه كان يحاول تعويق تقدم "الحكومة". وكان فى معيته شخص لم يكن صديقاً لى مخصوصا - على بعاتى وآخرون؛ ولكن ما كان هناك خطأ حول رغبتهم المستعرة والقلق الحقيقى للإحاطة بكل مشاريع منصور، وحسنين، وعبدالله من أجل صالح قوات الحكومة.

ولم يكن بمقدور رجب أن يمنحنى مزيداً من المعلومات عن الوسيط المتعلق بإشعال الألغام مما استطاعه بوراى؛ فكل ما كان بمستطاعه الإدلاء به أن "البراميل" عليها أسلاك مربوطة مرتين أو ثلاث مرات حولها لتمنع جذبها أو دحرجتها فى التحريك. وقد إقترحت أولاً أن يكحت أى إسمنت يعتقد أنه يملأ ثقباً أو فتحة ضيقة؛ فهذا يسمح بتسريب الماء. وثانياً إقترحت أنه يجب عليه، بينما تكون القوارب حاملة الألغام متجهة أسفل النهر، أن يحاول "نزع" أياً من الأسلاك المحيطة "بالبرميل"، أو كلها، على أن يقطع الأسلاك فى أماكن مختلفة، حتى لا تكتشف الحيلة. إن رجب لابد إنه وفق، لأنه لم تنفجر الألغام، بالرغم من أن منصور عين قوماً لإشعالها عندما مرت القوارب.

يستحيل علىّ، بعيداً عن الرقعة التى يُهيج فيها الإرتباط ذكرى أحداث هذه الأوقات المثيرة، أن أستحضر أسماء كل الذين جاءوا لى ليسألوننى عما يمكن أن يقوموا به ليُبَيِّنُوا، قبل وصول القوات، ولاءهم للحكومة، ويجل ألا يُنسى أنهم كانوا يخاطرون بمحاربة المهدية. إنه لحق أن يتوجب علىّ تدوين المثال الواحد أو المثالين الصارخين اللذين خطرا على بالى، خاصة فى مواجهة رائى المعبّر عنه دائماً أن هناك واحداً أو إثنين من الأسرى المفرج عنهم، يجب ألا يؤذن لهم ولو بالرسميات المتعلقة بمحكمة ميدانية.

الفصل الحادى والعشرين

الإقتراب من النهاية

تتبع الأحداث الآن أعقاب بعضها فى تتالٍ سريع. وفى الإثارة الشاملة التى تسود الأرجاء، كاد المنام أن ينمحى عن الأذهان، فالطبول تقرع والأمباية تنفخ بإستمرار نهاراً وليلاً، وانعدمت المعرفة بحساب الأيام والتواريخ؛ حتى الجمعة، ذلك اليوم الفريد فى أسبوع المهدية، توارت رؤيته عن الكثيرين، وتُركت الصلوات بلا ممارسة.

مجالس الحرب هى قضية اليوم - والليل؛ ويا للحكايات التى نسمع !

إن الأمير عبد الباقى عُهد إليه من الخليفة ويعقوب بمهمة ملاحقة سير الجيوش المتقدمة، وإرسال المعلومات عن أى تحرك لأم درمان. وما كانت هناك أبداً إستخبارات أفضل خدمة مما أتاحه عبد الباقى لعبد الله؛ لقد كانت رسله تصل كل بضع ساعات فى الأيام الأولى، ثم كل ساعة ناحية النهاية. وما كان بدهشة غير قليلة أننا سمعنا أن السبلوقة يجب التخلى عنها. فقد إنكسرت بصوت داوٍ حلقة السلاسل التى كان عليها أن تشتبك مع تروس الزوارق الحربية الماخرة. ثم انفجرت الألغام. ومرة ثانية مانت تلك إرادة الله، الذى بَيّن أن نواميسه لا يُتدخل فى مجراها. إن الحقيقة الواقعة لهذا الأمر هى أن القوات فى السبلوكة، لسماعها أن الزوارق الحربية تملك مدافعا يمكنها أن ترسل أحد الشياطين (القنابل) لرحلة تأخذ نصفاً من اليوم، وفوق التلال أيضاً، آلت على نفسها أن تتراجع عن المرمى.

كانت هناك نبوءة قديمة من آثارها أن القتال العظيم سيحتل مكانه فى سهول كررى. وهنا سوف يُباد الكفار، وكل المنافقين فى صف المؤمنين يجب قتلهم، وتبدأ البقية التى تجمع بعد ذلك، جيشاً نقياً، لقهر كل العالم. ومرة أخرى، تقرر أن يتجمع المخلصون فى أم درمان، وَيّدعوا الكافرين يحضرون. وبينما كانت المهاجمات توجه نحوهم فى الأجناب والمؤخرة، فإن هجوماً ساحقاً رُسم ضدهم من المدينة، وذلك عندما يحضروا فيتراجعوا لسهول كررى، وهنالك تتناولهم النيران من ثلاث جهات، ويبادوا. إن الزوارق الحربية "بشياطينها"، ستخاف إطلاق قذائفها، لأنها ستحصد قواتها بنفسها. على أنه لم يمض وقت طويل على هذا القرار حتى أُثيرت الإعتراضات. إن هذه الزوارق الحربية يمكن أن تبلغ مقصدها فى رحلة لنصف يوم، ترجم أم درمان أشلاءاً، وتدفن المخلصين تحت الأنقاض.

ومرة ثانية إستُرجعت النبوءة ، وتقرر الخروج لمقابلة الجيوش، أخيراً. وكان على كل رجل أن ينتقل من أم درمان، حتى إذ نجح الكفار فى بلوغ المدينة، لن يجدوا سوى النساء والأطفال، وبدلاً من أن يصبحوا محاصرين لها، يضحوا أنفسهم المحاصرين. واكتسحت أم درمان بجواسيس عبدالله الذين بإعلانهم صداقتهم "للحكومة"، حاولوا تملق أصدقاء معروفين للحكومة ليصدروا تعبيرات تنبئ عن آرائهم حول فرص النجاح لجيوش المهدية، وفى نفس الوقت ليؤكدوا حقيقة الشعور العام للسكان. وكانت أرض صيدهم المفضلة هى بالطبع الساير، حيث يودع حبساً أكثر القوم نفوذاً. ومن المثابرة التى مارس بها هؤلاء الجواسيس تحرياتهم حول فرص النجاح التى قد يغتنمها أعداد كبيرة من الناس للإنضمام للإنجليز فى ستار الليل - ولهفتهم لمعرفة كيف سيتقدموا للمعسكر دون أن تطلق عليهم النار قبل أن تمنح لهم الفرصة لإظهار مقاصدهم السلمية - نصل إلى خلاصة أن عبدالله نُصح للقيام بهجوم ليلى. إن قلة من الناس تدرك أكثر منا نتيجة مثل ذلك التكتيك. فعلى صعيد الإلتحام، كانت حشود الدراويش أكثر من صنوٍ لأقوى جيش أوروبى مدرب. بخفة الحركات والصمت، وهم ينتشرون فى الأرض بسرعة تزيد أربع أو خمس مرات على القوات المدربة، إعتاد كل رجل، عندما تحين لحظة الهجوم ، على القتال مستقلاً عن الأوامر، يتثنى

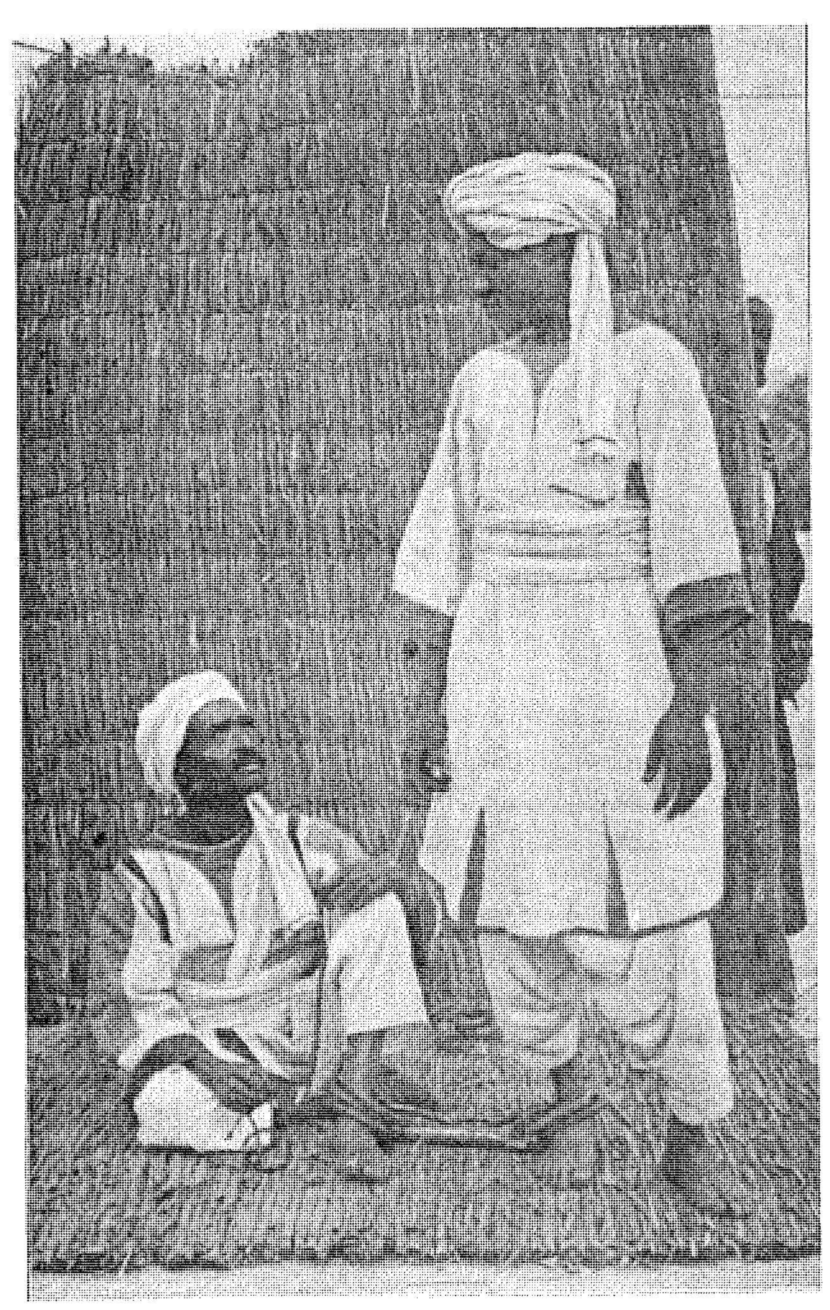
ويتحرك بكل مرونة، فى خفة القط، متعطشاً للدماء كالفهود الجائعة أكلة البشر، لا يبالون أبداً بحياتهم، وبمقدورهم الطعان والحمل مندفعين على العدو بالحربة والسيف بينما تغض أجسادهم فى إحتمال نصف دستة من الجراح، يكفى واحداً منها لجعل الأوروبى عاجزاً خارج القتال - كان مثل هؤلاء المحاربون البالغ عددهم ٧٥,٠٠٠ إلى ٨٠,٠٠٠ هم الذين جهزهم الخليفة لمهاجمة جيش السردار الصغير. أن المدفعية، البنادق والسناكى، سوف لن يكون لها سوى نفع قليل فى مواجهة حشد مثل هذا يجتاح معسكراً بليل.

لقد سمعنا من الجنود الهاربين فى السجن، كيف تقدمت الجيوش فى عطبرا، ليلاً وشنت هجومها فى الفجر، بدءاً برمى القنابل على الزريبة، بشياطينها التى "جاءت من مسافة جد عظيمة". ومع فوزى، وحمزه الجعلى، وآخرين، توصلت إلى استخلاص مؤداه أن نفس التكتيكات سيتم إستعمالها للهجوم فى كررى؛ ولذلك، أقسمنا للجواسيس أن الإنجليز لا يفعلون نفس الأشياء مرتين بنفس الطريقة؛ وإنهم فى هذه المناسبة سيسيرون فى النهار ويهاجمون ليلاً، لأن السردار سيخاف أن يدع جنوده يرون جيش الخليفة العظيم، لأنهم سيلوذون بالفرار لو فعلوا. وكانت نصيحتنا أن المخلصين يجب أن يظلوا فى معسكرهم ، وينتظروا الهجوم. لقد كان الأمر سيكون محرجاً لى لو كان السردار قد خطط لهجوم ليلى، لأنه كان سيجد الدراويش ينتظرونه فى تأهب، وعندها لربما ألام على ما أسديته من نصح. ومع كل ذلك، فقد إعتقدت أن الهجوم الليلى سوف يكون آخر ما يلجأ إليه، وإن أى حكاية من ناحيتنا كانت كافية، بشرط أن تثار الشكوك فى عقول الخليفة ومستشاريه بالنسبة لفرص النجاح التى ستلاقى هجومه بليلٍ.

يمكن أن يقال إن السكان فى هذه المرة إنقسموا إلى ثلاث معسكرات؛ فريق يصلى - بإخلاص، لإنتصار المهدية؛ والثانى يصلى صراحةً لتحقيق نفس الهدف، ولكنه يتنفس صلوات للسماء من أجل العكس تماماً؛ أما المعسكر الثالث - وهذا هو الأكبر بين الثلاثة، ويتكون من هؤلاء الذين ينتظرون ليروا أى فريق سينال النصر حتى يرموا بثقلهم فيه. إن عشرات الناس، الذين كانوا حقيقة أصدقاء للحكومة، جاءوا إلىّ فى السجن يسألون النصح عما يمكنهم فعله قبل أن تصل القوات لتشهد ولاءهم، ،ويجب ألا ينسى أنهم كانوا يخاطرون بالموت فى ساعة الإستلام. وللكثيرين، كنت لا أزال "شقيق ستيفنسون الإنجليزى،" وكان هنالك "إخوة" لى يحضرون مع قوات الحكومة

لقد تمكنت، بواسطة هؤلاء الناس، من جمع المعلومات التى كنت أرسلها يومياً عبر الجواسيس. إن عبدالله المحسى، الذى كان قد تسلم رسالة ما من الماجور فيتون، يسألنى عنى، وكذلك يستفسر عن كل المعلومات التى يمكن الحصول عليها فيما يختص بالأسلحة والذخيرة التى يمتلكها الجواسيس، قد بعث لى الجاسوس وراق، الذى كان قد أُخلى سبيله من السجن، لأى معلومات أستطيع تقديمها. إن وراق، وهو يسعى دون شك لمكافأة، قرر أن يسلم رسائلى بنفسه. وكان اللازم إصطحاب شخصين له؛ وهكذا، إلى جانب تزويدى له بمذكرات بأعداد البنادق، إلخ، التى صُرفت للقوات، وإنذاراً أخيراً بشأن الألغام بالقرب من الحلفاية، أُعطيت المعلومة شفاهة للثلاثة حتى إنه فى حالة ما استدعت الضرورة تدمير الأوراق، تمضى الرسائل الشفهية عوضاً عنها. وغادر وراق وصحبه، ولكنهم قطع طريقهم كشافة عبد الباقى. وبقرّبهم ملأى بالمآء، ساروا نحو النهر تحت وابل من الرصاص. إن وراق لابد أنه قتل أو غرق، لأنه لم يُرَ ثانية؛ ولكن الآخران وصلا الخطوط البريطانية، وسلما الرسائل، وقالا إنها ستؤيد من وراق، الذى فكرا وقتها إنه لابد قد حمله التيار إلى الضفة الشرقية من النيل. وكان هؤلاء هم آخر رسل بَعثتُ بهم.

إن واحداً من سجانه الساير أهاج نفسه بحالة من الإثارة الجنونية، وهو يصف، لأجل تنوير السجناء - وأنا على وجه الخصوص، تدمير الكفار القادم. وكان يتشفى طول الوقت عندما يحضر المسئولين الكبار - وأعينهم مقلوعة من محاجرها لكيلا يحدجوا بها وجه سيده المستبشر، وهنالك



شريف، " المدعى بالخليفة الرابع "

يتحرش بهم لتسلية الجمهور. لكم هو قليل ما فكره السردار، فى ذلك المساء فى سبتمبر، أن واحداً من السجانة، الذى يمرغ التراب تحت قدميه، كان منذ أيام قليلة يتطلع إلى الوقت الذى سيُجلد هو فيه فى جنبات المكان مُعمياً ومقيداً بالأثقال، ومع بقية "إخوتى" يقضى الليالى فى "أم حجر". لقد إندفع هذا السجان، بحماسه المجنون، وكاد أن ينجح فى قلع عينى اليسرى. ودار صراع، وبوقوفى بلا نفس أكاد، وأنا مدفوع قطعاً إلى اليأس، إلتفت فى غباء حولى، وأعلنت، لأجل تنويره هو فى هذه المرة، أن الدمار الذى تنبأ به "لإخوتى" هو بعينه الخراب الذى سيقع وباله على المهدية.

لقد كان من حسن حظى أنه منذ أيام قليلة ماضية، كان إدريس الساير يرسل لى، بحجة أو أخرى، متسائلاً عن الإجراء الذى سيكون عليه إتخاذه فى حالة إنتصار الإنجليز فى المعركة. لقد وعدت بأنه إذا عاملنى معاملة طيبة، فسأقول "كلمات طيبة" عنه؛ ولكن لربما أن حكاية فوزى تركت أعظم أثر فى نفسه. لقد حكى فوزى أن الإنجليز عندما استولوا على مصر كان هنالك سجان واحد فى الإسكندرية وآخر فى القاهرة. إن سجان القاهرة عامل سجناءه معاملة طيبة، ولذا اكتسب ترقية من الإنجليز؛ وسجان الإسكندرية قتل سجناءه، وهرب ألى بلد آخر عبر البحار، ولكن الإنجليز أعادوه، وشنقوه فى سجنه القديم. ولمعرفته بأن القوات كانت قريبة، تعهدنى إدريس تحت رعايته الخاصة، لأنه كان يعرف إننى بعثت رسائل إلى "إخوتى" أخبرهم إننى حى، وقد خاف أنهم إذا جاءوا ووجدونى ميتاً ، فربما يشنقونه على نفس القوائم التى تضم جثتى. ومع أنه حَذّر السجانة والجواسيس كى يقولوا عنى إننى مجنون، وإننى ما كنت أدرك ما أقوله، بلغ حديثى القصير آذان يعقوب. ورُصدت بعناية، ولم يؤذن لأحدٍ من خارج السجن بالتحدث معى. وكان لزاماً أخذى خارج السجن لأرى القتال العظيم، ولكننى أعتقد إننى كنت المسيحى الوحيد الذى لم يُدْعَ لميدان المعركة. وقد سألت إدريس ألا يزيل سلاسلى إذا دُعيت. وليست بى رغبة لأوجد حياً أو ميتاً كرجل حر عملياً، بملابس درويش، وأى محاولة من ناحيتى للهرب للخطوط البريطانية أثناء القتال لا يمكن إلا أن تنتهى بإسقاطى بالنار.

ظل الخليفة جالساً لثمانية أيام فى المسجد فى حضرة مع النبى والمهدى، وفى ليلة الثلاثاء أو الأربعاء السابقة مباشرة للمعركة إتخذ القرار بالخروج من المدينة. وفى ظهيرة الأربعاء عُقد عرض عظيم لكل القوات على أرض الإستعراض الجديدة، وبينما العرض معقود، وصلت أخبار منذرة من رسل عبد الباقى. وبدلاً من الرجوع إلى المدينة كما كان القصد، تحرك الخليفة بكل الجيش فى إتجاه الشمال العربى. إنها تلك الحركة المتعجلة تلك التى تسببت فى ترك أعظم قدر من الأسلحة والذخيرة التى كان يحتاجها، فى بيت الأمانة، لأن عبدالله كان ينوى توزيع بقية البنادق فى اللحظة الأخيرة فقط، عندما يكون على قواته أن تستخدمها ضد الكفار دفاعاً عن النفس؛ وما كان يثق فى أحد سوى بقارته والتعايشة. وتحرك شيخ الدين، مع يونس، وعثمان دقنه، والخليفة شريف، وعلى ودحلو أولاً فى قيادة الجيش المهاجم ب - ٣٥,٠٠٠ بندقية وخيالة. وتبعهم يعقوب قائداً لعدد مماثل من رجال الحراب والسيوف؛ وعلى الإجمال، فإن الجيش المصطف لابد أنه بلغ فى عدده ٧٥,٠٠٠ إلى ٨٠,٠٠٠ رجلاً. وبما أن كل ذكر قد أخذ من أم درمان، صرف الخليفة مائة بندقية للسجانة ليطلقوا بها النار على المسجونين فى حالة الإضطراب.

تلك الليلة، هطل المطر بغزارة، وفى اليوم التالى نهض الجيش فى غير راحة، وربما إلى حدٍ ما بروح معنى منخفض، ولكن عبدالله أعاد معنوياته برؤية منسوبة. فخلال الليل جاءه النبى والمهدى، وأرياه قبل الأحداث نتيجة المعركة؛ إن أرواح المخلصين الذين قتلوا كانت كلها ترتفع إلى الجنة، بينما جموع جهنم كانت تمزق أشطاراً أرواح الكافرين. وبينما كانت تلك الحكاية تدور رماها ، كانت الزوارق الحربية توالى زحفها، وأُمرت بالتحرك لمسافة أبعد نحو الشمال، لأنه بُلغ أن الإنجليز كانوا ينصبون فى البر المدافع الكبيرة فى جزيرة توتى، لتقصف المعسكر.

وسمعنا نحن، كذلك، فى السجن، أن الزوارق الحربية كانت تتقدم، ثم سمعنا القصف الداوى من بعيد، وكان قصف المدافع يقترب ويزداد دوياً بالتدريج. وقبل أن يتوفر لنا وقت لنخّمن ما إذا كان القتال العظيم قد بدأ أم لا، أسرع راكضاً نحونا صبى، كنت قد حددت له مكاناً السقف بمنزل أحد السجانة، ليقول إن "الشياطين" كانوا يجتازون الحلفاية. وفى نفس اللحظة لفّنا الغبار والحجارة؛ فقد ضربت قنبلة حائط السجن، وأحدثت فجوة فى الحائط المقابل، وسقطت دون أن تنفجر فى سجن النساء. أسرعنا نحن السجناء بأجمعنا وجلسنا تحت قاعدة الحائط الشمالى معتقدين أنها أسلم مكان. إن الهواء تشبع الآن بما تهيأ لنا نحن البؤساء المقيدين على أنه صرخات وصيحات الجموع الملعونة وقد تُركت على هواها. إرتجفنا وتبادلنا النظرات من شخص لآخر. ثم لاحظت أن القنابل كانت تطير فوقنا عالياً. وواقفاً على قدمىّ، إندفعت - بقدر ما أتاحته قيودى - متحركاً فى وسط الساحة الفضاء، أحاول أن أرقص وأقفز، ودعوت الجميع للإنضمام. وهتفت صائحا إن "إخوتى" تلقوا رسالاتى؛ وإن مكاناً واحداً فى أم درمان سوف يترك على حاله، الساير؛ إن إخوتى سوف يحفظون كل أرواحهم من أجلى. نعم، لقد أصابنى الجنون؛ فارقنى العقل، وكنت أتكلم فى صخب، أضحك، وأبكى، وأغنى، وأُقبل يدىّ فى ترحيب لتلك الرسل الرهيبة للموت وهى تصرخ وتصيح من فوق رؤوسنا؛ وبرمى ساعدىّ مداً، قافزاً للأعلى لأحتضن القنبلة التى بعد ثانية لاحقة جمعت من الموتى إثنين وسبعين كانوا يصلون ساعتها فى المسجد.(*)

ما أنجانى من الموت على أيدى السجناء البقارة الغاضبين سوى إدريس الساير وهو يقفلهم جميعاً فى أم حجر، ويتركنى أنا، وفوزى، والجعلى، وآخرين متعاطفين مع الحكومة فى القضاء. ثم وردت إلينا حكايات القتال؛ إن إثنين من الزوارق الحربية أُغرقا، ولاذت البقية بالهرب، مرة ثانية! جلسنا فوزى وأنا هنالك مزعزعى الخاطر، بقلوب كسيرة. "إن الهجوم على الخرطوم، عام ١٨٨٥، قد أعيد أداؤه مرة أخرى! جلست مبلبل التفكير؛ أن ردة الفعل من جنون الفرح إلى جنون اليأس لأكبر من أن يتحمله أقوى الرجال، بعد ما يقارب إثنى عشرة سنة فى الأسر، ولكننى لحسن الحظ إنهارت قواى وبكيت كما يبكى الوليد.

أثناء الليل كنا نسمع خطو الأقدام، خطوة، خطوة، لما كان فى البداية عشرات قليلة من المشاة، حتى أمكننا أن نقول فى النهاية إن آلافاً كانوا يجرون إلى داخل المدينة. إن من غير المجدى أن نستعيد الحكايات التى قُصّت علينا، وسأحكى ما وقع بالفعل. بعد قصف الطوابى، أرسل الخليفة رسلاً لإحضار كل الأخبار من أم درمان. وعندما أُخطر أن كل الطوابى قد دُمرت، أمر بإطلاق تحية بالرصاص علامة على أنه انتصر، وصاح منادياً، "الدين منصور" -! ولكن كان رسل آخرون يسرعون، ولما جاءوا بوجوه كسيفة وطلبوا مقابلة يعقوب قبل أن يسلموا أخبارهم للخليفة، ضجّت الجماعة فى الخارج سريعاً بأن الطلقات المتتالية من البنادق ما كانت إلا محاولة لإخفاء شئ خطير وقع آنفا. أولاً، عُلم أنه، بدلاً من الخبر القاضى بدمار الزوارق الحربية، كانت الطوابى هى التى تناثرت أشلاءاً. ثم أُنصت إلى خسارة أشد إغراقاً فى الخرافة عندما ذُكر أن واحداً من "الشياطين" دخل إلى قبة المهدى المقدسة، وقامت أعداد من الهاربين فى إتجاه الصحراء بالسير عائدين إلى المدينة. ومؤخراً، أصبح من المعلوم إنه لم تدمر إحدى القذائف المنبر، وحسب، ولكنها أيضاً دمرت المحراب - تلك الفجوة المقدسة فى حائط المسجد التى تتجه إلى مكة. أى مكان الآن تدور حوله المهدية؟ وبالتالى تولى آخرون .

ما بين العاشرة والحادية عشر ليلاً جاء جواد بلا راكب عليه من فرسان البريطانيين أو المصريين يتهادى فى بطء، برأس متجه للأسفل، نحو خطوط الدراويش. إن الخليفة قصّ، كيف أنه فى واحدة من رؤاه، رأى النبى راكباً على بُراقه على رأس الملائكة المنتقمة يدمرون الكفار. إن هذا

التمثل الروحانى بشأن الجواد الذى لا يركبه أحد كان أكثر من اللازم؛ فعلى أقل تقدير، تولى ثلث جيش الخليفة الضخم فى رعب. وعندما حدثه يعقوب عن المتولين، رفع عبدالله رأسه فى بساطة ليقول، "إن النبوءة يجب تحقيقها ولو بقى إلى جانبى خمسة أشخاص لا غير". وظل بقارته وتعايشته إلى جانبه، ولكنهم أيضاً أُصيب جنانهم، لأن الخليفة، على ركبتيه، ورأسه منحنياً إلى التراب، كان يئن بدلاً من ترديده إسم المعبود، كما كان معتاداً. ومع ذلك، فإنه وعى قليلاً مع تقدم الليل، واخترع رؤى كافية لرفع الهمم للقوات الباقية وقد دبّ اليأس شيئاً ما فى صفوفها.

الفصل الثانى والعشرين
وأخيراً

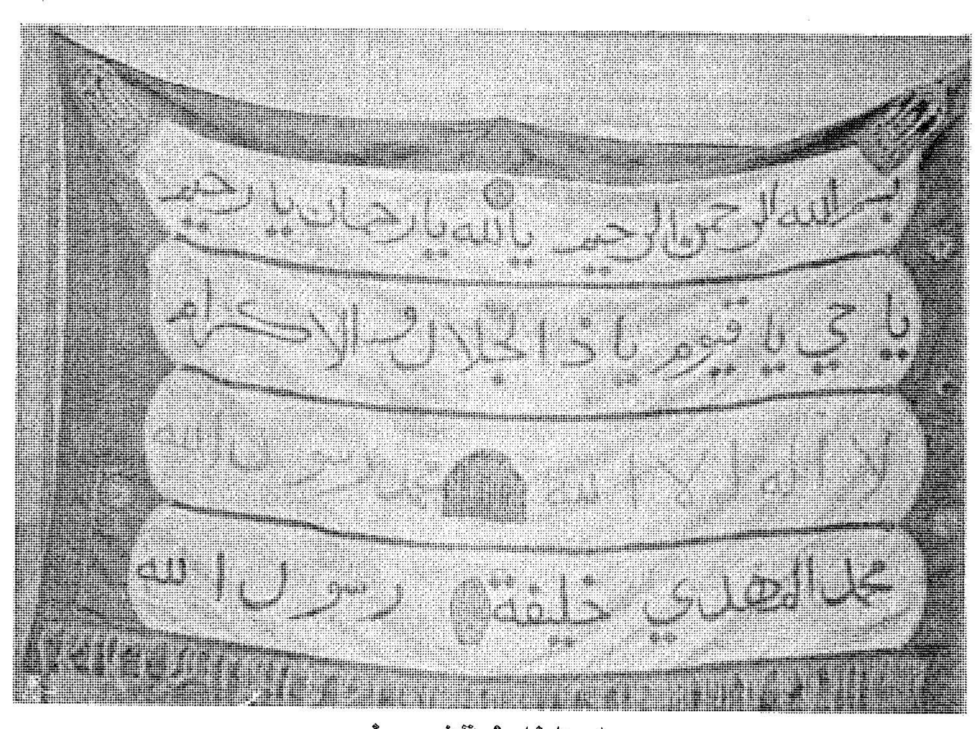
لسوف لا يتعجب إلا قليل من الناس عندما أعترف أنه يقارب المستحيل بالنسبة لى أن أذكر كل الأحداث التى حدثت أثناء ليلتى الأخيرة ونهارى فى السابر، وأحكيها. فإضافةً إلى العاطفة الجامحة التى عَمّت كل فرد، كان على أن أتغلب على الهياج النفسى الذى منذ وقت سابق، كاد أن يودى بعقلى. ومن المكان الذى رقدت عليه مغلولاً إلى عصبة من أربعين سجيناً أو تكاد، أمكننى أن أسمع البقّارة المغضبين فى أم حجر وهم يهيلون لعناتهم على رأس "ابن الكلب عبدالله نوفل"، متوعدين بما سيحدث عندما يضعوا أيدهم علىّ. وما كانت هذه وعوداً هزئة. وجانباً عن التهديدات التى لا يصح أن يتحدث عنها، كادت التهديدات الخاصة "بشرب دمى" فى اللحظة التى وصل فيها إخوتى أم درمان أن تجّمد الدم فى عروقى.

طوال الليلة أمكننا أن نسمع الخطو الخفيف، خطوةً خطوةً لأقدام عارية، وأحياناً نسمع أنفاس رجال يتسابقون. ولما كنا لم نسمع أى صوت لإطلاق النيران، أدرنا كل أنواع التخمين. فى لحظة فكرنا أن القوات إكتسحت واحدة من الزرائب فى جُنح الظلام، وأن هؤلاء كانوا هم اللاجئين يفدون للمدينة؛ ولحظة أخرى إعتُقد أن الخليفة غيّر خططه، وقرر أن يتحمل حصاراً فى أم درمان. بعد ذلك فكرنا أن الدراويش إندفعوا مكتسحين معسكرات القوات؛ ولكن هذه الفكرة سرعان ما استُبعدت لأن الناس المتسابقين إلى المدينة رجوعاً كانوا سيلتقطون بعض الأنفاس صياحاً بأخبار النصر. لقد قدمت الأسباب التى دعت لفرار هؤلاء الناس آنفاً، ولكننى علمت ذلك فى وقت لاحق؛ أما نحن المسجونون، فقد مر علينا الليل فى قلق بين آمال ومخاوف متبادلة.

كان نور النهار يزحف عبر السماء عندما سمعنا دوياً خفيضاً، إتبعه عدد متزايد بإستمرار من الصريخ والصياح كأنما أُطلقت الفوضى من عقالها، ثم هزّ إنفجار رهيب أم درمان هزاً واضحاً. إن المدينة ليس بمستطاعها أن تتحمل مثل هذا الشئ لعشرة دقائق؛ واستلمنا لأقدارنا، ولكن القصف توقف فجأة مثلما كان قد بدأ. وسألت واحداً من صبيان السجانة ليتسلق سقف أم حجر ويرى ما كانت تقوم به الزوارق الحربية، لأنه كان يعتقد أن القنابل أُطلقت منهم. فنادى قائلاً بأنها كانت لا تزال "واقفة على حالتها" بالقرب من الحلفاية، ولا تطلق نيراناً على الإطلاق. وبما إننا كنا نسمع الدوى لا يزال متواصلاً على مسافة، أدركنا أن الإنجليز كانوا يؤكدون عزمهم إن لم يكن أكثر من ذلك، وعاد الأمل.

وما احتاج الأمر نداء من الصبى لما تحركت الزوارق الحربية بأسفل النهر لمعرفة أنها هى، كذلك، كانت تفتح النار على معسكر الدراويش؛ لقد كدنا أن نتابع موجة المعركة فى تلك المبارزة العنيفة بالمدفعية من واقع الدوى والصمت المتبادل كأنه موجات تزمجر وهى تتكسر على ساحل محاط بالصخور. ولم يكن فى أدمغتنا شك الآن أن تكتيكات عطبرا أُعيد إجراؤها، وأن الزرائب قُذفت بالقنابل تمهيداً لإكتساحها؛ وكان تخميننا خاطئاً، كما علمنا بعد ذلك. ثم حملت الريح أصوات خافتة للبنادق؛ وما كان صوت بنادق الدراويش؛ فنحن نعرف أصواتها عندما تطلق نيرانها. ثم أعقب ذلك صمت طويل، ليتبعه تبادل مروع للنيران؛ وبالنسبة لنا نحن السجناء، كان ذلك يعنى أن الزريبة الإحتياطية أُخذت. ولكن حكاية المعركة قديمة، فَمَنْ لم يسمع بذلك القتال الثانى فى يوم أم درمان، عندما صمدت كتيبة ماكدونالد للهجوم المشترك من شيخ الدين ويعقوب؟

إن الإنسان يجب أن يلاقى الأفراد الذين ظلوا على قيد الحياة عقب ذلك الهجوم ليلم بتفاصيل القتال. والذين كانت لهم مناظير فى الخطوط البريطانية لابد أنهم لاحظوا يعقوب وهو يستعرض فى خيلاء على ظهر جواده أمام خطوطه؛ كان هذا تقليداً للرجل الذى كان يراه على ظهر الجواد أمام



علم الخليفة شريف

الكتيبة التى كانت تحصد رجاله بالمئات فى كل مجموعة تطلق من النيران. وقد علموا مذاك من كان ذلك الرجل، و "ماكدونالد" مع "السردار" هو الآن إسم له موقعه فى السودان. ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى عاقب فيها ماكدونالد الدراويش عقاباً شديداً، وهو يقود قوات كانوا يتوقعون أن ترمى بأسلحتها وتفر فى كل إتجاه، كما فى الأيام القديمة.

وبينا يجرى كل هذا فى ميدان القتال، أخذت أنا فى السجن، كى أُخفى عواطفى - ولكيما أُهدىء من أعصابى المنفلتة، حقيقة - راتب إبراهيم ود الفحل وشغلت نفسى "بتوضيح" صفحاته برسومات بالحبر الأحمر والأسود؛ لقد كانت تلك مهنة كنت أكسب منها بضع دولارات دائما، ولكن الفحل لا يزال مديناً لى "بالعمار" الأخير الذى بذلته. لقد تركت العمل غير مكتمل حوالى الظهر لأقابل شابين ملحقين بالسجن، عادا من القتال، وأحدهما مصاب بطلقة فوق جبهته اليسرى، والثانى أصابه طلق فى عضلة ساعده الأيسر. وبما توفر من خنجر صغير، قمت بقطع على المنطقة التى استطعت فى حالته أن أرى فيها أين استقرت الطلقة، والتى أحسست فى الحالة أنها موجودة بها، وضغطت لإخراجهما؛ إن كلا الطلقين إحتفظا بشكلهما، ولابد أنهما أُطلقا من مدى قصّى أو ما وراءه.

ولربما أنه مع أوروبى، يكون الكلوروفورم ضروريا لإستخراج الطلقة من الساعد، ولكن للسودانى - ألم أقل آنفا أن الدرويش يمكنه أن يواصل القفز والطعان وفى جسده نصف دستة من الجراح الغائرة؟ إن الدرويش يستطيع ويقتل كذلك فى اللحظة التى يكون فيها بطينا قلبه فى خفقانهما الأخير. فالألم الجسدى، كما نفهمه نحن، غير معلوم لديه. وفى كثير من الأحيان أطبقت، وقد شاهدت ذلك يطبق، بالجمر المشتعل على الجروح، والمرضَى ينظرون فى هدوء! ومع مرضاى الحاليين، وبعد أن وضعت قليلاً من حامض الكاربوليك برفقٍ على الجروح، سألت أى أخبار أحضرا. قالوا إن يعقوب قُتل؛ وإن كل المخلصين إما أنهم قُتلوا أوَ جُرحوا؛ وإن الخليفة نفسه يهرع عائداً للمدينة، ولكنهما أسرعا بالرجوع قبله. وبينما أسائلهم لا أزال، أخبرنى إدريس الساير أن المسلمانية الذين خُرج بهم للقتال عادوا قافلين للمدينة، وإنهم يقلبون الأشياء بحثا عن ملابس أوروبية يزينون بها أنفسهم لإستقبال القوات عند وصولها.

إن علىّ هنا أن آخذ بحكاوى أولئك الذين كانوا يقاتلون فى صفوف الدراويش حتى أقدم سرداً كاملاً. فى مشرق يوم ٢ سبتمبر، صمم شيخ الدين على الهجوم بجيشه من حملة البنادق والفرسان، تاركاً يعقوب، ومعه والده الخليفة، كإحتياطى. إن القذائف التى سقطت بين رجاله لم تسقطهم أو تقتلهم فى صفوف؛ ولكنها "عصفت بمئات الرجال والخيول عالياً فى الهواء"؛ ثم، عندما ضربتهم نيران البنادق "تدحرجوا كالأحجار الصغيرة". لقد كانت المذبحة مخيفة لدرجة أن شيخ الدين نفسه قاد الطريق إلى مظلة فى خور إلى الغرب من جبل سرغام.

والآن، لكيما نستوعب فى صفاء ما جرى بعد ذلك، وبمعيار نشرح به لوحة الشرف التى مُنحت شيخ الدين، يجب أن أشير إلى حادث وقع فى اللحظة الأخيرة قبل أن يغادر الجيش أم درمان. إن الخليفة شريف، منذ عصيانه المسلح للخليفة، لم يُؤذن له بعرض العلم الأبيض المصنوع خصيصا لعائلة المهدى. وكان يُعتقد أن عبدالله ينوى تسمية إبنه ليخلفه، ولكن ذلك كان إجراءاً مضاداً للنظام المعلن للمهدى وهو أن ود حلو ثم شريف من بعده عليهما القيام بذلك. ولما كان شيخ الدين قد سُلم القيادة الرئيسة، لم يُسمح لشريف بأى قيادة على الإطلاق، ولم يُخرج العلم الأبيض للمهدية من بيت الأمانة. وعُبِّر عن السخط علناً من ذلك الوضع، وطالب بعض المهديين ممن هم أكثر تديناً أو تعصباً معرفة ما إذا كان عبدالله أو المهدية هى التى سيقاتلون من أجلها. وقد نُصح عبدالله أن يُحضر العلم الأبيض وقد كان، فحُمل إلى الجناح الأيسر من جيشه، وأما عن شيخ الدين عبدالله فكان يأمل فى عودته منتصراً من كررى، وبذا تؤكد خلافته بعونٍ من رؤية.

ولما رأى الخليفة إندحار شيخ الدين، أمر بتقدم جيش يعقوب، وبينما كانوا يتقدمون، جمع شيخ

الدين رجاله وانضم إليهم. ثم كان ذلك الحاسم على كتيبة ماكدونالد. وكان الخليفة قد ترجل عن جواده، وبجلوسه على فروة صلاته، محاطاً بملازميه الستة الغارقين، عقد إجتماعات مرة ثانية مع النبى والمهدى، بينما كان جيشه يُقلص بالآلاف. وركب يعقوب، بأمرائه وحراسه من ركاب الجياد في مقدمة القوات وبذل ما في وسعه ليحثهم على كسحة أخيرة على الكتيبة. إن علم المهدية الأبيض دُفع قريباً من الكتيبة المصرية الثانية، تحت قيادة الكولونل بينك، حيثما عينت، وأُسقط خمسةٌ من حملته النظاميين على التوالى؛ وجرى آخرون لرفعه فأُسقطوا بدورهم، حتى دُفن العلم تحت ركام القتلى.

فى هذه اللحظة تقريباً، أطاحت قذيفة أُحسن تصويبها بيعقوب وحرسه الخاص "عالياً في الهواء" بين أنظار الخليفة؛ وغُرز العلم الأسود، ولكن الدراويش لُقنوا درساً. إن يونس، وهو يخترق حرس الخليفة، جرى إليه، قائلاً، لماذا تجلس هنا؟ اهرب؛ فكل واحد قد قُتل؛" لكن عبدالله جلس فى سكون، مصعوقا مبلبل التفكير بما رآه. وبمساعدة آخرين أنهضه يونس على قدميه، ودفعه وحَزّمه بالفعل. ثم بدأ عبدالله يجرى على قدمه. ورفض أن يركب جواداً أو جملاً؛ وبعد تعثره وسقوطه ثلاث مرات، ترجاه يونس أن يركب حماراً. لقد كان جيشه الآن فى تراجع كامل، و "أين، يا عبداالله —- أين النصرة التى وعدت؟" تمزق أذنيه. وبمناداته على سائق جمله، أبوجكه، طلب منه أن يسرع على جمل خفيف لأم درمان، فيجمع زوجاته، وأطفاله، وكنوزه، ويسير بهم لزريبة العرضة (ساحة العرض) غرب أم درمان، حيث سيقابلهم ، ثم كان على الجميع أن يفروا معا. وبوصوله الزريبة، ما كانت داره مرئية، ولما سمع أن آلافاً من قواته كانوا لا يزالون فى أم درمان، أُقنع بدخول المدينة، والوقوف وقفه أخيرة على ساحة الصلاة. ولما اقترب من المسجد، رأى عبدالله خَصّى يعقوب منتظراً. فأمره أن يجمع زوجات يعقوب وأطفاله، إلخ، ويأخذهم للزريبة، فسأل الخصّى "أين سيدى؟" إن عبدالله آنذاك يُحتمل أنه مارس للمرة الأخيرة سلطة الحياة والموت. مستديراً نحو الذين كانوا قريبين منه، قال، "من هو هذا العبد، ليرد أوامرى؟" وسقط الخصّى ميتاً تحت أقدام عبدالله برصاصة إخترقت رأسه.

بوصوله ساحة الصلاة الواسعة، أمره عبدالله بالطبول والأُمباية، ولكن قلةً أو لا أحد أطاع المناداة؛ جاء البعض ونظروا إليه جالساً بلا حركة، وانسحبوا فى هدوء؛ وسخر منه البعض، فيما سمعت، وهم يتساءلون إن كان "يجلس على فروة". إن الفروة أو الجلد الذى يُصَلّى عليه، هو ما كان الزعماء فى الماضى يقفون عليها عندما يكونوا خاسرين، فى إنتظار موتهم. ولما ألفى نفسه مهجوراً من الجميع، دعا سكرتيره الخاص، أبو القاسم، وسأله عما يمكن عمله. إن قاسم، سواء بنبرةٍ ساخرةٍ أو غيرها، أوصى أن يداوم صلاته حيث كان قائماً عليها، ولربما لا تزال صلواته قادرة على جلب النصر؛ ولكن لعدم وجود أحد ليشارك فى الصلوات، طلب من قاسم أن يجمع آل بيته، ويحضرهم إليه. وذهب قاسم، ولم يعد .

حين هذا الوقت، كان التعايشة، والبقارة، والبرتى هبانيه، والرزيقات، ودغيم وقبائل أخرى، كان من قبل يُعتمد عليها للدعم، يمتد عددهم إلى ما يقارب خمسة عشر ألفاً، من جنوب المدينة. وبمناداته على رجلين ، سألهما أن يذهبا خارج المدينة ليريا كيف كانت قوات الحكومة بعيدة. وبوصول الرسولين قباب الشهداء، حوالى ألف ومائة ياردة من المكان الذى كان يجلس فيه عبدالله، صادفا فجأة السردار وهيئته جالسين على زاوية السور العظيم؛ وراقبا الهيئة تتحرك نحو بيت المال، فعادا وبلغا الخليفة بذلك. منزلقاً عبر الباب الموصول ببيته، قام بتغيير ثيابه، وجمع بقية آله، وفى هدوء إنسحب بينما كان السردار يحيط بأم درمان كلها فيما عدا المائتى ألف ياردة. إنها لألف مرثية، ما كان الحال عليه فعلاً، أن الهيئة لم تواصل سيرها فى الإتجاه الذى كانوا يتخذونه، لأن خطوات سريعة لعدة دقائق عبر الشارع الخالى المؤدى إلى ساحة الصلاة كان سيجعل السردار قادراً على وضع يديه على عبدالله، بينما كان يجلس هنالك وحيداً بمطلقه، فى البقعة التى كان يأمل أن مخلصيه سيقفون فيها وقفتهم الأخيرة.

كانت الشمس تنحدر، وما زلنا نحن فى السجن لا نعلم على وجه الدقة كيف سار اليوم. لقد سمعنا الطبول والأُمبايات، التى دلتنا على أن عبدالله كان ينادى المخلصين للإصطفاف فى ساحة الصلاة؛ وكان معنى إرتفاع الغبار فى الصحراء وتقدم الزوارق الحربية فى تؤدة، أن القوات كانت تتقدم تجاه المدينة. وحضر إدريس الساير وسألنى عما يفعله - أن يذهب مع سيده أم ينتظر الإنجليز. وقد نصحته أن يغلق أبواب السجن، ويستخدم بنادقه ضد أى واحد من البقارة يحاول أن يدخل بالقوة، ثم فلينتظر ويرى من سيسأل عن المفاتيح - السردار المتوقع أم الخليفة. وفى كل الحالات ، أخبرته أن واجبه هو أن يحمى السجناء الذين هم فى ذمته، وذكرته بحكاية فوزى عن السجانين. ولما سمعنا زغاريد النساء، علمنا أن أحداً ما رُحّب به، وخمّنا فى صحة أنهم الإنجليز أخيراً. إن إدريس، فى قلق لتأمين سجنائه، قيدنا جميعاً فى جماعات فى وقت باكر عما هو معتاد، وما كاد ربط جماعتى بالسلسلة العمومية يتم حتى جاء إدريس، خائفاً على حياته، على ما يمكن للفرد أن يقوله عليه من لهجة صوته، ليقول لى إن "المكان مملوء بإخوتى الإنجليز"، وإن رجلاً طويلاً، ضخم الجثة، فيما أُعلم به، كان هو السردار المهاب، سأل عنى، وإننى كان لزاماً علىّ أن أحضر فى الحال.

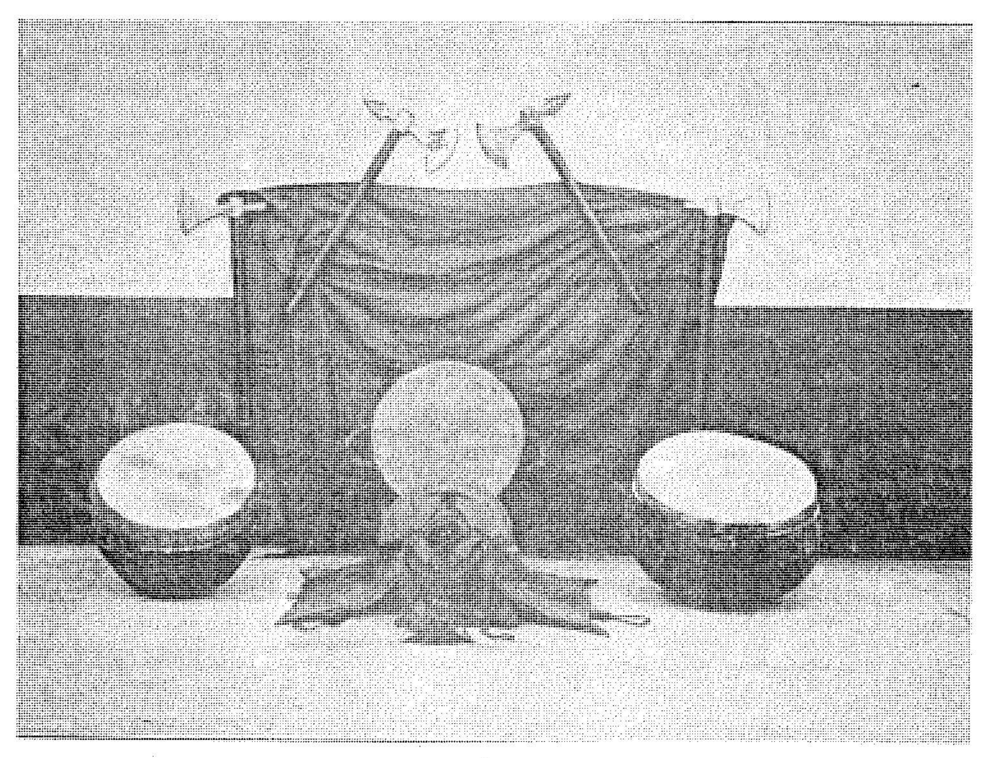
بدا كأنه عصر لما أُزلقت السلسلة عن قيودى، ثم، مُقتاداً من إدريس، وجدت طريقى لبوابة الساير. لقد كنت أبكى بأعين يابسة؛ تمكنت من رؤية جماعة غير واضحة المعالم، ثم انتزعت من أحاسيسى بسماعى الإنجليزية يُتحدث بها - الكلمات الوحيدة للغة أوروبية كنت أسمعها قبل سبع سنوات طويلة. ومن بين تلك الجماعة الخفية، عَبر الضباب، جاء صوت، "هل أنت نيوفلد؟ أأنت بخير؟" ثم خطا نحوى بدن طويل، وصافح يدى بهزة قلبية. كان ذلك السردار. إننى أعتقد إننى همهمت بقولٍ ما عندما تقبلت يداً تصافح، وأخرى تربت على كتفى، ولكننى لا أدرى ما قلته. وبنظرة منه نحو قيودى، سأل السردار، "هل يمكن نزع هذه الآن؟ -- إننى ذاهب". وأعتقد أن مناقشة تالية دارت مع إدريس، ثم سمعت الأمر الأخير الذى كان علىّ أن أصغى له وأطيعه فى الساير، "نيوفلد، <u>إنصرف طليقاً</u> !" لقد كان ذلك أمر السردار، ومحمولاً بسواعدٍ صديقه وقوية تسندنى، أطعت. إن الشئ التالى الذى أذكره هو أن ضابطاً بريطانيا ترجل عن جواده، ورفعنى إلى سرجه، وبخطو متثاقل مشى على جانبى بعد اليوم المرهق والعصيب الذى لابد أنه عايشه.

أُخذت إلى "جوقة الرئاسة" فى المعسكر؛ إن السردار، فيما أعتقد، سمح لنفسه بترف الراحة على عنقريب مكسور وكانت الهيئة منطرحة على الرمال فى كل الإتجاهات، مرهقة، ولكنها منشغلة فى عملها بالتجريدات والأوامر فى ضوء الشموع السائحة. لقد كانت جوقة الرئاسة التى دُعيت لها جائعة، عطشى، وقد نالها الضنى، فى ليلة الثانى من سبتمبر الموسوم. وفى حين جرت العناية براحة القوات، تجاهل السردار وهيئته بوضوح أنفسهم. إن تموينهم ووجباتهم كانت تبعد أميالاً على ظهور إبل بطيئة السير؛ واحتُفل بواحدٍ من أبهر إنتصارات القرن التاسع عشر بعشاء من قطع قليلة من البسكويت، وماء بائس، وبعضاً من خبز السجن خاصتى، وسجائر القاهرة، ورمال الصحراء مقاعداً، وقبة السماء سقفاً فوق رؤوسنا.

وقتاً قصيراً بعد وصولى "الجوقة"، سمعت صوتاً ينادى، "أين نيوفلد؟" وقدم السائل نفسه لى، لقد كان السيد بنيت بيرلى، من <u>الديلى تلغراف</u>. لقد سمعت آنفا، وليس بعد، كثيراً من الإنجليزية أُخاطب به، ولكن فيض اللغة الذى أمطره لما وجدنى لا أزال مقيداً جاء كالوحى بالنسبة لى؛ لقد كانت تصويريةً كمثل وصفه للمعركة الذى قرأته مذاك. وفى إندفاع، عاد فى لحظات قليلة ومعه حدادين يحملون أدواتهم ليحاول إزالة قيودى؛ ومرةً ثانيةً، جاء بصحبة بعض المهندسين، وفى وسط سوء إستعمال متلاحق، فيما يتصل بالقواطع الباردة وأدوات أخرى كان قد طلبها ولم تكن مُحضرة، قام بإستجوابى؛ إن كل واحد أجرى محاولةً على هذه السلاسل؛ واستخدم أحدهم ممن سمعت لغة تتعلق بالخليفة لما وجد إصبعه الكبير بين المطرقة وحلقة من السلسلة، ولكنه بقدر عظيم من اللغة العنيفة،

وضربات قوية على حدٍ سواء، قُطعت الرباطات الواصلة بالكعبين، ولكن الحلقان أُزيحت وحسب، لإفتقاد الآلات، على سطح باخرة الكولونل غوردون دقائق قليلة قبل أن يقود طريقه إلى القوات التى كانت معينة لأداء مراسيم الجنازة فى البقعة التى سقط فيها خاله.

عندما كان مواطن سلاطين، جُسبى، سجيناً معى، كنت قادراً على ممارسة لغتى الأصلية، وتصحيح ألمانيته المكسرة، ومنحنى ذلك، على كل حال، شيئاً من التسلية؛ ولكن عقب مقتله، وهرب الأب أوهرولدر، لم أجد أبداً سانحة للتحدث بلغة أوروبية عداً فى أحلامى، وعندما أحادث نفسى لأول وهلة. ولسبعٍ سنوات طويلة، فيما عدا الكلمة "طوربيدو"، التى أطلق الجزائرى إسمها على ألغامه، لم أسمع صوتاً بلسان أوروبى. إن آخر أوروبى تحدثت معه قبل مغادرتى مصر كان إنجليزيا؛ وأول لغة سمعتها عقب إطلاق صراحى كانت الإنجليزية، ثم حدث أمر عجيب. طالما أن الموضوع يتعلق باللغة، صار عقلى صفحة بيضاء منذ اللحظة التى غادرت فيها وادى حلفا، إلى اللحظة التى نادى فيها السردار "هل أنت نيوفلد؟" وبهدا لما تحدث الملحق العسكرى الألمانى معى بالألمانية، لم أستطع، رغم إستماعى وفهمى فى الأساس ما قاله، أن أجد كلمات بلغتى الأصلية، لتضايقه الواضح، للرد عليه. لقد إنقضت أسابيع بعد عودتى من مصر قبل أن أتمكن من التعبير عن نفسى بلغةٍ ألمانية صحيحة . ومع أن ذلمك ما كان أمراً مثيراً . بدرجة بالغة بالنسبة لى، ربما تصير الحقيقة مثيرة لإهتمام عالم ما، تكون العواطف العقلية دراسته الغميسة.



غنائـم من أم درمـــان

الفصل الثالث والعشرون

السردار وحرب وحشية

صبحاً عقب معركة أم درمان، خرج عدد من سكان المدينة إلى المعسكر، يشكون من الإستخدام الفظ الذى أُخضعوا له على أيدى القوات السودانية التى عُهد إليها بمسئولية المدينة، ومن إستباحة منازلهم. إن الأغلبية، وهم لا يعلمون أن السردار وهيئته كانوا أساتذة يحذقون العربية، أحضروا شكاواهم لى، وطلبوا منى أن أترجمها لهم. وفى حالتى الواقعة تحت تأثير العواطف وبلبلة التفكير، أسرعت لإبلاغ الأمور. دعا الكولونل ماكسويل فوراً مائة رجل، وبضابط وجاويش، أمرنى بالسير إلى المدينة ومقابلة الرجال المعينين على بيوت الشاكين. إن الحقيقة الماثلة عن الموضوع، بالتأكيد ما ظهرت إلا لاحقاً، وإننى لا أعلم عن أى أحد آخر فى موقع متمكن مثلى ليحكيها، وعليه أتقدم بالآتى.

زمناً بعيداً قبل أن تصل القوات المدينة، كان السكان فى إنشغال ينهبون مؤسسات المهدية ومساكن البقارة المهجورة وغيرهم. لقد أزالت معرفتهم المحلية الحاجة إلى البحث من أجل النهب؛ كانوا يعرفون أى شئ يستحق الأخذ على الإطلاق، وأخذوه سابقين القوات بمقدار يوم . لقد إمتدت السرقة إلى أى بيت مسكون، إن لم يكن بواسطة رب البيت، فبواسطة الخدم والآخرين الملحقين بالدار، بينما يسير رب البيت قيد الحراسة. حقاً، لم يسرق الجنود نحو منتصف الليل؛ ولكن ماذا؟ إستولوا على العناقريب (الأرائك المحلية التى تستخدم أَسِرّة للنوم فى نفس الوقت)، كى يريحوا أنفسهم بدلاً من الرقاد على أرض أم درمان المشبعة بالأقذار. إن السماء تعلم إنهم يستحقون بكل جدارة تسليفاً مؤقتاً لهذه العناقريب. وحيثما إنتهب السكان، كان ذلك خطأهم. إن السود المنتصرين، ومن ثم سعداء ومبتسمين ظلوا راصدين لأعدائهم الموروثين - السكان ذوى البشرة الأقل حلكة، بينما يسيرون جيئة وذهاباً، يدخلون دائما أكواخهم محملين ويخرجون خالى الوفاض. وفى شغفهم بجمع كل ما أمكنهم جمعه، يقذفون أرضا بأسلابهم، ويسرعون للمزيد، وخلال غيابهم يستحوذ "تومى" الأسود كل ما يفكر أنه قد يكون مفيداً له.

إن السردار نفسه ما كان فى مقدوره أن يدبر ترتيباً أفضل مما جاء مدبراً من نفسه. لقد مُكنت القوات من البقاء فى موقعها بعين مفتوحة على أى بقارى متحفز للهجوم؛ وقام السكان بالنهب عنها، لأنهم يعرفون بالضبط أين يضعون أيديهم على أى ما يستحق الأخذ، بدلاً من إضاعة الوقت فى البحث عن البيوت الخاوية، وكان الجنود يتمتعون فى رٍوح معنوى عال بلعبة الأسلاب دون أن يعرّضوا أنفسهم للوقوع فجأة تحت خطر المواجهة مع دستة من البقارة المختبئين فى كوخ أو حجرة ما. وعندما يأتى أحد مترنحاً تحت وطأة حمولة ثقيلة على وجه الخصوص، يعاونه أسود على حمله؛ وينضم إليهما بعض رفقائه، وعندما يعترض الناهب بأنه لا يطلب أى عون، ينهمك فى لعبة صغيرة فى السودان بالجياد، وفيما بعد، ترد هذه الألعاب المسلية البسيطة في شكل إتهامات عويصة بالتهجم.

إن الناس الوحيدين فى أم درمان الذين كانوا يملكون أشياء جديرة بالسلب هم المهديون الحقيقيون أنفسهم - وهم أهل للسلب من مكاسبهم الحرام. وعند التعامل مع أى إدعاءات للتعويض عن أستلابهم، يجب أن تراعى ثلاثة أشياء - إن الشاكى يجب أن يبرهن على أنه ليس مهدياً حقيقياً؛ وإن ما استلب منه مساء ٢ سبتمبر لم يكن حصيلة ما انتهبه هو خلال النهار؛ وبناءاً على هذا التمحيص، يجب أن يزيل التناقض الواقع من حقيقة أنه إستُلبت ملكيته وحاجاته القيمة والحكايات التى يقصها بشأن بؤسه المستبد، وفقره، وحالته المشرفه على الجوع.

لم أستغرق وقتاً فى إستيعاب الموقف، لأنه بعد مشاهدتى الجنود معينين على مساكن قوم «الحكومة»، بدأت رحلة للإستكشاف بصدد بيوت البقارة الأساسيين وغيرهم، وبعد أن أُشير إليهم

أوصيت الجنود لأخذ دوبارة التنظيف والسناكى خاصتهم، وأن يبحثوا فى حيطان حجرات الحريم عن الغوالى المخبأة. إننى ليسرنى أن أقول إن العمليات المقترحة لم تكن كلها بدون نتائج مرضية؛ ولكن معثوراً صغيراً للغاية هو الذى فى الحقيقة تكافأت به قوات الأهالى. وكل من إمتلك أملاكاً فى أم درمان إما أنه كان لصاً أو قاتلاً. لقد هرب معظمهم مع الخليفة، وما كان بسبب خطأ منهم أنهم تركوا وراءهم بضع دولارات لأناسٍ يمكنهم أن يستفيدوا منها. إننى أتأسف الآن لأننى لم أنظم فرقة للسلب، أضع نفسى فى رئاستها.

لقد سمعت، ولكننى لم أقرأ، عن المقال أو المقالات التى كتبها أحد المراسلين الذين اصطحبوا حملة الخرطوم، واحتوت سلسلةً من الإتهامات بالجملة ضد السردار والقوات فى شأن "يوم الخرطوم". إننى أُخمن على أى حالٍ كانت المقالات من بعض الرسائل التى كتبت رداً عليها، وبما أن كل واحد يبدو أنه إنتقد وبَيّن أنهم يبزون السردار إذا ما كانت إستعادة السودان مهمة توكل لهم، أعتقد بوصفى "المقيم الأقدم" إننى من حقى التعبير عن رأى، وأن أنتقد كذلك.

السردار، فى رائى، إرتكب خطأ واحداً جسيماً – لقد منح عفواً؛ وإننى ليس عندى شك أنه، بهذا العمل، كان يعرف أنه يقوم بظلم مؤكد لقواته السوداء كى يمالئ رأياً عاماً جاهلاً يعلم أنه يوجد فى مكان آخر. إننى أعلم أن بعض النّاس، الجهلاء لمدى عظيم بالسودان وقبائله، وتواريخهم، وديانتهم، وقوانينهم، وعاداتهم، وحقوقهم القانونية، سوف يرفعون أيديهم فى جزْع جليل، ويقفزون إلى الخلاصة القاضية بأن أسرى الطويل قد ولّد روحاً من التشفى ضد من قاموا بأسرى أماتت فىّ كل إحساس بالإنسانية – وفى هذا فإنهم سيكونوا مخطئين. لقد إرتكب اللورد كتشنر الخرطوم غلطة جسيمة بمده مزايا الحرب المتمدنه لحشدٍ من القتلة، و إن العفو الذى أحس بضرورة إعماله ليشملهم سوف يكلف إنجلترا خسارة أرواح شجاعةٍ كثيرةً، فيما بعد.

لم يكن هناك رجل فى الكتائبِ السوداء لم يكن ممتلكاً، بحكم شريعة موسى القديمة، وقوانين البلد التى كان آنذاك يقاتله، وقانون النبى، والقانون الدينى، بصرف النظر عن القانون المتحدر منذ أقدم العصور السحيقة، حقاً أكثر لإزهاق حياة فى ذلك اليوم من أى قاضٍ فى قطر متمدن يكون عليه أن يحكم بعقوبة الموت على رجل لم يرتكب نحوه شخصياً أى خطأ. إن كلَّ رجل هنالك كان مستحقاً لحياة يتصرف فيها ثأراً من جريمة قتل أب، أو إغتصاب أم، زوجة، أو إبنة، أو شقيقة، والتمثيل بشقيق أو إبن، وإستعباده هو نفسه. وأن يُمنع، كما منع السردار فعلاً، هؤلاء الجنود من ممارسة حقوقهم، فذلك ظلم لهم، وتعريض كذلك للخطر، عندما يتذكر كيف أنهم كّدوا من أجل "يوم الثأر" هذا. ولربما وجدت، وهذه موضع ريبة، حالات كثيرة من القتل المباشر للدراويش المجروحين؛ ما كان هذا أكثر قتلاً إجرامياً من شنق قضائى؛ وبالنظر إلى الأمر من وجهة نظر إنسانية، ألم يكن الأفضل إرسال هؤلاء السود فى كل أنحاء الميدان لإراحة الجرحى من شقائهم، وبذا يُقتل عصفوران بحجر واحد؟ فلندع ذلك مذكوراً، إنه عندما يجلس درويش وينطرح وهو جريح، فأنه مجروحاً جرحاً مميتاً، يُبقى نفسه حياً بقوة الإرادة وحدها حتى يموت سعيداً فى اللحظة التى يُرسل فيها حربته مخترقةً قلب من يريد إنقاذه. إننى أكرر، إن السردار إرتكب خطأ جسيماً بمده الدراويش بمزايا الحرب المتمدنة. إننى أنا الذى عشت وسط القوم، وناقشت أعظم جهابذة شرعهم الدينى، وعقدت مقارنات بين إدارتهم وقوانيننا، أعتبر إننى مؤهل لأدلى برأى، ومؤهل أكثر من هؤلاء الذين، بإحكام للغة، يمكنهم تقديم أراءهم للجمهور بحيث يكون النفاق، والجهل، والتدليس – دعك من إشتباق سوء السّمعة الذى يقف وراءها جميعاً – مخبوءاً.

إنك يا مَنْ رفعت أياديك فى جزعٍ جليل مما مضى، فلتستعد لترفعها مرة أخرى.

اليوم الذى أعقب معركة كربكانٍ أُرسلت فرقة إستطلاع فى المقدمة . وبتحركها إلى موقعها، عاينت درويشاً جريحا يؤشر علامات على حاجته للماَء. ترجل أحد الجنود عن جمله ليعطيه شيئا

منهـا، وواصل رفقـاؤه تحـركـهـم. ومع مـضـى الوقت، ولـمـا لم يلحق بهم رفيـقـهـم الصـدوق، عـادوا أدراجهم ليروا مـا قد حدث. كـان هناك، يرعى الدرويش الجريح، ويده على راحة كتفه، ولكن ما كانت هناك حركة من الإثنين. وبتقدمـهم - هذه هى الحكاية مكتوبة بوضـوح. إن الخطوط على الأرض بَيّنت أن "تومى" أخذ الرجل الجريح فى ساعديه، يسنده نصفاً ويجر باقيه، وقد وضعه فى موضع الجلوس فى الظل، وظهـره على صـخـرة؛ ثم، بـأخـذ زجـاجـة مـائه، بدأ فى صَبّ قطرات الحـيـاة داخل حلق الدرويش، لأنه كـان لايزال ممسكاً بزجـاجـة المـآء الفارغـة. ومع الحـيـاة العـائدة جاءت، بالطبع، قوة راجعة - قوة كافية للدرويش لكيمـا يستل سكينته، ويزن يده لثانية من الوقت وراء ظهر "تومى"، بينا هو مشغول بإرسـالية رحمته، ثم، بدفع لها بقوة كافية لتفطم العمود الفقرى، مات الدرويش سعيداً فى حين سقط "تومى" ميتاً على كتفه. مُجّد هذا الدرويش فى السـودان، وكان هناك آلاف غيره ينتظرون الفرصة ليموتوا ممّجدين مثله. هل تحب الصـورة الآن؟ هولاء هم نوعية القوم الذين تَعْوى لحمايتهم. فإذا رغبت فى أن الدراويش الجرحى تتم رعايتهم ضد إرادتهم، عليك أن تؤسس نيشاناً مخصوصاً لأولئك الذين يرجعون على قيد الحياة من إرسـالية رحمتهم، وعندمـا تكتشف أن لكل نيشان ممنوح، جرت تضحية ببضع مئات من الأرواح الغـالية، فلعلك توافق على موضـوع الأوامر التى ، لعلمى بما أفعل الآن، أصدرها أنا الآن.

لو كانت لى كلمة فى الأمر، عندما تواجه قوات الحكومة وجهاً لوجه القبائل، التى وفرها اللورد كتشنر بعفوه لتتجمع ثانية حول الخليفة، فالواجب أن أُقيم محكمة عسكرية ميدانية لأى طبيب يخاطر بأرواح جرحـاه فى المستشفى بمحاولة الإطاحة بحياته هو عن طريق رعاية درويش جريح لا يريد أن يعيش. إنه مـجروح للموت وإلا فـإنه سـوف لا يكون راقداً أو جـالسـاً هناك، وهو يريد أن يموت - ولكن بقتل؛ يريد دماء حياتك، ولا يريد عونك وإنقاذك. ولأنه يريد أن يموت - حيث أنه لابد أن يموت - فاقتله فى الحـال ودعه خـارج رحمتك. وبهـذا العمل، تكون متـصـرفـاً بإنسـانية لحيوان يموت ولكنه لا يزال ضـارياً فى شكل إنسـان. إنك لا تزهق حياة دون حـاجة لذلك، ولكن بكل الإحتمالات تنقذ حياة أفضل؛ وفى حين تلتقط القوات طريقها على ميدان المعركة، يجب أن تودع طلقة أخرى فى "الميت" و "الجريح" من مسـافة ياردة وراء النقطة التى يرمى فيها الدرويش حربة، حتى تمنع أى حوادث إضافية. إن عدد الجنود المقتولين بواسطة الدراويش "الموتى" و "الجرحى" عظيم بما فيه الكفاية آنفا، وسيكون عملاً إجرامياً الإضافة إليه. أليس لك فكرة ما عن أم إنجليزية فى الحداد على فقد إبنها الشجاع، الذى ضـرب بحياته عرض الحـائط برعايته لدرويش جريح، بينمـا هى تطالع الأفق فى إنتظار عودته كبطل للقرية؟ كم من المساكن فى إنجلترا أُحيلت إلى دور مهجورة على أيدى دراويش "موتى" و "جرحى"؟

إن لم يكن أى واحـد من الإقتراحات السـابقة مُتقبلاً، فلتدع إذن كل مراسل يرافق حـملة إلى أعمـاق إفريقيا يعلن مـا إذا كـان صوته إلى جانب الإسـعـاف الأولى للدراويش الجرحى أم لا. فـإن لم يفعل، فدعـه إذن يمسك عليه سلمه إذ رأى الأشـيـاء التى لا يتوقـع أن يلقى مثلها، لو كـان قد شـاهد نتيجة قتال بين قوم متمدنين. وإذا أعلن أنه مع الإسـعـاف الأولى، فلتمنحه عبوة من الأربطة وزجـاجـة مـاء، ودعه يطبق مبادئه عملياً، بينما أشـقـاؤه من فرسان القلم الأكثر إستنارة يُثبتون فى إرسالياتهم إعلان رثائه.

الفصل الرابع والعشرين

رجوعاً إلى الحضارة

محتم عليّ أن أترك لقرائى المحاولة لتخيل الأحاسيس التى كنتت أعيشها لمّا أمخرت بعيداً عن أم درمان فى المرحلة الأولى من رحلتى إلى المدنية والحرية. مُسترجعاً الأسباب التى قدمتها لزوجتى، ومدير أعمالى، وأصدقائى، عندما تُوسل إلىّ لأتخلى عن رحلتى المزمعة إلى أعماق كردفان، وملماً بأن آخرين يعلمون كيف كان سلوكى أمام من أخذونى أسيراً وعبدالله، وكنت واعياً أننى ليس بى ما أُعّير عليه فى إنتاج بلورات ملحية أسوأ من السوء نفسه، وكان بوسعى فى يسر تنقيتها – ولكنى مَنعت تنقيتها الحقة. وما كنت أحس بعار لكونى صممت آلات مستحيلة لتصنيع البارود وعبوات الذخيرة، لكيما أنأى عن ذلك الساير الرهيب؛ ولا بالتدمير المنتوى لكثير من المواد الجيدة لتركيبها، لاسيما وقد كان هنالك شهود أحياء لإثبات البّينة بحقى . متفكراً، مع ذلك، أن المخاطرة القليلة، متناهية الصِّغر، التى مررت عليها فى جمع معلومات لتُرسل إلى القوات المتقدمة لربما يتم تقديرها، بنيت على رحلتى ما تّبين أنه داراً من ورق يبدد بنفخةٍ حال وصولى القاهرة. لقد كنت خائب الأمل لحد بعيد فى شأن الإستقبال الذى كان فى إنتظارى؛ كذلك كان حال كل أسير آخر أُفرج عنه، وليس قلةً من المهديين. ربما أن اللوم يُلقى على لتأخرى فى بربر للغرض الذى "اعترفت" به فى فصلى "مُطّلق ومُزّوج"، عندما أُعلن عن وصولى بقطار معين؛ ولكننى تجازيت على هذا، مع إننى حتى الآن لا أزل غير متمدين للحد الذى أشعر فيه بالخجل من الفعل، أو أقّدر عدالة الإنتقادات التى أُجريت على مقدماً.

ولما وصلت بالفعل إلى القاهرة أخيراً، ما كان ذلك إلا لأعلم أننى بالرغم من إننى تلقيت الإشادة التى تسلمتها فى طريقى على أنها "نكات"، فيما يتعلق بتصنيع بارود المدافع لقتل الجنود الإنجليز به" – وعلى "التصميم الجهنمى"، وبناء الطوابى لإعتراض تقدم الزوارق الحربية،"، وعلى "دهائى فى الركض بعيداً عن الميدان عندما رأيت أنه كان كله للمهدية، ووصولى السجن فقط فى الوقت الملائم لوضع السلاسل مرة ثانية علىّ قبل أن يضع السردار ظهوره" – ولكن، هذه وحكايات كثيرة جداً غيرها كانت موضع تصديق ضمنياً. علاوة على ذلك، ما نقص منها شئ بترجمتها إلى اللغات العديدة المتحدث بها فى القاهرة، وتشمل كل لغة فى أوروبا، مع بضعة فى الشرق.

لقد مُزقت نياط قلبى، بعد كل ما تعرضت له، أن عودتى للحمى ودمى تُحتقر وتُعزل كتجسيم لكل شئ مثير للإحتقار فى إنسان ما. إننى، أنا الذى تحديت من أسرتى وسعيت للموت، تمنيته الآن أكثر من ذى قبل وأنا بين قومى؛ ولكن لحسن الحظ إن الإضطهاد الذى عُرضت له أضاف إلى التغيير الذى حَلّ على حياتى، وجعلنى أنهار تماماً، ولما بُرئت من سقمى كان ذلك لأجد نفسى فى أيدٍ قليلاً من الأصدقاء. لا تعتقدوا إننى أقلقت نفسى بما كان مجرد قطيعة خاملة؛ فقد طُرحت كل الإتهامات فى إخلاص، ويعود هذا إلى المرابع المؤثرة التى انبعثت منها.

أياماً محدودة بعد إستلامى العرض السخى من ناشرى، أُعلمت أَنى سجين حرب، وبهذا فإننى ممنوع من الدخول فى أى عُقودات؛ أضف إلى ذلك، فإن تجاربى قيل إنها ملك لوزارة الحربية. وعقب ذلك، أُخبرت بأنه، نظراً للإشتراكات التى جمعتها مجموعة صحافية فى إنجلترا بهدف إحداث تهريبى منذ سنوات سابقة، كان علىّ أن أكتب تجاربى لصالح المشتركين. ثم، بعد إبقائى فى الإنتظار أسابيع للرد، عرضوا على ١٠٠ جنيه – مبلغاً لا يكفى لتسديد المبالغ التى أقرضونى أياها حينما كنت فى السجن. وعندما أشرت، رداً على ذلك، للحالة المفلسة التى كنت عليها، وعُرض على تسديد الأموال للمشتركين من المال الذى يؤول إلىّ من الكتاب، كنت مهدداً فى مطلع الأمر بأمر قضائى ضد الكتاب، ثم بنشر أسرار "مثيرة" عنى.

ولما كتب لى فى رفعة صاحب السمو الملكى الدوق جوهان ألبرشت، ولى عرش مكلنبرج، بنفسه، موجهاً لى بطلب بعض المال الذي أُرسل هناك من القنصلية العامة الألمانية فى القاهرة "لكى يمنحنى بداية جديدة فى الحياة"، فإننى أُقابل، عندما قدمت نفسى بالفعل، بإتهامات بالجحود وعدم الوفاء بالعقود نحو الناس الذين لم أسمع فى حياتى بأسمائهم. ومع ذلك، كتب هولاء الناس بيانات بعدم صحة إدعاءات التايمز، يقولون إنهم لا يعلمون شيئاً عن الإدعاءات المرفوعة ضدى بأسمائهم؛ ومع هذا، بالرغم من تكذيب الإدعاءات، ظل المال محجوزاً لحوالى خمسة أشهر فى مجمله، ثم سددت بعض المطالبات منه، ولكننى لا أزال جاهلاً لمن دفعت.

وبينما كانت كل هذه التهم موجهةً بحقى، فإننى جرى تحذيرى بأنه إذا تجرأت وناقضت أياً مما نُشر عن نفسى آنفا أو شئون السودان فإن تراسلاً معيناً سيبعث إلى مطبعة لندن؛ ولكن ماذا أفعل غير أن أناقضهم كلما وجدت ذرة من البّينة لمساندة مناقضتى؟ إننى بالتأكيد لا يتوقع منى أن أؤيد مثل تلك التقارير فى وجه التهديدات الشفهية والمطبوعة على أعمدة صحيفة، خاصةً إننى وخاصتى يجب أن نظل منبوذين إجتماعياً على ما صار إليه حالنا منذ الإفراج عنى، حتى تظهر قصتى. إننى أكتب فى حزن بأكثر مما أكتب فى غضب؛ وهذه هى كل الموضوعات التى كنت أُفضل لو لم أذكرها فى سردى، وإننى ألامسهم بأخفف ما يمكن، ولكن لأن آخرين إختاروا نشرها، فإننى بلوذى بالصمت سوف أظلم نفسى. إن يدى أو لسانى قد فرض عليهما ذلك، ولهذا فإن أولئك الذين قاموا بالمبادرة ضدى يجب أن يكونوا مسئولين عن النتيجة المحتومة التى ستتبع ذلك عندما، يُسألون عما فعلوه من الذين يحق لهم السؤال عن البّينة، وأقدم للنشر كل المراسلات. وبالنسبة للجمهور، وقد أُقتيد لتكوين آراء عنى فى شأن قوة التقارير والإيضاحات المنشورة، فله الحق ليعرف كل الحقيقة قبل أن ينطق بحكم آخر؛ ولكن سردى يجب ألا يُحمل بمثل ذلك التراسل الضخم. إن المؤكد أن القدرة الإلهية بلطفها حافظت على الوثائق القليلة التى كنت محظوظاً بما فيه الكفاية لأعثر عليها بعد كل هذه السنين، والتى لها من القيمة ما لها لتمحيص قصتى.

ومن بين المقالات العديدة التى نُشرت فى شأنى، واحدة طُبعت فى لندن وأوراق عن المديريات صدرت فى الخامس والسادس من سبتمبر الماضى، وقد سّببت لى أذى مُعتبراً فى إنجلترا ومصر، وربما، ضرراً لا يمكن علاجه فى وطنى، وعلى ذلك فقد إلتمست حقوق المواطنة التى حال دون عودتى للمطالبة بها إعتقالى وأسرى الطويل، خلال ١٨٨٧. وعلى هذا لم أتلقَ بعد رداً – وما من عجبٍ على ذلك. وبظهور هذه المقالة، هاجمنى بعضٌ من مواطنىّ بلا حدود، وقاموا بنبذى كما يُنبذ الداء العدى. إن الإتصال الذى أُجرى على أساس ما للجنرال هنتر من سلطة مفترضة؛ ولكننى موقن بأنه ما كان قادرا على إيصال مثل ذلك التقرير للنشر بأكثر مما هو قادر على الفرار من عدو، ولذا لم يكن عندى شئ كثير مكتوب لأسأله إنكار الأمر. وقد نُصحت بأن أدع تلك التقارير لتتراكم وتدور، ثم أرد عليها جملة – فى سردى، حتى يأخذ الجمهور المخدوع الموضوع بنفسه. وتقرأ المقالة التى أشير إليها كالآتى:-

"مرتان أُقيمت كل الإستعدادات. إن أفواج الإبل لأخذ المنفى عبر الصحراء كانت جاهزة. ولم يبقى شئ سوى نيوفلد ليستجمع شجاعته ويفارق أم درمان. وفى كل مرة ينسحب فى اللحظة الأخيرة. وأخيراً إعترف بالحقيقة، تحديداً، إنه لا يكترث بالذهاب. لقد تزوج زوجة سوداء. أصدقاؤه فى ألمانيا ماتوا أو نسوه. فسيبقى حيثما كان".

ألا يوجد أحد ليقسم أن أكثر من محاولتين أُجريا خلال الإثنى عشر الطويلة ليخلى طرفى؟ لقد ذكرت فى سردى كل الذى أعرفه عن زيارات أى مرشدين لأم درمان. وبما إننى وعدت بنشر وثائق مثيرة للإهتمام عنى، لربما أن إثبات ما ورد بعاليه سيأتى قُدما؛ فليُثبت أنه ولو فى مناسبة واحدة كانت أفواج الجمال قد عُينت لإحداث هروبى، وفى نفس الوقت فليبَرهن على أن الدليل الذى عّين هذه الأفواج جاء لى أبداً.

من الممكن جداً أن هناك حزمة من الرسائل تنتظر النشر وهى تحمل توقيعى؛ وربما أنه عندما تنشر، سوف أعلم محتوياتها للمرة الأولى. إن علىّ أن أوقع رسائل كثيرة كنت أجهل محتوياتها، كما تبين ذلك من الرسالة إلى مدير أعمالى، والرسالة إلى الجنرال ستيفنسون، رداً على الرسالة التى عهد إلىّ بها عندما ذهبت فى بعثتى. لقد صورت هذه الرسالة فوتغرافيا، وهى مترجمة فى ص٣٣٦(*). لقد أُمليت الإجابة من عبدالله إلى سكرتيره، وقُدمت لى لأمهرها. فلتبرز المذكرة، الرسالة، أو التقرير، الذى أُسس عليه تمنعى من الهروب، ثم فلتنظر إن كان تأريخه لا يتسق مع تأريخ إكتمال أحد خططى الكثيرة للهرب. ولكن لا تمارس ضغطاً شديداً علىّ بصدد السبب الذى دعانى للكتابة أو إعطاء مثل تلك الرسالة. فإذا سلمتها فسأرتكب من الظلم الفادح ما ارتكبه ليبتون المسكين، عندما بعث جزءاً من الأموال التى أُرسلت له بواسطة أصدقائه فى سواكن، الذين كانوا يحاولون إحداث هروبه، وكتب... هؤلاء الأصدقاء لا يزالون أحياء، ولأنهم لم يختاروا إفادة العالم ما جنوه بحق مواطنهم، وكيف أن مشاريعهم تساقطت، فإننى قد لا أفعل ذلك – على الأقل، لم يحن الوقت.

وإذا كذّبت، كما أُخبر وجها لوجه إننى فعلت، لما أَنكرت بعض الإتهامات التى وُجهت لى، فلما يُمنح لىّ المزيد من المصداقية للإخلاص فى مذكرات ترفض الهروب عما منح لتصريحات سلاطين بالولاء فى رسالته للخليفة عندما هرب؟ لو كان مسلكى أثناء قبضى وأسرى الطويل غير رجولى، أو كما ينبغى لى، كأوروبى، أن أُعَيّر عليه، فدع البراهين تقدم فوراً على ذلك. ولا تقلقنى وتدير العالم ضدى بالتهديد بأسرار جديدة سيكشف عنها النقاب؛ وعلاوة على هذا، أليس لى سبب وجيه الآن لأن أشكو من إيصال كل شئ مدمر لى بينما يُقمع أى شئ فى صالحى؟

إن مصادر المعلومات، والمراجع، والعون الذى غُمر به أوهرولدر وسلاطين وهما يستجمعان تجاربهما قد أُغلقت فى وجهى. ولما وصل سلاطين فى القاهرة، سُلمت له بيانات المرشدين التى بلغت عن "رفضه العنيد للهرب،" وسُمح له أن يكون أول من يخبر العالم عن وجودها. وعندما وصلت أنا فى القاهرة، وجدت نفس التقارير الشبيهة فيما يتعلق بى وقد مُنحت نشراً واسعاً وصُدقت. لماذا، إننى أسأل، يتم تصديق فى أن تقارير المرشدين كانت مزيفة بالنسبة لحالة سلاطين وحقيقية فى حالتى؟ ولما لم تمنح لى الفرصة لأن أُعلن أول ما يُعلن عن وجودها للعالم؟ ربما ، قبل أن أستكمل سردى، سيصل الناس إلى نتيجة مؤداها أن بعض الذين كانوا أصحاب ميزة فى الإطلاع على كل أوراقى أحسوا، لسبب أو آخر، أن تكذيبى كان ضرورياً لأبعد حد، حتى لا أُصدق القول عندما تظهر قصتى؛ ولكن فى تلك الحالة، مَنْ كانت له القدرة ليستطلع أننى سأكون من الحظ بحيث أجمع أى إثبات يدعمها؟

ومن الإقتراحات ما طُرح إننى ربما تأثرت للغاية "بالحكايات التى قيلت عنى"؛ وهى ما كانت سوى قطيعة. وما كان ذلك عندى نميمة فارغة. لقد دُفعت، على غير رغبتى، لأحضر حفلاً فى حديقة فندق، وهو ظهورى الأول والأخير على الملأ فى القاهرة، لأن ما يلى هو ما جرى: مد لى واحد من أصدقائى القليلين الذين يتصلون بالصحافة هناك بعض القصاصات الحاوية للمعلومات الناقصة والقاذفة المعتادة، وفيما أنا جالس فى الممشى، وتُرجمانى بجانبى يأخذ المذكرات بينما أقرأها عليه، سمعت، "هلا، كيف يسير ذلك الكتاب لنيوفلد؟" وعندما سُئل المتحدث، إن كان يعرف نيوفلد، أفصح قائلاً، "أعرفه – لا، ولا أود أن أعرفه، بإعتبار عدد الجنود الإنجليز الذين بعثهم إلى الأبدية بباروده. لسوف لا أنظر إلى وجه الرجل". ولما همس صاحبى "هذا هو نيوفلد"، رفعت رأسى فى تلك اللحظة بالذات لأرى ممثلاً لوكالة أنباء عظيمة يسرع على باب الخروج. لربما، بسبب ظهوره هذا، لا يحجم مندوب رويتر فى القاهرة عن إخطارى بسلطة ماذا أو مَنْ وجه ذلك الإتهام لسمعى. إن الحادث فى التو واللحظة أُسدلت ستائره، ولكنها إذا فُتحت، فيجب أن تُفتح فى مكان ما لا يُلتمس فيه بنجاح من الموظفين المُنصبين فى الأعالى ليدوروا سائلين المحامين ألاّ يقبلوا الدفاع عن قضيتى. مذكرة لذلك الممثل لوكالة الأنباء — "للحيطان آذان"، و "لا تصرخ حتى تخرج من الغابة".

إننى أثق أننى حالما أرسل بطاقتى لمراسل لندن للصحيفة التى نقلت نص مقالتها فسوف يتقبلنى على الأقل، بدلاً عن تقليد أخيه فارس القلم فى القاهرة، ويفحص أصول الوثائق المدخلة فى سردى، وهى التى تدحض الإتهامات التى كان هو وسيط تداولها فى إنجلترا، وفى القارة. إذن، فلو إرتضى بأصالتها فى المقام الأول، واقتنع فيما يلى ذلك بأنه إبّان أسرى الطويل كنت أناضل أكثر من أى أسير آخر لإحداث هروبى، فإنه، على الأقل، عندما يكتب ثانية لقرائه، ويحاول أن يبذل ما فى جعبته نحو إصلاح الضرر البالغ الذى ألحقه بى فى إنجلترا، بالرغم من إنه كان بلا كراهية، فيما أقر به، ثم يحاول تصحيح خطئه في الصحف الألمانية. إننى لا أسأل شيئا أكثر من ذلك. فهل هذا كثير جداً على السؤال؟

ولكن من بحر القذف فى السمعة وإنعدام الإحسان الذى كنت أصارع فيه، إرتفعت بعض الأيدى العطوفة لتساعدنى. فعندما ضَغطتْ علىّ وزارة الحربية لأُسدد مبلغ الـ ٢٠ جنية التى كنت قد إقترضتها منها فى طريقى مع مرشدىّ القُدامى فى القاهرة وهم يطلبون منى إسترجاع الإيصالات التى بحوزتهم لقاء أموال دفعت لى بينما كنت فى السجن - بالأموال التى بُعثت لى بكل عطف من برلين لتمنحنى "بداية جديدة فى الحياة" وقد جرى حجزها - وبيد كل واحد ضدى، بعد مناداتى مصرفاً ورفضى، ذهبت إلى السيد هفت موكسلى، صديقا قديما للبليشرودرز، فى برلين ، وهو الآن مدير البنك العثمانى الإمبراطورى فى القاهرة. وبتقديمى له ملف رسائلى والبرقيات التلغرافية، سألته إن كان يعتقد أنها تحوى ضمانات كافية لتمكينى فى النهاية من تسديد المال الذى أردت منه دفعه لى. غادرنى لحظات قليلة، ثم عاد، وبينا هو يطالع رسالة بعد الأخرى، سقطت آمالى عنى، لأنه لاحظ أن "ضماناتى ليست من المستوى الأعلى"، و "مؤهلاتى ليست ذات طبيعة مرضية". ولكنى علمت بعد لحظات قليلة لاحقاً أن هذه كانت ملاحظات صميمة، ولعلها ساخرة، على الرسائل التى كان يطالعها، لأنه بينما كان مشغولاً بهذه التعليقات الجارية، كان كاتبه يعد ١٥٠ جنيهاً ذهبياً لحاجاتى العاجلة، ويفتح إعتماداً بـ ٢٥٠ جنيهاً إضافياً. لقد إستمتعت كل المتعة بدعابته، وهى مختلفة جداً عن التى صادفت إلى الآن، وكان إجراؤه أول إجراء عطوف أستقبله فى المدينة.

الوقت المتأخر مساء سبت عندما، لأول مرة، نهضت من فراش مرضى لأقابل مالك واحدة من تلك الصحف الإنجليزية العظيمة، التى وعدت آنفا أنها سوف تَجّد فى أثرى. وبالرغم من التأكيدات التى أُعطيتها، ما كان دون نرفزة شديدة إننى تقدمت نحوه؛ ولكننى بدلاً عن المسخ الذى توقعت أن أقابله، وجدت نفسى مدعوماً من جنتلمان يتحدث الإنجليزية فى ود، معاناً بمقعد مريح، وملفوفاً بأردية. وكان في الحضور سفرجية قليلين، و "المسخ" يلوم نفسه لأنه طلب منى أن أتصل لأقابله، يسألنى الغفران، لأنه ما كان يعلم إننى كنت شديد المرض. كان "المسخ" هو السير جورج نيونيس. وقد أنصت فى صبر لكل ما كان علىّ أن أقوله، وطالع مراسلاتى، وتبنى الرأى القائل بأن تصرفات معينة وُجهت بحقى كانت "شنيعة"، وأخبرنى ألا أصدق أن الصحافة الإنجليزية ستهاجمنى بلا سبب، وأوصانى حال تماثلى الشفاء، لأستمر فى كتابى وأجمع أى ذرة من البّينات فى مستطاعى جمعها لتأييد قصتى. ولقد إتّبعت نصحه، ولكن إستجماع البّينة الشحيحة التى حصلت عليها لم يكن عملا يسيراً، وأنا أتحسس طريقى على الأصابع فى ظلام النسيان أو التناسى لإثنى عشر عاماً.

إننى يجب ألا أنسى كذلك تقدير المعاملة الكريمة التى وجدتها على أيدى ناشرىّ الذين أغدقوا علىّ الأموال، وبصبر غير معتاد إنتظروا إستكمال سردى؛ ولكن الضرورة القصوى لجمع الأدلة لما أُدلى به، فى مواجهة التهديدات المحلقة فوق رأسى، تبرر التأخير الطويل.

الفصل الخامس والعشرين

كيف مات غوردون

لما بلغت الأنباء إنتصارات السردار العظيم إنجلترا، يمكن أن يقال إن الأمة البريطانية تنفّست الصعداء، وعندما وقع الإندفاع العظيم على الطبعة الزهيدة من "عشر سنوات فى الأسر"، التى كان يُعلن عنها فى كثافة بصورتى لجذب الإنتباه، عادت التفاصيل القليلة المعروفة عن موت غوردون إلى أذهان الناس بجدّتها كما كانت عليه قبل سنوات. وكنت أسأل على الدوام لأذكر كل ما سمعته بشأن غوردون. ولما فعلت ذلك كنت دونما تغيير أُقابل بالنصوص والقراءات من "المهدية"، عشر سنوات فى الأسر"، "النار والسيف"، وأعمال أخرى؛ وما كنت قد أُعلمت به عن موت غوردون من شهودٍ عيانٍ كان تأريخاً يختلف كل الإختلاف عما نُشر.

أول ما حكى قصة موت غوردون رجلاً هدد غوردون بقطع لسانه كعلاج وحيد لكذبه المزمن، وعندما هرب ووصل القاهرة، حافظ على سمعته بما قصّ من حكاية. إن كل العروض عن موت غوردون فيما يبدو أُسست على هذه التى وصلت أولاً . إن غوردون، حُمل العالم على أن يصدق أنه مات جباناً، لأنه، لأى إنشاء يمكن طرح الإفتراض القائل بأنه أدار ظهره لمهاجميه، وفى ظهره تلقى جرحه المميت؟ إنها كذبة رديئة السمعة؛ ولكن، حينئذٍ، ما الذى كان يُتوقع من رجل كان غوردون يعرفه حق المعرفة، والذى، ربما كان له سبب قوى ليخترع الحكاية التى جاء بها؟ إننى أقتطف النصوص، جنباً إلى جنب، التى يمكن أن تُدعى السرود الرسمية الثلاثة لموت غوردون : -

المهدية

"إنه (غوردون) أبدى إشارةً بيده اليمنى دلالةً على الإحتقار، وأدار ظهره، حيث تلقى جُرحا آخراً بالحربة جعله يسقط للأمام وكان الأقوى إحتمالاً جرحه المميت... ولم يقم بأى مقاومة، ولم يطلق عيارا نارياً من مسدسه".

"... إن واحداً منهم، مندفعاً، طعنه بحربته، وبعد ذلك تبعه آخرون، ثم سرعان ما قُتل ... إنه (نجومى) أَم بجر الجسد على المدرج للأسفل إلى الحديقة، حيث قُطع رأسه".

أوهرولدر

"رمى العربى الأول بحربته الضخمة على بدنه. وسقط للأمام على وجهه، وجُرّ أسفل الدرج، وطعنه كثيرون بحرابهم، وقطع رأسه وأُرسل للمهدى".

سلاطين

"الرجل الأول فوق السلالم رمى بحربته الضخمة على بدنه؛ وسقط؛ للأمام على وجهه دون أن ينطق كلمة. وجره قاتلوه أسفل السلالم إلى مدخل القصر، وهنا قُطع رأسه وفى الحال أرسل إلى المهدى".

لسوف يُلاحظ أن سرد الأب أوهرولدر يبدو نسخة مكثفة من السرد الأول، ولكن من الصعب أن يصدق أن صدفة ليس إلا تُفَسر تقديم سلاطين للتأريخ بما يكاد يتطابق مع الكلمات التى استعملها أوهرولدر. ولا يزال أمراً غير عادى أن السرد الأول تم تصديقه ونشره، ويظل الأكثر نشازاً أنه لم يُصّحح من قِبَل أوهرولدر وسلاطين، لأننى عندما وصلت أم درمان، فى ١٨٨٧، كانت التفاصيل الحقيقية لموت غرودون موضوع الحديث حيثما ذُكر إسمه، وهناك شهود عيان كثيرون فى موته ـ أو كانوا حتى معركة أم درمان، يمكنهم أن يحكوا حكاية مختلفة للغاية.

إن أولئك الذين عرفوا شارلس جورج غوردون، سيصدقوننى عندما أؤكد جازماً أنه مات، مثلما أنهم جميعاً لابد أنهم آمنوا بأنه مات ـ على الرغم من السرود الرسمية وشبه الرسمية التى تُخبر عكس ذلك ـ كمثل الجندى والرجل الذى يحمل قلب أسدٍ كالذى عرفوه .إن غودرون لم يُرح يده على مقبض سيفه ويُدير ظهره لأعدائه ليستلم جرحه المميت. فعندما سقط غوردون، كان سيفه يقطر بدم مهاجميه، لأنه ليس أقل من ستة عشر أو سبعة عشر قطعهم به. وعندما سقط غوردون، كانت يده اليسرى مُسوّدة بالبارود غير المحترق من مسدسه الذى أُفرغ على الأقل ثلاث مرات. وعندما سقط غوردون، كان دمه الحى يتدفق من جُرح من حربة وطلقة مسدس فى صدره الأيمن. وعندما سقط غوردون، كان حذاؤه متزلقاً بدم الدراويش المحتشدة الذين أطلق عليهم النار وناطح صفوفهم فى محاولته البطولية لشق طريقه للخارج ,ليضع نفسه فى طليعة قواته. مات غوردون كما يمكن لغوردون وحده أن يموت كذلك. دع العالم يُضلل ويُخدع حول شئون السودان بحكايات المرشدين والجواسيس، ولكن فلتُحكى حقيقة موت غوردون.

أسبوعا قبل سقوط الخرطوم، كان غوردون قد تبددت آماله. وبإستدعائه إبراهيم باشا فوزى، أمره بإعداد أحد البواخر، وأخذ كل الأوروبيين على سطحها، ويمخر للشمال. وثناءاً عليهم يُقال، رفضوا أن يرحلوا مالم يُنْج غوردون حياته معهم. ولما وجدوه لا يُثنى له عود، حيكت مؤامرة للإمساك به وهو نائم، وحمله، وإنقاذَه رغم أنفه؛ ولكنه بطريقة ما سمع عن المؤامرة، وابتسم، وقال إنه لواجبه أن ينقذ حياتهم إذا استطاع، ولكنه كذلك واجبه "أن يتمسك بموقعه". وبما أن القوات لابد أن تكون قريبة، فامخروا شمالاً، أخطروهم، وقولوا لهم فليُسرعوا.

فى كل يوم فى الفجر، عندما يتقاعد للراحة، يقفل مزلاج بابه، ويعين خادمه المخلص ـ خليل أغا أورفالى ـ خارجه. وفى الليلة القاتلة، حافظ غوردون على يقظته بأعلى سقف القصر، مرسلاً ومستقبلا الرسائل التلغرافية من الخطوط كل بضع دقائق، ولمّا يزحف الفجر على السماء، مفكراً أن الهجوم المهدد من زمن طويل لم يحن بعد، يضّجع منهوك القوى. إن إطلاق النيران القليل المسموع بعد دقائق قليلة لم يجتذب إنتباهاً بأكثر من النيران العادية الجارية بإستمرار ليلاً ونهاراً لأشهر، ولكن عندما سمح حراس القصر يطلقونها أصبح معلوماً أن شيئاً خطيراً يحدث. وبحلول الوقت الذى انزلق فيه غوردون فى داخل بزّته القديمة أو البذلة الصوفية الحالكة، وانتضى سيفه ومسدسه، كان الدراويش المتقدمة قد أحاطوا بالقصر آنفاً. بتغلبٍ على الحراس، إندفع حشد بأعلى الدرج، وقوبل غوردون خارجاً من غرفته. قُذف برمح صغير جرحه، ولكنه كان جُرحاً خفيفاً جداً، على كتفه الأيسر. ويكاد قبل أن يعلم الدراويش ما كان يحدث، سقط ثلاثة منهم موتى، وجُرح واحد، تحت قدم غوردون – وهرب الباقون. بحشو مسدسه بسرعة، إنطلق غوردون لأعلى الدّرج، ومرة ثانية طرد الدراويش الذين أعادوا الكّرة عليه. وبرجوعه للخلف فى خفة ليعيد الحشو، تلقى طعنة فى عظمة كتفه الأيسر من درويش يختبئ وراء باب الممشى، وبوصوله السلالم فى المرة الثالثة، تلقى عياراً من مسدس وجرحاً من حربة فى صدره الأيمن، ثم، جندياً عظيماً كما كان، نهض كأنما فوق نفسه. وبدم حياته ينبثق متدفقاً من صدره ـ ليس ظهره، تذكر ـ قاتل طريقه خطوة بخطوة، وهو يضرب من ممره الدراويش الجرحى والموتى ـ لأن أورفالى ما كان كذلك خاملاً ـ وبينما كان يمر عبر ممر الخروج للباب المؤدى

إلى الساحة، كاد درويش آخر مختبئ أن يكسر ساقه اليمنى بضربة واحدة. ثم سقط غوردون. إن السلالم التى قاتل طريقه عبرها - ولم يكن مجروراً - للأسفل، كانت مشحونة بأجساد الدراويش الموتى ومَنْ كان منهم فى سكرات الموت. لم يمزق رمح درويش الجسد الحى والمرتجف لغوردون المجندل ولكنه لا يزال واعياً، لأنه لفظ آخر أنفاسه حينما دار ليواجه آخر مهاجميه، ورفع سيفه حتى نصفه ليضرب، وسقط ميتاً ووجهه نحو السماء.

حتى لو لم أكن مرجواً بوجه خاص، بوصفى آخر أسرى السودان، لأَقُصّ فى سردى كل الذى كنت أسمع وأعلم عن غوردون، لكنت فعلت ذلك إلى حد معين فى كل الأحوال، لأنه ما كان بطلاً للبريطانيين بأكثر مما كان بطلاً لى، وإن الإيمان بأنه كان لا يزال حياً لم يكن أثره قليلاً بالنسبة لرحلتى بطالعها النحس فى ١٨٨٧. والحقيقة حول موته، التى نُشرت الآن للمرة الأولى، تبرير كافٍ لما يلى ذكره عنه حينما كان حياً. إنه لحق، كما أخبرت، أن كل ما يمكننى قوله سيكون "مما سمعته"؛ ولكن مع هذا، فكل التقارير المنشورة بشأن أيام غوردون الأخيرة قائمة على أقوال الغير، بّينةً غير مباشرة. وعلى كل الآخرين فى هذا، عندى الميزة - وهى إننى ربما كنت الرجل الوحيد، أسيراً أم لا - فى أم درمان الذى يمكن للمهديين ورجال "الحكومة" معاً الثقة فيه ضمنياً ويُسِرّوا إليه، لأنه لم يكن هناك تساؤل عما كان عليه مسلكى نحو عبدالله والمهدى. وكانت النتائج هى أن قوم "الحكومة" السابقة والرجال الأقوياء الذين أصبحوا أصحابى فى السجن من وقت لآخر، وكنتيجة لذلك، أعداء لعبدالله، منحونى أسراراً لو أُفضى بها فى مرابع أخرى لكانت قد تمخضت عن ضياع رأسى.

مرة ثانية، يجوز أن تُصنّف كل الحكايات التى قيلت عن السودان فى واحدة من فئتين ؛ الأولى، حكايات مثل خاصتى، مسرودة من أناس لهم مصلحة فى وضع رؤيتهم الخاصة على الوقائع والأحداث التى كانوا هم شخصياً متصلين بها، والثانية، حكايات أخبر بها ناس بروايات إعتقدوا أن سائليهم يشتهونها، بحيث يضحى ما هو أبيض لـ "أ" أسوداً لـ "ب" إذا كان يعتبر أن هذا اللون يسر "ب" على الأفضل. إن النظام المتبع نادراً ما يضع مكافأة على التدقيق.

على أنه قبل أن أواصل طرح تعليقاتى على الإنتقادات ، تستدعى بعض الملاحظات الأولية القليلة للحيلولة دون نشوء تصور خاطئ وسوء الفهم فى أذهان قُرأئى. وكإثبات على أن ما يلى ليس مقصوداً – بل يبعد عن ذلك - لجرح مشاعر أياً من الذين عانوا معى، ربما أذكر إننى قرأت مذكرات هذا الفصل على كثير من رفقائى الأسرى، وحسب مقترحاتهم، حذفت سلسلة من الأحداث معلومة تماماً لغوردون، مما أَثّر عليه فى الوقفة التى اتخذها نحو أشخاص بعينهم، وأحداث أخرى تبرهن كيف كان صافيا وبعيد النظر، وكيف بررت الوقائع إتخاذه الوقفة التى وقفها. إن حادثاً واحداً ينبغى كتابته ليعاقب فى هذه الأرض، ما أمكن، الرجل الذى لم يُدون هروبه، والذى ترقد زوجته المهجورة بقلبها الكسير جنباً إلى جنب وليدهما غير المعترف به فى رمال السودان. ومع ذلك، ربما أن غوردون، لو كان قد بُعث حيا ليواجه كل الإشانة التى أُلحقت به، كان سيتردد فى الإعانة على إخلاء ساحته عن طريق طعن الأحياء بيد ميتة، وإحتراماً لذكراه فإن هذا الحادث، مع أحداث أخرى، حُذف.

كنت قد أخطرت الأب أوهرولدر من قبل إنه تعليقاً على ما قاله فى "عشر سنوات فى الأسر"، عن تناوله أعمال غوردون، فالملاحظات التى ربما أستشعر طرحها، ليس القصد منها شخصه، ومع إننى أتنبأ بأننى فى الأساس الشخص الثانى، أرى أن الأب أوهرولدر يفهم حقاً أن الشخص الثانى فى هذه الحالة كتابه، وليس هو بشخصه. إننى لا أعتبره كما أخبرته، مسئولاً مباشرة عن الآراء التى نُسبت إليه فى " عشر سنوات في الأسر"، هذا بصرف النظر عن الملاحظة القاضية بأن "القارئ يُذكر بأن كل الآراء الواردة هى آراء الأب أوهرولدر". وبإعتبار أن الأب أوهرولدر قسيس ومُبّشر، وقد خاطر بالسير على جليد زلق بمهاجمته ذكرى غوردون، فإن مثل تلك العبارة يصعب أن تكون منصفةً له، بالشكل الذى جاءت به فى مقدمة الكتاب، "إن مخطوط الأب أوهرولدر، الذى كتب أول ما كتب

بالألمانية، تُرجم ترجمة تقريبية إلى الإنجليزية بواسطة يوسف أفندى قُدزى، السورى؛ إننى أُعيد كتابته فى صيغة روائية تماماً؛ والعمل لهذا لا يرمى لأن يكون ترجمة حرفية للمخطوط الأصلى..."

حَرّى بى أن أفكر أنه عندما هوجم غوردون كان على المخطوط الأصلى أن يُعامل بشكل يختلف قليلاً عما هو عليه. وبالطبع من المفهوم فى يُسر أنه عندما يترجم سورى، العربية لسانه الأصلى، من لغة صعبة قام بإلتقاطها إلى لغة تماثلها صعوبة، ويترجم بالتقريب كذلك، فإن هذه اللغة التقريبية عندما تُتداول بنفس الطريقة المسلم بها، علاوة على ذلك، قد تكون الأخطاء تناوبتها أو مرت بلا رصد، فى حين أن نقاطاً هامة تغيب عن الأبصار. وبنفس القدر، ممكن جداً أن إصطلاحات اللغات العربية، والألمانية، والإنجليزية ولجت دغلا متشابكاً، وتُركت على حالها. وأيا ما كانت الحالة عليه ، فليس هنالك إنكار لحقيقة أن الأب أوهرولدر مؤاخذ بالتعبير عن الآراء التى يجب أن يكون هو، كقسيس ومبشر، واحداً من آخر من ينطق بها على ظهر هذه الأرض. وكونه لم يُقدر حق قدره الشأو الحقيقى للآراء التى نُسبت إليه، فهو ما أحس بإستيقانه بعد مقابلتى الطويلة معه، لما قارنا، والإنجيل فى يد ونسخة من "عشر سنوات فى الأسر" فى يدٍ أخرى، الآراء المذكورة فى الأخير بتعاليم المسيح فى الأول.

لربما أن الأب أوهرولدر كان، أو لم يكن، قد أُسئ نصحه لحذف أحداث مشهورة أو حجب سردها، وهى، تُبين مسلك غوردون فى حالات بعينها. إنه فقط بحذف ذكر هذه الأحداث صارت الإنتقادات بحق غوردون ممكنة، أو إن علىّ أن أقول لو أن هذه الأحداث شُملت، لما عاشت الإنتقادات يوماً واحداً. لقد كان الأحسن كثيراً الإفضاء بكل شئ للعالم الكريم والمتعاطف الذى قابله هو وسلاطين عندما هربا، وأن يدعاه ليتقبل، إن دُعى لذلك، وأن يتعاطف معهما فى الحالات التى أجبرتهما قوة الظروف على التصرف فيها، وهو ما كان سيكون عدائياً للغاية نحوهما؛ ذلك أنه عندما يُحذف، لدى إنتقاد غوردون، ذكر التصرفات نفسها التى أجبرته هو كذلك بقوة الظروف على التصرف نحو ما فعل، فهذا، على أقل تقدير، عمل غير نصيح.

فى "عشر سنوات فى الأسر" يُقتاد القارئ إلى متاهة من الآراء، ويُترك بها. وحال الدخول فيها، تكتشف إنك لا تستطيع أن تبلغ مركز المتاهة أو أن ترجع إلى نقطة البداية؛ إنك إما أن تتجول حولها للأبد، أو تفعل كما سأفعل أنا، تشق طريقك عبر الإلتفاف المغروس لإصابتك بالتيه، وحمداً لله حال خروجك من الممرات المضنية. قارن، كمثال ـ

"إنه (قُدزى) أضاف أن غوردون لن يكون عنده قلق حول بربر طالما أن حسين باشا خليفة كان هو المدير"، بالآتى،

"إن غوردون نفسه إرتكب خطأ سدد به لكمة قاتلة لنفسه ولمهمته. ففى طريقه للخرطوم، توقف فى بربر، وقابل المدير حسين باشا خليفة؛ وأخبره <u>فى غير ما حذر</u> إنه قد جاء ليُجلى الحاميات المصرية لأن مصر قد تخلت عن السودان".

ما كان غودرون ليلام على تأكيده، كحاكم عام على السودان، الأخبار التى أُرسلت تلغرافياً لمرؤوسه، مدير بربر، <u>الذى يجب أن تمر الحاميات المنسحبة على يديه</u>، وليس ممكناً لومه وقد هاجت شكوكه، إذا أخذ برأى الرجل الذى كان يشغل موقع القنصل البريطانى، ممثل الحكومة، ووكيله الخاص، عندما كتب وأبرقه كما فعل، "ثق فى حسين باشا".

" إن الكارثة التى لحقت بهكس غمرت سكان الخرطوم بهلع لا يمكن وصفه. إن أعداداً منهم عادت لمصر، وغادر الخرطوم أعضاء البعثة النمساوية، مع السود خاصتهم فى ١١ ديسمبر، ١٨٨٣".

إننى أُوقن لذلك أن زملاء الأب أوهرولدر رأوا كل شئ ميئوساً منه شهرين قبل أن يقترح إسم غوردون للحكومة المصرية، ومع ذلك، وفى مواجهة هذا ، نُسأل أولاً :

"ماذا يستطيع غوردون أن يقوم به بمفرده ضد المهدى المقدس الآن فى كل الأنحاء؟"

ثم نُفاد ـ

"أعطى وصول الجنرال غوردون فى الخرطوم حياة جديدة وأملاً للسكان".

ثم،

"فيما ظهر لنا فى كردفان، وللمهدى نفسه، كان تعهد غوردون غريباً جداً، لقد كان بالضبط كأنما أن رجلاً يحاول أن يخمد ناراً بقطرة من مآء"،

و،

"ليس لدىّ أقل تردد فى القول أنه لولا أن الحكومة المصرية لم تبعث غوردون، فان الإخلاء الذى أُمر به أصلاً كان دون شك سينفذ بالتالى دونما صعوبة".

إن المرء ببساطة ليؤخذ دهشة بمثل هذا الفرض. فعندما وصل غوردون الخرطوم، كان غرب السودان بأكمله قد سقط. وغاصت المدينة بالنساء والأطفال المكلومين ـ الأرامل واليتامى، كما يجب أن أقول ـ من ذوى القوات التى، بقيادة هكس باشا، أُهلكت أشهراً معدودة آنفا فى طريقهم لتحرير الحاميات. وسلم سلاطين دارا لزقل. وأُجبر سعيد بيه جمعه، آخر رجل يحارب من أجل الحكومة فى غرب السودان، ليستسلم بشروط معينة وقتاً قصيراً من قبل وصول غوردون، وكان هذا بعد حصار ثانٍ وحسب لمّا كان رجاله يموتون بالعطش. سقطت بحر الغزال قبل أن يتوفر لغوردون الوقت ليتجه نحوها، وبسبب كل الذى يعلمه هو أو المهدى، سقطت مديرية الإستوائية كذلك. كانت المدينة قد قُلمت أطرافها بالمهديين، وقادة الحاميات التى كان غوردون يُتوقع أن يخليها يحملون قيادات متنوعة فى جيش الدراويش، بينما كان سلاطين يلعب دوره كمهدى آنفاً فى إخضاع مرؤوسه، سعيد بيه جمعه بالفاشر والذى رفض أن يسلم. ألست مُحقاً فى القول أن حجب هذه الحقائق، لا شئ غيره، هو الذى جعل ممكناً مثل تلك التهجمات على غوردون؟

بعد ذلك يقال لنا ـ

"أولئك الذين أفلتوا من الذبح فى الخرطوم أخبرونى دائماً أنهم كانوا على أُهبة الإستعداد للرحيل، وما من شئ أبقاهم سوى وصول غوردون، ولكن وصول غوردون دون قوات خّيب آمالهم على الأرجح. ولو كان مصحوباً بخمسمائة بريطانى من حملة السناكى، لكانت سمعته فى السودان قد حُفظت، وربما أن المهدى ما كان سيغادر كردفان أبداً".

لماذا لم يرحل هؤلاء الذين كانوا على أُهبة الإستعداد مع أعضاء البعثة النمساوية، أو يغادروا بين تأريخ رحيلهم،" ديسمبر، والأيام الباكرة من فبراير، عندما بلغت الأنباء عن مهمة غوردون الخرطوم؟ مَنْ منع رحيلهم خلال تلك الإستراحة البالغة على الأقل شهرين منذ اللحظة التى أُطيح بهم جميعاً فى "هلع لا يمكن وصفه" إلى أن سمعوا بتعيين غوردون؟ وإذا كانوا، عندما وصل بالفعل، خائبى الأمل لحدٍ مرير لعدم إصطحاب خمسمائة بريطانى من حملة السناكى له ـ فهؤلاء كانوا سيتجلى فلاحهم ضد "المهدى المقدس فى كل الأرجاء" فى إزالة المصاعب عن أولئك الذين استسلموا له ـ فلماذا استمروا فى البقاء؟ ألم يتوسل إليهم غوردون ليفعلوا ذلك؟ ألم يضع القوارب تحت تصرفهم ليمخروا شمالاً أو جنوباً بما يلائمهم على الأحسن؟ أو لم يعطِ غوردون نفسه السبب الحقيقى لبقائهم؟ ـ مع إنه يجب لهذه أن يضاف إيمانهم وثقتهم دون قيد أو شرط فى غوردون؟

إن غوردون، فيما أتبنى إعتقاده، حافظ على سمعته فى السودان حتى النهاية ـ حتى اللحظة التى، بيد الموت فوقه، سقط مواجهاً لمهاجمه الأخير. حقاً، لقد فقد سمعته لقوله الحق، ولكن هناك قلة من الرجال فى هذا العالم يأخذ قولهم لما يجافى الحقيقة مجتمعاً ما ويدهشه. إن سكان

الخرطوم، أعينهم شاخصة وقد أنهكهم الضنك من التطلع إلى علامة تدل على البواخر العائدة التى كانت غوردون قد إبتعثها قبل ثلاثة أشهر لتحضر القوات المتوقع وصولها فى بداية نوفمبر، تلفتوا لبعضهم بعضاً، وفى همسٍ حائر، قالوا، "لقد جاء غوردون بكذبة"، وقد صُعقوا وخافوا من كلماتهم نفسها.

وبعد أن تناولت بما أمكن من بلاغةٍ هذه المجموعة التى تثير حب الإستطلاع من المتناقضات أنتقل إلى النص والإجابات على الإنتقادات المسددة لغوردون فى الكتاب الذى أخذت منه نصوصاً من قبل.

١ ـ مسترجعاً الأحداث الخاصة بحصار الخرطوم، لا أستطيع التراجع عن القول بأننى أعتبر أن غوردون حمل آراءه الإنسانية لمدى بعيد، وإن هذا الصبر المتزايد من جانبه أضاف إلى مصاعبه".

٢ ـ "كان واجب غوردون الأول والأهم أن ينقذ الأوروبيين، والمسيحيين، والمصريين، من غضبة المهدى المتعصبة، التى كانت بوجه خاص موجهةً نحوهم. كان ذلك واجب غوردون الصافى، ولكنه لسوء الحظ أطلق العنان لعطف قلبه ليُستغل لصالح عدوه".

٣ ـ "وهكذا، بالعطف المودع فى فؤاده، أطعم غوردون وأعال أسر أعدائه. لقد كان كافياً للغاية لعدد من النساء فيتوسلوا لغوردون، والدموع فيض أعينهم، أنهم كانوا يتضورون ليصدر أمره بصرف تعيينات الذرة الشامى لهم فى الحال، وبهذا فقد إنتُقصت المؤن التى كانت فى أيدى الحكومة نقضاً كبيراً".

٤ ـ "كان الواجب يقضى بأن يدرك غوردون أن قوانين الإنسانية تختلف فى الحرب عنها فى وقت السلم، وعلى الأخص عندما كانت الحرب التى يشنها موجهة بوجه خاص ضد متوحشين متعصبين ومن الضوارى، وكانوا أعداء لكل سلم ".

٥ ـ "لقد كان مخدوعاً كل الخديعة إذا كان يعتقد أنه بممارسة العطف والإنسانية كان يحتمل أن يكسب هؤلاء الناس لصفّه؛ وعلى العكس، سخروا من كرمه، وما ظنوه إلا دليلاً على الضعف. إن السودانيين لا يحترمون ويقدرون إلا من يخافون منهم، ومؤكد أن هؤلاء المهديين القساة والمنافقين كان من اللازم أن يتلقوا معاملة مختلفة عن الأوروبيين المتمدنين".

٦ ـ "إننى أرى كذلك أن غوردون جلب الأذى لنفسه ولقضيته بتصرف آخر، والذى أقتنع أنا بأنه قاد لحدٍ بعيد للإطاحة النهائية به. إن رجالاً من أمثال سلاطين، لبتون، ود الملك، وآخرين، عرضوا، مخاطرين بحياتهم، الحضور لخدمته... ومع ذلك، لم يكن من العطف للرد على رسائل الإلتماس التى كتبها هؤلاء الرجال له".

فى المقتطفات الخمسة الأولى، يتخبط الأب أوهرولدر، من خطأ أولى يتمثل فى نسيان أو عدم المعرفة بحضور آلاف الأرامل واليتامى المنتسبين لجنود جيش هكس فى الخرطوم، حتى إنه، كما قلت، تنسب إليه آراء ينبغى أن يكون هو آخر من ينطق بها. إنه لمن الغرابة بمكان أن مبشراً يضع حدوداً على الآراء الإنسانية والصبر لقائد عسكرى فى زمن الحرب، وهو الذى يجوز أن يُعتمد عليه بلا أى تغيير ليخطئ على الجانب المخطئ من وجهة النظر الإنجيلية. إن غوردون ، بتذكره الموعظة على الجبل، وسالكاً تعاليمها بقدر ما أذنت به مقتضيات حالة الحرب، لم يؤد أى فعل يحط من مكانته كقائد عسكرى. ولم يكن غوردون مسيحياً سيئا مثلما أنه ما كان جندياً سيئاً ـ ولم ير العالم أبداً جندياً أفضل. وأياً ما كان واجب غوردون الأهم، فإنه قطعاً لم يكن واجبه الأهم أن يضعف حاميته الصغيرة بإرسال تجريدة إلى كردفان لينقذ، فلنقل، حفنة من الناس تخلوا عن الدين المسيحى واعتنقوا دين المهدى، كما يعلم غوردون وأى واحد غيره فى الخرطوم.

وهنالك جانب آخر للقضية. فقد كانت قوات غوردون من المسلمين. إن "المسيحيين" إعتنقوا

"الإيمان الحقيقى" وأضحوا كذلك مسلمين. لماذا، إذن، يجب أن يضحى بأرواح مسلمة "لإنقاذهم" من الإسلام وإستعادتهم للمسيحية؟ وينبغى ألا يُنسى أن سلاطين، وهو إلى الآن ينكر تحوله، إلتمس العذر لنفسه على أساس أن تعليمه الدينى كان مهملاً فى وطنه. إن غوردون لا يصح لومه لكونه اعتقد أن "المسيحيين" تبنوا الإسلام بإخلاص، لأنه بعيداً عن تبنى الديانة، فإن أناساً أقسموا بالتبتل والطهارة أنهم دخلوا فى حالة الرابطة الزواجية، التى إعتبرت برهانا إضافياً على تحولهم. وفى حين أن بستانى بعثة الخرطوم كان يستجدى المال الذى كان قد أرسله "للمرتدين"، كتب القنصل هنسل، راجياً أن يُبقى على الأمر سراً، للقنصل النمساوى العام فى القاهرة، يخطره بما حدث. ولو كان هناك أى "مسيحيين" ليُنقذوا من المهدى، لكان واجب غوردون الأهم دون شك قد عرض نفسه بعمل ما. كذلك ليس هناك أى إثبات على أن "غضبة المهدى المتعصبة" كانت فى أى حالة مفردة موجهة بالذات ضد "المسيحيين"، ولكن هناك إثبات كثير جداً على العكس. وبإستثناء وضع سلاطين فى السلاسل، عندما إعتقد أنه كان يخادعه، لا أعرف أى حالة من القسوة المعربدة قام بها المهدى نحو "المسيحيين"، ولست متأكداً ما إذا كان "العفو" سيكون الكلمة السليمة لتستخدم فى حالة سلاطين، إذا ما تُذكر ما وقع لسجناء الحرب الذين حنثوا بعفوهم، لأن سلاطين والآخرين أقسموا قسم الولاء.

والمقتطف رقم ٣، بعيداً عن الملامة غير العادية على غوردون لإطعام أُسَر أعدائه، وتحريكه للشفقة بمنظر الدموع الفائضة من النساء الجائعات، يستدعى إجابة أكثر تفصيلاً على النقد. إن غوردون، طبقا "لعشر سنوات فى الأسر"، كان متوجباً عليه أن يخرج أولئك النسوة من المدينة ليقعن تحت المرحمة الرفيقة "للوحوش المتعصبة الضارية" ويصير مسئولاً عن الإستعراض الجارى تحت أبصاره لإستباق الغنائم الذى تبع سقوط الخرطوم. والأب أوهرولدر ما كان ليسمع أبداً عن قائمة الشرف بإنجلترا للأبطال الذين على البر والبحر جادوا بأرواحهم لينقذوا أرواح النساء والأطفال العاجزين. وبإطعام أولئك النسوة - ولو كن جميعهن زوجات لأعدائه، وما كن كذلك - لم يرتكب غوردون جريمة عسكرية أردأ من قائد القوات على سطح بيركنهد لما قام، بدلاً عن الإكترات أولاً بسلامة الجنود الذين كان مسئولاً عن أرواحهم، بوضع النساء والأطفال فى القوارب التى كان من الممكن أن تُنجى قواته، ونادى على رجاله لعرض السلاح بينما تفارق القوارب جانب السفينة - وأن تقف فى إنتباه فى حين يغوص المركب تحتهم، وهو أمر يَعِّز على المبدأ البريطانى، بمنأى عن تعاليم المسيح، فى السلام والحرب؛ والآن إلى الحقائق فى قضية غوردون.

بوصول غوردون إلى الخرطوم، وجد آلاف الأرامل واليتامى من آل الجنود الذين كانوا لأشهر قليلة سابقة يكونون جيش هيكس باشا يتجولون - جوعى وعجزة. وعبر كل الصحف ستجد إشارة متواصلة لمسألة الغذاء، مع سرور لبحثه الناجح عن البسكويت المسروق، الذى "ألحق النقص الفادح" بمؤن الحكومة. وكان غوردون قد قدر أن الجيش القادم لنجدته سيصله فى بداية نوفمبر، ولذا نجده يكتب فى الثانى من ذلك الشهر أنه لديه مؤن غذائية لستة أسابيع. وفى عمله لهذا التقدير كان يضع حساباً لتعيينات كاملة للقوات (التى كانت كذلك تتلقى المال الذى تشترى به هذه التعيينات)، وحاجات الفقراء. وفى الحادى عشر من ذلك الشهر، إكتشف ما قيمته حوالى مليون جنيهاً من البسكويت المسروق. وفى ٢١ منه يكتب، "إننى لا أعتقد أن شخصاً واحداً مات من الجوع أثناء الشهور التى حُبسنا خلالها". وفى ١٤ ديسمبر - أى شهراً بعد التأريخ الأخير الذى قَدّره لوصول حملة الإنقاذ، يقول إنه مالم تصل القوات فى عشرة أيام قد تسقط المدينة، وذلك لأنه فى ١٢ نوفمبر كتب، "حصن أم درمان به مئونة من الغذاء والمآء لشهر ونصف". وبسقوط هذا الحصن، علم أن النهاية وشيكة.

ولكن حتى هذا التأريخ أعطى الجنود، الذين ما كانوا مستحقين لتعيينات لأنهم إستلموا مالاً لشرائها، تعيينات كاملة، وهنالك كل الأسباب للإعتقاد بأن الطوارئ جاءت فقط بسقوط حصن أم

درمان فى ١٤ أو ١٥ يناير، وأُحيط بالمدينة من كل صوب. كان الغذاء فى نقص ، لا شك، ولكن أياماً ثمانى قبل سقوط المدينة كان يمكن لغوردون أن يوفر من المخازن ألف وخمسمائة رطل من البسكويت ليعد قارباً للأوروبيين. إن المرء يجب أن يتملكه العجب لأن غوردون ظل متماسكاً لمدة طويلة بعد التأريخ الذى كان يتوقع فيه النجدة، وليس من السخف وحده، وإنما من المريع، أن يُهاجم، لأنه لم يضع حساباً أن الحملة ستصل متأخرة ثمانية وسبعين يوماً بدلاً عن ستة وسبعين يوماً، عندما نعلم يقيناً أن قواته كانت تستلم تعيينات كاملة لم تكن مستحقةً لها لشهرٍ على الأقل بعد التأريخ المتعلق بالوصول المتوقع للحملة.

حقيقة إن غوردون، وقد رأى تعيينات الغذاء يُتصرف بها، أوصى القوم لمفارقته والإنضمام للمهدى، ولكن هذا تم فقط بعد أن ضاعت أيام متزايدة بعد "عشرة أيام من ١٤ ديسمبر". حينها تخلى عن كل أمل، ورأى نبوءته تتحقق ـ فستصل الحملة "متأخرة جداً". وبمقارنة مع عدد الأرامل الذين تأتى على غوردون أن يعيلهم لعشرة أشهر، دون أقل مساعدة أو عون من الخارج، كان عدد زوجات "أعدائه" فى معسكر المهدى من القلة بحيث لا يستدعى ذكراً. ولكن وبنفس المستوى بإفتراض أن كل النساء الجوعى اللاتي ذهبن لغوردون يصرخن من أجل الخبز الذى اقترح الأب أوهرولدر أنه كان يجب أن يكون مستبدلاً بحجر، لو كن زوجات أعدائه، فإن كتابته نفسها تبرر إطعام غوردون لهن، لأنه يقول، "هؤلاء القوم الأدهياء هكذا أمنّوا أنفسهم بأنه، إذا انتصر المهدى، فإن ولاءهم له ستطمئن به سلامة عائلاتهم وملكيتهم فى الخرطوم، بينما، من الجانب الآخر ، إذا انتصر غوردون، فحينئذ تكون زوجاتهم وعائلاتهم قادرةً على التوسط لهم مع المنتصرين".

إن من البّين ، حقاً أن هؤلاء القوم الذين ذهبوا إلى معسكر المهدى فعلوا ذلك، ليس بسبب إلتزامهم برسالته المقدسة، وإنما لينقذوا أرواح زوجاتهم وعائلاتهم، والتى على جناح التفضيل عهدوا لغوردون بها حتى فى الساعة الأخيرة، وما يقرب من عام بعد التأريخ الذى كان وصوله دون خمسمائة بريطانى من حَمّلة السناكى يفترض أنه حطم سمعته فى السودان. إننى أميل إلى التفكير أن "الدهاء" الذى عرضه البعض فى محاولته تأمين زوجاتهم وبناتهم ضد الإنتهاكات والموت، لم يكن أقل تبريراً من "الدهاء" الذى عرضه آخرون لغرضٍ مختلفٍ كل الإختلاف. أى فدية دفعها هؤلاء "الدهاة" لغوردون ! إننى أقصد القوم الأدهياء الذينَ غادروا الخرطوم فى يناير ١٨٨٥، وعهدوا إلى غوردون بأرواح زوجاتهم وأطفالهم. وبمناقشة موضوع الغذاء هذا مع من تبقى حياً فى الخرطوم، كان لى إهتمام شديد بغذاء النساء والأطفال، وليس فى وسعى أن أفعل أكثر من تقديم موجز له بكلمات أحد الوطنيين الأحياء، بعد أن ترجمت له الإنتقادات التى أجيب عليها ـ "ماذا ! هل يرسل غوردون باشا نساء الجنود وأطفالهم وهم الذينَ قُتلوا محاربين من أجل الحكومة؟"

وأعرج على المقتطف رقم ٥ فى هذه اللحظة لأشير إلى رقم ٦. إن إستعمال صورتى فى الدعاية للكتاب الذى أعالج نصوصه قاد الكثيرين إلى الإعتقاد بأنى موافق على الإنتقادات التى احتواها ولقد واتتنى هذه الفرصة لتبيان كيف إننى أختلف معها تماماً. ولئن يقال أن سلاطين وآخرين عرضوا، مخاطرين بحياتهم، الإنضمام لغوردون فإن صحة ذلك القول لمن الصعوبة بمكان ، ولئن لم يتعطف غوردون بإجابةٍ مكتوبة على الخطابات التى إستلمها، فإنه محتمل أن يكون له سبب وجيه للإمتناع عن ذلك، خاصة وإن من الجائز أن بعضا من رسائل سعيد بيه جمعه المعنونة للحاكم العام قبل تعيين غوردون نجحت فى بلوغ الخرطوم، ومنها، ومن الهاربين من المهدى، لابد أن غوردون أدرك الكثير.

بدعوى نيته على الإستسلام، كسب جمعة الوقت، وحاول أن يسرع بالتدعيمات، ولكن لما وقعت الريبة عليها، أمر زقل سلاطين، وتندال، ورئيس المحكمة المدنية، على بيه إبراهيم الخبير، ورئيس كتبة سلاطين أحمد رياض، وقلة من الآخرين ليرسلوا إنذاراً إلى جمعه وينتظروا رده. وجاء الرد خاطفاً؛ فما أن طالع الرسالة، حتى فتح جمعه النار على الموقع الذى كان سلاطين وأصحابه ينتظرون

فيه. وفى أثناء الحصار الأول للفاشر، لابد أن جمعه كان مسئولاً عن مقتل ألفٍ وخمسمائة من الدراويش، وقد سُحق الجيش الذى تقهقر إلى ولد بيره، الذى جُردت منه جماعة إلى دارا لإحضار الذخيرة والتى، فيما يظهر من جريدة غوردون، سُلمت إلى المهديين بواسطة سلاطين عندما سلم المديرية. إستغرق ذلك إحدى عشر يوماً، ثم نُفّذ الحصار الثانى. إن الآبار سدت، وبذا حرمت الحامية من الماء؛ ولكن لسبعةٍ أو ثمانية أيام صمدوا، يهلكون من العطش، بينما المدينة كانت تُقصّف بذخيرة الحكومة. لقد كان سعيد بيه جمعه يعارض دائماً بقوله إنه لولا أن الذخيرة سُلّمت بواسطة سلاطين للمهديين لأمكنه الصمود ـ وأكثر.

الإلمام بهذه الأشياء لابد إنه تأثر به غوردون، لا سيما عندما يكتب له سلاطين، بواسطة القنصل هنسل، عارضاً وضع خدماته تحت تصرفه، بشرطٍ واحدٍ هو أن يضمن غوردون أنه لن يستسلم أبداً لأنه لو فعل، سيعامل سلاطين من المهديين حال وضعهم الأيدى عليه معاملة رديئة. وكان غوردون هو أفضل قاضٍ ليُثّمن الخدمات التى تعرض تحت مثل هذه الشروط. ومن أجل أسباب أخلاقية وسياسية،"إعتبر غوردون من غير الحكمة فى شئ أن تكون له علاقة من أى نوع مع ما أسماه بالأوروبيين "المرتدين" فى معسكر المهدى، ولكن تقديراً للمسئولية الجسيمة التى أُلقيَت على أكتافه، أهاب بالعلماء أن يخفوا لنصحه، لأن هؤلاء المرتدين كانوا الآن إخوتهم فى الدين، وقد قرروا أنهم ليست لهم أى علاقةٍ ما تتصل "بمقترحاتهم للخيانة"، لأنه ما من خيرٍ يأتى منها. لقد جُعلت الأمور أسوأ حالاً لسلاطين فضلاً عن ذلك بكتابته لغوردون طالباً منه أن يصير طرفاً فى إجراءات غريبة كل الغرابة بحقٍ عن طبيعة غوردون، مهما كان الحال. إن رجاء سلاطين لغوردون تمثل فى أن يكتب له رسالة بالفرنسية، وأخرى بالعربية، "يطلب فيها أن يأخذ إذناً من سيده ليحضر لأم درمان ويناقش معه شروطه (أى غوردون) للإستسلام"، وهى رسالة ليمكنه إستعمالها لكى يحصل على إذنٍ ليحضر لأم درمان. ولو كان غوردون قد كتب تلك الرسالة العربية...

لو كانت كل تلك الحقائق غير معلومة للأب أوهرولدر قبل ١٨٩٢، فإن ست سنوات لهن من الطول بما يكفى من الزمن ليُتعلم منها، والآن ليس لدّى تردد فى القول بأن إفتراض أن غوردون إستجلب الإطاحة بنفسه لرفضه خدمات الناس الذين كانوا راغبين فى المخاطرة بحياتهم للوصول إليه، محض خيال فى عبارة مُحسنة.

وبصرف النظر عن الآراء المعبر عنها فى المقتطفات الأربعة الأولى، يهيئ المقتطف رقم ٥ سبباً وجيهاً للغاية للسردار ليكتب بأحرفٍ كبيرةٍ فى الحدود السودانية، "ممنوع دخول المبشرين" لأن الأب أوهرولدر يثبت بشكل قاطع إنهم لا يمكنهم أن يفعلوا أى خير. إننى أؤمن بأمانة بأنه لسنوات عديدة قادمة يجب أن يكون المعلمون الدينيون الذين يُؤذن لهم وحدهم بالتسرب للسودان شُراحاً مُستنيرين للقرآن. ولتقدر إنه ظل السودان ستة عشر عاماً مبتلى ـ ولا يزال فى عناءٍ من واحدةٍ من أعظم الهزات الدينية المعروفة. وبينما أضحى هذا الإحياء للإسلام فى تقدم فى السودان الأصيل، يجهز الصابئون فى يوغندا وغيرها على أعناق بعضهم لإثبات حماسهم للطوائف المسيحية المتنافسة . لقد أعلن المبشرون صراحةً فى السودان تقبلهم "للإيمان الحقيقى" ـ الإسلام، الدين نفسه الذى خرجوا عنه ليُحَولوا السود. وليس لدى أقل ترددٍ فى أن أصارح نفسى بأنه لوقتٍ ما قادم سوف يشعل الإحياء الدينى فى السودان، متى سُمح له بذلك، العصيان فى زمنٍ وشيك الغاية. إن الوقت يجب أن يُمنح للأثر السئ (؟)، الذى أُحدث فى عقل الأهالى بإرتداد المبشرين فى السودان، ليتلاشى، فالبلد المسكين يحتاج راحة ، خيراً له. وإن لم يكن بدٌ من إنبعاث المبشرين، فليكونوا تجاراً من ذوى الأمانة، فهم أحسن المبشرين للأقطاب المتوحشة. وعندما فُتح السودان ثانيةً، وصار الأهالى، قليلاً ما، أكثر تمدناً من خلال إحتكاكهم بالتجارة، ومن ثم يصيروا إلى أوروبيين إلى حدٍ لا يكفيهم فيه إيمانهم البسيط "لا إله إلا الله وحده"، ولكنهم لابد أنهم سيشتكون ويتقاتلون حول الطوائف، فعنذاك،

لا وقت غيره، تُزال يافطة "ممنوع الدخول".

إننى لأثق إنه سوف لا يفكر نظام أو مجتمع دينى من المسيحيين الغيورين مما سبق أنى أستهزئ أو أسخر من الدين، أو أن مساعيهم الموضوعية لنشر السلام الحق فى أطراف الأرض النائية لا تجد منى أخلص العواطف. لقد تحدثت فى وضوح وبتحديد، لأننى اعتبر المناسبة موائمة لحديثى. إن المبشرين المطلوبين الآن فى السودان أصفياءً الذهن، تجار أمناء، وسوف يبذلون لكم المزيد بإعداد الأرض خلال سنوات قليلة لمبشرين "متحدثين" أكثر مما يمكن للمبشرين القيام به بالوعظ لعشرين عاماً. إنهم رجال مثل غوردون، الذين مع إنهم لا يعظون بالدين، ولكنهم يمارسونه فى كل أفعالهم، أولئك الذين يحتاجهم السودان. أسأل أى واحد فى السودان عن رأيه فى غوردون، وسوف يجيب، "إن غوردون ما كان مسيحياً؛ لقد كان مسلماً حقاً؛ وما من مسيحى يمكنه أن يكون طيباً وعادلاً كما كان هو"، وإننى أؤمن أن هذا الحديث أو التقدير لشخصه، إنبعث من المهدى نفسه. وألفت نظرك بوجه خاص إلى كلمة "عادلاً" التى تؤيد إنه، فى نظر المهديين والسودانيين على صعيد واحد، إقترنت عدالته بطيبته. وإذا تهّكم أى سودانى أو مهدى للأب أوهرولدر على كرم غوردون، واعتبره دالةً على ضعفه، فلابد إنه فعل هذا لغرض. وأثناء سنينى الإثنى عشر وسط كل ألوان أهل السودان، لم أسمع أبداً كلمةً واحدةً ضد غوردون، لم أسمع أحداً حتى مجيئ بين ظهرانى لحمه ودمه. وليس بإستطاعتى أن أفعل أكثر من ذكر مثال آخر على المكانة الرفيعة التى وُضع فيها، وهذا المثال من مصدرٍ مسيحى.

صديقى ناحوم عباجى، بوصوله القاهرة، أعدّ إلتماساً كان يرمى تقديمه إلى صاحبة الجلالة الملكة، ويسأل فيه الحكومة البريطانية لتستعيد جزءاً من الثروة التى جمعها خلال سنوات إقامته البالغة ثلاثة وعشرين عاماً فى السودان. وكانت حجته أنه، ثقةً فى غوردون، باع بضائعه، بنصف أثمانها فقط نقداً، متقبلاً تعهدات غوردون بالدفع، واشترى قارباً، لأنه ما كان هناك أحداً يُستأجر، وانطلق مع إستيورات، وقبض عليه الدراويش. وما كان ذلك ليحدث، لولا أن قائد الزوارق الحربية عصى أوامر غوردون لتحركة للخرطوم، بدلاً من قصف بربر لثلاثة أيام، وكان غوردون بالتالى مسئولاً عن مثالب مرؤوسه.

وبسؤاله عما كانت عليه إنطباعاتة الشخصية عن غوردون، قال إن تفكره من أجل كل فرد، وطيبته، وعدله، وصفات لا حصر لها ستأخذ سنوات لتذكر؛ وعند إخطاره بأن إدعاءه لا يمكن تصديقه إلا بإثباته أن غوردون كان ملوماً على فقد فرقة إستيورات، على مرضه الذى كان عليه، نهض من أريكته، ومزق الإلتماس، وبيده مرفوعةً، دعا السماء أنه إذا كانت قطعة الخبز المطلوبة لإنقاذه من الجوع يجب أن تُشرى بمالٍ يحصل عليه عن طريق تخطئة غوردون، فلتخنقه. إن الواحد عليه أن يشهد الساحة حقاً ليقّدرها حقّ قدرها. مفلساً، سقيم الصحة، مسناً ومن العجز بحيث لا يستطيع أن يبدأ حياةً جديدة، فارق عيناه تراخيهما والتمعتا بينما أقام صلاته وتهالك على أريكته وقد ناله الجهد. إننى أخشى أن ناحوم، ربما يلتحق بغوردون فى الوقت الذى يظهر فيه هذا فى الطباعة.

ملاحق



حسن بيه حسنين

الملحق - ١

حسن بيه حسنين

لما سمع غوردون بمقتل الكولونل إستيورات وصحبه، عقد نوعاً من المحكمة العسكرية لنفسه، وبعد مراجعة كل التدابير التى كان قد أعدها لسلامتهم ، توصل إلى خلاصة أن إستيورات لابد أنه دعى على الشاطئ وقتل. ثم، وكأنما ألهم بإستبصار ثانٍ، كاد أن يصف بدقة ما حدث بالفعل. إن عباس، وما بها يقل عن قدمين من الماء، ما كان يجب أن تنجذب إلى اليابسة، لأن النيل كان فى فيضان. وأما الخيانة من ناحية البحارة، فقد تحسب لها بإرساله حرساً خاصاً من الإغريق برواتب عالية. أسهم قطع قواربهم عن المراسى بعد إجتيازهم بربر فى الكارثة، لأنهم لو كانوا فى الباخرة ساعة ضربها، لكان من غير المحتمل أن سكان القرية كانوا سيخططون للخيانة التى قاموا بإرتكابها. وكترجمان للفرقة، أعطاهم غوردون الرجل الذى لا يستطيع الإستغناء عنه كثيراً، واحداً أولاه كل ثقته – حسن بيه حسنين. يكتب غوردون بنفسه، "هكذا كانت مسألة الخيانة مقدرة منى فى الوقت الصحيح ومحروسة"، ومع ذلك، فى "عشر سنوات من الأسر"، نجد العكس وارداً. "قيل أن الترجمان، حسن، دبر الخيانة". إضافة إلى ذلك ، لتسوية الأمر، ولإظهار أن غوردون كان قد إختار خائنا هو بعينه الرجل الذى قد تعتمد عليه أرواح الفرقة، يضاف"، وقد أخبرت فيما بعد، عندما وقع فى المصاعب مؤخراً، أنه أرسل إلتماساً لمحمد الخير، يقول فيه أنه يستحق مكافأة لكونه أمن موت الكولونل إستيورات. وهو لا يزال يعيش فى أم درمان".

لقد عاش حسن بيه حسنين ليعود إلى مصر، ويدلى بالشهادة على طيبة مُدافع الخرطوم البطولى وفضائله. إن جزئية الخيانة التى يسلم بها حسن بيه هى أنه – مع زميله الكاتب، سرى – قطع إتصالات الخليفة التلغرافية والتلفونية حينما كانت القوات تتقدم ليمنع الإتصالات بين أم درمان والخرطوم والنقطة الخارجية فى خور شمبات ـ لقد كان حسن بيه هو الذى خرج راكضاً من قطية ـ التلغراف أثناء تقدم القوارب الحربية محاولاً أن يعتلى ظهورها ليحذرهم من الألغام. وقد نجح فى جذب الإنتباه، وكاد أن يفقد حياته، لأن صرخاته بالإنجليزية أغرقها دوى البنادق التى "أطلقت" على لباس الدرويش الذى كان يرتديه.

متحدثا بالإنجليزية، والفرنسية، والعربية، أرسل حسن بيه حسنين إلى الخرطوم فى يونيو، ١٨٨٣، للعمل بالتلغراف. وعندما وصل غوردون فى ١٨٨٤، كتب رسالة رسمية يعينه لخدمته الخاصة. وصرفت الأوامر بأن يبلغه فى كل ساعات النهار والليل. لقد كان حسن بيه هو الشخص الذى اعتاد أن يضع علامة على الكلمات التى يطلب غوردون إستخدامها لمقابلة قادمة ، فى القاموس العربى. وقبل أن يقدم أقواله عن قتل فرقة إستيوارت، ستبرهن كلمات قليلة تتعلق به وبعلاقاته مع غوردون على أن غوردون عندما اختاره ترجماناً للفرقة، كان "مؤَمناً للغاية ضد الخيانة".

كانت واحدة من مهام حسن بيه الأولى بعد وصول غوردون أن يبحث عن أرملة بساطى بيه؛ لأنه، بالوصول إلى بربر، بعث تلغرافا لبساطى بيه، وهو لا يدرى أنه كان قد قتل مع هكس. ولما وجد أرملته وأطفاله فى شقاء رهيب، رجع مع واحد من الأطفال إلى غوردون، ثم رجع بالطفل حاملاً لمنديل به مائة جنيه. "مرتان لمن يحق له" كانت بالتأكيد شعار غوردون فى الخرطوم، من مئات الحكايات التى سمعتها. وبتقديمه المال للأرملة، أحضرت بزة زوجها العسكرية وسيفه، وآخذة بهما لحسن بيه قالت، "بما أنك تشغل مكان زوجى إلى جانب غوردون، فخذ سيفه وزيه الرسمى". أخذ حسن بيه ذلك لغوردون الذى سأله عن قيمتها، وبإخطاره "لعلها عشر جنيهات"، أرسل عشرين جنيهاً للأرملة تأميناً لها، وطلب من حسن بيه أن يحتفظ بالزى الرسمى، لأنه ربما يأتى يوم حاجته.

وفى وقت لاحق، بعد أن أخذ حسن بيه، الذى كان وقتها "أفندى" ليس إلا، فى زحمة العمل

المرهق ليلاً ونهاراً، سأله غوردون ماذا يفضل - زيادة فى المرتب أم رتبة. ترك حسن بيه الأمر لغوردون، وقد أعطاه الإثنين، محرراً "الفرمان" بنفسه. وفى الجمعة التالية، قدم حسن بيه نفسه لغوردون فى بذلة بساطى - لأن الزى الرسمى كان يلبس فى أيام الجمعة والولائم. وقد كان غوردون فيما هو واضح كثير التسلى بظهور ترجمانه وكاتب برقياته فى بزة بكباشى، بالرغم من أن الرتبة التى بسطها عليه ما كانت ذات معنى. وبإخطاره حسن بيه أن مثل هذه البزة لا يبدو رائعاً دون نيشان، غرز على يمين صدره واحداً من النياشين التى كان قد صكها إحتفاءاً بحصار الخرطوم، واختال حسنين ليبهج عيون زوجه، وهى تقترب من إنجاب طفلها. وقبل خمسة عشر يوماً من رحيل عباس، قدم نفسه لغوردون، وأخبره أنه أب لطفل. "لا، أنا الأب"، أجاب غوردون، ولأنه يعرف منزل حسن بيه، أسرع فى الخطى، فكان على حسن بيه أن يركض ليواكبه. وبدفع طريقة وسط النساء المجتمعات فى الحجرة الخارجية، طرق فى رفق على الباب حيث أن الأم ووليدها كانا راقدين، وقال، "مارى، طيب - طيب؟" ("هل كل شئ حسن؟") ثم، على أنه "أب" الطفل، أصر على الدخول، آخذاً الطفل بين ذراعيه يغنى له، وقبله، ثم أسرع خارجاً ودون مذكرة لوزارة المالية لدفع مائة جنيه من مرتبه "لولده". وقد كان مقدراً للأم والطفل أن يموتا ميتة مأساوية. (٣٢٨)

يومان قبل رحيل عباس، أخبر غوردون حسن بيه أنه قد إختاره ليصطحب الكولونل إستيوارت كترجمان. وكان عليه أن يرافق الفرقة حتى دنقلا، فى كل الحالات، ولكن كان هناك إحتمال لأن يطلب منه إستيوارت مرافقته إلى القاهرة، وبالتالى جمعت زوجته عدداً من الهدايا لأقاربها فى القاهرة، ليقدمها حسن بيه بالزى الرسمى والنياشين، ليعلم الجميع كيف أنها تزوجت زواجاً رفيع المستوى. إننى يجب الآن، بعد أن عرضت فكرة عن العلاقات الكائنة ما بين غوردون والرجل الذى "خان" كولونل إستيوارت، والذى ترك مع غوردون زوجته وطفله، أن أقدم سرده لما حدث بالفعل. وإننى عمداً أحذف كل أحداث الرحلة حتى وصول القوارب الجزيرة المقابلة لقرية السلمانية.

ثارت مناقشة بين الملاحين (الرّيسين) بينما اقترب من الجزيرة، أى جانب يتخذاه؛ كان جريان النهر قوياً، وبين الجزيرة واليابس إحترام سباق بلا هدى. واتجه ريس فى إصرار نحو الضفة اليسرى، والآخر نحو اليمين. إن إستيوارت، الذى يتكلم التركية والعربية، تساءل عن الأمر، وقرر أن يصدر الحكم من أكبر الريسين عمراً، واختار الضفة اليمنى. وبدلاً من معالجة السباق المحتدم أولاً، تقرر أن تصعد طاقة النجار و "يضرب" على ما يمكن تسميته بالأخاديد النهرية. وبينما اتخذ القرار، كانت الباخرة قد بلغت توقف نهاية الجزيرة، وبإصدار العلامة للإنطلاق بأقصى طاقة، إنطلقت ماخرة على زاوية حوالى خمسة وسبعين درجة إلى جنوبى شريط ضيق من اليابس، وقبل أن ينتظم استباقها على الصحيح، صدمت - وجنحت فى إستدارة، وضربت ثانية. إمتشق كولونل إستيوارت مسدسه، وهدد بإطلاقه على كلٍ من الريسين، فقفزا من فوق القارب وسبحا للضفة اليمنى للنيل، ثلاثين أو أربعين ياردة مسافة. ولم يطلق كولونل إستيوارت عليهما النار بينما كانا يسبحان عنه. وكان ذلك حوالى ساعة قبل منتصف النهار.

وحوالى ساعة بعد ذلك، رجع الريسان – محمد الدنقلاوى وعلى البشتيلى - إلى المركب، وذكرا أنهما تحدثا إلى أهل القرية، الذين أعلنوا أنهم يقرون بسلطة مصطفى باشا ياور، مدير دنقلا؛ وقد توسلوا لإستيوارت كى لا يضايقهم بأى شكل كان، سوف يزودونه بجمالٍ لكل المجموعة لتحملها إلى دنقلا. شد كولونل إستيوارت القارب وقذف به على سطح الباخرة مع الذخيرة. ثم أمر حسن بيه، مع واحد من أتباع غوردون، والكاتب محمود غراب ليذهبوا إلى الشاطئ ويقابلوا الأهالى. وفى البداية، إعترضوا، لأنهم، كمصريين، أحسوا يقينا أنهم سيقتلون، وطلبوا أن يرسل القارب الصغير إلى مسافة كمثل قرية بالقرب من دراوى، حيث المؤكد أن "أصدقاء" ستتم مقابلتهم. وبعد أن هددهم فى البداية بقذفهم فى النهر أشهر كولونل إستيوارت مسدسه ثانية وهدد بإطلاقه على الثلاثة مالم يطيعوا

فوراً. وقد أطاعوا، وذهبوا إلى الشاطئ ليقابلوا الرجال الذين كانوا فى إنتظارهم - رجلاً أعمى إسمه عثمان، ورجلين من قبيلة وادى كمر. ولما بلغوا غرفة إستقبال الشيخ البلاد (رئيس القرية)، أبرزت نسخة من القرآن، وعليها أقسم عثمان وصحبه قسم الولاء للحكومة. وبقى عثمان فى مكانه ورافق الآخران حسن بيه والآخرين إلى الجزيرة التى كانت فرقة إستيوارت قد بلغت برها. وهنا أخذ ثانية قسم الولاء للحكومة، وذهب الرجال، واعدين بإرسال الجمال لتكون جاهزة فى الصباح التالى.

وفى حوالى الساعة العاشرة فى اليوم التالى رجعوا، واقترحوا أن يحضر الجميع للضفة اليمنى ويحزموا أمتعتهم، لتكون معدة للإبل حال وصولها. وحوالى ساعتين بعد منتصف النهار، بينما كان الجميع جالسين على الضفة أو يثبتون حاجاتهم، جاء رجل، وقال إن الشيخ - بُلاَد وصل، ويدعو "الباشا" والقناصل لداره. أمر كولونل إستيوارت حسن بيه ليرافقه كترجمان. ولما وصل غرفة الإستقبال، وجدوا حوالى أربعين أو خمسين مصطفين لإستقبالهم. وكان الشيخ البلاد يجلس فى مركز الغرفة على الشمال. وعلى كل جانب فى الممر إلى الباب وضع عنقريب : جلس إستيوارت وباور على العنقريب الممتد على اليمين، وحسن بيه وهربن على العنقريب القائم على الشمال. مضت بعض الدقائق فى التحيات المعتادة، وقبل أن يجدوا وقتاً للحديث عن الرحلة، نهض الأهالى، وبقولهم إن الإبل كانت تقترب، غادروا الغرفة، ليعودوا فى دقائق قليلة صائحين"، سلامو تسلمو ياكفارى" (صيروا مسلمين، أيها الكفار، ولـ..وف تسلموا")؛ ولكن فى نفس اللحظة هشم رأس هبرن بفأس، وطعن حسن بيه فى ذراعة الأيمن بسكين خفيف، وبينما كان يهوى، تلقى جرحاً فى ساقه الأيسر بحربة كبيرة. غاب عن الوعى ولم يَرَ كيف قتل إستيوارت وباور. وفى الوقت الذى سحبت فيه الأجساد من الفرقة، وقتاً ما بعد مغيب الشمس، وجد حسن بيه حياً؛ واقترح قتله، ولكن شقيق الشيخ البلاد، فيما سمع بعد ذلك، تشفع له، "لأن معدته أصابها غثيان".

عقب مقتل إستيوارت والآخرين، شقت المجموعة طريقها للنهر، ودار قتال طويل بينها وبين بحارة المركب، الذين قتل منهم رجل. وأعطى حسن بيه بعض زيت الماكينة من الباخرة ليغطى به جروحه، ولما شفى أرسل لسحضر حشود القبيلة. وبعد ما يقرب من خمسين إلى ستين يوماً بعد ذلك، أرسل إلى بربر بتعليمات محمد الخير، وهناك سجن لأربعة أشهر، وبوفاة المهدى أرسل مع سجناء آخرين، إلى أم درمان، ليقسم قسم الولاء للخليفة عبدالله.

فى ١٨٨٩ - ١٨٩٠ بعث إلى كسلا، وبإنفجار المجاعة، إرتحل مع زوجته وطفلها، وكثيرين آخرين، ليعودوا لأم درمان. إن جماعة حسن بيه كانت تتكون من عائلته، ورجلاً إسمه إسماعيل، مع زوجته وإبنته، ورجلاً معه إمرأتان. وقد نفذ الماَء منهم، وبتركه وراءه الآخرين، الذين كانوا منهوكى القوى ليستريحوا تحت بعض الشجيرات، إنطلق حسن بيه وإسماعيل فى بحث عن الماَء. وفى حوالى أربع ساعات وصلا بعض الحفائر بجوار عطبرة، وبملء قربهم بالماَء، سارا للإنضمام لأسرهم. ولما بلغا الموقع، وجدا أنهم إلتهمتهم الأسود؛ إن رؤوس زوجة حسن وولده - وكان وقتها بين السادسة والسابعة من العمر - ورأس زوجة إسماعيل وإبنته كانت هى كل ما تبقى منهم. وما كان هناك أثر باق لرؤوس الرجل والإمرأتين، والمخمن أنهم هربوا، لأن الأسد لا يأكل رأس ضحيته أبداً. فى حالة تماثل الجنون، ساحا فى المكان، يعيشان على الجذور وأوراق الشجر، حتى وصلا قرية المقيتة، على ضفاف العطبرا، وأخذ سجينين وأصبحا رقيقا. كان على إسماعيل أن يعمل فى المعدية، ولكن حسن بيه، لضعفه ومرضه، سمح له بالتحول فى المنطقة، فقابل قافلة تستهدف الوصول للقضارف، والتحق بها، ثم اتجه لأم درمان ، واستخدم، أولاً، كاتباً مرؤوساً لعبدالله سليمان، رئيس مصنع تعبئة الذخيرة، ثم نقل إلى خدمة التلغراف.



خليل أغا أورفالى

الملحق - ٢

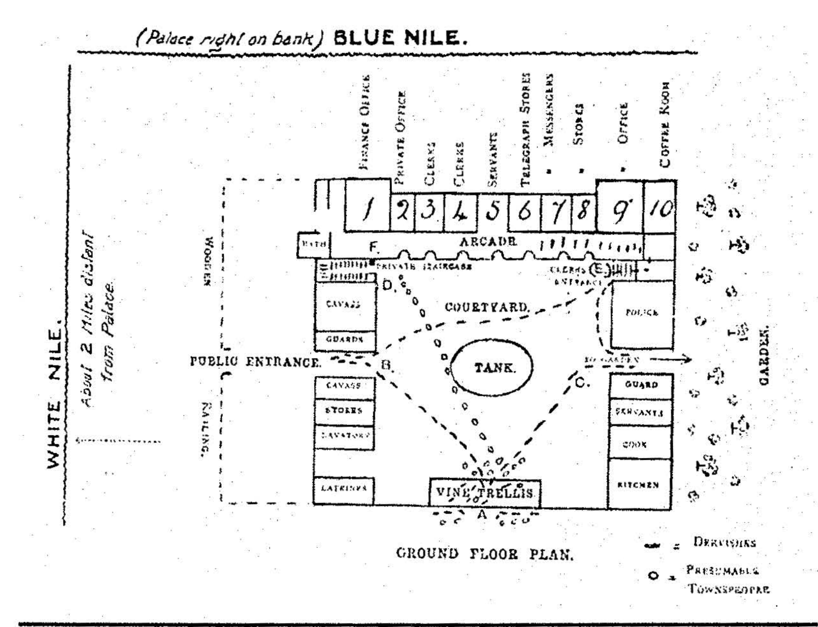
أورفالى

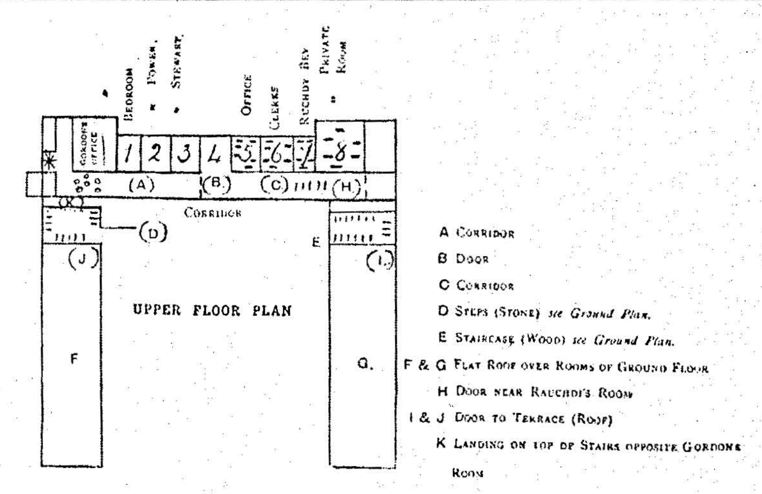
إن العرض الذى سردته عن الكيفية التى مات بها غوردون تختلف إختلافاً طفيفاً للغاية فى الأساسيات عن السرد الذى تلقيته من خليل أغا. أورفالى، والذى قُرئ على الأشخاص الأحياء بعد سقوط الخرطوم بفكرة مقارنة العبارات الواردة بما حكى فى وقته، مما يجعلنى أعتقد أن من النصيح أن أترك عرضى كما هو واقفا، وأن أضيف عرض أورفالى، مع إعطاء تفاصيل قليلة تتعلق بأورفالى نفسه. وربما يصح أن أذكر أن غوردون نُسب إليه إنه قتل عدداً أكبر من الدراويش مما ذكرته أنا، ولكن الخطأ يثور من أنه نسب إليه قتل الدراويش على درج الحكومة (E)؛ فهؤلاء قتلوا بواسطة الحراس. إن حقيقة قتله للكثيرين كما فعل، يجب شرحها بطريقين؛ الأول، إن الناس الذين هاجموه فى الدرج الخاص أولاً كانوا غير معتادين على أستخدام الرماح الصغيرة التى كانوا يحملونها - والحقيقة إن الأسلم أن يقال إنهم كانوا قد صاروا إلى دراويش مظهراً منذ نصف ساعة أو نحوها؛ وثانياً، بينما حشدوا فى مدرج ضيق، أصابت كل طلقة كتلتهم. ولإعانة القارئ على تتبع عرض أورفالى، تذكرت رسماً تخطيطياً عاماً للقصر فيما أذكره وهو لا يزال على حاله باقياً، وبمساعدة فوزى باشا وآخرين، إستطعت أن أُسمّى كل غرفة من الغرف.

إلتحق خليل أغا أورفالى بالجيش للخدمة فى السودان فى العام القبطى ١٥٩١ (١٨٧٣ - ١٨٧٤). وبعد أن شارك فى عدد من الإشتباكات، ترقى إلى رتبة بلك باشى (قائداً لخمسة وعشرين رجلاً)، وعندما وصل غوردون كُلّكُل ، فى ١٨٧٨ - ١٨٧٩، كان أورفالى ورجاله بلا مرتبات لأشهر. فقدموا أنفسهم لغوردون وطالبوا بمرتباتهم؛ وقد أوصاهم بالذهاب للخرطوم لإستحصالها، وعندئذ أضحوا غاضبين ومسيئين، وسحب غوردون مسدسه. وحذا أورفالى حذوه،ولكن لم يطلق أحدهما ناراً. ثم أمر غوردون الحجاب ليضعوا زعيمهم فى الحراسة. وبعد وقت قصير بعث غوردون لأورفالى وقال له إنه "رجل" مانحاً له نفخة من المال، وعارضاً عليه وظيفة حاجبه الخاص، وتقبلها أورفالى فى الحال، ورافق غوردون للخرطوم، ولازمه حتى مغادرته.

وبعودة غوردون، فى ١٨٨٤، وجد أورفالى عندئذ فى الخرطوم، وجعله حاجبه الرئيس. و أورفالى واحد من الرجال الذين لا يعرفون سوى سيد واحد لأنفسهم، ويعتقدون أن ذلك السيد هو حاكم الكون. ولذلك، ما كان بالمحبوب العظيم لدى البعض فى الإدارة، لأنه، أثناء الحصار، لم يبتعد أبداً عن جانب غوردون، ولم يكن حُجّابه ليؤذن لهم بأى عمل خلاف الإحتفاظ بأسلحتهم نظيفة، والإستعداد للإحاطة بغوردون فى حالة الصعاب. وكانوا ممنوعين منعاً باتاً من مفارقة مواقعهم لحمل القهوة، والخبز، والقيام بعمل المراسلات، أو أداء كل الخدمات الصغيرة الأخرى التى كانوا معتادين على أدائها للكتبة. وكانت أفكار أورفالى فيما يختص بواجب الحُجّاب هى السبب فى إندلاع مشاحنات مستمرة، وقد بلغت هذه قمتها عشرين يوماً تقريباً قبل سقوط الخرطوم، عندما رصد واحداً منهم يحمل محبرة وراء جرجياس بيه - رئيس الكتبة، الذى خَلّف رشدى بيه. كان ذلك مما لا يتحمله أورفالى. وبقبضة يده على حاملة الحبر المصنوعة من الصفر، دفع بها بكل قوة على صدر جرجياس، ولم يستطع غوردون أن يتغاضى عن هذا التهجم . وضع أورفالى تحت التكدير لثمانية أيام، "وحُجز بالثكنات"،أى دخل منطقة القصر، ولكنه كان ينام على باب غوردون كالعادة. وقبل إثنى عشر يوماً من السقوط، أُعيد إلى الرضا، ولم يفارق بعدها جانب غوردون لحظة.

إن أورفالى - بما أن غوردون ليس حياً ليتحدث عنه، وبما أن الكثيرين جداً يعلمون من غوردون نفسه عن تهديده بضربه بالرصاص منذ سنوات خلت - كان يخشى، منذ عودته، الحديث عن علاقاته مع غوردون، ولم يكن عجبه عابراً عندما أكدت له أنه إذا ظهر فى "لندرا" فلن تكون به حاجة ليخشى





PLANS OF PALACE AT KHARTOUM ILLUSTRATING THE DEATH OF GORDON.

رسم لقصر الخرطوم ومَقتل غوردون

الإنجليز. وبعد تقديمى للرجل، أقدم الآن وصفه لليلة ٢٥ يناير، محتفظاً لأكبر قدر ممكن بكلماته نفسها، وذاكراً فقط لإعطاء سردٍ متكامل، الأحداث التى وقعت فى أماكن أخرى من القصر بينما كان غوردون وهُوّ يقاتلان فى الطابق الأعلى : -

كان صاحب السعادة لا ينام مبكراً، وفى الليلة التى دخل فيها الدراويش الخرطوم كان هو فى غرفته. وفى الساعة الثامنة، جاء القنصل هنسل، والقنصل لونتايدس، والطبيب، أبو نظاره (الذى له نظارات)، لرؤيته، وظلوا حتى منتصف الليل. وبعد ذهابهم لم يخلد للنوم، لكنه جلس يقرأ ويكتب الرسائل، وأحياناً يذرع الغرفة خطواً. وفى الساعة الواحدة صباحا، أرسلنى إلى مكتب التلغراف لأتحرى عن حركات العدو، لأنه تلقى أخباراً مؤكدة عن الهجوم المنتوى، وأصدر صاحب السعادة أوامر عامة للجنود والموظفين ليكونوا متيقظين للهجوم ويصدوا الدراويش. إن على أفندى رزا، ومحمد أفندى فوزى، ويوسف، أفندى عصمت كانوا فى نوبة العمل، وكذلك المراسلة محمد عمر. وقد أبلغوا أن الأحوال هادئة، وبُلغت تلك الأخبار لصاحب السعادة. وبعد نصف ساعة لاحقة، ربما سُمع إطلاق النار من جانب البر (أى ناحية الجنوب)؛ وبُعثت لأجد المعلومات. إن بخيت بيه، من يَرى، أرسل تلغرافاً بأن بعض الدراويش هاجموا، ولكنهم طُردوا، وعندما أخبرت صاحب السعادة، تهيأ للنوم، وأمرنى الأمر المعتاد لإغلاق بابه، وهو ما قمت به. ثم أغلقت الباب المؤدى لشرفة السقف (I، فى الرسم)، ثم الباب الخاص بالإدارة الحكومية (H)، بالقرب من حجرة رشدى بيه، وراجعاً على طول الممشى المؤدى للأجنحة الخاصة، قفلت الباب القائم فى الوسط (B)، ثم نزلت بالدّرج الخاص (D)، وصرفت التعليمات العادية للحراس، ورجعت لمكان نومى فى مواجهة غرفة الباشا (K)، بعد أن أخطرت كتبة التلغراف لإحضار المعلومات حال وصول أنباء من الخطوط. وحوالى الثالثة صباحاً، أيقظنى محمد عمر، المراسلة، ومعه الحاجب على أغا قدرى، وقالا إن هجوما شُنّ على الكباكات (القوارب) على النيل الأبيض: وقد أخبرت الباشا، الذى أمرنى بالجرى لمكتب التلغراف للمزيد من الأخبار، وهناك قابلت حسن بيه بهنساوى ، الذى كان يؤدى العمل، وسمعنا أن هجوما قد أُجرى، ولكنه صُدّ.(*) وبإخطار الباشا، أمرنى أن أغلق باب غرفته ثانيةً، وفعلت ذلك، وجلست لإعداد القهوة. ثم سمعنا مزيداً من إطلاق النيران من ناحية النيل الأبيض، ونادانى الحُجّاب، وقد هُرعوا للشرفة، قائلين إن الدراويش كان يقدمون للمدينة. جريت للأسفل للبلك باشى إبراهيم النحاس، وكان معه أربعة وعشرون رجلاً؛ خمسة عشر منهم مُثّبتين على النوافذ (الحجرات على يمين الطابق الأرضى)، وتسعة على الشرفة المطلة على الحديقة (G). وكان هناك كذلك أربعة وعشرون حاجباً وفراشاً؛ كان ثلاثة عشر على النوافذ (يسار الطابق الأرضى) تحت قيادة نائبى، نعمان أغا، ثمانية على الشرفة (F)، وثلاثة على باب القصر (B). ولكل رجل مائة وعشرين عبوة، وإلى جانب ذلك، لكل جماعة إحتياطى من الذخيرة. كل هذه التدابير لم تستغرق خمس دقائق، لأن كل واحد يعرف مكانه. بعد ذلك ركضت للأعلى لغرفة الحاكم العام، وأخبرته بالإجراءات المتخذة. وحينها أطل الفجر. إن الدراويش الذين أسرعوا جرياً نحو مقدمة القصر فتلتهم النار المنطلقة من الباخرة. وقد قتل حوالى سبعين فى الحديقة من الجنود الذين أطلقوا عليهم النيران من الشرفة، ثم رأينا الدراويش يجتاحون الراكوبة (مظلات العنب، A)، وقد قابلتهم النار المنبعثة من النوافذ والشرفات. وتدافعوا بأعداد عظيمة فى سرعة. وجرى بعضهم للمدخل (B)، فقتلوا الحرس وفتحوا الباب؛ ثم أسرعوا بجمعهم ركضاً لباب الإدارة الحكومية وقتلوا كتبة التلغراف، كلهم ما عدا عصمت، الذى اختبأ فى ما بين الجوالات فى المخزن؛ ثم ذهبوا إلى الشرفة (G) وقتلوا الجنود، ولما رأى نحاس المذبحة، قفز من النافذة. وكان هناك أربعة رجال فى الحراسة على الدّرج الخاص، ولكنهم عندما عاد الدراويش من باب الإدارة الحكومية (E) سرعان ما قتلوا، وهرع بعض الدراويش إلى الشرفة (F)، وقتلوا الجنود الذين كانوا فيها؛ وصعد آخرون على الدّرج إلى الجناح الخاص، وكسروا الباب؛ قابلهم غوردون باشا بسيفه فى يده اليمنى ومسدسه (غُدارة) فى اليسرى ، وقتل منهم إثنين سقطا على الباب، وآخر سقط على

السلالم (*)، وجرى الآخران بعيداً. ثم سمعنا الدراويش يكسرون الباب الخاص (B)، بينما كان الباشا يعبئ غُدارته. سرت للأمام وتلقيت جرحاً صغيراً فى الوجه، ولما جاء الباشا، تلقى جرحا على كتفه الأيسر؛ وكان أحد أبوّى الرجل الذى جرحه رقيقا. وتبعناهم إلى غرفة رشدى بيه، فقتلنا ثلاثة وجرحنا الكثيرين، وفر الآخرون وملأوا الدّرج. ورجعنا إلى غرفة الباشا وأعدنا تعبئة سلاحنا، ولكن الدراويش عادوا، وتلقيت جرحاً حفيفاً على ساقى اليمنى بسيف، وتجنبت الضربة، وما كانت القَطعة بشئ. ثم هاجمنا الدراويش على الدّرج الخاص (D)، وفيما كنا نعبر الباب طعن مواطن من الخرطوم، يلبس مثل الدراويش، الباشا بحربة على الكتف الأيسر؛ وبرؤيتى يد هذا الرجل تمتد من وراء الباب، هويت عليها، فجرى وسقط على رمح يحمله واحد من رفاقه على السلالم، ومات. فى هذا الوقت كان المزيد من الدراويش يتقدمون على طول الممشى (من H)، ورجعنا لنقابلهم ؛ وتلقيت ضربةً فى اليد اليمنى، ولكن الباشا أجهز على الرجل بسيفه، وضربه على الرأس فمات؛ ثم جرى الدراويش إلى داخل مكاتب الكتبة (5 ,6 ,7، فى رسم الطابق الأعلى)، وبينما كنا نقف على الممشى، أطلق زنجى طويل القامة طلقة من الباب (H)، بالقرب من غرفة رشدى بيه، وضربت الطلقة الباشا فى صدره الأيمن، وجرى الباشا وقتل الرجل بطلق نارى. ثم خرج الدراويش من المكاتب، واستدرنا، وركضوا للدّرج الخاص، وأطلقنا عليهم النار، ولكن الباشا كان يضعف من فقدان الدم. لقد حاربنا هؤلاء الدراويش أسفل السلالم حتى بلغنا آخر دّرج، وأصاب أحد مواطنى كتيمه الباشا فى فخذه الأيمن، ولكننى أصبته بطلق، وسقط الباشا على حصيرة الحُجّاب ناحية الباب، وكان ميتا، وبينما كنت راجعا لأجد ملجأ فى مكتب المالية (F)، أُسقطت وفقدت حواسى، وكنت منطرحاً مع الموتى. وفى الظهر، ساعدنى رجل من الكتيمه ـ عبد الرحمن، الذى أعرفه، لأذهب للنهر للمآء، ورأيت جثة الباشا على الباب (D)، ولكن الرأس لم يكن بها. وأُعنت للوصول لبيتى، ووجدت زوجتى وأطفالى وكل ملكيتى كلها غائبة... وذهب بى صديق وعبد الرحمن إلى ديم الدراويش، وغادرت إلى السهل ليلاً، وفى الصباح أُخذت إلى ود النجومى... وعُريت ليروا إن كان معى مال أو أوراق، ولم يكن معى شئ منها. وعندما قلت إننى إجهل وجود أى كنز، ضربت ضرباً شديداً، مع إننى كنت مثخن الجراح، وكنت مريضاً لسبعة عشر يوماً، وعثرت على زوجتى .

إن كل الذين أُخذوا ليروا السلالم التى سقط عليها غوردون لاحظوا على العموم بقع الدماء ومداها، لأنهم ما كانوا يعتقدون أن كل ذلك جاء من جسدٍ واحد. وقد أرونى هذه البقع فى ١٨٨٧. ووضع بيان حسن الإطلاع أن "بقع الدم دلت على المكان الذى وقعت فيه هذه الفاجعة، وقد حملت السلالم من الأعلى إلى الأسفل نفس هذه الآثار المحزنة". وهنا ما أنتقى تقديره ليس تثبيتاً لحقيقة أن غوردون مات وهو يقاتل حسب، ولكن تأكيداً لسرد أورفالى، لأنه كان هناك رجلان فقط فى الطابق الأعلى – غوردون وأورفالى، ولابد أن القتال أُجرى من جانبهما. ومن المستحيل تماماً أن السلالم" من القمة إلى السفح" ـ أربعة سلاسل ـ يمكن أن تمتلئ بالبقع كما كانت عليه بدفقات كبيرة من الدم من جسد تم سحبه أسفل الدرج وقتاً ما بعد الموت. لقد كانت السلالم مبقعةً بدم الدراويش الذين أطلق بينهم غوردون النار وشق طريقه فى محاولته البطولية للوصول لقوادته .

الملحق - ٣

ترجمة الرسالة التى أملاها الخليفة رداً على الرسالة التى سلمها لى الجنرال ستيفنسون، فى القاهرة، قبل الرحيل إلى كردفان

" بسم الله الرحمن الرحيم، والشكر لله الوالى الكريم، والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله؛ سلاماً.

"من عبد ربه عبدالله المسلمانى البروسى (الپروسى)، المسمى سابقا كارل نيوفلد، إلى ستيفنسون الإنجليزى، فى القاهرة.

"علينا أن نفيدك، طوعاً لرسالتك، المؤرخة ١ مارس، ١٨٨٧، والمعنونة لنا، والموصية لنا على الشيخ فضل الله الكباشى، فى شأن مشاريعك،

"لقد بدأنا من حلفا، ورجاله يحملون الأسلحة والذخيرة وأشياء أخرى مرسلة له من الحكومة.

"وتابعنا سيرنا، وكنا دائما حفيظين على أنفسنا وممتلكاتنا، حتى وصلنا فى بئر تدعى سليمه، أخذنا منها مئونة الماء، وتابعنا طريقنا نحو وجهتنا.

" لقد كان قدرنا هو أن نقابل فى الصحراء بستة فُقرا، أتباع المهدى، الذين هاجمونا، حتى إننا ورجال صالح كان علينا أن ندافع عن أنفسنا، وكان عددنا خمسة وخمسين رجلاً.

"دعم الفقراء الستة فيما بعد بآخرين، كلهم من رجال عبد الرحمن النجومى . وهكذا لم يبقَ أمامنا طريق للهروب، وفى خلال نصف ساعة كنا مغلوبين، وقُتل منا الكثيرون، وأُخذ البقية أسرى. إن البنادق، والذخيرة، وكل الأشياء المحددة لصالح أُمسك بها، وإننى، وخادمى إلياس، وخادمتى حسنية، كنا بين السجناء، وعليه سير بنا إلى عبد الرحمن النجومى، إلى الأوردا أو دنقلاً.

"ومن محله أرسلنا إلى خليفة المهدى، عليه السلام، فى أم درمان، وقدمنا له. وقد كنا متأكدين أننا كنا سنقتل، آخذين فى الإعتبار جرمنا العظيم ضده.

"إن خليفة المهدى، عليه السلام، مع ذلك، أشفق على حالتنا، واقترح علينا أن نعتنق العقيدة المحمدية. وقد قبلنا، وصرنا مسلمين بنطق الشهادتين فى حضوره، وبالأخذ علناً بأنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأضفت بعد ذلك إننى أؤمن بالله ورسوله محمد، وبخليفة المهدى. ثم سألناه رحمته وعفوه، ومُنحت لنا. وبناء على ذلك عانقنى، وأسمانى عبدالله. وبعد ذلك قُبلت فى الديانة المحمدية.

"لقد كان بموجب هذه الشروط أن خليفة المهدى، عليه السلام، عفا عنى وأبقى على حياتى، التى كانت مستحقة للعقاب.

"أُجرى هذا لشرف الديانة المحمدية ومجدها.

"ونفيدك إضافةً لهذا أنه بالرغم من أن دفع الله حجل خدعنا، بصرف النظر عن خيانته، إننا لا نستطيع أن نوفى الشكر والمكافأة له، لأن خيانته عادت علينا بالنفع العظيم، وقد سُمح لنا بالتمتع بنعمةٍ عظيمة.

"وأخيراً، نفيدك سراً أن صالح فضل الله سالم فقد كل قوته ونفوذه، وقد لجأ إلى الصحراء. هذه هى الحقيقة. وأكتب ذلك

"السابع عشر من شعبان، ١٣٠٤".



فوزى باشا بالبزة العسكرية

الملحق - ٤

إبراهيم باشا فوزى ـ ضابط غوردون المفضل

عندما بلغ غوردون الخرطوم، فى ١٨٧٤، كان إبراهيم باشا فوزى آنذاك ملازماً ـ ثانياً. وكان غوردون قد تقدم لحاكم عام السودان وقتها، إسماعيل باشا أيوب، بطلب لأن تصحبه أربعة فرق من الجنود إلى المديريات الإستوائية. ولم يكن أيوب راضياً على الإطلاق من مهمة غوردون، فلما استلم طلب غوردون للقوات، إختار أيوب لذلك الغرض أقل رجاله كفاءة وجدوى، لتحقيق هدف مزدوج بالخلاص منهم، وإفشال مهمة غوردون. إن فوزى، متلهفاً ليرى شيئاً من الخدمة، تطوع لإصطحاب غوردون، وعلى ذلك العمل وضعه أيوب تحت الحراسة. ولما سمع غوردون بالأمر ، بعث إلى أيوب مطالباً بأن الضابط الذى كان قد تطوع بخدماته يجب إرساله إليه فى الحال. وبُعث فوزى لرئاسة غوردون، وأول ما سأله غوردون، "هل أنت الضابط الذى تطوع بخدماته؟" وفى إصغاء للسؤال، عندما أجاب فوزى، "نعم سيدى،" الكلمتين الوحيدتين اللتين كان يعرفهما بالإنجليزية، سئل عن سبب تطوعه. ولما علم بأن فوزى كان يرغب فى مشاهدة الخدمة، وعده بأن رغبته سوف تُشبع. "ولكن" أضاف غوردون، "أريد منك أن ترد على كضابط ـ لماذا وضعك الحاكم تحت الحراسة؟" وقدم فوزى الإجابة ـ إن أيوب كان يخشى من أن يكشف غوردون، قبل الرحيل، أنه بُعثت له أسوأ القوات. وبإرجاع الفرق الأربعة، قام بتعيين أربعة فرق وفقاً لإشارة فوزى، ولما كان فوزى يافعاً جداً على تولى القيادة، عيّنه قائداً على حرسه الخاص، ونوعاً مساعد ماجور لتولى شئون القوة الصغيرة.

صاحب فوزى غوردون إلى ألبرت نيانزا، وعاد معه للخرطوم، ورُقى لرتبة ماجور تقديراً لخدماته، وعُين مديراً (حاكماً) على بور، ولكنه مُنح شهران إجازةً قبل أن يتولى أعباء وظيفته. وسافر غوردون لإنجلترا، وجاء فوزى القاهرة لإجازته، وبعد إنقضائها شرع للسفر إلي السودان، ولكنه بوصوله بربر، وجد تلغرافاً فى إنتظاره من غوردون يخبره ألا يذهب أبعد من الخرطوم، لأنه (غوردون) كان عائداً كحاكم عام. ولما وصل غوردون الخرطوم، سمع أن دارفور كانت ثائرة، وأن مديرية بحر الغزال كانت تلتحق بالثوار. عقد مجلس حرب، وسأل غوردون الضباط الحاضرين ليختاروا واحداً منهم يقود حملةً لمديرية بحر الغزال، فى حين يقود هو حملةً أخرى إلى داخل دارفور؛ وتوقعهم جميعاً ليتطوعوا للقيادة، ولكنهم إعتقدوا أن مثل تلك الحملة يشوبها من عناصر الهزيمة والموت أكثر مما تعد به من مجد وتفوق. وبإخطارهم أن عليهم أن يُسمّوا ضابطا، قدّموا إسم فوزى، الذى لم يكن موجوداً، وقبله غوردون فوراً؛ وابتعثه مع ٤٠٠ من القوات والكتبة للإدارة المدنية. وقد نجح فوزى فى تصحيح أمور المديرية بلا قتال، وبينما هو يسافر فى الأنحاء مقوماً من الإدارة فى المقاطعات، كان دائماً ما يقابل، ويُعين بالغذاء والمال، رجلاً منقطعاً للعبادة يعيش وقتها كأحدٍ ناسكٍ فى أبا والجيرة. وكان إسم الرجل محمد أحمد ـ وهو الذى كان العالم سيسمع بعد ست سنوات لاحقة بأنه المهدى.

ولإعتلال فى صحته، أمر غوردون فوزى بالحضور للخرطوم، للراحة، ورقاه إلى رتبة كولونل على التمام، ودعاه حاكم الإستوائية، التى قضى فيها حوالى العام مُطّبقاً لتعليمات غوردون بالحرف، وجالباً عليه عدداً عظيماً من الأعداء وسط المسئولين الذين وضع حداً لإختلاساتهم ومصالحهم فى تجارة الرقيق. ورافق غوردون إلى القاهرة فى ١٨٧٩، وعندما قرر غوردون الإستقالة، سأل فوزى إن كان يود البقاء فى القاهرة أم أنه يفضل العودة للسودان. ورأى فوزى أنه، بدون وجود غوردون كسندٍ له، فسوف يكون توليه للمنصب ذا فترة قصيرة، ما لم يزج بنفسه فى الفساد الإدارى بالمديريات؛ فاختار البقاء فى القاهرة، حيث بناءاً على طلب غوردون، عُين رسمياً كولونل قائداً على الكتيبة الأولى للفرقة الثالثة. ولقد جعل غوردون مؤشراً أن يحضر إستعراض فوزى الأول، مهنيئا له على قيادة رجاله، ومودعاً له، ونفحه ثلاثمائة جنيه ذكرى لأيامهما سوياً فى السودان. وعندما انفجرت هَبّة

عُرابى، أُمر بكتيبة فوزى، مع قوات أخرى تحت قيادة خورشيد باشا، إلى روزيتا، وعقب هزيمة عرابى، في التل الكبير، أُمر، مع عدد من الضباط الآخرين برتبة كولونل، ليسلموا للسير إيفلن وود فى كفر الدوار. وبإرساله إلى الإسكندرية ، تمت محاكمته، وجُرد من رتبته، وطُرد مذموماً من الخدمة .

وقبل أيام من وصول غوردون، فى ١٨٨٤، أرسل صاحب السعادة نوبار باشا والسير إيفلن وود إلى فوزى، وأُخطر بالإستعداد للسير إلى السودان، لأن غوردون طلب خدماته. ولما ذكر فوزى أنه كان قد رُفت، ولم يعد فى قائمة الجيش، أجاب نوبار باشا، "سوف ينظر الجنرال غوردون فى هذا الأمر". ولم تكن نية غوردون أن يتصل بالقاهرة، وكان فوزى سيذهب إلى السويس أو عبر النيل، حسبما يقرر غوردون. ومع ذلك، أُوقف غوردون فى بور سعيد، وطُلب منه الحضور مروراً بالقاهرة؛ ذهب فوزى للمحطة ليقابله، ومترجلاً عن جواده إتجه غوردون نحو ملازمه القديم فى السودان، واستفسره كيف لم يكن لابساً بزته الرسمية. وبَيّن فوزى رفته بتفصيل، وإثر ذلك إلتفت غوردون إلى السير إيفلن وود، وسأله كيف حدث ذلك. وما ظهر هو أن غوردون لما رأى إسم فوزى وسط أسماء الضباط برتبة الكولونل الذين كانوا قيد المحاكمة، أبرق، أو كتب ـ أو الإثنين معاً ـ للسير إيفلن وود، واجياً منه أن يرعى الكولونل إبراهيم فوزى. وقد قام الجنرال وود حقاً بذلك، ولكن كان هناك كولونل آخر يدعى إبراهيم فوزى؛ وفى حين طُرد فوزى غوردون مغضوباً عليه، تقاعد فوزى الآخر في مجدٍ بمعاش.

لاقى غوردون بعض الصعوبة فى إعادة فوزى للخدمة، فقد كان أعداؤه أقوياء؛ ولكنه حتى لا يُحبط، ذهب بفوزى مباشرةً إلى صاحب السمو الخديو، وأفصح عن همه. وبعد يومين، إحتل فوزى مقعده فى المركبة مع غوردون وإستيوارت، وغادر محطة بولاق الدكرور إلى تلك الرحلة التى كان محتوماً أن يعود وحده حياً منها، وذلك بعد أربعة عشر عاماً من الزمان .

فى الطريق إلى الخرطوم ، عين غوردون إستيوارت نائباً لحاكم عام السودان، وفوزى مديراً للحربية والبحرية، وبإيصاله هذه التعيينات للقاهرة، كتب عن فوزى، "إننى أجد على وجه الأخص فى فوزى بيه النشاط المرغوب الذى ظل يعرضه معى لما كنا من قبل فى السودان ؛ وقد قدم الدليل آنفا على قدراته، وإننى راضٍ عنه أكثر من أى وقت مضى" .

وفور وصوله الخرطوم، عهد إلى فوزى بتصفية الثوار من خورشمبات والحلفاية، وإعادة الإتصالات التلغرافية التى قاموا بقطعها. وكسب فوزى إنتصاره المزدوج، وأعاد الخطوط، ولكنه وهو يقود رجاله ضُرب بطلقةٍ في ساقه اليمنى أطلقت عليه من بندقيةٍ لصيد الفيل، فكسرت العظم وهشمته. ونظراً لقلة المهارة من جانب طبيب إغريقى، مُكّن العظم المكسور من الإنطباق، وتكون جرح بخراج من الشظايا غير المتوقعة، مما ألزم فوزى مكان إقامته الرسمية لحوالى ستة أشهر، بالرغم من إنه كان قادراً على مزاولة الجانب التنفيذى من واجباته. وبرحيل إستيوارت، عين غوردون فوزى حاكماً على الخرطوم وقائداً للقوات، ودُعى إلى موكب إستعراض خاص للمناسبة. إن فوزى باشا يجب أن يُترك ليستذكر ، فى تأريخ وقع بعد ذلك، أحداث حصار الخرطوم؛ إننى أصل إلى يوم ٢٥ يناير ، ١٨٨٥ .

قريباً من الساعة الثالثة ظهراً، دعا غوردون فوزى إلى سقف القصر، ليشاهد النشاط الجارى فى معسكر الدراويش. وكان عنده منظار تلسكوبى مكبر مثبت على ثلاثة أرجل على السقف فوق حجرته مباشرة (*).

حوالى ٣,٣٠ لحق فوزى، راكباً على حمار، بغوردون بما يدل على أنها زيارته الأخيرة للخطوط. وكانت معظم القوات منطرحة أرضاً، فى إعياء، وجائعة؛ ولما رأوا غوردون متقدماً، أرادوا أن يُشهروا السلاح، ولكنه ظل منادياً عليهم، إسترح، إسترح؛ ولكن فلتكن عيناك يقظة." وفى المغيب، عادا

للقصر، وسارا صُعوداً وهُبوطاً لبعض الوقت يناقشان الوضع. وعندما اقترب ميعاد الغذاء، أخبر غوردون فوزى أنه أسف لأنه لا يستطيع أن يدعوه للغذاء، لأنه ليس لديه شئ للأكل. وقال فوزى إن لديه، لنفسه وحرسه، لب لأربعة أشجار من النخيل، وسوف يرسل واحداً للقصر، وعلى ذلك جرى غوردون للداخل وأحضر غذاءه ـ وكان لباً لشجرة نخيل. وذلك أخر ما رأى فوزى من غوردون.

فى منتصف الليل، أجرى فوزى باشا، كما هو معتاد تفقده للمواقع فى المدينة، ووصل لحرسه حوالى الساعة ٢ صباحا. وبينما يصرف تعليماته فى ساحة إقامته الرسمية سمع صوت كأنه لطلقات على مسافة. وكان ذلك نحو الفجر .

ذهب فوزى للسقف، وعبر منظاره الميداني، إستبصر فى رؤية شاحبة القتال المشتبك بالأيدى فى الخطوط. وبإسراعه للأسفل، إستجمع رجاله، واتجه نحو القصر، متبوعاً بعشرة أغاريق كانوا معينين للخدمة. وعندما امتد القصر أمام أنظارهم، تصدّت لهم عصبتان من الدراويش، ولكنهم نجحوا فى إقتطاع طريقهم وسط واحدة منهما، ليجدا أنفسهم في مواجهة قوة من خيالة الدراويش. أجبرت الجماعة الصغيرة على التراجع، وهى تقاتل فى كل خطوة، وبقربهم من داره إندفعوا بالداخل، وأغلقوا الأبواب، وشرعوا فى القتال من خلال النوافذ، ولكنهم مقابل كل طلقة يرمونها، يرد عليهم بعشرين. واصطفت الحامية الصغيرة فى الساحة لوقفة أخيرة لأن الدراويش وقتها كانوا يضربون الأبواب. ولحسن الحظ، جذب منظر دراويش آخرين يندفعون بالغنيمة المحاصرين لتولى مهمة مماثلة، وتمكنت الجماعة من التماسك فى مواجهة جماعات متلاحقة حتى بعث المهدى بكلمةٍ لإيقاف المذبحة. ولما أُخذ فوزى للمهدى، سئل، لماذا، وأنت مسلم طيب، لم تكتب لى أبداً فى الوقت الذى كتب فيه كل واحد غيرك، معبرين عن ولائهم؟ هل نسيت أيام أبا، والتوجيه الذى منحتك؟ لو نسيت أنت، فإننى لم أنسى؛ "ومُقّبلاً له، أخبره المهدى بأن "يذهب فى سلام". إن المهدى كان شديد الغضب من مقتل غوردون، لأنه حقيقة أعجب به واحترمه، وأصدر أوامراً صارمة بألا يُلحق به أى أذى.

وبما أن فوزى، خلال أسره، إعتاد على تسلم أموال من القاهرة، كان عليه ليبين قدرته على المعيشة، أن يباشر مهنةً ما، فامتهن حرفة الجير، وهو عمل كلفه أكثر مما كان يخرجه منه. وكمصرى، كان تحت مراقبة يوسف منصور الذى، عقب هروب سلاطين، رفض أن يكون مسئولاً عن فوزى بعده. ولفشله فى إستصدار حكم بإعدامه لمساعدته على هروب سلاطين، نجح فى إصدار إدانة عليه بالساير، حيث بقى فيه سجيناً لأربع سنوات، حتى أُطلق صراحه بواسطة السردار.



أحمد يوسف قنديل

الملحق - ٥

أحمد يوسف قنديل

إن أحمد يوسف قنديل، مع إنه فعلياً موظف مدني، تولى الرتبة فى الخرطوم، حيث ولد، ملازماً فى المدفعية السودانية الثالثة. وقد لعب دوراً فى كثير من الهجمات على الدراويش أثناء الحصار، وحارب مع نجيب بيه فى الليلة التى استُولى فيها على المدينة. واستطاع أن يقاتل فى الطريق لداره، وظل صامداً حتى صدرت تعليمات المهدى لوقف مجزرة السكان، وعندما سلم نفسه. إن والده، وخاله، وأخاه كانوا قد قُتلوا آنفا فى القتال. ولبعض الوقت أعال نفسه فى أم درمان بقطع حطب الوقود، وعاش حياةً على أعتاب الكفاف. ولكونه كاتب جيد، عرض خدماته على ود نجومى الذى فيما يبدو، لا يوظف أحداً إلا إذا كان موظفاً مصرياً قديما فى وظائف الكتبة. وكان مع ود النجومى عندما أُخذت أنا سجيناً إلى دنقلا، ويلقى ضوءاً مثيراً للإهتمام حول مسلك النجومى نحو المهدية، وهو ما يؤيد الإنطباعات التى كونتها آنفاً، والتى أبديتها فى الفصل السادس : "دنقلا إلى أم درمان".

يخبرنى قنديل إنه عند وصول جماعتنا إلى دنقلا، دعا النجومى لإجتماع لكل الأمراء وسأل ماذا يجب إتخاذه نحونا. لقد صوّت الجميع للإعدام الفورى، ولكن النجومى لم يصادق على هذا. وبين الأمراء كان هناك وكيل تعايشى (جاسوس أو عميل لعبد الله) – حيث عُين وكيل مثله فى كل جيش لا يقوده بالفعل واحد من أقارب الخليفة. وإسم هذا الوكيل مساعد قيدوم التعايشى. ولما أصر النجومى على إنقاذ حياتى، وكبديل، إرسالى للخليفة، ليقرر ما يجب عمله نحوى، وجّه قنديل بكتابة رسالة يقول فيها إننى "حكيم" (طبيب)، وإننى قد أكون نافعاً له (النجومى) وكذلك لجيشه. إن قيدوم، بما له من شكوك حول ولاء النجومى للمهدية، إستعمل إستغنائه حياتى كدليل على تعاطفه مع الحكومة، وأُمر النجومى بالحضور لأم درمان، وأُبقى سجيناً فى بيته لبعض الشهور.

تسببت معاملة قيدوم للجيش خلال غياب النجومى كثيراً من السخط حتى إن عبدالله صَمّم على إعادة النجومى لدنقلا، ولكن بتعليمات مشددة ليبدأ فوراً فى السير لفتح مصر. وأُعطى مائة وعشرين بندقية وحسب، وذخيرة قليلة جداً.

ولما أرسل الجنرال قرنفل رسالةً إلى نجومى، يدعوه فيها للإستسلام، دعا النجومى مجلساً للأمراء، وقاد إن الجيش لا يمكن أن يقاتل، لأنهم مرهقين، وجوعى، وعطشى، واقترح الإستسلام، لأنهم إما أن يقتلوا فى الميدان أو يموتوا فى الصحراء فى طريق الإياب. إن الأمراء، وقد كانوا من عائلة التعايشى، إتهموا النجومى أولاً بالجبن ثم بالخيانة. وهددوا بإبلاغ الخليفة عنه حال الإنتصار فى القتال، وأن يطلبوا تسليم القيادة لواحد منهم عندما يؤمر بالتقدم الأبعد داخل مصر. ويتضح فيما عدا الشك اليسير إنه، لولا أمراء التعايشة، لكان الجيش قد سار وراء النجومى بلا سلاح إلى خطوط قوات الحكومة. وقد أملى الأمراء الرد الذى كان على النجومى أن يبعث به للجنرال قرنفل، وعندما إندفع النجومى إلى داخل السهل بينما كان جيش الدراويش متقهقراً، كان من غير المرتاب فيه قيامه بذلك بهدف الوصول إلى خطوط الحكومة، ولكن بذريعة تجميع القوات القليلة المتبقية، حتى لا يقوموا بإسقاطه بالنار إذا اعتقدوا أنه كان يتخلى عنهم - أو اللحاق به لو فكروا أنه كان مُكّراً، لأن هذا كان من شأنه أن يسلط نيران الكتائب عليه. وبعد موت النجومى، بلغ الجواسيس للخليفة أنه كان قد حاول فتح مفاوضات مع قوات الحكومة، ولأن قنديل صار موضع ريبة بإعتباره "كاتب" النجومى، فقد حُمّل أثقالاً بالسلاسل، وأُرسل إلى أم درمان، حيث سُجن لأربعة عشر شهرا، ثم أفرج عنه ليصبح كاتب يعقوب، شقيق عبدالله.

الملحق - ٦

السودان : ماضيه ، وحاضره ، ومستقبله

للجيل الحاضر يمكن أن يُقال إن تأريخ السودان يبدأ بتأريخ فتحه جزئيا بواسطة محمد باشا، والى مصر. والذهاب أبعد من ذلك يعنى أن تؤلف المادة من مصادر متنوعة ، كلها غير دقيقة بشكل أو آخر، كتلةً من المعلومات ، حيثما لم تكن مضللة فإنها تكون أقرب ما تكون إلى عدم الفائدة لدارس التأريخ الذى يُتوقع صحة درسه. وبنفس القدر فإن التأريخ القريب للبلد الغائص فى الجهل قد أُلف من واقع الظروف على مصادر ليست هى الأكثر وثوقاً، وإن من الصعوبة العسيرة الآن أن تُمَحص الحقائق من قصص الماضى. إن السودان لا يزال أرضاً مجهولة وغير مفتوحة. وقد ضُخمت قبائل صغيرة إلى أمم، وضُخم زعماء ومشايخ صغار إلى ملوك وسلاطين بَيّنوا مكانتهم المرتقاه بإمتلاك مزيدٍ يسيرٍ من الخراف، والأغنام، والحمير، والعبيد مما يمتلكه جيرانهم. ما من قبيلة أو شيخ واحد إحتل سيادةً عاملة أبداً على الآخرين؛ وكان الزبير يبعد بمقدار ضربة خاطفة ليجعل نفسه سلطاناً على السودان، عندما قبل دعوةً لزيارة القاهرة؛ ذلك كان قبل خمسة وعشرين عاما، ولا يزال هنا. لم يكن السودان بأى حالٍ أكثر من مجموعة من الدويلات الصغيرة؛ ومن مناسبةٍ لأخرى فإن عدداً من هؤلاء يقر بالولاء لرئيسٍ معين بوجه خاص، وفى مثل تلك الحالات، لربما تتباهى "الأمة" بسكان يكاد كبر عددهم مقارباً لمدينة صغيرة وغير معروفة بمحافظة ما. ولكن حقيقة أن هذه الحالات كانت نادرة تثبته السهولة التى ألّب بها محمد أحمد وعبدالله أقساماً مختلفة من القبائل لتقاتل بعضها بعضاً .

وعندما أنشأ محمد على حكومته، وحاول إسماعيل باشا مؤخراً أن يوسع إمبراطوريته، إستفاد كلاهما من الفوضى المزمنة السائدة فى السودان لمد مشاريعهما، ولكن القبائل ما أسرع ما وجدت أنها ما رفعت قدمها عن إناء الطهى إلا لتطأ به النار، وقد إنتظرت فى صبرٍ للرجل القوى الذى كان سيخلصهم من إستعباد الأتراك المكروهين والمغضوب عليهم الآن، والذين كانوا يأملون فيهم الكثير. ومنذ الوقت الذى أُنشئ فيه ما دعاه السودانيون بحكم " الترك"، حتى ثورة ١٨٨٢، لم يبذل أى شئ أياً كان لتنمية الموارد الطبيعية للقطر - إنما العكس، فى الحقيقة. فالتجارة الوحيدة التى تعهدها المسئولون بالرعاية هى تجارة الرقيق، وكان هؤلاء يؤخذون من مناطق مسالمة وزراعية، على الدوام؛ السكان الذكور البالغين فى مناطق كاملة إنتُزعوا فى هذه الغزوات المنظمة لإمداد أجنحة الحريم فى شبه الجزيرة العربية، والجزائر، ومصر، وتركيا، بالخصيان والسرارى. إن الثروة المعدنية فى سنار، ودارفور وكردفان جهل أمرها، لأن الجنود عندما أدركوا مناجم الذهب، والفضة والنحاس، إكتشفوا أن المعادن الثمينة لا توجد فى السبائك النقية التى كانوا يتوقعون العثور عليها، وإنه إستخراج المعادن يعنى العمل.

إن سكان المديريات التى اكتمل غزو نصفها وحسب نُهبت بأى أسلوب أمكن إستخدامه من محصلى الضرائب، والذين ندر ما دُفعت لهم مرتباتهم، أو إنها لم تُدفع لهم أبداً، وهى تبلغ ما بين خمسة وعشرين إلى ثلاثين شلناً فى الشهر، وكانوا يُعانون فى واجبات تحصيل الضرائب بفرقٍ من الجنود غير النظامية الذين لم تُسدد مرتباتهم أبداً. وحيثما كان المال لا يدر، كانت الضرائب تُجبى عينية، ويمكن تخيل كيف كانت محصلة جبى الضرائب. لقد حُمل الناس بعيداً ونحو الأبعد من الأراضى المزروعة ومجارى المياه. وتُرك "السد"، الذى يعنى نمو الأعشاب المعوقة للملاحة فى النيل وفروعه، ليتراكم عاماً بعد عام، وتُخلى عن عمليات التطهير البسيطة التى كان السكان يقيمونها بأنفسهم فى الماضى، لأنها لم تجئ بخيرٍ سوى إعانتها عبور القوارب الناقلة للجنود لجبى الضرائب أو لحملات غزو المقاطعات.

وإعترافاً، من أجل المجادلة، بأن بعض قبائل السودان ربما تكون قد إرتفعت إلى مصاف

الممالك المستقلة، فإن تأريخهم قد يُكتب بكلمة واحدة - "الفوضى"، ولما أُنشئت حكومة الأتراك، كان العصيان سائداً منذ البداية إلى أن توج بنهوض محمد أحمد.

إن سكان السودان كانوا، ولا يزالون مقسمين إلى ثلاث طبقات كبيرة، (١) العربى الأصيل الذى كان العمل اليدوى مجهولاً لديه منذ اليوم الذى خلط فيه سلفه إسماعيل المؤنة التى ثبت بها أحجار الكعبة أو بيت الله، الذى بناه إبراهيم فى مكة؛ (٢) الزنجى الذى يؤدى أعمالاً خفيفة قليلة، ولكنه استوعب كل سوء فيما عدا الصفات الحسنة القليلة لآبائه، - و، (٣) الأسود - الخامل طبيعياً والأكثر تكاسلاً ليعمل، - دونما طموح، والذى لا تمتد شهوته المفترضة لأكثر من إمتلاك شئ يزيد قليلاً عما يمكنه أكله. ولقرون ظل الأسود عبداً للعربى، وأدى كل العمل اليدوى، مثل جمع الصمغ، وألياف السينا(*)، والمطاط، والعاج، وزراعة الحبوب، والملاحة فى الأنهار؛ ولكن بنظرةٍ شاملةٍ للموضوع، يصح أن يُحسد حظ العبد الأسود من ملايين العمال فى أجزاء أخرى من العالم. وبمقدم حكومة "الترك" أُعتبرت كل الطبقات الثلاثة "فريسة"؛ فكان على العبد المُدّعى كذلك أن يعمل أشق الأعمال حتى يتمكن سيده من إشباع نهم سيده - الموظف المسئول، وكان العبد عليماً بذلك؛ والزنجى ، الذى كان يعتقد فى زراعة قدر كبير من الذرة وحسب فيما كان متطلبا لحاجاته، وجد أنه كان عليه أن يزرع أكثر مما كان ليطعم الجنود المرابطين فى مديريته، وليدفع الضرائب ليس فقط على ما زرعه لنفسه، ولكن لما زرعه مقابل لا شئ للجنود. ما من عجبٍ، إذن، أن الثلاثة إنتظروا مجئ رجلٍ ما قوى ليخلصهم من العدو المشترك.

وبالرغم من أن ثمة عنصراً دينيا قد أُدخل فى حركة محمد أحمد، فشل الكثيرون فى إدراك الحقيقة البادية فى أن الدين هنا يشغل محل السياسة فى أوروبا، وعندما يثور العرب ضد القوى الكائنة، فإنهم يُدعمون بمسألة "دينية"، لأن قوانينهم قائمة بمطلقها على القرآن. لقد ظل محمد أحمد لسنوات يعظ ضد إبتزازات المسئولين الأتراك، ولولا أنها أُلهم بها، ما كان محتملاً أنه سيتولى أبداً دور المهدى رغماً عن أنه كرجل منقطع للعبادة وحسب، يكاد من الجازم أن حملته كانت ستنجح على نفس الصعيد كما نجحت بالفعل. لقد كان القطر ناضجاً للثوران، ولما تَغَلّب أتباع محمد أحمد على أول "تركى" أُرسل لقمعه، والذى كان هو يخطب فى نقده سنيناً، تأكد الفلاح، وطار إليه الآلاف. إن حملته، لذلك، فى مطلعها، ما كانت حركةً دينيةً نقية وبسيطة كما نفهمها نحن كذلك؛ لقد كانت قيامةً لشعب مقهور ضد حكومة لم تحاول إلا مؤخراً أن تقيم سلطتها عليه. وإنه لحق أنه متى صار دور المهدى مصبوباً عليه بذل محمد أحمد أفضل ما عنده ليتصرف وفقاً له، إن معجزاته - المتمثلة فى الطريقة التى أباد بها جيوشاً متلاحقة جُردت عليه كانت حقيقية جداً بالتأكيد، ولو هاجر ألوف إلى لوائه نتيجةً لها، فالواجب ألا ينتقدوا بعنف على ذلك ويتهموا بالتعصب وفقدان العقل والخرافة، لأنهم وهم يهاجرون ليروا صانع هذه المعجزات الواقعة حقاً، كانوا بالضبط مثل آلاف كثيرة من الناس الذين ينتمون إلى منتجات أكثر إستنارةً فى حجهم إلى الكهوف، والأوكار، والمعابد بإعتقاد فى أن المعجزات التى يُصلّون من أجلها ستحقق. ولا يجب كذلك، بإعتبار لأن الإيمان بالأحلام والرؤى يكاد أن يكون من القوة فى الشرق بمثل ما كان عليه عندما فُسرت لفرعونَ أحلامه بواسطة يوسف، أن يُلام محمد أحمد وخليفته لإستفادتهما من تصديق أكثر الناس ميلاً للتصديق على ظهر الأرض بحكايات الرؤى، منذ أن حدث ولوقتٍ ما كان كثيراً هاجر آلاف من الناس فى بلدٍ عالى المدنية إلى أبواب واحدٍ تظاهر بأنه المتحدث على الأرض بإسم الملاك جبرائيل - كائنا أكثر غيبية من النبى محمد أو من المهدى. (٣٥٣)

لو عاش محمد أحمد، ما كان ليوجد شك فى أنه كان سينجح فى تأسيس نوع من الحكومة التى، إن لم ستكن أفضل، فإنها بالتأكيد ما كانت ستكون أسوأ من الحكومة التى أطاح بها. وبموت المهدى، وجد عبدالله نفسه مناطاً بعهدٍ ما كان سيمكنه من الوفاء به، كما رأى لتوه، سوى طغيان

عسكرى شديد البأس. ومُهّدداً بالهجوم من كل نقاط البوصلة، كان مواجهاً كذلك بتمردات داخلية عليه أن يجابهها، بلا هوادة. ومع أن قساوته البالغة إرتكبت كثيراً، فقد كان يتقلب على الدوام فى المكيدة ليحاكم الناس على الخروج عن الطاعة أثناء حكمه بالأحكام العرفية قبل أن يطبق عليهم عقوبة الإعدام؛ ولعله لو وُضعت قساوات عبدالله جنباً إلى جنب مع تلك التى ارتبطت بالثورات فى أقطار أخرى فسوف لا تكون قائمته هى الأطول. لقد كان القهر بلا شك عظيماً، ولكنه مركزاً فى مكان واحد، ولأنه كان يُرى ما يُرى، كان نتيجةً لذلك محسوساً بدرجة أكبر. ومع ذلك ترد آراء يجب أن تقسم مناصفة فى شأن السؤال الخاص ما إذا كان القهر أعظم خلال الأيام الأسوأ فى حكم عبدالله عما كان عليه تحت الحكومة القديمة. إن ما سبق لم يكتب دفاعاً عن محمد أحمد أو عبدالله - وإننى لدى القليل من الأسباب لأذكر كلمة واحدة طيبة للأخير، ولكن الوقت حان لينظر إلى السودان من خلال عدسات صافية. كانت الغيرة من القوة هى خطيئة عبدالله المحفوفة، وإلى هذه يجب أن تعزى العقوبة العجول التى تحيق بهؤلاء الذين بأخف الدرجات عرضوا الخروج عن طاعة أوامره. وإلى هذه الغيرة كذلك يجب أن يضاف إستعلاء سلطته. لقد سمعت منذ إطلاق صراحى من أناس من حى المسلمانية، بعضاً من الأسباب لإبقاء عبدالله على حياتى. إننى نسيت الحادث، ولكننى ذكرت بأنه لدى وصولى أم درمان أُخذت إلى المشانق بالأغلال لأشنق، فالتفّت للأمراء وصحت "أليس لمهديكم (وقد إستعملت هذا الإسم فى ذلك الوقت) طريقة أخرى لإستعراض قوته سوى شنق رجل مقيد أمام كل جنده؟ أنزعوا عنى قيودى، وسأقاتلكم، وإلا فلتنجزوا عملكم". لقد أخبر عبدالله بهذا بينما كنت لا أزال ملعوباً بى فقال، "إن رجلا يتحدث مثل ذاك وهو على حافة المشنقة لرجل حقاً! إنه رجل كبير؛ سوف لا أشنقه؛ إن رجلاً لا يخاف منى يجب ألا يشنق ! لسوف أُبقى عليه". قيل هذا للمسلمانية ولآخرين. ولم يكن عبد الله قد حزم أمره ما إذا كنت تاجراً، جاسوساً، طبيباً أم جنرالاً. ثم ، مرة ثانية، أبقى علىَّ حياً لكى يبرهن على إنه كان أقوى من ملكى (إمبراطور ألمانيا). وقد أُخبرت إنه كثيراً ما قال للناس، "لقد سمعتم عن عبد الله نيوفلد؛ إنه لا يخشانى؛ إن ملكه له ملايين الجنود مثله، ولكنه لا يجرؤ على إحضار جيوشه لإطلاق سبيله؛ إنه خائف من ملاقاة أنصارى".

هنالك قصص أخرى بمن إشارات عبد الله الكثيرة عنى، ولكن، بما أنها تنطوى على المدح، يجب على أن أترك للآخرين ذكرها؛ إن ما ورد بأعلاه مذكور فقط بغرض تقديم نظرة سريعة نحو شخصية الرجل المعقدة، ولتعطى فكرة عن التصرفات الصغيرة التى يمكن أن تؤثر عليه.

ماضى السودان قد يقال إنه أسدل عليه بمعركة أم درمان؛ إن الحاضر قد يوصف بكلمة واحدة - الإنتقال. ومستقبله لا يزال فى طيات القابل؛ ولكن مما كتبته، فإن الذين ينوون الإندفاع نحو السودان حالماً يُعلن فتحه للتجارة، سوف يعلمون أنه لا بد من وجود حكومة مستقرة أولاً . لقد حاز السودان على حكومة واحدة، ليس أكثر، وقد قدمت فكرة عما كانت عليه تلك الحكومة بالنسبة للسكان؛ والحكومة القادمة التى ستقام فيه سوف تطالع، فى حقيقة الأمر، بلحظ العين. وبالبرغم من أن جيش الخليفة سُحق في أم درمان، فما يزال نفوذه باقياً بين أعداد عظيمة، ولابد أن يمنح الوقت للسودانيين ليتعلموا آن هنالك حكومات و حكومات. إن كل ما يعونه الآن، هو أن الحكومة التى تم إبعادها عادت من جديد، وهم لا يتوقعون منها معاملة أحسن مما تلقوا منها آنفاً، إن لم يكونوا متوقعين الأسوأ كعقاب على عصيانهم. إمتلاك العبيد سيُمنع، وسيلحق هذا الإضرار بالعرب، وسوف لا يقدر العبيد أن يتمتعوا بحريتهم أكثر مما تتمتع به العصافير المُطْعمة فى الأقفاص . وهناك قدر معتبر من الجهالة فى أوروبا بموضوع الرق فى الأقطار المحمدية، ولكننى سأحصر نفسى فى السودان بشأن هذه المسألة . إن غزو الرقيق يجب بالطبع أن يُقمع بيدٍ قوية، وإذا ما قُبض على غازٍ، يجب أن يُعامل بإجراءات رسمية أكثر من حشو البنادق أو نصب الحبال؛ إن المحاكمة قد تجرى فىً تأريخٍ ما فى المستقبل، حتى يمكن تدوين حقيقة الإعدام. وإننى آرغب الآن فى الحديث عن أولئك

الذين دُعوا آنفاً عبيداً، "لأنه فى معظم الحالات ما هى إلا إسم، ليس إلا.

لقد ذكرت أن الأسود بطبعه كسول، وسوف لا يؤدى عملاً أكثر من العمل الذى يُغصب عليه؛ فإذا حُرر دون قيد أو شرط، فسوف يتسكع، ويبذل عملاً قليلاً من وقت لآخر من أجل وجبةٍ ما، مالم يجند فى القوات؛ ولكنه سيرفض الإحتفاظ بأى عملٍ يستغرق زمناً طويلاً ما لم يتعرض لضغط، ولن يزداد حبوراً إلا بذلك وحسب. وكعبد، يجب على سيده أن يحفظه بالغذاء والملابس، وأن يعول زوجته كذلك وأطفاله مقابل خدماته، ولكونه"ملكية" فإنه يُرعى رعاية حسنة؛ إنه، كما قلت من قبل، عبد إسماً، ولكن الإسم له وقع قبيح على الأوروبيين. إن الحكومة الجديدة قد تفتح سجلاً للعبيد، وتعين قلة من المفتشين ليجولوا "ويسألوا عن الشكاوى،" وإما أن يحددوا عمراً، أو يسموا تأريخاً ، يكون فيه الإحتفاظ بالعبيد مخالفةً لقانون سيصدر فيما بعد. والإتفاقيات كلها حسنة جداً عندما تتناول بلاداً تتباهى بحكومات متمدينة، ولكنها ليست بأمر ساهل لتفرض على الشياخات الصغيرة فى قلب إفريقيا الموافقة على قوانين تصيب بالإضطراب كل الإقتصاد السياسى لولاياتهم – وذلك لإرضاء أناس لا يعلموا شيئاً عن الأحوال الموجودة، لا لشئ آخر. وأياً ما كانت الحالة عليه، فالمسألة بكليتها شائكة بالصعوبات وبالمجادلات قادحةً أم مادحةً كانت، مما يجعل الأمور باقية على ما هى عليه – فيما عدا قمع الغزو كما ألمحت مسبقاً – ولكن بما أن هذه الصعوبات توجد بالفعل، فسيكون من الأحسن ألا تدفع، أو تثقل القطر وهو لا يزال غير مفتوح ولا مستقر بقوانين ثورية . الأفضل كثيراً من ذلك أن يبطأ بالعجلة، لأن القوانين لها نفع تليل مالم تعاقب مخالفتها بسرعة، وإن عرب السودان يجب أن يُعَلموا بعد على إحترام قوانين تنبعث من "حكومة".

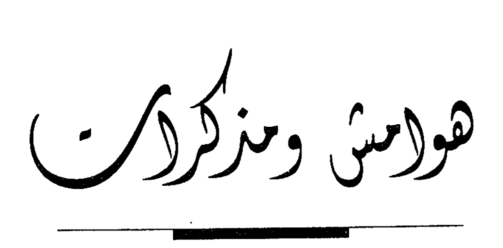
هذه الملاحظات القليلة على الوضع غير المستقر فى البلد تستقصد آولئك الذين قد يخرجون إلى السودان كغرباء على وجه الإجمال. إنهم لابد أن يكونوا مهيأين لمقابلة صعوبات عظيمة أو بسيطة، وخيبة الأمل، والكثير من عدم الراحة، ومضايقات عديدة كبيرة وصغيرة؛ ولكن يجب أن يُؤَمل أنهم سوف يتحملونها لوقتٍ ما، وألا يزعجوا الإدارة الجديدة الصغيرة التى لازالت قيد التكوين بشكاوى ضخمة حول مشاحنات أو متاعب تافهة. إن أى أعمال ثأرية تطلب فى حالة المضايقات الصغيرة أو الأعمال غير السارة، لن تستجلب سوى المشاحنات الأكبر فى أعقابها؛ إنك لا تريد شيئاً غير أن تكتسب احترام كل من العربى والسودانى لكى تكتسب محبته، ولعلك تغنم الإثنين عن طريق معاملة الواحد كرجل وليس كحيوان. وعند الحديث عن إننى استدنت مالاً من المرشدين الذين عهدت إليهم بالتدابير التى اتُخذت لهروبى، فإننى أجذب الانتباه إلى الحقيقة الغريبة المتعلقة باستدانتى مالاً منهم . كان ذلك تطبيقاً للقاعدة التى أشرت إليها؛ لقد احتجت إلى عونهم . وقد قطعت شوطاً أبعد، وقدمتِ البّينة على إننى كنت تماماً فى قبضة أيديهم– عاجزاً، ولكنهم كانوا يفهمون أنهم إذا أعانونى على ضعفى، فسوف أساعدهم أو آقوم بحمايتهم فى قوتى، وفوق كل شئ، ثمنوا ثقتى وإسرارى لهم. هنالك حدود، أعلم ، للإثنين، ولكنك يجب أن تتعلم تلك الحدود.

حاجة السودان الأكبر فى الوقت الراهن هى وسائل المواصلات؛ فهناك مساحات شاسعة من الأرض يمكن أن تنمى فيها زراعة الحبوب بأقل تكلفة وعمل، ولكن بدون وسائل للنقل لربما لا توجد كما ينبغى. وقد جرى تداول لحديث عن خط حديدى يربط الخرطوم بالبحر الأحمر، وهو بالتأكيد، ما سوف يوفر وسيلة للنقل ويمّكن السودان من أن ينافس تقريباً مع أى قطر آخر فى الحبوب، ولكنه سؤال عما إن كان الأمر مما يستحق لتشييد سكة حديدية من أجل تجارة الحبوب، إذا كانت الناقلات التى تأخذه للناقل البحرى ستجرجر أطرافها قافلة وهى خاوية، وربما، تُترك بلا عمل لمعظم السنة. ممكن أنه أثناء السنوات الخمسين الأخيرة أصلحت الطبيعة الخراب الهائل الذى ألحق بأشجار المطاط والصمغ، عندما دُمرت المزروعات والأشجار كى يُحصل على محصول كاف لإرضاء نهم المسئولين" الأتراك " إن الغابات وافرة بالأبنوس وغيره من الأخشاب الصلبة، ولكن الطاقة اللازمة

لقطعهم إلى أعمدة أو ألواح ذات أبعاد مناسبة للنقل مطلوبة قبل أن تُطور هذه الصناعة القيمة. ومما قاله لى السجناء القادمين من الجنوب، يوجد فى أماكن حديد كأنه نقى فى أو بالقرب من السطح؛ إن هذا يصهره الشلك والدنكا فى أفران طينية حوالى ستة إلى ثمانية أقدام فى الإرتفاع وثلاثة إلى أربعة فى المحيط. إن رؤوس الحراب للشلك والدنكا، إضافةً إلى أن شكلها مختلف عن الآخرين، مميزة على الفور من ظلهم الأسود العميق بوجه غريب، بينما رؤوس الحراب المصنوعة من حديد مستورد يخف فى ظلال كثيرة، وبالمقارنة، ذات مظهر رقيق عندما يتم تلميعها. وإذا عُثر على الفحم، وإعتقد أنه سيوجد، فإذا كان الوصف الذى أُعطيته بوجود "حجارة سوداء" تشعل النار صحيحاً، فإن الواحد حينئذ ربما يقول إنه ليس هناك جد لتنمية البلد. فإذا طهر النيل وفروعه من " السد" فإن تنميةً ذات إعتبار سوف تصير ممكنة فى الحال، ولكن يجب دراسة القطر كله أولاً، بحالته الحاضرة بما فيها من وسائل للنقل مستوعبة فى إتقان، قبل أن يجد قوم مبرراً للمشاركة فى أعمال كبيرة، لأن فشل واحد منها يعنى فشل الآخرين، والتراجع بسبب الإفتقاد إلى رأس المال الجديد، فى إمكانيات حاضرة على طريق التنمية.

من غير الممكن تماماً أن تُستجمع أى إحصاءات عن الواردات والصادرات فى تجارة السودان السابقة، أى إحصاءات يُعتمد عليها، وبما أن كل تجارة القطر كانت محكومة بتجارة الرقيق – الملغاة الإن – فقد أُدخلت حالة جديدة من الأشياء، ولكنها لم تقام بعد. إن التقايض يجب، ولوقت قادم، أن يكون الوسيط للتجارة والتبادل، وهنا، مرة أخرى، فإن أحوالاً جديدة من الجازم مواجهتها. في السابق كانت الواردات الرئيسة هى البضائع القطنية الرخيصة، والأوانى الترابية، والأوانى الحديدية والمؤن المجففة والمحفوظة، السكر، والعطور، وما إلى ذلك وهو ما يقع عموماً فى صنف الأشياء "الرخيصة والقذرة" وهنالك سببان عظيمان لما يجب تغيير كل ذلك الآن؛ فما يقرب من ٢٠,٠٠٠ قوات بمرتبات منتظمة فى البلد، وقوات، كذلك، كانت تعيش، بمعيار ما، فى لعق البذخ، منذ ١٨٨٢، لابد من تلبية إحتياجاتهم. إن منظر قوات، حسنة التغذية، حسنة السكّن، وحسنة الملبس سوف تثير إعجاب السودانيين وشهيتهم لأنواع مماثلة من الترف، وإن الطلب على حاجيات غير معروفة لهم من قبل سيُستَثار فى الحال. إننى أتردد دون تحديد بعض السلع التى أعرف أن الطلب سيشتد عليها، ليس لأنى لى مصلحة فى الوقت الحاضر بأى شكل في الموضوع، ولكن لأُحّذر من قيام أعداد من الناس بتصدير كميات كبيرة من السلع التجارية من نفس النوعية التى تزيد على حاجة الطلب الفعلى. ولا أستطيع أن أُسدى النصح بقوة للمنتجين الصناعيين لإجراء دراسة حالية لوضع أعينهم على متطلبات الناس، وأن يُلَبوا متطلباتهم، أياً ما كانت السلعة مرغوبة. إن خيبة الأمل والخسارة تكون هى العاقبة فى حالة واحدة هى محاولة فرض سلع لا يرغبون فيها، أو لا تلبى إحتياجاتهم المطلوبة، ذلك لأنه فى الوقت الذى تمارس فيه هذه السياسة الإنتحارية، سيكون إنسان آخر بالتأكيد مُكباً على دراسة المسألة بقصد تلبية رغبات عملائه القادمين. إننى أشجب بقوة تكوين سنديكاليات(*) وشركات كبيرة لإستغلال السودان؛ إن البلد، بضمان تسهيلات معينة فى النقل، لها مستقبل عظيم ، ولكن سيكون من غير الحكمة فى شئ أن توصد رؤوس الأموال الكبيرة، حيث يظل قسطها الأعظم قائماً دون إستخدام. إن الشركات الصغيرة، مع كل رأس المال المستثمر، سيعود بعائد أفضل فى الوقت الحاضر، وقد يرافق رواد مثل هذه الشركات إختصاصى فى المعادن ليفحص الذهب، والفضة، والنحاس، والرصاص، ومترسبات لمعادن أخرى. إن كون الذهب موجود، أمر معلوم جداً، ولكن مدى غنى المعدن لا يسعنى الحديث عنه؛ شئ واحد مع ذلك، مستيقن، وهو أن الذهب يمكن أن يُحصل عليه بقليلٍ من الصعوبة، أو بدونها، وبالعمل وإلا فإن الحقائب الصغيرة التى شاهدتها فى الخرطوم وأم درمانَ ما كان ممكناً إحضارها. إن الرصاص والنحاس سيُعثر عليها إلى الغرب والجنوب الغربى لدارفور – ومحتمل إيجاد الفضة كذلك، ولكن تغطيتها لتكلفة العمل والتعدين لا يمكن تأكيده إلا بعد إختبارٍ للمناطق.

للتلخيص. إن السودان قطر ظل يقاتل لما يقارب القرن ضد إقامة أى حكومة أجنبية؛ إن ما خبره من إدارة "خيّرة" لهو من أسوأ ما يكون؛ لقد أغرق السكان كل اختلافاتهم بينهم، أو ما يماثل ذلك، عندما نهضوا لطرد الأتراك المكروهين؛ وما خبره من مسيحيين لم يكن فيما هو واضح بين الأحسن، وإلا لماذا القول بشأن غوردون؟ إن أعداد كبيرة لا تزال موالية للخليفة عبد الله، ولسوف يتطلب الحال غلطة هينة لتجعل السكان يهاجرون إلى رايته، أو، ما هو أسوأ من ذلك، إنهم سيتقاعدون إلى الغرب ويتركون البلد مجرداً من السكان الذين يقف فى أشد الحاجة إليهم. الغرباء غير مطلوبين - لسوف يطالعون بالريبة حتى يُبرزوا من الأدلة مقاصدهم النزيهة نحو القروين؛ والتجار، قبل أن يبحثوا عن النجاح، يجب آن يتغلبوا على تحيز الشعب ضد التجار الأوروبيين، وهو تحيز مبني على تجربتهم السابقة معهم. ومن الضرورى لى أن أقول إنه، بعد خبرتى الراهنة، سيأخذ الأمر زمناً قبل أن يؤمن المسلم بأن الدين المسيحى هو أى شئ عدا ما يعتقده هو فيه، وأن يقتنع أن السيادة المتباهى بها للأوروبى على العربى ليست بصالحة فى السودان فى كل الأحوال. فإذا وضع الذين يذهبون إلى السودان هذه النقاط فى الذاكرة؛ فإنهم سيجّنبون أنفسهم ومن هو غيرهم ما لا حد له من المتاعب، وسيحاط بكل المعوقات، إذا تذكروا دائماً السمعة التى صنعها غوردون لنفسه "بالطيبة والعدل،" وجعلوا الطيبة والعدل شعارهم.


هوامش ومذكرات

ص٥١ (*) إن السودانيين، وكل الشرقيين في الحقيقة، يرتعبون كل الرعب من "العين الشريرة؛" وعيون الأوروبيين الرمادية أو الرمادية - الزرقاء في حالة الغضب، أو في حالة النظر الثابت، بنفس القدر، وكما علمت ذلك لاحقاً، تسبب الخوف، إن لم يكن الرعب، في قلوب معظمهم.

ص٥٨ (*) يقصد الخليفة عبدالله - (شرح المترجم).

ص٥٩ (*) إبن إسحق النبى من زوجته ربيكا، شقيق يوسف النبى عليه وعلى أنبياء الله السلام - (شرح المترجم).

ص٦٦ (*) الإشارة إلى المرأة الأمازونية تضمنتها نظريات الأنثروبولوجيا الثقافية في القرن التاسع عشر؛ وترمز المرأة الأمازونية إلى مرحلة إعتُقد أنها تميزت عبر تطور المجتمع بسيطرة المرأة على مجمل الحياة الإجتماعية - وربما قصد المؤلف "الحكامة" التى تثير حماس الرجال (شرح المترجم).

ص٧٨ (*) يقتضى "الراتب" ثلاثة أرباع الساعة ذكراً، وهو، حسب تعاليم المهدى، يجب ترديده يومياً من كل واحد بعد صلاتى الصبح والظهر؛ وتبلغ مرتبته فى الأهمية مبلغ الصلوات الخمسة الإلزامية التى يفرضها القرآن. وكان ينظر إليه على أنه نوع من الحجاب، وقد صُرف، بعد معارك مثل توشكى، جنيس، وعطبرة، أن الذين قُتلوا هم الذين لم يتعلموا الراتب أو لم تكن لهم نسخة منه. وكان الكتاب يُحمل فى حقيبة جلدية صغيرة تعلق فى الرقبة. وطُبعت نسخ منه فى المطبعة الحكومية القديمة، ولكن كان يعد أكثر فضيلة أن تكتب نسخة لا أن تشترى، وكان المهدى يؤمل بذلك الراتب أن يصير فى النهاية نوعاً من القرآن مصحوبا بمجلدات "تقاليده"، ومن ثم تلهفه على أن يتعلم كل واحد الكتابة.

تعليق: مخطىء نيوفلد في إشارته إلى محتويات الراتب من القرآن الكريم "كنوع منه". فالقرآن واحد ليس منه أنواع - (المترجم).

ص٨٢ (*) النبى الخضر شخصية غيبية فى الإسلام. وتنقسم الطوائف ما إذا كان نبياً أم لا. ولا يظهر إسمه فى القرآن. وتبعاً لبعض الكتاب القدامى كان رفيقاً لنوح، وإبراهيم، وموسى. ولأنه شرب من مياه نافورة الحياة، يعتقد أنه موجود دائماً فى أحد الأماكن المقدسة فى رأى البعض. وأحواله بالضبط وما ينسب له لم يحدد مطلقاً. لقد قتل المهدى عصفورين بحجر واحد عندما امتلك هذا النبى الذى لا يَدّعيه أحد لنفسه؛ أولا، جعل حضوره المفترض أم درمان مكانا مقدسا لأن النبى لا يظهر إلا فى الأماكن المقدسة، ثم بإسناد قدرات إليه مثل التى يذكرها إدريس الساير، كان متمكناً من التأثير على أكثر أتباعه جهلاً - الخليفة - بالحضور والعلم الدائم من خلال وكالته للنبى خضر. إن المهدى بإدعائه لهذا النبى ونسبته إليه القدرات التى تملكها، أدخل فى عقول حمد النيل وآخرين شكوكهم الأُولى فى المهدى ورسالته.

ص٨٨ (*) السباق حول الجوال أو بإستعماله يقصد بها ما كان يمارس قديماً فى أريافٍ ما - (شرح المترجم).

ص٩٠ (*) المركورى - إله من آلهة الإغريق القدماء - (شرح المترجم).

ص٩٠ (*) دُعيت هذه البئر "بئر الأمراء". ولما أُمر ببنائها وجه الخليفة إدريس الساير بتشغيل كل السجناء الأعيان، لأن العمل مفيد لهم. وتكون جماعتى من إبراهيم ود عدلان، عجيب أبوجن، محمد ود بصير، محمد أبوسن، عبدالله أبوسن، على ود الحد، أحمد عبد الماجد، محمود ود سعيد، حسن أم براك، والشريف خليل - أرستقراطية السودان، إن جاز لى القول. عملنا القليل أو لم نعمل شيئا بأنفسنا، ودفعنا للرقيق السجين ليعمل عنا؛ ولكن كلما يظهر إدريس الساير، يجدنا مشغولين كلنا. وعندما نقل لنا أوامر الخليفة، ألمح إدريس أنه من النصيح لنا أن نشترك لندفع أجر العمل، وسوف يرعى هو المال. وحسب نصيحة ود عدلان، قلنا إننا نود القيام ببعض العمل لنظل مشغولين حباً فى الفكرة، فقد كان عدلان مُلماً بأن إدريس سيحتفظ بالمال ويحملنا على العمل كذلك، وإلا دفعنا ثانية لفوج آخر من الرقيق.

ص٨٩ (*) بقراءة ما ورد أعلاه للأب أوهرولدر، وسؤاله إن كان يعرف آخرين ممن أعانونى بالطعام بينما كنت فى السجن،. إعترض أولاً على إعطائى أى شكرٍ له على ما قام به، قائلاً إنه ما قام إلا بشىءٍ من واجبه نحوى، وتلبيةً لرغبته، أُمسك عن تفصيل إحسانه لى. ثم عَبّر عن دهشته أن إسم سلاطين لم يبرز بين من أحسنوا لى، وإننى الآن فقط أسمع من الأب أهرولدر عن المخاطر التى تَعّرض لها سلاطين فى محاولته عونى. وفيما يمكن فهمه جيداً، فهذا موضوع يصعب فيه، فى الوقت الراهن، أن اقترب من سلاطين، لأنه عملياً كم من الدولارات تساوى شكره على ما أسداه لى من معروف.

لدى وصولى أم درمان، كان معتقداً من الخليفة، وآخرين، إننى كنت شقيق سلاطين، وإننى إتجهت نحو ديار الشيخ صالح بفكرة تنظيم حملة لمهاجمة الخليفة وإطلاق صراح سلاطين؛ ونتيجة لذلك، رمق الأخير بمزيد من الريبة من أى وقت مضى، ومع أن موقفى كان سيئا، كما كان بالفعل عليه، كان موقفه أو حاله، بنفس المعيار، ربما أسوأ. إن القوم فى أم درمان - خادمى وحلاق السجن بالذات - حاسبين مركز سلاطين متعة، ما كان لديهم خوف أو أسف من إبتزازه، يوماً بعد يوم، من بعد مساهمته الأولى لإعاشتى، لمزيد من المال والطعام، وفى كل حالة كان يُسأل عن ذلك بإسمى. ولا شك أن آخرين حذوا حذوهما، ولابد أن سلاطين المسكين، على ما كان عليه، آنذاك، نُهب يمنة ويسرى، وكان بلا قوة ليعاقبهم لأنه لو حاول ذلك لوضع رأسه على شنكل لعصيانه أوامر الخليفة القاضية بألا يتحدث إلىَّ أبداً، ولا يعقد أى تعامل معى، فيما كان ناهبوه آمنين تماماً أنه سيكون ذلك حاله لو اكتشف خديعتهم له. إنه أقل ما أقوم به هنا أن أدون الأمر موصولاً بتجربتى وأن أترك سلاطين منتظراً طبع هذا ليعلم إننى أبعث تشكراتى القلبية له، بينما،

في نفس الآن، سيعلم العالم مما مضى المصاعب التى أحاطت بموقع سلاطين من الخليفة، بصورة أوضح.

ص٩٤ (*) كان هذا التعبير يستخدم دائماً من الخليفة في أى مناقشة، فيقول رافعاً إصبعه الأول (ترجمةً للعبارة): "حتى لا يصير هذا الإصبع شريكاً في حكم ملكى، واجب علىّ قطعه."

ص٩٥ (*) المرمدون، في الأساطير الإغريقية هم مقاتلوا أخيل في حرب طروادة، يفعلون ما يؤمروا به، بلاسؤال - (شرح المترجم).

ص١٠٠ (*) يقصد ربما العيلفون - (شرح المترجم).

ص١١١ (*) إشهاد لطلب خاص من موسى داؤود العبادى (عبابدة)، بهذا أن المذكور آنفا في ٢٢ أكتوبر، ١٨٨٩، أحضر للقنصلية الإمبراطورية خطابا معنونا إلى ويليام مولر، أسوان، وقال إنه من شارلس نيوفلد. إن هذا يشهد أيضاً بأن الرسالة المذكورة للسيد مولر أُرسلت إلى والد السيد نيوفلد، ولكن إلى الآن لم تستلم أى أموال فى شأنها. توقيع، بيكر".

وقد نسخت الرسالة نفسها لسجلات القنصلية ج، ٤٨، ص ٣٨٥، وفيما يلى ترجمة لها: - ويليام مولر، أسوان. لثلاثة أيام مضت أرسلت لك محمد على برسالة وإيصال بمبلغ ١٠٠ جنيه. لا تقيم أى جوائل دون الدفع، وأعطه من المال الكثير ما تستطيعه وفقا للخطاب الذى بعثته لك. إنه رجل يعتمد عليه، وأرجو أن يكون الصلة بينى وبينك بعد هذا، وسيكون لذلك مكافأة. لقد إتفقت معه أنه سيستلم ٢٥ بالمائة من المبلغ الذى ستدفعه نظير خدمته. ومع الرجل الآخر المذكور فى رسالته والمذكور هنا، يمكنك التصرف كيفما شئت، ولكن لا تنصب أمامك صعوبات. إننى آمل أن أستطيع شراء حريتى بعد عودته، ومن ثم فسوف تكافأ كل التكاليف. إننى أرسلت لك حتى الآن."... حذفت القنصلية من السجل أسماء المرشدين، وتركت المساحة خالية. والنسخة المشهود بها من هذه الرسالة تذكر كذلك أن الرسالة تضمنت حروفاً لاتينية معينة لم تفض شفرتها؛ وهى، ثانيةً كانت "شفرة الثقة" التى استخدمها أنا لمدير أعمالى، مؤكدة بالرهان مصداقية رسالاتى وضامنة لمحتوياتها. وفى ظهر الخطاب كان مكتوباً، أدفع لموسى داؤود القنجه مبلغ ٣٠ جنيه، المستلم. التأريخ ٥ ديسمبر، ١٨٨٨."

ص١١٢ (*) الخليفة عبدالله - (شرح المترجم).

ص١١٤ (*) مادة ملحية تستعمل في صناعة البارود - (شرح المترجم).

ص١١٧ (*) أى فى ١٨٨٩، تأريخ نشر الكتاب - (شرح المترجم).

ص١٢٦ (*) وُجدت هذه الرسالة فى أعقاب سقوط أم درمان، ووقعت فى أيدى قوي، لإحتمال أنهم على محتوياتها المختلفة عن تلك التى قدمها سلاطين بعد هروبه، نشروها بشكل يقود الناس للإعتقاد بأن إعلانات الولاء التى تتضمنها كانت مخلصة. وفى رائى أن الرسالة

يجب مطالعتها كإنشاء ذكى لإستغفال الخليفة، وذلك، فى حالة ما أعيد سلاطين، فإن إعلان الولاء على الأقل ينقذه من أيدى زبانية الخليفة أو جلاده

ص١٣١ (*) الصفر brass معدن مزيج من النحاس والزنك – (شرح المترجم).

ص١٣٦ (*) كان هذا المنصور ضابطاً سابقاً في الجيش المصرى، وقد سلم بحاميته فى الأبيض. وبعد هذا الإستسلام، خطط محمود سعيد باشا – حاكم المدينة –، مع الضباط القدامى والفرق السوداء للقبض على أسلحتهم، وفق إشارة معينة، والإنقلاب على المهديين. إن منصور، وهو واحد من مرؤوسى سعيد سابقاً، كان مشاركاً فى المخطط، يعتقد أنه خانهم للمهدى، فقد أرسل سعيد وأتباعه الرئيسين خارج المعسكر، ثم قضى عليهم بهدوء؛ ولكن منصور أصبح مفضلاً لدى المهدى، وقاد مدفعيته فى معركة أم درمان. ويقال أن الأسرى المسيحيين كان يتم ختانهم بناء على تشخيصاته. ويقال أيضاً أن سجن فوزى مما أوصى هو به، وذلك لمنع فوزى فى حالة تقدم قوات الحكومة، من الإنضمام لها. ومع ذلك فالمشاع أن منصور جاء إلى القاهرة ليطالب بمرتبه الماضى ومعاشه من الحكومة المصرية.

ص١٤٢ (*) زحفت أخطاء قليلة إلى التقرير الذى رفع لإيرل كمبرلى فى أبريل، ١٨٩٥، بعد هروب سلاطين.

فى صفحة ٤ ذكر أن كنيسة البعثة النمساوية فى الخرطوم إستغلت كورش لترميم الترسانة. إن الكنيسة لم تستعمل قط لمثل ذلك الغرض. والعرض الذى قدمته بشأن الغرض الذى وضعت له هو الصحيح.

فى صفحة ٧ ذكر "إن نيوفلد إبتدر المصفاة الأولى للبلورات الملحية فى الخرطوم؛. هذه قد تكون صحيحة أم غير صحيحة، ولكنها مضللة للغاية. إن تنقية السلبتر للخليفة كانت صناعة كبيرة فى دارفور والمناطق المحيطة بأم درمان والخرطوم ردحاً طويلاً قبل أن يكون لى أى شأن بها. والسرد الذى قدمته حول الكيفية التى أصبحت بها موصولاً بهذه الصناعة يعتمد عليه كسرد صحيح، بينما لا يزال هناك شهود أحياء كثيرين، بصرف النظر عن كمية السلبتر خاصتى الذى لا يزال موجوداً، ليبرهن على أننى متعمداً منعت "تنقية السلبتر" طالما كان فى قوتى مقدرة على ذلك.

وفى الفقرة التالية للتى ترد نصاً، مبّين أن مصنع البارود كان فى الحلفاية. إنه لم يكن بها أبداً. لقد كان فى أم درمان أولاً، وبعد الإنفجار، حُرك تدريجياً إلى جزيرة توتى. ولم يكن النقل قد إكتمل عندما غادرت أنا الخرطوم للساير فى نوفمبر، ١٨٩٧.

وفى صفحة ١٠، متحدثاً عن النقود فى التداول، قيل، "إن هذا النقص فى القيمة الجوهرية للمال مؤشر مثير للإهتمام لتهاوى قوة الدراويش وحكومتهم". إن الإستنتاج الذى يجب الخلوص إليه من سردى بشأن إنخفاض سعرها أو قيمتها هو على وجه التحديد عكس ذلك، ولكنه هو الإستنتاج السليم الذى يتأتى الوصول إليه.

ص١٥٠ (*) يقصد الخديو عباس – (شرح المترجم).

ص١٥٩ (*) كان لطيران القنابل فوق الرؤوس أكثر تأثير غريب؛ فقد بدا أنها تكبس الجو وتضغطه للأسفل نحو الأرض؛ إننا أمكننا أن نشعر بالضغط على أبداننا، وبالنسبة للبعض أصابتهم بالغثيان.

ص١٧٣ (*) بالنسخة الإنجليزية موضع الترجمة - (شرح المترجم).

ص١٩٤ (*) هذه ترجمة حرفية. وما أراد أورفالى قوله هو إنه عند إرسال البرقيات للخطوط، كان بهنساوى بيه، الذى كان فى حينها يباشر الواجب، فى موقعه، ورد على الإستفسارات التى بعثت بالتلغراف. وكانت المسافة ما بين القصر ونقطة بهنساوى حوالى ميلين ونصف ميل .

ص١٩٥ (*) أى أنه سقط ميتاً أو جريحاً.

ص١٩٩ (*) لقد كُرر القول أن غوردون كان له مدفع فى سقف القصر، إعتاد أن يقصف به معسكر الدراويش. وفى إحدى عروض سقوط الخرطوم، ذكر فى جَزْم أن غوردون، بلباس نومه، إستخدم مدفعه ساعة حتى جُعل بلا فائدة، لأنه ما كان ممكناً ضغطه بما يكفى للحمل على الدراويش المحاصرين للقصر. ولم يكن هناك أبداً مدفع على سقف القصر، لأن السقف لم يكن ليتحمل وزنه المميت، فضلا عن هزة إرتداده فى كل إطلاق.

ص٢٠٤ (*) السينا، ألياف من الشجر تستعمل للأغراض الطبية - (شرح المترجم).

ص٢٠٧ (*) مجموعة شركات أو أشخاص يملكون الأموال لمشروع يستثمرونه - (شرح المترجم).

إنتهى الكتاب بحمد الله سبحانه وتعالى

المترجم